

دِيَوَان

سَيِّدُ عَمْرٍو
نَزِيدُكَ

إِعْدَاد
سَيِّدُ عَبْدِ الْمَاجِدِ الْغُورِيِّ

الجزء الأول

دَارُ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ

(دِمَشْق — بَيْرُوت)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِلَهْدَاءِ

إِلَى رَأْدِ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ

الْعَلَّامَةِ أَبِي أَحْسَنَ عَلِيٍّ أَحْسَنِي النَّدَوِيِّ

(رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى)

الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ فَضْلٌ كَبِيرٌ فِي تَعْرِيفِ

مُحَمَّدٍ أَقْبَالَ

بَيْنَ الْعَرَبِ خِلَالَ كِتَابَاتِهِ وَمُحَاضَرَاتِهِ

كَشَاعِرِهِ عَقِيدَةً وَدَعْوَةً وَرِسَالَةً

وَكُمُفَكِّرٍ عَاشَ بِالإِسْلَامِ وَلَهُ

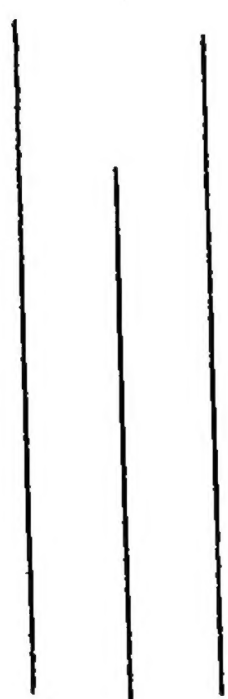
مُنَوَّهًا بِمَا كَانَ لَهُ فِي الْمَاضِي، وَمَتَأَلِّمًا بِمَا آلَ إِلَيْهِ فِي الْحَاضِرِ

وَكَدَائِعِيَّةٍ إِلَى الْمَجْدِ الْإِسْلَامِيِّ، وَسَيَادَةِ الْمُسْلِمِ

وَكَأَعْظَمِ ثَائِرٍ عَلَى هَذِهِ الْحَضَارَةِ الْغَرِيبَةِ الْمَادِيَّةِ

وَأَكْبَرَ نَاقِدِيهَا وَحَاقِدِيهَا.

عبد الماجد الغوري



دِيَوَان

مَجْلَدِ اَقْبَالِ
نَوَافِلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثالثة

1428 هـ - 2007 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرني والمسموع والحسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار ابن كثير

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : أدب - الشعر

العنوان : ديوان محمد إقبال 2/1

الإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 1112

القياس : 24×17

نوع التجليد : كرتونية

الوزن : 2 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق - حلب - وني - جادة ابن سينا - بناء الجاهي

ص.ب : 311 - هاتف : 2225877 - 2228450 - فاكس : 2243502

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 - تليفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



مقدمة الديوان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد : فقد خدمت شبه القارة الهندية الإنسان والعلم والحكمة والمعرفة والفلسفة والأدب والفن طول التاريخ ، وأنجبت من الأمم والحضارات والناس والرجال والأعلام ما يكاد يعجز العد والإحصاء والحصر عن الإحاطة به .

وكانت البداية المعروفة للشعر الأردوني في هذه البلاد منذ سنة ١٤٥٠م ، وقد برز واشتهر خلال تلك الفترات الطوال مئات الشعراء ، أعرض هنا أسماء بعضهم على سبيل المثال ، ومن أشهرهم : ميرزا أسد الله غالب أحد أكبر شعراء الأردوية ، وله دواوين مطبوعة بالفارسية والأردوية ، والنواب ميرزا خان داغ ، أحد فحول شعراء الأردوية ، كان أستاذاً للنظام السادس « محبوب علي خان آصفجاه » أمير حيدرآباد (دكن) ، نال عدة ألقاب من الدولة ، وله دواوين مطبوعة ، وغيرهما هناك شعراء مشهورون كأنيس ، ودبير ، وحالي ، وأكبر إله آبادي ، وأمجد الحيدراًبادي ، وهؤلاء الشعراء الذين يُعدُّ شعرهم بالأدب الأردوني حجة ، ويُستشهد بها فيه . فهناك من هؤلاء الشعراء المذكورين مثل : داغ ، وأنيس ، ودبير ، قالوا مرثيات تحتوي على خمسمئة مسدس ، أو ستمئة مسدس ، وكلُّ مسدس يحتوي على ثلاثة أبيات ، واللغة الأردوية بعد هذا لغة استوعبت كلَّ المعاني والأوصاف الجميلة ، وعلم الفلسفة والتصوف ، وقيل فيها شعر المراثي والتشبيب والغزل ، كما ألف بها القصص والروايات ، وقد ظهر من أدباء هذه اللغة رجال فحول ، أمثال : محمد حسين آزاد ، والعلامة شبلي النعماني ، وعبد الحلیم شرز ، ومولانا أبي الكلام آزاد ، وأحمد علي أمزتسري ، ونيّاز فتحفوري ، والأستاذ اختر علي ، وقيس غازي فوري ، والشيخ حسن النظامي ، والشيخ عبد الماجد الدّزيابادي ، وحيدر طباطبائي وغيرهم كثيرون .

ولكن لم تُنجب اللغة الأردوية شاعراً وأديباً كمحمد إقبال يتسم شعره بسهولة الأسلوب ، ووضوح العبارة ، وقوة المعاني ، وسرعة التأثير ، وكذلك لا يُعرف اليوم شاعرٌ من بين شعراء هذه اللغة طُبعت دواوينه مئات المرات غير محمد إقبال ، وقد جاء في إحدى المقالات التي قرئت في مهرجان إقبال المئوي المنعقد في مدينة « لاهور » تحت إشراف حكومة باكستان عام ١٩٧٧م ، أن عدد ما صدر عن محمد إقبال من الكتب

والرسائل في لغات العالم المختلفة ، قد بلغ ألفين (٢٠٠٠)^(١) ، ما بين كتاب ورسالة ، هذا عدا ما نُشِرَ عنه من البحوث والمقالات ، وما أُلقي من أحاديث ومحاضرات في مجالات مختلفة وحفلات أدبية في فترات متقطعة ومناسبات مختلفة ، وبذلك فاق محمد إقبال كبار شعراء العالم كـ « شكسبير » الإنجليزي ، و « دانتي » الإيطالي ، و « طاغور » الهندي ، فلم يكتب عن أحد مغشار ما كُتِبَ عنه ، وفي كل سنة يصدرُ فيض من البحوث والمقالات في الجامعات ، والمجامع العلمية ، والنوادي الأدبية ، ولا يزال في مدّ وزيادة دون توقّف ، وتتصاعدُ درجةً درجةً في سبيل التوصل لاستيعاب أفكار محمد إقبال وإدراكها .

وقد رُزِقَ محمد إقبال من الاحترام والتقدير أن ملايين المسلمين في هذه البلاد - الهند وباكستان - يعتقدون فيه ما تعتقده الأمة في المرشد المُلهَم ، والباحث المُتحرّر ، والقائد الرائد ، والمفكر المُصلِح ، والفيلسوف المنقذ ، والسياسي الموجه ، ولم يُرزق مثل هذا الاحترام والتقدير أحدٌ من أعلام مسلمي شبه القارة قبل في القرن العشرين لا في الهند فحسب بل في جميع العالم الإسلامي والعربي ، باستثناء الإمام المحدث الفقيه الشيخ عبد الحي اللكنوي في أوائل القرن ، والعلامة الإمام المفكر الداعية الأديب الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي - في أواخر القرن - رحمهما الله تعالى - .

وقد خلف شاعرنا العظيم خمسة دواوين باللغة الفارسية وأربعة بالأردوية ، وقد أثر الفارسية أولاً لأنها أوسع من الأردوية ، وهي اللغة الإسلامية التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلامي ، ويشتمل هذا المجموع الكبير من شعره على ألوف المعاني الأصلية ، والأفكار الجديدة ، والمضامين البديعة ، الذي هو في الحقيقة تراث شعري عظيم في الأدب الفارسي والأردوي . أعرف هنا بجميع تلك الدواوين باختصار .

أما الدواوين الفارسية فمنها :

(١) - الأسرار والرُموز (أسرار خودي ورُموز بيخودي)

يُعَدُّ هذا الديوان من باكورة أعمال محمد إقبال الشعرية بالفارسية ، وهو يفرد فيه فكرة الذاتية ، فيدعو إلى وجوب دعم الذات حتى تقوى وتعد نفسها لكفاح دائم مُتواصل لا يعرف أناةً ولا هدوءاً ، وفي نظره أن الجهاد الدائب هو حافظ الحياة ، وأن الجهاد في سبيل المقصد أعظم لذّة من بلوغه ، ويصرح فيه بأنّ الأقوام المغلوبة هي التي خدعت الأقوام الغالبة عن نفسها ، وزيّنت لها فكرة نفي الذات ، وسواء في منظومته « أسرار إثبات

(١) روائع إقبال للعلامة أبي الحسن الندوي ، صفحة (٨) ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

الذَّات « أو في « أسرار نفي الذات » لهذا الديوان أو في سائر أشعار إقبال . . . إننا نجد فكرة الذاتية مبثوثة أحياناً ومجملة أحياناً أخرى ، ومفصلة حيناً ، وأحياناً صريحة وأخرى ضمنية .

(٢) رسالة الشرق (پیام مشرق)

طُبِعَ هذا الديوان أول مرّة عام ١٩٢٣ م ، وقَدَّمه الشاعر على أنه شعر الفارسية الكامل ، لأنه قدَّم إلى اللغة الفارسية مجموعة من الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشعر الفارسي من الغزل والرُّباعي والقطع والمثنوي وغيرها ، ويُصادِفنا في هذا الديوان الشعر الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت ، والديوان روضة من الشعر تختلف أزهارها ونوارها ، وضُروب النبات فيها ، وألوان وصُنف الرِّيحان فيها ، وزوائحه جمعت أشات الزهر من المشرق والمغرب .

(٣) زبور العجم (زبور عجم)

هذا الديوان مجموعة نفيسة من المنظومات الفارسية ، يُعدُّ من أجود شعر محمد إقبال الفارسي ، وقَصَدَ الشاعرُ من تلك المنظومات غرسَ الروح الجديدة في العالم ، ولا سيَّما في أوساط الشباب وشعوب الشرق ، ويتجلَّى فيه إبداع الشاعر ، وكمال فنّه ، وحُسن سبكه ، ومحكم رصفه ، وبديع وصفه .

(٤) هدية الحجاز (أرمغان حجاز)

هذا الديوان عبارة عن الشعر الفارسي والأردوثي معاً ، ويتألَّف من قصائد قصيرة ، أكثرها شخصية ، فيه قصيدة بديعة بعنوان « برلمان إبليس » وصَفَ فيها الشاعرُ وصوَّرَ جنسة برلمانية ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ، ما يُفيد الاطلاع عليه ، وقد طُبِعَ هذا الديوان بعد وفاة الشاعر .

(٥) رسالة الخلود (جاويدنامه)

يُعدُّ هذا الديوان التحفة الأدبية لمحمد إقبال ، وهو عبارة عن شعر مثنويٍّ للفلسفة الدينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطع شعري مزدوج ، وإنه يبرز قوى الشاعر الفكرية وذراها الرفيعة ، وفيه تورية إلى « جاويد » نجل الشاعر ، وفي هذا الديوان قصة سفرٍ في الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الإيطالي .

(٦) ماذا ينبغي أن نصنع يا أمم الشرق ؟ (بس چه بايد كرد « أي أقوام مشرق ؟ »)

هذا آخر ما نظمه الشاعر بالفارسية ، ومنظومات هذا الديوان في جملتها رائعة بليغة ،
نَفَّها الشاعرُ حين ملأَتْ أحوالُ المسلمين فُؤَادَهُ أَسَى عليهم ، وَحَزَّ به ما رَأَى مِنْ فُنُونِ
الحضارة الأوربية وضلالها وجور ساستها ، وقسوة قادتها ، وعدوانهم على الأمة
الضعيفة ، ويُوَصِّي الشاعرُ في هذا الديوان وينصح الأمم الشرقية بإقامة الروابط الاقتصادية
والثقافية فيها بينهم ، ويبيِّن لهم أن الوقوف في وجه السياسة الاستعمارية بأشكالها المختلفة
المتعددة ، والعودة إلى أحكام الإسلام وإطاعة الأوامر القرآنية هو الطريق الوحيد للنجاة .

وأما دواوينه الأردوية فهي :

(٧) صَلَصلة الجرس (بانك درا)

هذا من باكورة أعماله الشعرية بالأردوية ، وهو من أكثر دواوينه رواجاً وقراءة اليوم ،
فيه قصائد بديعة عن الأطفال والحب والطبيعة ، كما أنه حثَّ المسلمين فيه على التضحية
والعمل ، لكي يستعيدوا منزلتهم من المجد والرفعة ، ومن أروع وأجمل القصائد وأناشيد
هذا الديوان قصيدته المشهورة « شكوى وجواب شكوى » ونشيد بعنوان « نشيد
المسلم » .

(٨) جَنَاح جبريل (بال جبريل)

لا يُوجد في الأدب الأردوني ما يُمكن مقارنته بهذا الديوان من حيث العمق وسعة
المطلب والبيان ، يحكي فيه الشاعر خواطره الخاصة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين ،
وبكاءه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلامية التاريخية ، وما يلفت النظر في
هذا الديوان هو الجزء الخاص منه عن المحاوراة بين الشاعر وجلال الدين الرومي ،
ويوضح لنا هذا الحوار أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

(٩) ضَرْبُ الكليم (ضرب كليم)

يتعلَّق هذا الديوان بالعصر الحديث ومُشكلاته ، ويبيِّن وجهة النظر السياسية لمحمد
إقبال ، والديوان كله مفصَّل على أبواب فيها نظرات في الإسلام ، والتربية ، والمرأة ،
والفنون الجميلة ، وغيرها ، وفيه فلسفة محمد إقبال واضحة ظاهرة في أشعار معينة في
موضوعات محدَّدة .

(١٠) هدية الحِجاز (أرمان حجاز)

قد سبق تعريف هذا الديوان آنفاً ، يحتوي القسم الثاني منه على قصائد بديعة
ورباعيات قصيرة بالأردوية .

وقد تُرجمت جميع هذه الدواوين إلى اللغة العربية كترجمتها باللُّغات العالمية الراقية ، وقد نجح مترجمو هذه الدواوين بالعربية من الناحية الفنية إلى حدٍّ بعيدٍ ، ولكن القارئ النّبيه الفطن قد يُلاحظ أن هذه الأشعار المترجمة تكاد لا تُؤثّر في نفسه تأثير الشعر الرقيق ، ولا تُعطي صورةً كاملةً واضحةً ، ويغلب عليها رونق اللفظ على عمق المعنى ، بحيث تغيبُ المعاني التي أرادها الشاعرُ في غَيَاهِبِ الألفاظ المنمقة والمصاريع الشعرية المركزة . وشعر محمد إقبال في اللغة الفارسية والأردوية على السواء شعر يركّز المعنى الواسع في عبارات مُوجزة هي أشبه بالكلمات القصار التي يسهل حفظها وتداولها على الألسن ، فإذا ما ترجمنا هذا الشعر إلى شعر عربي يفضل الإيجاز على الإطناب والإسهاب ، فإننا نزيد من تركيز الشعر بشيءٍ من الغموض ، يذهب بتأثير الشعر وروعه .

ونحن لا نريد بهذا أن نغض من شأن المترجمين لهذه الدواوين ، خاصةً منهم الذين عُرِفوا بعلو الهمة وجودة القريحة والإخلاص والمثابرة ، كالدكتور عبد الوهاب عزام ، وإنما نريد أن نقول : إن ترجمات الدكتور عزام - وأمثاله المترجمين لهذه الدواوين - الشعرية لم تفصح عما يكنه شعر محمد إقبال من أسرار ولم تعبر عن قيمته الحقيقية التي تتفق مع الشهرة الذائعة التي أُتيحت له .

ولعلّ هذا هو ما دفع الأديب العربي الكبير العلامة علي الطنطاوي أن يوجّه نداءً إلى العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي - رحمهما الله رحمة واسعة - في مجلة « المسلمون »^(١) في كلمة رقيقة مخلصمة يحثه فيها على ترجمة بعض قصائد محمد إقبال ليعرّف بهذا الرجل وقوة شاعريته وسموّ رسالته ، يقول في كتابٍ مفتوحٍ موجّهٍ إلى العلامة الندوي : « هل لك أن تختار من شعر إقبال ما يجعلنا نذوّق طعم أدبه ونلمّ بطريقته ، وتجلّي أسباب عظمته ، فإن كلّ ما قرأنا من كلامه مترجماً إلى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلّنا عليه . . . فهل تُضيف يا أخي أبا الحسن ! إلى مآثرك هذه المأثرة فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة ، أو تحمل إليهم زهرات منه فتحسن بذلك إلى العرب وباكستان ، وإلى الأدب والإسلام »^(٢) .

وجاء العلامة الندوي واقتصر في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها الدكتور عزام بالتعريب ، وكان للديوان « جناح جبريل » أكبر نصيب ممّا ترجمه العلامة الندوي في كتابه الذي سمّاه « روائع إقبال » فهكذا كان كتابه هذا - رغم صغر حجمه -

(١) التي كانت تصدر يومئذ من دمشق .

(٢) انظر : « روائع إقبال » للعلامة الندوي ، صفحة (٢٢ - ٢٣) .

إضافةً جديدةً للمكتبة العربية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فقد استطاع - رحمه الله - في براعة وبصيرة أن يختار من دواوين محمد إقبال مقتطفات في نثر سهل ميسور على تمكُّنه من اللغتين العربية والفارسية ، وكانت أكبر شهادة بأن كاتبه (العلامة الندوي) كان التوفيق حليفه في فهم شعر محمد إقبال والإنصاف له في شهادة الدكتور جاويد إقبال (نجل محمد إقبال الفاضل الذي أسمى باسمه أحد دواوينه ، هو « جاويدنامه ») (رسالة الخلود) ، فقد قال بعد اطلاعه على « روائع إقبال » : « ولقد عرض مؤلف هذا الكتاب جوانب مختلفة من فكر محمد إقبال في أسلوب أكبر ظني أنه يُوافق محمد إقبال نفسه ، أو كان يؤثره لشرح أفكاره » (١) .

ولكن إن كان المترجمون لهذه الدواوين قد جانبهم التوفيق - إلى حد ما - في تراجعهم لها بالشعر ، فقد استطاع الشيخ صاوي شعلان - رحمه الله - بما حباّه الله من شاعرية متدفقة ، وروح إسلامية حقة ، أن يفصح عن المعاني التي أرادها محمد إقبال ، كأنه ألهمها هو في شعر يهتزُّ له الوجدان ، ولعلّ أوضح دليل له في هذا الديوان الذي بين أيديكم في ترجمة القصيدتين : « نشيد المسلم » و « شكوى وجواب شكوى » اللتان هبَّتا هبوب الريح ، وطارتا في الآفاق ، ولا أرى مجازفة في القول إذا قلتُ : إن محمد إقبال اشتهر في البلاد العربية بهاتين القصيدتين أكثر مما كتب غيرهما ، وقد لا يعرف الكثير من إخواننا العرب أن له غير هاتين القصيدتين قصائد ودواوين ، ولعلّه بسبب عدم توفر هذه الدواوين في المكتبات العربية كونها مترجمة ومطبوعة هنا وهناك ، وكثير من تلك الدواوين لم تُصدر له طبعة بعد الطبعة الأولى ، حتى كادت أن تصبح شيئاً منسياً ، فكانت هناك حاجة إلى جمع جميع تلك الدواوين في كتاب أو ديوان واحد مما يسهل الاطلاع عليه على من أَرادَه .

والعمل في جمع تلك الدواوين مع الضبط والتنقيح والتحقيق بالرجوع إلى أصولها الفارسية والأردوية ، وشرح بعض الكلمات الصعبة الواردة في الترجمة ، والتعليق على ما دعت الضرورة إلى التعليق فيها ، كان يتطلبُ الجهد الكبير والتفرغ التام ، فبدأت بالعمل فيه دون تقدير بالفراغ منه ، حتى يسَّره الله عليّ بمُساعدة بعض أصدقائي الذين وقروا لي بعض الدواوين المطبوعة في البلاد العربية المختلفة ؛ التي كانت في مكتبات بلادنا عديمة الوجود .

هذه سعادة ناظقي لغة الضاد بأنهم يتناولون هذه الدواوين كلها بالقراءة في كتاب

(١) « روائع إقبال » صفحة (١١) .

واحد ، التي تستحيل لناطقي الفارسية والأردوية ؛ كون تلك الدواوين منظوم بعضها
بالفارسية وبعضها بالأردوية إلا مَنْ تمكَّن من هاتين اللغتين كلَّ التمكن ، وألمَّ بهما
كلَّ الإلمام .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يقبل هذا الجهد المتواضع ، ويبلغ نداء الشاعر العظيم
ورسالته كل من يسمع ويعي ، إنه سميع مجيب .

يوم الجمعة ١٢ / جمادى الآخرة ١٤٢٢ هـ

٣١ / آب (أغسطس) ٢٠٠١ م

كتبه

المعتز بالله تعالى

عبد الماجد الغوري

حيدرآباد (دكن)

محمّد إقبال

عند رجال الفكر والدّعوة ، وأساطين العلم والأدب

« .. إنّ إقبالاً هو طراز العظمة الذي يتطلبه الشرق في الوقت الحاضر ، وفي كلّ حين ؛ لأنها عظمة ليست بالدنيويّة المادّيّة ، وعظمة ليست بالأخروية المعرضة عن هذه الدنيا ، وهو زعيم العمل بين العدوتين من الدنيا والآخرة قوَّام بين العالمين كأحسن ما يكون القوَّام ! » .

الأستاذ عباس محمود العقاد

« شاعران إسلامیان رفعا مجد الآداب الإسلامیّة إلى الذروة ، وفرضا هذا المجد الأدبيّ الإسلامیّ على الزمان ، أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان وثانيهما أبو العلاء شاعر العرب » .

الدكتور طه حسين

« لا أعرف كشعر إقبال ، معرفاً بالحياة ، داعياً إليها ، معظماً الإنسان ، مشيداً بمكانته في هذا العالم ، نافثاً الأمل ، والهمة ، والإقدام في نفوس الناس ... »

الدكتور عبد الوهاب عزّام

« فقد طلع هذا الرجل على العالم الإسلامیّ ، وعلى العالم كلّهُ بفلسفة جديدة صاغها شعراً ، فإذا هي تهزّ المشاعر والقلوب ، وإذا هي تُثير كثيرين من عظماء العالم ، فينظرون نظرات إعجاب إلى هذا المسلم الذي وُلد في الهند ، ونشأ بين أهلها ، ثمّ أعلن على الناس فلسفةً شعريةً سائغة لا تتفق مع الفلسفة الهندية في شيء ... »

الدكتور محمد حسين هيكل

« ... فإذا كان حسنّ شاعر الرّسول ، فإنّ إقبالاً شاعر الرسالة ، وإذا كان لحسان من نازعه شرف الدفاع عن المحمّدية ، وشتان بين من يمجد الداعي الأكبر عن عصبية ، ومن يمجد الدّعوة الكبرى عن عقيدة ، وإذا كان في الشعراء الصوفيّين من عطر مجالس الذكر بفضائل الإسلام ، وشمائل النبوة ، فليس فيهم من بلغ مبلغ إقبال في فقه الشريعة ، وعلم

الحقيقة ، والتأمل الفلسفي في كتاب الله ، والنظر العلمي في كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب في قوة تمييز ، وسلامة فهم ، وصحة حكم . . . » .

الأستاذ أحمد حسن الزيات

« . . . إني أحببته ، وشغلت به كشاعر « الطموح ، والحب ، والإيمان » ، وكشاعر له عقيدة ، ودعوة ، ورسالة ، وكأعظم تأثير على هذه الحضارة الغربية المادية ، وأعظم ناقد لها ، وحاقد عليها ، وكداعية إلى المجد الإسلامي ، وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية ، والقومية الضيقتين ، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية ، والجامعة الإسلامية . . . » .

« . . . إن جل ما أعتقده أن إقبالاً شاعرٌ أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر ، أنطقه الله الذي أنطق كل شيء ، أنطقه كما أنطق الشعراء ، والحكماء ، قبل عصره ، وفي غير عصره . . . » .

« . . . أشهد على نفسي أنني كلما قرأت شعره جاش خاطري ، وثارت عواطفني ، وشعرتُ بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي للحماسة الإسلامية في عروقي ، وتلك قيمة شعره ، وأدبه في نظري . . . » .

العلامة أبو الحسن علي الحسيني الندوي

« . . . كذتُ أتوافق أنا ومحمد إقبال في المعاني ، وربما توافقنا في الألفاظ . . . » .

الشهيد سيد قطب

« . . . ولم أر شاعراً يتصور للمسلم صورة مثالية عالية كتلك الصورة التي يرسمها إقبال في مواضع كثيرة من شعره ، إنه يصور المسلم حيناً كأنه ماء في رقته ، وحديد في شدته يهزأ بالصعاب ، ويعلو على التراب ، ويسري مع الأفلاك ، ويجري مع الأملاك . . . » .

الدكتور أحمد الشرباصي

« . . . وإقبال لم يرد للشعر أن يكون فلسفة محضة ، فنقله بذلك من رياض الزهر ، وهمسات النسائم وغفوة النجوم والأفلاك إلى مجالس الجدل ، وصوامع السفسطة ، والخوض وراء الغيبات التي لا طائل تحتها . . . لكنه يُريد للشعر أن يمتزج بألوان الفكر ، وصادق النظرات ، وحقائق الوجود ، وكنه الكائنات ، وأن يُناجي النسائم ، ويصقل العقول ، ويسطر وثائق التحرير والكفاح ويحكم في قضايا الناس والمدنيات . إن (إقبالاً) ينشد مزج الخيال برحيق الحقائق والتقاء العقلية مع العاطفيات . . . » .

الأستاذ نجيب الكيلاني

« لم يهتم شاعرٌ غير عربي قبل محمد إقبال بأمجاد العرب والإسلام اهتمامه بهما ، فهو الذي فتح الباب على مصراعيه في هذا المجال أمام الذين عاصروه ومن جاء بعده من الشعراء .

تكلم عن مجد العروبة ، وأثر الإسلام في رقي الأمم ، وتناول قضايا عربية بحتة ، مثل قضية فلسطين ، وسجل أمجاد العرب في صقلية ، وقرطبة ، ونعى على العرب تفرقهم ، ووجه إليهم في دواوينه أكثر من خطاب »

الشيخ صاوي شعلان

« وكان أعظم ما أدهشني رفض إقبال أن يدخل مسجد باريس ، ومقالته : إن هذا المسجد ثمنٌ رخيصٌ لتدمير دمشق .

فلولا أنَّ الرجل كان يعيش في حقيقة صريحة ، وفي ذكرٍ دائم لا ينقطع لِمَا نزل بنا وطمَّ ، لِمَا خطر له هذا الخاطر .

وكم من غافلٍ ساءَ مِنَّا ومن قومنا يعرض له أن يحيا تاريخ نفسه وتاريخ دينه بمثل هذه الكلمة ؛ ثم لا تراه إلا حيث يكره الله من الذلِّ والضَّعة والعبودية ، والفتنة بما زين له أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ .

العلامة محمود محمد شاكر

« إقبال عاش مع الهموم التي كان يتقلب فيها الإنسان في شتى أطراف المعمورة ، لا سيما الإنسان المسلم ، كان يعلم مشكلات الرأسمالية ، ومشكلة الظلم ، ويعلم المشكلات الاقتصادية ، ويعلم المشكلات السياسية ، ويعلم مشكلات الاستعباد والاضطهاد ، كان يعلم ذلك كله . ولكن محمد إقبال زاد على ذلك أنه عثر على المفتاح الذي إن استعمله المسلمون وأداروه على وجهه تخلَّصوا من سائر المشكلات الاقتصادية ، وتخلَّصوا من الذلِّ ، والاستعباد ، وتخلَّصوا من التفرُّق والتمزُّق ، فتضاعفت همومه بسبب ذلك ، فراح يصرخ ويُنادي دائما :

أيها الناس ! إنَّ مشكلاتكم التي تضجُّون منها حلُّها بيدي ، وهذا هو المفتاح ! فما عليكم إلا أن تتعرَّفوا عليه ، ثم تستعملوه على وجهه .

وهذا المعنى الذي كان يتكرَّر في شعر إقبال ، ويُنادي به من حوله ، لا يزال يُنادي به من خلال سائر ما تركه من آثارٍ ، وأشعارٍ مضرجة لا بدموعه بل بدماء قلبه .

ولكن كان ينبه إلى أنَّ سائر ما نراه حولنا من المشكلات إنما هو فروعٌ لمشكلة جذرية

واحدة، هي ضياعنا عن الذات، وذاتنا الحقيقية لا يمكن العثور عليها في شرق ولا غرب، وإنما يمكن أن نعثر عليها بين جوانحنا، يمكن أن نعثر عليها من خلال إدراك هويتنا » .

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

« شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال - رحمة الله عليه - شاعر ذو مكانة رفيعة بين أقرانه ، وهو نابغة في الفكر والخيال والفلسفة والفن جميعاً ، له آراء حصينة ونظرات عميقة في حياة الإنسان ومكانة المسلم في العالم ، وكلامه في غاية القوة والتأثير يقع في نفس القارئ والسامع موقعاً عظيماً ، ولأفكاره قيمة ، وأهمية كبيرة للعالم الإسلامي والأمة الإسلامية . فكر عالمي ، وعقلية نابغة ، ودراسة عميقة تفاعلت في نفسه خلال حياته التي قضاها في الشرق والغرب في مجتمعات وأوساط مختلفة يبحث في الفلسفات والمدنيات والاتجاهات للأمم المختلفة ، القديمة منها والحديثة » .

الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي

(رئيس جامعة ندوة العلماء - الهند)

« عُرِفَ (محمد إقبال) بفيلسوف الشرق الإسلامي ؛ الذي درس الحياة ، والكون ، والإنسان دراسة واعية عميقة من خلال كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقام كشاعرٍ ثائرٍ على الأوضاع الفاسدة ، يُدافع عن الإسلام وتعاليمه بكلِّ ما أوتي من موهبةٍ شعرية ، وقوةٍ أدبية ، ويُنادي بالوحدة الإسلامية ، والتضامن الإسلامي بشعره القويِّ الزاخر بالمعاني الغزيرة والمفاهيم العالية كما يقول :

« فليتَّحد المسلمون لصيانة وحراسة الحرم الشريف من سواحل النيل إلى تراب كاشغر » .

وقد تفتَّحت قريحته الشعرية ، وتفجَّرت ينباع الشعر في كيانه ، فما لبث أن قال الشعر الإسلامي في جميع المعاني الإسلامية والإنسانية وتحدَّث فيه عن الإسلام وحضارته التي رآها صالحةً للمجتمعات الإنسانية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وفي كلِّ عصرٍ وجيلٍ ، وأتحف الأوساط الإسلامية كلَّها بشعره الجميل الذي تغنَّى به كلُّ قريبٍ وبعيدٍ ، وأعجب به الناس في كلِّ طبقةٍ وبيئة » .

الدكتور سعيد الأعظمي الندوي

(رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي »)

محمد اقبال

حیّانہ - شخصیتہ - فکرہ - فلسفہ

أسرته وولادته :

وُلد محمد إقبال في مدينة « سيالكوت » (الواقعة في ولاية « بنجاب ») سنة ١٨٧٧ م ، وهو سليل بيتٍ معروفٍ من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جدّه الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصّلاح والتصوّف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، يغلب عليه التصوف .

نشأته ودراسته :

تعلّم محمد إقبال في مدرسة إنكليزية في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكلية في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن ؛ أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثّر في الشابّ الذكي كلّ تأثير ، وغرس فيه حبّ الثقافة والآداب الإسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضمّ إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية ، والإنكليزية ، ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B.A.)^(١) ، بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير « سيرتامس أرنولد » صاحب كتاب « الدّعوة إلى الإسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية في عليكره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشئ أول مجلة علميّة

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنكليزي الهندي تعادل ليسانس في البلاد العربية .

أدبية في لغة أردو ، اسمها « مخزن » وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١ م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة (M.A.)^(١) في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً ، وعيّن على إثره أستاذاً للتاريخ ، والفلسفة ، والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية ، والفلسفة في كلية الحكومة ، التي تخرج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ م حيث التحق بجامعة « كامبردج » وأخذ شهادة عالية في الفلسفة ، وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضرات في موضوعات إسلامية أكسبته الشهرة والثقة ، وتولّى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثم سافر إلى ألمانيا ، وأخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصّص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨ م سالماً غانماً ، ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدة افتتحها بقوله : « ابك أيها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

نبوغه في الشعر :

ومن دواعي العجب أنّ كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

(١) وهي تعادل « الماجستير » في البلاد العربية .

اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاءه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير ، والسياسي الحاذق في عدّة لغات بالمحاماة ، لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته ، وجلّ همّه في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية ، وينشد فيها قصائده ، ومنها « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حلّ بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بيّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنّى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من « قفا نيك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب ، والمعاني والغرض ، وقال « النشيد الوطني » و « أنشودة المسلم » وكلاهما سار مسير المثل ، وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تُفتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م وما يوم حليلة بسرّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعظم أثر ، جرحت عواطفه وقلبه ، فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية ، والإمبراطورية الأوربية ، وأملاه حزنه ووجدته قصائد كلّها دموع حارّة في سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوروبيين ، وتتجلّى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده « البلاد الإسلامية » رد على الوطنية ، و « دعوة إلى الجامعة الإسلامية » و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) و « محاصرة أدرنة » و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى

إلى الرسول « وقد نعى في هذ القصيدة على الزعماء والقادة ؛ الذين يتزعمون المسلمين ، وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجّون إلى أوربة ، ويشدّون إليها الرحال مرّة بعد مرّة ، ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ، ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها : « إنّه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدُّنيا ، وقال : إنّها لا تليق بمقامكم الكريم ، ولكنّي جئت بهدية ، وهي زجاجةٌ يتجلّى فيها شرف أمتك ، وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤م ، وحدث ما حدث ، فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهّن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشبّ من حماسته نيراناً ، ويفجّر إيمانه ، وثقته أنهاراً ، وجاش صدره ، وفاض خاطره ، وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غرّ قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، ومنها « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و « الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلّها آيةٌ في الشعر ، والحكمة ، والحماسة ، وحقائق الحياة ، أما « طلوع الإسلام » فهي بيت القصيد في شعره ، لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتّضحت رسالته ، فنشر له عدّة كتب فارسية ، وقد أثر اللغة الفارسية لشعره ؛ لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلامية التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلامي ، ويتكلم بها قطران مهمّان : إيران ، وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان ، وروسيا ، وتركية ، ونشر مجموعتين

بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي « أسرار خودي » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودي » (أسرار فناء الذات) و « بياض مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « تحية الغرب » ، و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « بس جه بايد كرد أي أقوام شرق » (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و « مسافر » و « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كلیم » (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم :

« Reconstruction of religious Thought in Islam » (تجديد الفكر الديني في الإسلام) .

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون ، وعلماء الفلسفة والدين اعتناءً عظيماً ، وعلّقوا عليها أهمية كبيرة ، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والطيانية ، والروسية ، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنكليزية « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠م في « إله آباد » وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠م - ١٩٣١م .

رحلاته :

جاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف

على تربته دموعاً غزاراً ، وتذكر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعدُّ من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة ، وإكرام بالغ ، وقابله السنيور موسولينى ، وكان من قراء كتبه ، والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه طويلاً ، وسأله حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقيا ، ولكن الشاعر الإسلامي الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إنَّ هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوربة أقيمت له عدّة حفلات تكريم ، أقامها له أصدقاؤه ، وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عرّج على القدس ، واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » .

وفي سنة ١٩٣٢م لبّى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك أفغانستان في بعثة تتألف من فقيه العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدث إليه الملك الفقيه طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره ، وبكى طويلاً ، ولما زار قبر السلطان محمد الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه ، وافتضح باكياً ، وقال قصيدةً حكيمةً بديعةً ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وفاته :

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيراً ، وظل

أياماً طويلة رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء ، والزوّار ، والعواد ، ويحدثهم في شؤون إسلامية وعلمية ، ومما نشر له في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الردّ على القومية ، تناقلتها الصحف ، وتحدّث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام : « جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعبّاد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فإنّ في سبيل الله جنة أيضاً » وقال قبل وفاته بعشر دقائق : « ليت شعري ! هل تعود النعمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلّني موتي ، وحضرتني الوفاة ، فليت شعري ! هل حكيم يخلفني . . ؟ » ، وقال وهو يجود بنفسه : « أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً » ، وكان ذلك آخر برهانٍ أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم وبقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلةٍ من العوّد ، والأصدقاء ، والتلاميذ ، والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارةً ، ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨ م^(١) .

آثاره في الشعر والنثر :

بالفارسية

- ١ - أسرار الذات ١٩١٥ (أسرار خودي) .
- ٢ - رموز نفي الذات ١٩١٨ (رموز بيخودي) .
- ٣ - رسالة المشرق ١٩٢٣ (بياض مشرق) .

(١) روائع إقبال : للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ٢٨ - ٣٧ . طبعة دار ابن كثير .

- ٤ - أناشيد فارسية ١٩٢٧ (زبور عجم) .
- ٥ - رسالة الخلود ١٩٣٢ (جاويد نامه) .
- ٦ - المسافر ١٩٣٦ (مسافر) .
- ٧ - ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق ١٩٣٦ (بس جه بايد كرداي أقوام مشرق) .
- ٨ - هدية الحجاز ١٩٣٨ (أرمغان حجاز) .

بالأردية :

- ٩ - صلصة الجرس أو (جرس سفر القافلة) ١٩٢٤ (بانك درا) .
- ١٠ - جناح جبريل ١٩٣٦ (بال جبريل) .
- ١١ - عصا موسى ١٩٣٧ (ضرب كلیم) .
- (ويتعلق ذلك بالربع الأخير من هذا الكتاب) .
- ١٢ - مراسلات إقبال ومقالاته (قد طبعت بعد وفاته) .

بالإنكليزية :

- تطور ما وراء الطبيعة في فارس (رسالة ميونيخ) ١٩٠٢ .
- تجديد الفكر الديني في الإسلام .

(Reconstruction of Religious Thought in Islam)

العوامل التي كوَّنت شخصيته^(١)

المدارس الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرَّج محمد إقبال في مدرستين : أما المدرسة الأولى : فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلَّب في فصولها ، ودروسها ما بين الهند ، وإنجلترا ، وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ، ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفة واجتماع ، وأخلاق واقتصاد ، وسياسة ومدنية غاية ما يمكن لغربيٍّ متخصص فضلاً عن شرقيٍّ متطفلٍ ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسع في الآداب الإنكليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ، ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية : ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحدِّ ، واكتفى بشمار هذه المدرسة ؛ لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محلٌّ الصدارة العلمية ، والزعامة الفكرية العبقرية ، والإسلامية ، ولكن منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة ، والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول : لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة ، واقتصر على ثقافتها ، ودراستها ، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة ، أو علم الاقتصاد ، أو في الآداب ، أو التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم

(١) مقتطف من محاضرة العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، التي ألقاها في مدرج كلية الآداب بجامعة القاهرة في ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ (الموافق ٢٨/٣/١٩٥١م) .

العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة ، أو وزيراً في دولة ، وصدقوني أيها الإخوة ! أن لو كان ذلك لطواه الزَّمان فيمن طوى من كبار العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤلفين ، والقضاة ، والوزراء . إنَّ الفضل في عبقرية إقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية ؛ التي تخرج فيها .

إنني لأراكم أيها الإخوة ! تذهبون كلَّ مذهبٍ في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإنني لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شكَّ أنهم من كبار المربين ، وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة ، وما تكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلّها ؛ لأسرع كثيرٌ منكم إليها ، والتحق بها .

إنها مدرسةٌ ما خاب مَنْ تعلَّم فيها ، وما ضاع مَنْ تخرَّج منها ، إنها مدرسةٌ لم تخرج إلا أئمة الفنِّ المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأيد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسةٌ ما تعلم التاريخ بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنها مدرسةٌ توجد في كلِّ زمانٍ ، وهي أقدم مدرسةٍ على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوة طويلاً ! إنها مدرسةٌ داخليةٌ تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كلِّ مكان ، هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسةٌ تشرف عليها التربية الإلهية ، وتمدُّها القوة الروحية .

قد تخرّج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرّج كثيرٌ من الرجال الموهوبين ، وحدث عنها كثيراً في شعره ، وردّ إليها الفضل في تكوين سيرته ، وعقليته ، وأخلاقه ، وشخصيته ، وصرّح مراراً بأنّه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنّه لولا هذه المدرسة وتربيتها ؛ لما ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ، وقد حدث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً ، وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فمَنْ يُرَدُّ الفضل إليه في هذه المدرسة « الإيمان » الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب ؛ الذي هو مجرد عقيدة ، أو تصديق بسيط ، بل هو مزيج اعتقادٍ وحبٍّ ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة والتصوّف ، والحبّ والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قوي العاطفة ، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبّه ، مقتنعاً بأن الإسلام هو الدين الخالد ؛ الذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأنّ النبي ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكل .

ويُرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادّة ومغرياتها ، وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي ﷺ ، وحبّه العميق له ، ولا شك أنّ الحبّ هو خير حاجز للقلب ، وخير حارس له ، إذا احتل قلباً وشغله ؛ منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشة في فلاة ، أو يعث به العابثون ، يقول : « لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهز لبي ، ويعشي بصري ، وذلك لأنني اكتحلت بإثم المدينة » ، ويقول : « مكثت في أتون التعليم الغربي ؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود » ويقول : « لم يزل ، ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكني لا أخافهم ، فإنّي أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رزق الحبّ الصادق ، عرف نفسه ، واحتفظ

بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم ،
وانقادت لي الصعاب ، فإنني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته
الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في إثره الغبار ، فصار أعقب
من العبير .

وفي كتاب « أسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمة الإسلامية ،
والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها : اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتشبع
بتعاليمه ، والتفاني في حبه ، ولما ذكر النبي ﷺ اندفع الشاعر يمدحه ، وأرسل
النفس على سجيتها ، فقال أبياتاً لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر
الوجداني ، يقول : « إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل
شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج
كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة
الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات
العدد ، فكان أن وُجدت أمةٌ ، ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في
الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب
الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أمٌ ، ولم تنجب مثله
الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجرأ جديداً ، كان يساوي في
نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم
أسيرةً مقيّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقةً رأسها ، فاستحيا النبي ﷺ ، وألقى
عليها رداءه .

نحن أعزى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كله
رحمة ، هذا بأعدائه ، وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ،
وقال : لا تريب عليكم اليوم ! نحن المسلمون من الحجاز ، والصين ، وإيران ،
وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد ، واحدة
الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبه ، ولا أحنُّ إليه ، وأنا إنسان ، وقد بكى لفراقه

الجدع ، وحنّت إليه سارية المسجد ؟ ! إنّ تربة المدينة أحبّ إليّ من العالم كله ،
أنعم بمدينة فيها الحبيب ! » .

ولم يزل حبّ النبي ﷺ يزيد ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره إذا
جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه ، أو ذكرت المدينة - على منورها ألف سلام -
فاضت عينه ، ولم يملك دمه ، وقد ألهمه هذا الحبّ العميق معاني شعرية
عجيبة ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « أنت غني عن العالمين ،
وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لا بدّ من حسابي فأرجوك
يا رب ، أن تحاسبني بنجوة من المصطفى ﷺ ، فإني أستحي أن أنتسب إليه
وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد
أنّه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكثر
كميّة من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في
بيت : « إن الفقير المتمرّد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين
صغيرتين قد تغلفلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله
إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء ، وفقهاء ، والواحد منهم يملك
ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون ، لا ينتفع بكنوزه » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة ! وحبّه ، ومن تتبّع التاريخ عرف أنّ
الحبّ هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني
البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصيّة الفذة ، والعبقريّة النادرة ، إليه يرجع
الفضل في غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا
تجرّد منه شخصٌ ؛ كان صورةً من لحمٍ ودم ، وإذا تجرّدت منه أمةٌ ؛ كانت
قطيعاً من غنم ، وإذا تجرّد منه شعرٌ ؛ كان كلاماً موزوناً مقفّى فحسب ، وإذا
تجرّد منه كتابٌ ؛ كان مجموع أوراقٍ وحبراً على ورق ، وإذا تجرّدت منه
عبادةٌ ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكلًا بلا روح ، وإذا تجرّدت منه مدنيّةٌ ؛

أصبح تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرّدت منه مدرسة ، أو نظام تعليم ؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز به ، وإذا تجرّدت منه حياة ؛ كَلَّت الطباع ، وجمدت القرائح ، وأجذبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبُّ الصادق الذي يتجلّى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشّجاعة ، والقوّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبُّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشّهوات ، وبريق المادّة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبُّ الذي يدخل بين الطين والماء ، والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدةً ، وتحفةً فنيّةً ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية في الأدب ، والفنّ ، والتأليف ، والبطولة ، إلا ووراءه عاطفة قويّة من الحبّ .

لقد ضلّ من زعم أنّ العلماء يتفاضلون بقوة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذكاء ، وأنّ الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقّة المعاني ، وأنّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والإنتاج ، وأنّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ، وأنّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة ، وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوة الحبّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر ؛ فإنّما يفوقه ؛ لأنّ الغاية ، أو الموضوع حلّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلم تكلم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلبه ، وإذا فكّر ؛ فكّر بعقله ، وإذا أحبّ ، أو أبغض ، فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة ! على الإنسانية جناية عظيمة ؛ إذ

قضت على هذه العاطفة التي كانت قوة كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحبّ الجنسيّ ، والغرام المادّي ، ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم : أنّ هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحب ، وأساءت المدرسة العصرية - وأعني بها نظام التعليم الحديث - إلى الجيل الجديد ؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان ، وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصري أشبه بجمادٍ متحرّكٍ دائرٍ لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ، ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ، إنّما هو دوامةٌ جامدةٌ ، تديرها يدٌ قاهرةٌ ، أو إرادةٌ قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة ! أنّ شعر إقبال من نوع آخر غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتّر له المشاعر ، وتوتّر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تحطّم السلاسل ، وتفكّ الأغلال ، وتمرّد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخفّ بالقوّة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسّ بأنه قد مرّ به تيارٌ كهربائيٌّ ، فهزّه هزاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قويّ الإيمان ، قويّ العاطفة ، جيّاش الصدر ، فيّاض الخاطر ، ملتهبُ الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدّثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها ، وإشعالها فيه .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ؛ فهو أستاذ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنّما الشأن في معرفته ، وتقديره وإجلاله والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحيّ

أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أن العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ، ضائع في بيته ، مهجور في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهيئ بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ، ويتضلع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ، ولا يبعد بكم القياس أيها الأخوة ! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن العظيم ، الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ، ولا شخصية ، ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ، ومتاع ، ودار ، وعقار ، وقد وصل هذا المهتدي بشق النفس ، وعلى جسر من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور « كولمبس » لما اكتشف العالم الجديد ، ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشؤوا في هذا العالم الجديد ؛ فكانوا ينظرون إلى « كولمبس » وأصحابه باستغراب ودهشة ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرور وفرح ، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن ، واستطعامه إياه ، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، وقال : « قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني : ماذا أصنع ؟ فأجيبه : أقرأ القرآن ، وظلّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له : ما بالك يا أبي ! تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك يا ولدي ! اقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أفهم القرآن ، وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره ما نظمت » .

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدُّنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلمٍ جديدٍ ، وإيمانٍ جديدٍ ، وإشراقٍ جديدٍ ، وقوةٍ جديدةٍ ، وكلّما تقدّمت دراسته ، واتّسعت آفاق فكره ؛ ازداد إيماناً بأنّ القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبدي ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقّدة ، وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنّه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين ، وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ودراسته ، والاهتداء به في مشكلات العصر ، واستفتائه في أزمات المدنيّة ، وتحكيمة في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعرية : « إنك أيها المسلم ! لا تزال أسيراً للمتزعّمين للدّين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمّد حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إنّ الكتاب الذي هو مصدر حياتك ، ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة « يس » لتموت بسهولة ، فوا عجباً ! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة ، يتلى الآن لتموت براحةٍ وسهولة »^(١).

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبُّر لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفةً وهديةً لأغنى رجلٍ في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن ، وقدّمها إليه قائلاً : « إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كلّ بداية ، وبقوته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر » فبكى الملك وقال : « لقد أتى على نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوّته كلّ باب »^(٢).

(١) هدية الحجاز (أرمنغان حجاز) .

(٢) مثنوي مسافر .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره ، وفي قصيدة يقول فيها : « انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سرَّ الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا ! واعرفها ، وكن لها وفياً ، ما ظنَّك بعالم القلب ، وهو كلُّه حرارةٌ وسكر ، وحنانٌ وشوق ، أما عالم الجسم فتجارةٌ ، وزورٌ ، واحتيال ، إنَّ ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظلٌّ زائل ، ونعيمٌ راحل ، إنَّ عالم القلب لم أر فيه سلطة الإفرنج ، ولا اختلاف الطبقات ، ولقد كدت أذوب حياءً ، وتنَدَّى جبيني عرقاً ؛ إذ قال لي حكيم : إذا خضعت لغيرك ؛ أصبحت لا تملك قلبك ، ولا جسمك »^(١) .

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أنَّ العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة : « إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحبِّ الصادق ، وتمسَّك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك . إنَّ ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم » .

إنَّ الصراحة ، والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإنَّ عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب » ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيَّد حرите ، يقول في نفس القصيدة : « يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقصُّ من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران »^(٢) .

وكان إقبال يعرف قيمته ، ويعرف مكانته في غير صلفٍ ولا غرور ، فيضنُّ

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

(٢) المصدر السابق .

بحرّيته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعة :
« لك الحمد يا رب ! إذ لستُ من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك
والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراصةً ، ولكنّي أحمدك على أني لم أبعهما
لملك من الملوك »^(١) ، ويقول مفتخراً : « إنّي من غير شكّ فقيرٌ قاعدٌ على
قارعة الطريق ، ولكنّي غنيّ النفس أبيّ » ، وكان عمله بما يخاطب به غيره في
قصيدة يقول فيها : « إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك ، وإذا عرفته
افتقر إليك كبار الملوك . إنّ الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتلٌ للروح ، وأنت
مخيّرٌ بينهما ، إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت البطن »^(٢) ، ولا شك
أنّ محمد إقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور إذا جُرحت كرامته ، وامْتُحنت عَفَّتُهُ ، قدّم إليه رئيس وزارة
في دولة ، في عيد ميلاد محمد إقبال ، هديةً محترمةً من النقود ، فرفضها ،
وقال : « إن كرامة الفقير تأبى عليّ أن أقبل صدقة الأغنياء » ، وعرضت عليه
الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه
الوظيفة أنّ حرم نائب الملك تكون سافرةً ، تستقبل الضيوف في اللوائم
الرسمية ، وتكون مع زوجها في الحفلات ، فأشير عليه بذلك ، فرفضها وقال :
« ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة ؛ فلا أقبله ؛ لأنه إهانة ديني ، ومساومة
كرامتي » .

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوّته ومواهبه ، يعتقد أنّه
صاحب رسالةٍ ومهمّةٍ في هذه الحياة ، وليس له أن يضع نفسه محلّ الشاعر الذي
ليست له رسالةٌ ، والنّظامين الذين ينظمون في كلّ مناسبة ، فإذا أريد منه غير
ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجهها إلى رسول الله ﷺ : « إنني لأشكو

(١) جناح جبريل .

(٢) المصدر السابق .

إليك يا سيد الأمم ! أنَّ أصدقائي يعتقدون أنني شاعر نظام ، فيقترحون علي اقتراحات » . ويقول في بيت آخر : « أنا حائر في أمري يا سيدي رسول الله ! إنَّك تأمرني أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون : أرخ لموت فلان ، وفلان ، فماذا أفعل ؟ » .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكري ، والهيام الأدبي ، اللذين يصاب بهما أدباؤنا ، وشعراؤنا ، وكتّابنا ، وعلمائنا ! فينتجعون كلَّ كلاً ، ويهيمون في كلِّ واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كلَّ شخص ، ويظنون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ، ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى ، ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين في الهند : أنه عرف نفسه في أول يوم ، وقدر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركّز فكره ، وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوة والحرية والسيادة ، كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ألا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر ، وغلبه . كان سائل القريحة ، فياض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان فناناً وصنّاعاً ماهراً ، سلّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجوّ ، فما من شاعرٍ ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة ، أو التراكيب والمعاني ، والأفكار ، والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كلُّ ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنّه امتاز بأنه أخضع شاعريّته القويّة ، وقوّته الأدبية ، وعبقريّته الفنيّة لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملك ، ولا

شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالة إسلامية ، استخدم لها الشعر ، كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولاً ، ولطيب الأزهار نفحات الهواء ، فيكون أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ، ويوطئ لها أكنافاً ، ويدلل لها صعباً ، ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرض أسمى ، وغاية أجدى منه ، فأيقظ أمةً ، وأشعل قلوبها إيماناً ، وحماسةً ، وطموحاً إلى حياة الشرف ، والاستقلال ، والسيادة ، والحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولة تحكمها ، وتدير دفتها ، أوجد بشعره القويّ الهزّاز القلق الفكريّ ، والاضطراب النفسيّ ، الذي عمّ هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الإسلاميّ بصفة خاصة ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية ، والذلّة ، وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يوم من الأيام الدولة المسلمة الحرّة حقيقةً راهنةً ، وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة ، وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلاميّ ، وتعلمون جميعاً أنّ الدول تسبقها الثورات الفكرية ، والتذمّر من الحاضر ، والتطلّع إلى المستقبل ، والقلق النفسيّ ، فإذا تمّ هذا كلّهُ ، ونضج ، قامت دولةٌ ، فإن كان شعراً قد أقام دولة ، وأحدث ثورةً فكريّةً ، كانت سبب الانتقال من حياةٍ إلى حياةٍ ، ومن وضعٍ إلى وضعٍ ، فهو من غير شكٍّ شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوة ! إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره لمواهبه وقوّته ، ووضعها في محلّها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعاتٍ تافهة ، وألفاظٍ فارغة ، وألوانٍ زاهية ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقرين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم ،

وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية « بالمزاد العلني » وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٣٣] .

العامل الرابع :

والمربّي الرابع أيها السادة ! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدّة المعاني ، وتدفّق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرّض للنفحات السّحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثّه وحزنه إليه ، ويتزوّد بنشاطٍ روحيٍّ جديد ، وإشراقٍ قلبيٍّ جديد ، وغذاءٍ فكريٍّ جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الإنسان فيه قوةً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، لأنه يتجدّد كلّ يوم ، فيتجدّد شعره ، وتتجدّد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السّحر ، ويعتقد أنّها رأس ماله ، ورأس مال كلّ عالم ومفكّر ، لا يستغني عنها أكبر عالم أو زاهد ، يقول في بيت : « كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكن لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك أنّة في السّحر » ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : « رغم أنّ شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكنّي لم أترك في لندن التبكير في القيام » ، وكان لا يبغي به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيت : « خذ منّي ما شئت يا رب ! ولكن لا تسلبني اللذة بأنّة السّحر ، ولا تحرمني نعيمها » ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدّى هذه الأنّة السّحرية ، والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : « اللهم ! اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدّينية ، وأيقظ الآمال والأمانى النائمة في صدورهم بنجوم

سمواتك ، التي لا تزال ساهرة ، وعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنوم ، ارزق الشباب الإسلاميّ لوعة القلب ، وارزقهم حبّي وفراستي » ، ويقول في قصيدة : « اللهم ارزق الشباب أنّي في السّحر ، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ؛ التي تطير بها وتصطاد ، وليست لي أمنية يا رب ! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعمّ نور بصيرتي في المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير ، والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة ! هو « المثنوي المعنوي » بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورة وجدانية ، ونفسية شديدة ضدّ الموجه العقلية الإغريقية ؛ التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب ، والروح ، والعاطفة ، والحبّ الصادق ، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين ، والمدارس الدّينية ، والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي ، والكتاب متدفّق قوّة وحياة ، زاخرٌ بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الرّيان الذي يملّي هذه المنظومة التي لا تزال فريدة في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القويّ في تحرير الفكر من رقّ العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية ، والخضوع للمادّية الرعناء ، ويبعث التمرّد على عالم المادية الضيق ، والتطلّع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحيّة والخلقيّة ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية ، والمبادئ الخلقية ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارة عقلية ميكانيكية ، وقد قضى محمد إقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراعٌ بين عقله المتمرّد ، وعلمه المتجدّد ،

وقلبه الحارّ الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاضطراع الفكريّ والاضطراب النفسيّ ، ساعده المثنوي مساعدةً غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحلّ به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره في كثير من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول في بيتٍ يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : « قد سحر عقلك سحر الإفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحرّاً من العلوم » ، ويقول في بيت : « لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أنّ كليماً واحداً - يشير إلى سيدنا موسى - هامته على راحته يغلب ألف حكيمٍ قد أحنوا رؤوسهم للتفكير » ، وكان محمد إقبال يرجو أن يجدّد علمه ورسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية ، والروحية ، وكان يشعر أنّ الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار إلى ذلك إشارةً لطيفة ، يقول في قصيدة : « لم ينهض روميّ آخر من ربوع العجم مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز كما كانت ، إلا أنّ إقبالاً ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبت نباتاً حسناً ، وأنت بحاصل كبير » .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ، ولا شكّ أنها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة الجوانب كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القوي ، والخلق المستقيم ، والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال^(١)

لم يكن إقبال اختصاصياً في مادة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع وتعمقاً فيه ، واطلاعاً على أسرارهِ وخفائهِ ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتصل به من بعيد أو قريب بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطة وتواضع ، وقال : « إنه لم يختص في هذه المادة ، إنه كان عالم الفلسفة أو عالم القرآن » ، ولكن من البديهي المعروف أن دراسته كانت واسعة متنوعة عميقة ، وأنه تأمل خلال بحثه العلمي المتواصل ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان والأخلاق ، وفي المجتمعات البشرية والحضارات الإسلامية المختلفة ، بنظر ثاقب ، ونزل في أغوارها واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أن التاريخ - كما قلنا - لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عناية لائقة شأن كل باحث يهتم بمصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أن الفلسفة تثير في الإنسان تطلعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكة خاصة في ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة ، والتوصل من المقدمات إلى النتائج ومن الجزئيات إلى الكليات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغيرات العابرة والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث وأعماقها ؛ لذلك نجد إقبالاً يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج

(١) مقتطف من محاضرة العلامة أبي الحسن الندوي التي ألقاها في ندوة علمية في مدينة « شيكاغو » (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس ١٩٧٥م وكتبها أصالة في الأردوية ، ونقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » .

وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن ، ودراسته المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على مواد أساسية ومبادئ واضحة تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشقاؤها ، ورقبها وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها ، كشفاً تتحير له الأبواب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولاً لا يجد له التأويل . غير أن هذا الكتاب الذي نزل على « الأمي ابن البادية » - كما يقول إقبال - منزل من الله العليم الخبير الذي فطر السموات والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قَدَّمَ إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

« إن هذا القرآن سند أهل الحق ، في ضميره حياة وروح ، تدرج في بدايته النهاية ، به فتح عليّ باب خير » .

ويقول في ديوان « أسرار خودي » :

« إن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة في الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت » .

إن دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا في غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقل من « اكتشاف » إذا قلنا إن شعر إقبال يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات تاريخية إذا شرحناها شرحاً وافياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيت واحد بعض الحين ، عصارة دراسات عميقة ، ومحصول تأملات طويلة ، ولباب مكثبات

كاملة تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثر وسقنا له شواهد تاريخية ودلائل (وهي كثيرة) أن يأتي رائعاً أخاذاً كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً إلا من كان له اطلاع واسع عميق على التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي وعلى علو القرآن ، وخبرة دقيقة باليهودية والمسيحية ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحق بالقرون المظلمة « Dark Ages » .

ونقدم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلت في شعره ، من غير تدقيق وتمحيص كبير ، واستيعاب شامل ، لكل ما ورد في هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان ، واعتمدنا على شرحه وتصويره وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارى ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادة كل متعلم ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدم هذه الأبيات الأجواء التي أنشدت فيها ، والظروف التي دفعت إليها .

لقد وزعت الديانات القديمة - وخاصة المسيحية - الحياة الإنسانية في قسمين : قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين ، معسكر رجال الدين ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين ، وكانا يعتقدان بأن هناك خصومة وعداء

بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكن له - على حد قولهم - أن يركب سفينتين في وقت واحد ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة وإعراض عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ورضوا بها - كحاجة اجتماعية وواقع حي - واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ، ولم يبق لهم أمل في الدين .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي على الكنيسة التي كانت تمثل الدين وتتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات - بطبيعة المنطق - كغفيل هائج مائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حداً على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللا دينية وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت لها في الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايتها ثانياً ، وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من

الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة^(١) ، وقدموا صورة وحشية كالحجة جائرة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى - في أوسع معناها - إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني أو فقدان الحاسة الدينية في هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة^(٢) .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنتهى العظيمة ، ونداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ولكنه واسع عميق « النية »^(٣) .

إنه لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا ، وذاك مجرد دين ، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص وامتنال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً أو قتالاً أو حكماً أو إدارة أو تمتعاً بطلبات الأرض ، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعيّاً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية - بالعكس من ذلك - تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكرأ وتسبيحاً ،

(١) انظر « تاريخ أخلاق أوربة » ج/ ٢ لمؤلفه ليكي .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لدرابر ، أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للعلامة أبي الحسن علي الندوي ، باب « الإنسانية في الاحتضار » .

(٣) هذا الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذي افتتح به الإمام البخاري الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وقتالاً في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالأ ، وتكون بينه وبين الله حجاباً^(١) .

وإنها ماثرة عظيمة من مآثر سيدنا محمد ﷺ ومنته العامة الخالدة على الإنسانية ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان في إلف وود ويتعايشان في سلام ووئام ، إنه ﷺ رسول الوحدة ، وبشير ونذير في الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إنه أعلن بالآية التالية : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة متضادة ، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيه أمراء وأغنياء في مستوى العباد والزهاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرماً .

واقراً بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان « الدين والسياسة » ، وتأمل كيف قيد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ، ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف في إطار صغير أو زجاجة راتقة من أبيات ، تترامى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك ، انظر أبواب الإخلاص والنية ، والإيمان والاحتساب .

جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع ، كأنها كأس من الزلال أو جزء من السحر الحلال :

« قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها - بالطبع - القيادة والسيادة ، والحكم والإدارة ، فقد كان هنا عداً قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذاك استعلاء كامل واستيلاء .

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرّون على شيء ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعُباد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد »^(١) .

إن التاريخ الإنساني الطويل - الذي أثخن بالجراح وطفح كأسه بالدماء والدموع ، وأحاط بجزئه الأكبر حروب طاحنة ، ومعارك ضارية ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب - يشهد بأن تجمع القوة والحكم في أفراد أو جماعة لم يضر النوع البشري مثل ما ضره وجر الشقاء عليه شهوة الحكم ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فرد أو جماعة ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنه سيل جارف لا يمنعه شيء ، وقضاء الله المبرم الذي لا راد له ، والشعوب المجاورة كلها والإنسانية برمتها عالة عليه وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشرعية السائدة هي القوة ،

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

أما الإنسانية والعدالة الاجتماعية والرحمة والأخلاق والضمير ، والحسن والقبیح والخبیث والطیب ، فهي كلمات فارغة لا تحمل معنى ، ومنطق انهزامي ، منطق العبيد والضعفاء والمساكين ، والأمم المستضعفة التي لا تملك حَوْلًا ولا طَوْلًا ، وكلما يصبح شعار (Might is Right) « القوة هو الحق » مقياس الحق والباطل ، وتمد هذه الفلسفة أجنحتها على شُعَب الحياة كلها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع واتقاء المحارم والصبر عنها ، والحياء وشُعْبَه ، آية الجبن وسمة الضعف والتخاذل ، وتتحول الوسائط غايات وتصبح الغايات ممتدة إلى ما لا نهاية لها ، فهناك ينقلب هذا الفرد أو تنقلب هذه الفئة والجماعة قوة مدمرة عمياء أو بركاناً نارياً هائلاً يتفجر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنمي وسيله الناري حكومات مستقرة ، وإمبراطوريات عظيمة ، ولا تمنعه حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين والمصلحين من أهل الدين ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرون طويلة ، وتسعفها في محنها ورزاياها وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل الناري الجارف يأتي بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كل ما بناه الأوائل ، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة ، وتحول المدن العامرة إلى أنقاض مدمرة ، ومستعمرات زاهرة إلى أراضٍ قاحلة ، تحول العواصم الكبرى إلى مقابر عامة ، والمساجد والمعابد إلى حانات وخانات ، ونوادي الخمر والقمار ، ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة ، إلى مراكز اللهو والترويح والفسق والدعارة ، وينقلب المجتمع كله رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزیزه رذيله ، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً

أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿ [النمل : ٣٤] .

وكانت فريسة هذه الشهوة - شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوق - أمم قديمة ذكرها القرآن ، أمم لم تعرف شيئاً ولم تحسن شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ولا يبالي ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وظهرت نتيجة هذا الذهول - الذهول عن الله - والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوة استعمالاً حراً ، لا يبالي بأي قيد ولا يقف عند حد ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أي وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أي حساب . وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عاد ، هذه الحالة النفسية ، فقال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣٠] .

فحين يتسلم فرد أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنى له قوة تحقق له ما أراد ، هنالك يعبث الفرد أو هذه الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعبث اللاعب بكرة القدم ، أو كما يعبث الطفل بجانب القرطاس أنه يتصرف فيها كذرات رمل وقصاصات ورق ، ويعتبر أنه على حق في العبث بمصائرهما ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً أو قطعها إرباً إرباً .

ويقص علينا القرآن قصة فرعون الذي ظن نفسه رباً وحاكماً ، وتقلد هذا الحكم الأناني المطلق ، فيقول : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْثَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ، ويملك لساناً سليطاً وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فرد معين ، بل إنه تصوير سلوك خاص ونمط خاص من العقلية والتفكير والاتجاه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۚ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ ۚ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَهُكَ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٠٤-٢٠٦] .

إن التاريخ الإنساني زاخر بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ كالروم والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السكر : سكر القوة والحكم والشعور بالتفوق على غيرهم ، رغبة عنيفة في القتل والتدمير والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت في حروبهم ومعاركهم ، وفي عبادة القوة وقهر النفوس ، واضحة جلية ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between: Religion and Science) :

« لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهديب إلى أسفل الدركات ، بטר الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة التمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام في ملابس جميلة خلافة ، وغادات رومية حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون

يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة ، فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأموال ، ويعين إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام روما المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها^(١) .

ثم قرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتاب التاريخ^(٢) ، إن الذين أحسوا في أول صدام بأنه ليس هنا في البلاد المجاورة قوة تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساة إنسانية عامة ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفة ، وعيون باكية ، إنها كانت فتنة عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلامي كله ، وقوضت بنيان العالم المتمدن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنساني كله في هذه الفترة المهيبة المروعة من الزمن في وحشة وغربة ، وهلع وفزع ويأس قاتل ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كتب الشعر والأدب والأخلاق والتصوف أيضاً^(٣) ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً وقاعاً صفصفاً ، بل إنه اكتسح الحضارة الإنسانية برمتها ، وتأخر تقدم العالم العلمي والمدني ومسيرته

(١) History of The Conflict Between Religion and Science. London 1927. p.p 13-2.

(٢) مثل البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) اقرأ بعض تفاصيلها وأخبارها في كتاب العلامة أبي الحسن الندوي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ج ١ ، تحت عنوان « التتار محنة العالم الإسلامي » طبع دار ابن كثير ، دمشق .

الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماء العالم الإسلامي الذي حمل لواء الدين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزمن ، سحب داكنة قاتمة من الانحطاط العلمي والإعياء الفكري والعقلي ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسر علمية دينية عريقة من إيران وتركستان - وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية ومعقلها إذ ذاك - تفر بدينها وحرمتها وتراثها إلى الهند التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلامي ، وكانت تحكمها أسر ذات قوة وشكيمة تواجه العاصفة بالإعصار ، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش ودحرهم إلى الوراء ، وأصاب العالم الإسلامي نوع من العقم الفكري والجذب العلمي ؛ حتى سدت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه ، وابتغت العافية في التقليد والنقل ، وتطبيق الفعل بالفعل^(١) .

إن قيصر ، والإسكندر ، وجنكيز ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ونادر شاه أفشار ، لم يكونوا إلا مرضى هذا انداء العضال ، داء السكر بالقوة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة ، وكانوا يقنصون الإنسانية ، ويصطادون النوع البشري ، ويدوخون الأسرة الإنسانية مرة بعد مرة ، بأسنتهم ورماحهم ، وبأقدامهم ونعالهم ، اقرأ تفاصيل ملاحمهم ، وصيدهم وقنصهم ، وعبثهم بالرؤوس والجماجم والأشلاء والأنفس والأرواح ، ثم تأمل - كيف قدم شاعر الإسلام محمد إقبال عصارة دراسات طويلة وآلاف من الصفحات في ثلاثة أبيات :

« انظر كيف مزق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية ، وهتك ستر الحشمة ولباس الكرامة ففضحا الإنسان مراراً وتكراراً .

إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر في خطر ،

(١) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد بعد القرن الثامن عشر الهجري عند إقبال .

ومصيبة على مصيبة ، إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة ، يجعلها هباء منثوراً » .

قد يرى كثير من رجال الفكر في الشرق أن أوربة (بمعسكريها الشرقي والغربي) وأمريكا أصابتهما هذه العقدة النفسية ، وصرعهما هذا الداء القديم ، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Guardians) على الشعوب والأمم والحاكمين على مصائرهم ، وهم يَزِنُونَ كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة ، ولا يرضون بقيادة صالحة أمينة في أي بقعة من بقاع العالم ، ويحاولون أن يجتثوها حالاً إذا نشأت ، بل يرى كثير من المفكرين والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقي والفوضى الفكرية العامة في البلاد الآسيوية بوجه عام ، وفي البلاد الإسلامية بوجه خاص .

هذا المنطق النفعي المجرد عن الحق والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أي قضية بحياد تام ورغبة مخلصية في التوصل إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلها العادل ، بل إنها تحالف - بالعكس - الظالم القوي في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق .

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها ، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلم شعثاً ولا تحقق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصة مجردة من الأغراض المادية .

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخية في المشاريع العمرانية والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذه المساعدات السخية والدعم القوي .

أما إذا اقترنت هذه القوة وامتزجت بغاية نبيلة سامية ، وصارت تحت توجيه قائد مصلح راشد ، فلا تتخبط كالفيل الهائج الذي أطلق من قيوده ، وتكون

مركباً ذلولاً لقائد عارف خبير لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلة لا غاية ،
وتتحول إلى نعمة ورحمة بدلاً من عذاب ونقمة ، وحياة لا موت ، وأداة بناء
لا معول هدم ، يستنجد بها في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وتحرير
الإنسان من سلاسل العبودية ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى
مجارئها ، ورد اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة في هذه الأرض ،
هنالك يفتح عهد سعيد ، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعي من جديد .

يقول إقبال : « إذا تخلت السياسة عن الدين صارت سماً ناقعاً ، وإذا كانت
في خدمته صارت ترياقاً واقياً » .

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات
النبيلة والمقاصد الصالحة ، هي الفتوح المباركة والمغامرات التي قام بها العرب
الأولون الذين اعتنقوا الإسلام ، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق ،
واستعمالهم للقوة التي آتاهم الله استعمالاً صحيحاً لائقاً ، والذي عبروا عنه على
لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق
الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الآتية الأمة العربية ، وشرح دورهم القيادي
الرائع البناء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، وأشاد بهذه
العقيدة والإيمان والدعوة والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا
التحول العظيم في سير الإنسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهي من غرر
كلامه وعيون شعره باللغة الفارسية :

« اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة ، وأنبتت زهرة
يانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره ،
وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمره .

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعه
الجميلة الوضوءة .

هزم كل طاغوت ، وحطم كل صنم ، وأورق به كل غصن يابس وأزهر
وأثمر ، إنه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربى الصديق والفروق والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيضر من فيضه ، جعل سيف
صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب والتقى بها روح الرومي بفكر الرازي .
 واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع ، والإدارة والحكم مع قلوب
أواهة مخبئة منية في الصدور .

إن جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب
القديسين هو نفحة من نفحاته ، ولمحة قصيرة من لمحاته ، وومضة من أنواره
وبركاته .

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه در مكنون لم يطلع عليه
العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان
على هذه الحفنة من التراب » .

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشؤوا
إمبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور
النهضة والرقى ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشفين
صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التمتع والعيش
الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطة ومرهقة ، ولكنهم نجحوا بفضل مغامراتهم
وطموحهم ، وعلو همتهم ، وجهادهم واجتهادهم ، وصبرهم على المكاره في
تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة ، ولكن توفر
وسائل الهناء والرخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة
المناصب ، أثر في أخلافهم وأعقابهم بصورة تدريجية فشلت قواهم ، وأخلدوا

إلى الأرض ، وتمرغوا في النعيم والترف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهرات ومآرب ، وعز عليهم الحياة من غير كاس ومزمار ، وطنبور وعود ، وارتكز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على نقطة واحدة ، ولم تكن بالطبع ، نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ، وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون والاستمتاع بلذات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيال ابن من أبناء البلد ، وفرد من أفراد الشعب .

إنه مبدأ عام جرى به التاريخ الإنساني منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناء ويبدو لنا أنها سنة من سنن الكون ، ونتيجة طبيعية منطقية للمال والثراء والمنصب والجاه ، وتوفر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ [العلق : ٦ - ٧] .

اقرأ تاريخ شعب من الشعوب في أي دور من أدوار التاريخ وحكومة من الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً ، تر هذا التفاوت واضحاً بين الأول والآخر وبين الأوائل والأواخر في السير والأخلاق وأنماط الحياة ، وفي الأقدار والمقاييس .

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقية في هذا العالم ، وهي أمة نبي جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتي أقامت به من أول يومها على الزهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإن أمثلتها ونظائرها تكثر - طبعاً - في الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكومات وحضارات أخرى .

والواضح المعلوم لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكانت حياتهم حياة شكيمة وفتوة ، وصبر

وجلاد ، وزهد وشظف^(١) ، ولكنهم بفضل القوة الذاتية في الإسلام ، وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاً ذاتياً ، ودان لها نصف العالم المتمدن المعاصر على أقل تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية ومعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوة والمغامرة والإقدام ، متعودين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء الترف والتنعم ، وأصبح ولادة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن ، عالة على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ، ويدورون في فلكها ، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدست عندهم أسباب الراحة والهناء ، وفاضت عاصمتها بغداد بسيل جارف من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدنيا ، عبثت بكثير من رجال العلم والفضل ، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرغ في النعيم والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحولت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرة وحشية هائلة ينتكس عند ذكرها قلم المؤرخين^(٢) .

وقد صور مؤرخ أوضاع بغداد قبل غارة التتر فأحسن وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهروالي المكي (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

(١) اقرأ للتفصيل رسالة « المد والجزر في تاريخ الإسلام » للعلامة أبي الحسن الندوي .
(٢) اقرأ للتفصيل « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلامة أبي الحسن الندوي ، الجزء الأول ، باب « التتار محنة العالم الإسلامي » .

« مرفهون بلبين المهادر ، ساكنون على شط بغداد ، في ظل ثخين ، وماء معين ، وفاكهة وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً »^(١) .

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغولية في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموري (١٤٨٢ - ١٥٣٠ م) على التوبة والإنابة وإرادة الإصلاح والتغيير والتضحية والفداء والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنه لا يملك غير عشرين ألف جندي مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية « رانا سانجا » وأن لا أمل هناك ولا مدد سلك طريقاً جديداً للفتح ، يحكي المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيجاپوري في كتابه (تاريخ فرشته) :

« إن رانا سانجا » توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاد محمد شريف بأن الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمم على القتال وقال : إذا ينبغي لنا أن نتهياً للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم « رانا سانجا » بعشرين ألف مقاتل وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ .

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتية التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاق مع الله ، والتي تجملت وافتخرت بوجود عصاميين ونوابغ وعباقر من بين أبنائها مثل « همايون » و « أكبر » و « أورانك زيب » إلى حماة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام - ١٨٠ .

المنكرات ، تجلى أخيراً بصورة واضحة مؤسفة في حياة « محمد شاه »
(١٧١٩م - ١٧٤٨م) وما جرى في قصره حتى سمي باسم معناه (الماجن)
واشتهر به .

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادة علمية : « إن الملك محمد
شاه لم يغير دينه ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيه ورائده ، إنه أمر بأن يؤذن
بالرحيل كلما مرت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه
القصر إلى الصحراء . . . ولذلك سمي المسكين في الأخير « رنكيلاً » يعني
« الماجن » وهجره وزيره (آصف جاه) عندما رأى حالته ، فانصرف إلى جبال
الدكن وغاباتها » .

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلوي ما يلقي الضوء على تلك
الأوضاع الفاسدة :

« كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل
الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كمية من الورد والأزهار
والبان (التبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم »^(١) .

تأمل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما
بينهما من تفاوت عظيم وبون شاسع ، ثم انظر كيف صور محمد إقبال هذا
التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخرها ، ورقبها
وانحطاطها في بيت واحد : « تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنان ورماح
أولاً ، ولهو وغناء آخراً » .

ولكن هذا المقال لا يتم إلا إذا قلنا : إن هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو
والغناء والترف والمجون ، وتصيبها نوبة عصبية من التمتع بكل لون من ألوان
التنعم ، والإحاطة بكل نعمة من نعم الدنيا ، وتتخطى سائر الحدود الخلقية ،

(١) تذكرة ص/ ١٧٢ .

والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كل حقيقة ، هنالك تتدخل الرحمة الإلهية وتتناولها بعملية جراحية ، ويختار لهذه الجراحة جنكيز وتيموراً ، أو هولاًكو ، أو نادراً ، فيقطع هذا الناسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة ، إنه يقول :

« الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجنون ، وليس التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها - في حينها - القدرة الإلهية » .

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة وحكومات شخصية مستبدة إلى حد كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربة) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرقى والازدهار ، وهي مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة ، وحضارات بائدة في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالة هستيرية عصبية من عبادة النفس ، وتقديس الشهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسامة من الحياة ، والشذوذ الخلقي والجنسي ، والتهالك على كل عاجل وطريف ، ورد فعل عنيف ضد الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذهول التام عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدى إطار اللذة والمنفعة ، وكل ذلك يدل على أن هذه القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحياتها للبقاء ، وأن هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إن تجربة التاريخ تدلنا على أن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقه الميتة دمّاً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادة أو قوة ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادة جديدة ، أو بروز حضارة شابة قوية في الميدان ، لأن القوى العالمية اليوم

متطفلة على مائدة الغرب وتعيش على هامشها وتتبع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمة خاضعة أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أن هذه العملية الجراحية لا تتم على يد قوة أجنبية من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنها - على ما يقول إقبال - مثخنة بجروحها الداخلية الغائرة .

إن الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية والقوة الهائلة من التدمير والإبادة والقتل والفتك ، التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ويأتي حتفها بيدها .

يقول إقبال :

« إن هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ورعداً قاصفاً ، يهدد عش الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله » .

فكر محمد إقبال :

نورد هنا بعض الإيضاحات حول فكر وفلسفة محمد إقبال تتيح للقارىء إدراك مغزى قصائده .

الذات الكونية :

الكون في نظر إقبال ، بكل أشكال وجوده ، ثم خلقه ، يتماسك بفعل روح أساسية شاملة لكل شيء . أو على الصحيح ينشأ منها كل شيء . وتسمى (خودي) أو (شودي مع نطق CH على الطريقة الألمانية) . وهي ما ترجمناه في هذا الديوان بـ (EGO) (الذات بالعربية) ، ومع ذلك فإن (خودي) تختلف عن المعنى اللاتيني لهذه الكلمة أو المعنى الذي أعطاه لها (شوبنهاور) مثلاً ،

كما تختلف عن الكلمة الفرنسية (MOI) التي تعارض (TOI) أو (SOI) وتقرب من كلمة (SELF) الإنكليزية ، وهي الكلمة التي ترجم بها إقبال نفسه هذا المفهوم .

الحياة :

الذات بحركتها تبعد الحياة ، وتدافع عنها ضدّ نقيضها الموت ، وهي في نزاع دائم مع الموت ، وتنتصر عليه على الدوام .

وإذا جاز لنا هذا التشبيه ، فالحياة مثل الجزيء في الطاقة الكهربائية ، توجد ما دامت تؤثر ، وهي تؤثر وتعمل بقوة الذات نفسها ، وضعف الذات يقلص في الحياة شكلها ومداه وقابليتها على الفعل والتأثير ، وعندئذ تضمحل الحياة وتنتهي بالموت .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

قوة الذات تحوّل حبة الخردل إلى جبل .
خور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل .

الذات الفردية ، الأنا :

بفضل الزوجين تنهض الحياة من كلّ جانب ، كأنها جيوشٌ جرّارة . وهكذا تتجزأ الذات ألف مرّة وألف مرّة ، وتدفع الأفراد إلى الظهور في مشاهد كلّية واسعة .

وعندئذ تصبح غاية الفرد البحث عن مجد الذات المطلق (الأنا) ، وتأکید هذه الأنا بالسمو درجة بعد درجة ، ومرحلة بعد مرحلة إلى مستوياتها الرفيعة .

الذات : هي للكائن الفرد الشخصية والقدرة والكمال . وهي - في تطوّرها وارتقائها - تضع المثل العليا ، وتحققها بجهودها .

الجهد العنيف :

طبيعة الذات نفسها تدفعها إلى بلوغ الكمال إلى أقصى حدٍّ ممكن ، وإلى بذل الجهد العنيف .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

يتجاوز الهلال كلَّ وجوهه وجهاً بعد وجه .

من يستطيع بلوغ الغاية القصوى دون جهدٍ كبير ؟

ولبلوغ الكمال لا يجوز لك أن تتجنب الصُّعاب ، بل يجب عليك أن تتغلب عليها .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

غاية ثورة المؤمن .

أن تتجلى عليه ذاته .

والحقُّ أن موسيقا الكون الخالدة لا تقوم إلا على العقبات .

قال إقبال (في رسالة المشرق) :

لا تتجنب الأزمنة الصعبة .

من لم يتخطَّ العقبات لا قيمة له .

ألا تعرف أنَّ الموجة

لا تكون ممتعةً إلا عندما تلطم الصُّخور ؟

الحب والجمال :

هذا الجهد الشَّاقُّ الذي يدفعك إلى تسلق مرتقى الوجود ، والذي يمثل

ظاهرة الذات ، هو الحب .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

الحبُّ أن تبصر الذات ، الحبُّ أن تصون الذات .

وقال :

جوهر الحياة هو الحب ، وجوهر الحب هو الذات .

وهكذا فإن ما نبحت عنه هو الجمال . والذات الفردية ، وهي تتكامل بدافع من طبيعتها ، تنسجم مع الذوات الأخرى ، وتصل إلى مرتبة عليا هي مرتبة الجمال .

الجمال موجود سلفاً ، ولكن نور الحب يزيده غنى بنوع من حادثة الطنين ، يكاد يكون سحرياً .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

بالحب تزداد الوردية ، وشقائق النعمان روعةً وجمالاً .

في نظرة الشاعر ، ذي الصوت الذهبي ، شيء من السحر

في منظور إقبال أن تقدم الذات الفردية يدلاً على الوجهة التي ينمو فيها الجمال ، كما أن تراجع الذات يدلاً على الوجهة التي يزداد فيها القبح^(١) .

قال إقبال :

كل ما يبعث على سمو الذات جميل .

كل ما تدعو إليه الدناءة قبيح كريه .

الفن :

يُعرّف إقبال الفن بهذه العبارات انطلاقاً من مفاهيمه عن الحب والجمال .

قال في (عصا موسى) :

البحث عن الجمال هو الفن .

(١) وهذا ما يحدث في الفيزياء فالقصور الحراري مثلاً يدل على الاتجاه نحو الفوضى ، وهذه الظاهرة يمكن أن تساعد على إدراك فكرة محمد إقبال حول هذه النقطة .

وقال في (جناح جبريل) :

الألوان ، الأجر ، الحجارة ، الكمان ، الكلمات ، الرنات ،

كلها يفتقها سرُّ الفنِّ على حساب جوهرينا .

والفنُّ يقدِّم أدلته تمجيداً للذات ، والذات هي المعيار الوحيد للحكم على

قيمه .

الفنُّ يبعث الحياة في كلِّ من يقتربون منه ، ويفعمهم بالحماسة والنشاط ،

وفرح الحياة الذي يتجلَّى على وجوههم .

قال في (عصا موسى) :

إذا سمعت أغنية فلم تنر وجهك ،

فمعنى ذلك أنَّ المغني بارد القلب .

وقال في (جناح جبريل) :

الشاعر جريءٌ ، إنه يجمِّل الطبيعة .

وقال فيه :

يا شقيقة النعمان ! أيتها العروس ! ما لك تحتجبن عني ؟!

فأنا لست إلا نسمة الصباح .

والإبداع لا يفتر ، والخلق يطرد دون هوادة .

في كلِّ لحظة نسمع من يقول : لو كان هذا ، ولو كان ذاك ، ولكنَّ

الإنسان ، حين يكون فنَّاناً حقيقياً ، يسهم في عمل الخالق .

قال إقبال في (رسالة المشرق) :

أنت خلقت النهار ، وأنا صنعت المصباح .

أنت خلقت الطين ، وأنا صنعت الأقداح .

أنت خلقت الغابة والجبل والصحراء ،

وأنا صنعت الرواق ، والبستان والكرم .

أنت خلقت الحجر ، وأنا صنعت منه المرآة .

أنت خلقت الشَّم ، وأنا استخرجت منه الترياق .

الفن الجميل الوحيد هو الفنُّ الذي يسمو بالروح ، ويلهم الشَّجاعة ، ويوحي بالأمل ، ويعلم العيش في شرف .

أما الفنُّ الذي يفسد الروح ، ويتلفها ، ويضعف الحماسة للعمل والحمية لاكتشاف أسرار الطبيعة ، الفنُّ الذي يضعف الذات ، ويجعلنا عبيداً للناس ، فليس إلا فناً شيطانياً (كما ورد في عصا موسى وأسرار الذات) ولنتذكر هذه الحكمة الهندية :

الحقُّ قوةٌ وجمالٌ^(١) .

نفي الذات :

تجنح مجموعةٌ من الذوات الفردية بطبيعتها ، وهي تسعى نحو الرُّقيِّ والكمال إلى الذوبان في « أنا » جماعية ، وبذلك تخلق ذاتاً لمجموعة تزداد تطوراً وسعةً شيئاً بعد شيء . هذه اللاذات في المستوى الشخصي تُكوِّن الذات في المستوى الجماعي ، وليس في ذلك تخريب للذوات الفردية ، بل فيه ما يدعو إلى دعمها وانسجامها .

قال إقبال في (أسرار نفي الذات) :

نفي الذات هو غاية الذات الشخصية ، بل إنَّه دليل ارتقائها .

وقال في (جناح جبريل) :

ما أسعدني عندما يوهب لي ذوق الذات .

إنه يدفعني إلى الخروج من ذاتي .

ويمكننا إيضاح هذه الفكرة بقولنا : إن المجتمع الإنساني على النطاق

(١) ساتيام ، شيدام ، سندرام ، بالتوالي ، Satyam, chidam, Sandram .

العالميّ سيتمُّ إنجازه بالتعاون على قدم المساواة بين كلّ الأفراد في أوج ازدهارهم ، لا بسيطرة بعضهم على بعض .

الإنسان الكامل :

نفي الذات يبني مجتمعاً لأناس كملة ، تتمتع ذواتهم بأقصى ما لها من بريق . الإنسان الكامل يعشق الحقّ في أقصى مداه ، والذات في أوج مجدها . عبر الحب تصبح الذات حياةً ، ولأن الذات خالدةً ، فالحياة وهي مظهر الذات خالدة كذلك ، ولأن الحبّ يدفع إلى رقيّ الحياة رقيّاً دائماً ، فهو خالد ، وخالدٌ كذلك كل ما يُنجزه الحبّ .

قال إقبال في (جناح جبريل) :

يا مسجد قرطبة ! وجودك هو الحب .

الحبّ خالدٌ ، وما من شيءٍ آخر كاملٌ .

الحب يفتح القلوب ، ويهب للعاشق الرقة ، والوجد ، ولحن الصّرخة في منتصف الليل ، ودموع الصباح ، واستقلال مثل هذا العاشق يجد نبعه في نظام تتبعه الذات الشخصية في طاعتها للذات الكونية .

وهكذا يتكوّن الإنسان الكامل الذي هو سيّد الكائنات في الأرض وفي السماء ، والذي يقنع بالقليل ، أي بالفقر ، « الإنسان المتجرّد » الذي تحرّر من كلّ ما في العالم من مغريات ، لأنه ، حين يسيطر على كلّ شيء ، ليس محروماً أيّ شيء ، وهكذا يتجرّد . إنّ هذا الوحي الربّاني هو الفقر .

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزهد ليس في هجر الطين والماء .

خير أنواع الزهد في غزو كلّ زاوية في الأرض والسماء .

ويطلق إقبال على إنسانه الكامل على حسب ما طرأ عليه من تحوُّلات ، وما

قطع من مراحل الكمال لقب « الإنسان الحر » « الإنسان الجسور » « القلندر »
« الإنسان المتجرد » « الدرويش » إلى غير ذلك من الألقاب .

هذا الإنسان الكامل هو روح الإنسانية المشخصة . وهو في نظر إقبال في
سموّه ، وفي رشاقتة المثل الأعلى للإنسان المتوازن خير توازن يمكن أن
نتصوره :

وترجو أن تسمحوا لنا بالاستشهاد بقصيدتين من ديوانه (عصا موسى) :

المؤمن (في هذا العالم)

ناعمٌ كالحرير في حلقة الأصدقاء .
صلبٌ كالحديد في معركة الحقِّ والباطل ، هذا هو المؤمن .
ينازع السماء ، كأنه نذُّ لها .
يحتقر الأرض ، وهو من الأرض ، هذا هو المؤمن .
لا تجتذب الشُّماني والحمام بصره .
بل يقتنص جبرائيل وإسرافيل ، ذلك هو المؤمن .

(في الجنة)

تقول الملائكة : « ما أشد فتنة المؤمن ! »
وتشتكي الحور : « ما أشد بُعد المؤمن ! »

والقصيدة الثانية

الإنسان المسلم

- يبدو المؤمن كلّ لحظة في نهارٍ جديد .
- يتجلى الله في أقواله وأفعاله .
- السلطان ، والرّفق ، والصفاء والقدرة الكلية :
- هذه العناصر الأربعة ضرورية لبناء المسلم .
- إنّه جار جبريل كما هو إنسان الأرض .
- لا يرتبط ببخارى ولا بيدخشان .
- ما من أحدٍ يعرف هذا السر : المؤمن .
- الذي يبدو أنه قارئ (القرآن) وهو القرآن حقاً !
- نواياه على مقياس مصائر الطبيعة .
- إنّه الميزان في هذا العالم ، إنّه القسطاس في يوم الحساب .
- إنّه الندى الذي ينعش قلب شقائق النعمان .
- إنّه الشيء الذي يرعش قلب الأزهار .
- أيامه ولياليه تعزف لحن الطبيعة الخالد ،
- لحناً مثل سورة (الرحمن) في القرآن ليس لموسيقاها نظير .
- في معمل فكريّ تُصنع النجوم .
- وأنت يا هذا ! اعرف نجم قدرك .
- وانظر كذلك قصيدة (مسجد قرطبة) في جناح جبريل .

الإسلام :

المثال أكثر بلاغة من المفهوم : ولد إقبال ونشأ وعاش في مجتمع إسلامي ، وكان من الطبيعي أن يبحث عن عناصر تفكيره في تاريخ هذا المجتمع .

وبدا لإقبال أنّ خير نموذج يقترحه ، وأنّ خير نظام اجتماعيّ هو أكثر

النظم قريباً من أحلامه ، إنما هو الإسلام في نقائه الأصيل .

ومنذئذ جعل يشرح طوال حياته هذا النظام حسب حاجاته ، واستخلص منه رموزاً شعرية ، ومجازات وإشارات ، نجدها مبثوثة في كل ما كتب ، ونظم .

والحقُّ أنَّ إقبالاً وَّحَد بين الذات الكونية وبين الله ، كما فهم الإسلام وكما فعل (تيكهارد دو شاردان) تقريباً وهو الناشئ في محيطٍ مسيحي ، حين وحد بين (المسيح الكوني) - كما ورد في الإيمان - وبين نقطة (أوميغا) أي بين البداية والنهاية في العلم .

وهذه النقطة جرى تعريفها على أنها النهاية القصوى (Noo- genése) التي تتعلّق بالوجود كله ، والتي ليست خاليةً من بعض أوجه التشابه مع مفهوم الذات الكونية .

ويرى إقبال في شخصية الرسول ﷺ الإنسان الكامل ، كما يجد المجتمع المثالي في صحابته ، مثل أبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعليّ ، وأبي ذر ، وسلمان الفارسي ، وأويس القرني ، وخالد بن الوليد . . . إلخ ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولقد عاشوا جميعاً حياةً نموذجيةً ، ووضعوا حبَّ رسولهم ، وطريقة سلوكهم الذي علّمهم إياه فوق كل شيء : ألا وهو الذات الفردية التي بلغت حدَّ الكمال ، والتي ذابت في الذات الجماعية ، دون أن تتخلى عن قيمتها الشخصية .

ويقارن إقبال بين إنسانه الكامل وبين المفهوم القرآني للإنسان (خليفة الله في أرضه) ويرى أنَّ كون الإنسان خليفة الله في الأرض أرقى درجات الرقي الإنساني . (أسرار الذات) .

والنبي ﷺ وإنَّه ﴿ لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٍ ﴾ كما ورد في القرآن الكريم ، هو أفضل مثل على هذا الخليفة .

ويستطيع كلُّ مؤمنٍ باتباع القرآن الكريم أن يصل إلى هذه المرتبة ، ويتبنّى إقبال فضائل الرسول ﷺ ليزين بها نمودجه في (الإنسان الكامل) .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، فإقبال يشبّه الرسول أحياناً بالله نفسه ، وينسب إليه الصفات الإلهية مثل (الرحمن) وفي هذا التشبيه ما يشير إلى فكرة إقبال من أن العبد يسلك سلوكك السيد ، وما يشير إلى العناصر الأربعة التي تصنع المسلم في اشتراكها معاً .

ثم إنّ إقبالاً تصوّر هذا المفهوم الوارد سلفاً في جناح جبريل :
الذات . .

إنها البحر الذي تحتويه قطرة ماء .
ويقرن هذه القطرة من الماء بالبحر المبدع .

إقبال المتمرد :

الثورة والتمرد يحتلان مركز تفكير إقبال .
يهاجم المحترفين ، وإذا جاز لنا القول : يهاجم محترفي رسالة الدين .
قال في (جناح جبريل) :

ما أجدر أصحاب المناصب العالية في الكنيسة وفي الإسلام بالرثاء !
حصاد جهودهم ظلمة قلوبهم !

وقال في (جناح جبريل) أيضاً :

هل في مسجدك غير المواعظ ؟
كل أحكامك حق ، ولكن المفسرين
يستطيعون ، وهم يفسرونها ، أن يجعلوا من القرآن (بازند) المجوس .

وقال :

البحث عن المعاني الكاملة في مذهب من المذاهب

يعني تدميره في بساطة .

ويشكو إقبال نظام التربية التي يتلقاها الشباب .

قال في (جناح جبريل) :

أشكو إليك يا رب ! هؤلاء الأرباب : أساتذة المدارس :

إنَّهم يعلمون الشَّواهين الصغيرة العبث بالغبار .

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

يبنى معلم المدرسة صرحاً ،

صناعته روح الإنسان .

من أجله قال الفيلسوف (كاغاني) كلمة سحرتني :

« لا تبين جداراً أمام الشمس

إذا أردت نوراً في باحة دارك » .

وقال في (جناح جبريل) :

تركت المدرسة والدير ، وأنا جدُّ حزين ،

فليس فيهما حياة ، ولا حبٌّ ، ولا معرفة ، ولا بصيرة !

ولذلك حمل إقبال على الرُّهد الساكن البليد في اللاهوتي والصُّوفي :

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الرُّهد ليس في البعد عن عالم الماء والطين !

خير أنواع الرُّهد في إخضاع هذا المخلوق من الطين ، هذا المخلوق من

النور .

وورد في (أسرار الذات) :

الحقُّ يقوم على تأكيد الذات أكثر من نكران الذات .

وهناك نصان جديران بالذكر أثارا عاصفة من الاحتجاج عند المسلمين

(الأصوليين) وهما قصيدتان مثيرتان ، هما : (شكوى إلى الله) و (جواب الشكوى) كتبهما إقبال حوالي عام ١٩١٥ م . وفي هاتين القصيدتين يهاجم إقبال الله عزَّ وجلَّ هجوماً عنيفاً ، على ما يتصور أنه موقف متباين تجاه الناس . كما يحارب إقبال فكرة القدر الذي لا مفرَّ منه .

يقول في (جناح جبريل) :

كيف يستطيع هذا النجم أن يدلّني على مصيري ،
والنجم نفسه مهينٌ منبؤٌ في رحاب الفضاء ؟

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

لماذا تخضع إلى قدر العناية الإلهية ؟
لماذا لا تصوغ أنت بنفسك قدرك ؟

وقال :

هذا الذي يقول الحمقى : إنه أسير القدر ،
ما يزال يملك القدرة على تحطيم القدر .

والصحيح ما قاله في (رسالة المشرق) :

أن تعيش لحظة واحدة وأنت أسد
خير لك أن تعيش نعجةً إلى الأبد .

وفي إطار هذه النزعة رسم إقبال صورة إبليس ، ويذكرنا هذا الشيطان في بعض ملامحه بـ (بروموثيوس) سارق النار :

لقد تزوّد إبليس بتلك الشجاعة النموذجية التي تثير العواصف في
الجداول ، والأنهار ، والبحار ؛ بينما يظلُّ رسل الإله ، مثل الخضر ، وإلياس
لا يعملون شيئاً كما ورد في (جناح جبريل) .

إنَّ شجاعة إبليس هي التي منحت قدرة الطين (أي : الإنسان) النزعة إلى
النماء والارتقاء . كما ورد في هذا الديوان .

وإبليس يقيس نفسه بالإنسان : أيمن أن يصبح نذير يتنازعان ؟ أيمن أن يكونا حليفين يتعاونان . وأسفاه ! ما أسهل هزيمة الإنسان ! وعندما يخيب أمل إبليس يحتج هذا الاحتجاج أمام الله :

قال إقبال في رسالة الخلود (جاويد نامه) :

ما ابن آدم ؟ حفنة من الهشيم !
تكفي شرارة واحدة مني للقضاء على هذه الحفنة من الهشيم .
إن لم يكن في هذا العالم غير الهشيم ؛
فلماذا وهبت لي كل هذا المقدار من النار ؟
كسر المرمر شرف لي ،
أما كسر الزجاج فعار علي .

فلسفة إقبال :

فلسفة إقبال في الذات ونفي الذات فلسفة فردية ، وفلسفة اجتماعية في آن واحد، ولها تطبيقاتها في النواحي الثقافية (كالناحية اللغوية مثلاً) والاقتصادية، بل والسياسية .

انتشر في زماننا مفهوم التقارب والتضامن ، وتقدمت الفكرة القائلة بأن في إمكان مجموعات كبرى من الناس أن تتوحد ، وأن تصون أصالة بعض الوحدات الصغيرة المتجمعة ، وازدادت الدعوة إلى صيانة قيمها الذاتية .

ونحن نجد في الميدان الثقافي مثلاً أن رسل « الزنجية » يرون فيها إضافة إلى إنسانية ذات أبعاد كونية . ونجد في الميدان السياسي أن أوربة تسعى إلى الوحدة دون أن تتخلى عن هوية أقطارها . ثم أليست عصبة الأمم ، والأمم المتحدة بمؤسستها GUS, ONU محاولة للتقارب والتعاون بين الشعوب لتحقيق وحدة الجنس البشري ، هذه الوحدة التي يتطلع إليها إقبال .

وعزيمة الشاعر وأهدافه ذات أبعاد عالمية .

قال في (رسالة الخلود) :

الإنسانية هي احترام الإنسان ،
إذاً فيجب الاعتراف بدرجة الرفيعة .

ثم إنَّ تفسير إقبال للإسلام نجد فيه غالباً رنةً عالميةً ، تؤثر في قرائه من غير المسلمين .

ونحن إذا تناولنا مذهب إقبال حسب مفاهيمه الفلسفية الشخصية ، بدا لنا أنه عمد إلى قلب كثير من معاني الألفاظ المدرسية القديمة ، واتَّخذ منها رموزاً جديدة .

ولنضرب مثلاً على ذلك كلمة (خودي) التي كانت مرادفة للانطواء على الذات ، والتي أعطاها معنى (احترام الذات) وكلمة (الفقر) التي تعني عادة التقدير والحرمان ، فاستعملها للدلالة على (السيطرة الأخلاقية) .

إذاً فعلينا أن نفهم هذه الرموز في معناه العريض :

المؤمن ، والمسلم يعنيان : الإنسان المثالي .

الكعبة ، والحرم ، والمعبد تعني : الهدف .

السجود يعني : الجهد العنيف .

الصلاة تعني : الرغبة المحرقة .

الأذان يعني : الدعوة إلى العمل والجهد

وهكذا دواليك .

وإذا كان من الممكن أن يبدو إقبال (هرطقياً) في عيون بعض المسلمين ، فإنَّ مداه تجاوز حدود العالم الإسلامي ، فقد قام بدراسته في (لاهور) و (كمبردج) و (هايدلبرغ) و (ميونيخ) . ولم ينقطع قط عن إذكاء طيب شعره بمواد كثيرة متنوعة . جاء بعض هذه المواد من تبحره في التاريخ ، والفلسفة ، والحقوق ، واللاهوت ، وجاء بعضها من ملاحظاته : من حرية

الشعوب واضطهادها ، وألمه وهو يقظان ، وحلمه بالمجد وهو نائم ، من فورة الأفكار الجديدة ومن ألعاب السياسة ، ومن الحروب المدمرة ، ومن المساومات و(المناورات) في زمن السلم ، ومن المجابهة بين الشرق والغرب .

لقد أصبح إقبال شاعر الشرق في نهضته ويقظته بهذه الأشعار الحارة المغامرة الجريئة ؛ علمنا الإيمان بمستقبلٍ مشرقٍ علينا أن نبدعه بأنفسنا ، واستهوت الشباب أجوبته الواقعية الحية على أَلغاز الوجود ، وألهمت عدداً لا يحصى من القراء ، بل إنها ما تزال تفتن الناس حتى الآن ، وسوف تستمر في فتنتها وسحرها إلى أمدٍ بعيد .

ذلك أن إقبالاً ظلَّ طوال حياته روحاً متفتحة ، جعلت آلام الناس جميعاً آلامها الذاتية ، وأحيت في الكائن الإنسانيّ عنصر الإنسان المبدع الذي يتعاون مع الله ومع الطبيعة .

قال في (جناح جبريل) :

رغم أنَّ الطبيعة لا ينقصها الذوق ،
فاصنع أنت ما لم تستطع الطبيعة صنعه .

وقال في (أجراس سفر القافلة) :

ماذا يلزم الإنسان : طبعٌ رفيعٌ ، وظمأٌ إلى الصفاء ،
قلبٌ حارٌّ ، عينٌ نقيّةٌ ، روحٌ قلقة^(١) .

(١) ديوان « جناح جبريل » ترجمة الأستاذ عبد المعين ملّوحي ، ص ١٧ - ٣٥ .

فلسفة محمد إقبال

لا بد من كلمة موجزة في فلسفة محمد إقبال تعين القارئ على إدراك مرامي الشاعر .

أساس فلسفة إقبال ما سماه «خودي» (الذات أو الذاتية) .

وقد بين مذهبه هذا في كثير من شعره وخص به منظومة سماها أسرار خودي .

وخلاصة هذه الفلسفة ، وما بنى عليها ، وما يتصل بها من آراء :

(أ) أن الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه ، وسر الحياة فيه .

(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد ، وتوليد الآمال .

كما يقول إقبال : « نحن أحياء بتخليق المقاصد ونحن منيرون من شعاع الأمل » .

(ج) وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل ، وسعيها إليه غير متوانية وإقدامها عليه غير هيابة واقتحامها كل عقبة في سبيله كما قال :

« وهي بالمحبة أقوى ، وأحيا وأضوأ » .

(د) والجهاد الدائم ، والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير . والأحجام ، والتردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها .

(هـ) وعلى الإنسان أن يستخرج كل ما في فطرته من مواهب ، وأن يعتمد على نفسه ، ويظهر ذاته في قوله وفعله ، ويحذر التقليد والاعتماد على غيره ، وطلب ما عند الناس والغفلة عما في نفسه من كنوز .

(و) بهذا كله تقوى الذات ، وقوة الذات هي مقصد هذه الحياة . والشاعر

معجب بالقوة في كل شيء ، القوة الحسية ، والقوة المعنوية . وهو بهذا يعجب
بالفيلسوف الألماني نيتشه ويذكره كثيراً ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل
لا القلب ، والجسم لا الروح ، والعلم لا العشق ويقول عنه لم يكن أهلاً لنكتة
التوحيد ، وأنه آمن عقله وكفر قلبه ، وأنه بنى على أسس مسجد .

بل القوة عند إقبال من عناصر الجمال ، فإن الجمال لا يكون بغير جلال .

يقول في القطعة التي عنوانها : الجلال والجمال :

عندي جمال في بهاء أن تُرى في سجدة للقوة الأفلاكُ
ولنغمة من دون نار نفخة ما الحسن إلا بالجلال يُحاكُ

بل يقول في هذه القطعة إنه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية :

لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن وهاجة ولهيبها دراكُ

(ز) والحسن والقبح أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها

وضعفا :

عالم الذات به علو وسفل وبه معرك قُبَح وجمال
في اعتلاء الذات ما يبدو جميل وقبيح ما بدا في الاستفال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك في الجماعة ، ولا تفنى

فيها . وقد بين إقبال في ديوانه أسرار خودي كيف يلتئم الواحد القوي في جماعته

وكيف يسعد بهذا الالتئام ويبقى ولا يفنى . ومن إشارات في هذا :

يا من في القافلة سر رفيقاً وكن وحيداً

ويقول في ضرب كليم في القطعة التي عنوانها الرجل العظيم :

هو في المجمع خال ومن الحشد طليق

مثل شمع الحفل ، في الحفل وحيد ورفيق

الحضارة الحديثة

ويروي إقبال أن الحضارة الأوربية مادية ، لا روح لها ولا قلب ، ويشتد في نقدها ، ويذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلاً ويرد كثيراً ، ويرى أن في الإسلام وحضارته سعادة البشر والتأليف بينهم ، وجمعهم على شرعة الحق أخوة متحابين متعاونين .

فلسفته في هذا الديوان

تتجلى فلسفة إقبال في الذات وما يتصل بها ونظره إلى الحضارتين الإسلامية والأوربية ، وسائر آرائه ، في كل فصول هذا الديوان ، حتى الأدب والفنون الجميلة .

الشعر فيه من الحياة رسالة أبدية لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة أو كان فيه صُور إسرافِلا
صمت طير الصبح أولى من غناء إن سرى في الرّوض باللحن ذبولا
والغناء إن أدى إلى ضعف أو خور فهو حرام :

إن سرت في اللحون دعوة موت حرّم الناي عندنا والربابُ
(ط) والإنسان أعظم الكائنات ، وكل شيء في العالم مسخر له كما في القرآن الكريم :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ ﴿٢٧﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ ۚ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ [إبراهيم : ٣٢-٣٤] .

(ي) والإنسان حرّ غير مجبر ، ومخير غير مسير . عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه . والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد ، والبقاء والفناء في هذه الدنيا بل في الدنيا والآخرة .

فيه عزم على القضاء مُشير وهو في العالمين كالميزان النبات والجماد في قهر الطبيعة ، ولكن المؤمن الحر لا يقيدته إلا إطااعته أحكام ربه :

إن النبات وإن الجامدات لها	من القضاء قيود ذات إحكام
والمؤمن الحر لا شيء يقيدته	لكن لخالقه في قيد أحكام
والمصور ينبغي أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها :	
مقصد الفن في الحياة لهيب	أبدى فما وميض الشرار ؟
يا خيراً بفنه فيه تمت	صنعة العصر والعصور الخوالي
كم ترى من طبيعة وتريها ؛	أرنا الذات فوق هذي المجالي

تفسير اصطلاحات في الديوان

« الفقر »

يشيد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ،
ويعده مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سؤدد ، والمقتحم كل عقبة .

ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان :

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيهـا المسلم تـدري اليـوم ما	قيمة الفولاذ والعَضْبِ الذَكر
هو مِصرَاعٌ من البيت الذي	مضمراً فيه من التوحيد سر
وأرى مِصرَاعَه الثانيَ في	سيف فقر تحتويه كفُّ حر

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاح	في حومة الحرب كالرجوم
وقوله في قطعة « السلطان » :	

تعلّم فألف مقام وشأن	لفقر بدا فيه روح القرآن
وقوله في قطعة « الإمامة » :	

يُمَرّ عليك من فقر مَسْناً	فيطبع منك سيفاً للمنايا
وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :	

أيّ ملك مقام فقر ، ولكن	تؤثر الذل مدعناً ما احتيالي
وقوله في القطعة التي أولها : متاعك في الحياة فنون علم .	

وما إن ذل قوم قد أعدّوا	حماس العشق والفقر الغيور
ويتبين من التأمل في هذه الأبيات أن الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو	

قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتز به من متاع الدنيا . فماذا يعني إقبال حين يذكر الفقر ويشيد به ويبالغ في إكباره ؟ الذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلطاً لا يُعجز سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسّر به بعض الصوفية الفقر .

ففي رسالة القشيري :

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدّق في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب عوارف المعارف للسهروردي :

« وقال الكتاني : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى ؛

لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات ، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده .

قلندر

يعني به إقبال الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولا دار .
وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب وأحدث طريقة كان سالكوها
يديمون السفر لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن ويحلّقون
رؤوسهم ولحاهم .

وسمى سالك هذه الطريقة قلندراً باسم صاحب الطريقة .
وقد رأيت أن أبقى اللفظ في الترجمة لأنه علم في الأصل ، وجعلته أحياناً
وصفاً وأحياناً نسبت إليه فقلت : القلندر والقلندري .

الجنون

يكرر الشاعر ذكر الجنون في الديوان ، ففي القطعة التي أولها :
إلى عصابات العرب ما أنا مُتَمِّمٌ ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي
يقول :

فلست أرى في بيدك اليوم جنة تشبّ بهذا العقل نار التقدّم
وفي القطعة التي أولها :
متاعك في الحياة فنون علم :
يقول :

ومزّقتُ الجيوبَ وأنت خال جنوني - لا ألومك - في قُصور
وفي القطعة ، « يا شيخ الحرم » :
في جنوني لسك أسرار بدت فاجزني يا شيخُ عن هذا اللّم
وفي القطعة التي عنوانها « المدرسة » :

أبعد الدرس عن حماك جنونا قال للعقل : لا تُلْذُ بنقاش
وفي القطعة « فلسفة » :

إن في حلقة المجانين عقلاً في شرار يرى لهيباً مُضِيّاً
وظاهر أن إقبالاً يعني بهذا الجنون الحماسَ والإقدامَ وأداء الواجب دون
تردد ، وفي غير حساب للمشقة والربح والخسارة ، فهو قريب من العشق الذي
يذكر في مقابلة العقل .

وكانه يقول : إن هذا الإقدام يَعُدُّه الناس جنوناً ، ونحن نحب هذا
الجنون^(١) .

(١) من أراد أن يستزيد من الاطلاع على سيرة وحياة الشاعر العظيم محمد إقبال ، فليقرأ
« محمد إقبال سيرته وفلسفته » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « روائع إقبال » للعلامة
أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، و « إقبال الشاعر الثائر » للأستاذ نجيب الكيلاني ،
و « محمد إقبال الشاعر المفكر الفيلسوف » للمؤلف .

الذَّيَّوَانُ الْأَوَّلُ

صَلْصَلَةُ الْجَرَسِ
بَانْكَادِرَا

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ نَثْرًا

ثُمَّ صَاغَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا

الشيخ صاومي شعلان المصري

يُعتبر هذا الديوان من أول دواوين محمد إقبال الشعرية باللغة الأردوية ، وهو من أكثر دواوينه رواجاً ، حتّى فيه الشاعرُ المسلمونَ على التّضحية والعمل ، كي يستعيدوا منزلتهم من المجد والرفعة ، يحتوي هذا الديوان على أروع الأناشيد الإسلامية ، وأعظم قصائد الرثاء .

ومن أشهر الأناشيد الإسلامية فيه « النشيد الإسلامي » والقصائد « الشكوى وجواب الشكوى » وقد وَصَفَ الشاعرُ في « الشكوى » مصائب المسلمين ، وفي « جواب الشكوى » آمالهم ، لا يوجد لهذه القصيدة نظير في القصائد الإسلامية في القوّة والانسجام ، نُقدّم هنا نشيداً وقصيدة مترجمة بالعربية شعراً ، هما من أشهر أناشيد وقصائد هذا الديوان .

النشيد الإسلامي

الصَّيْنُ لَنَا وَالْعَرْبُ لَنَا
 أَضْحَى الْإِسْلَامُ لَنَا دِينًا
 تَوْحِيدُ اللَّهِ لَنَا نَوْرُ
 الْكَوْنُ يَزُولُ وَلَا تُمَحَى
 بُنِيَتْ فِي الْأَرْضِ مَعَابِدُهَا
 هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ نَحْفَظُهُ
 فِي ظِلِّ السَّيْفِ تَرْبِينَا
 عَلِمُ الْإِسْلَامُ عَلَى الْأَيَّامِ
 بِهَلَالِ النَّصْرِ يُضِيءُ لَنَا
 وَأَذَانُ الْمُسْلِمِ كَانَ لَهُ
 قَوْلُوا لِسَمَاءِ الْكَوْنِ لَقَدْ
 يَا دَهْرُ لَقَدْ جَرَبْتَ عَلَى
 طُوفَانِ الْبَاطِلِ لَمْ يُغْرِقْ
 يَا ظِلُّ حِدَائِقِ أَنْدَلِسِ
 وَعَلَى أَغْصَانِكَ أَوْكَارُ
 يَا دَجَلَةُ هَلْ سَجَلْتَ عَلَى
 أَمْوَالِكَ تَرْوِي لِلدُّنْيَا
 يَا أَرْضَ النُّورِ مِنَ الْحَرَمِ
 رَوْضُ الْإِسْلَامِ وَدَوْحَتُهُ
 وَمُحَمَّدُ كَانَ أَمِيرَ الرِّكَدِ
 وَالْهِنْدُ لَنَا وَالْكُلُّ لَنَا
 وَجَمِيعُ الْكَوْنِ لَنَا وَطَنًا
 أَعَدَدْنَا الرُّوحَ لَهُ سَكَنًا
 فِي الدَّهْرِ صَحَائِفُ سُودِدِنَا
 وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ كَعَبْتُنَا
 بِحَيَاةِ الرُّوحِ وَيَحْفَظُنَا
 وَيَتَيْنُنَا الْعِزَّ لِدَوْلَتِنَا
 مِ شَعَارِ الْمَجْدِ لِمَلَّتِنَا
 وَيُمَثِّلُ خَنْجَرَ سَطْوَتِنَا
 فِي الْغَرْبِ صَدَى مِنْ هَمَّتِنَا
 طَاوَلْنَا النَّجْمَ بِرِفْعَتِنَا
 نِيرَانِ الشُّدَّةِ عَزَمَتِنَا
 فِي الْخَوْفِ سَفِينَةُ قَوَّتِنَا
 أَنْسَيْتَ مَغَانِي عِشْرَتِنَا
 عَمَرَتْ بِطَلَائِعِ نَشَائِتِنَا
 شَطِّيكَ مَاثِرَ عَزَّتِنَا
 وَتُعِيدُ جَوَاهِرَ سِيرَتِنَا
 مِنْ وَيَا مِيلَادَ شَرِيعَتِنَا
 فِي أَرْضِكَ رَوَّاهَا دُمْنَا
 سَبَّ يَقُودُ الْفَوْزَ لِنُصْرَتِنَا

إِنَّ اسْمَ مُحَمَّدٍ الهَادِي
دَوَّثَ أَنْشُودَةً « إِبْرَاهِيمَ »
لِيُعِيدَ قِسْوَافِلَنَا الْأُولَى

رُوحُ الْأَمْسَالِ لِنَهْضَتِنَا
جَسَاساً يَحْدُو فِيهِ الزَّمَنُ
فِي الْمَجْدِ وَيَبْعَثُ أُمَّتَنَا

الشكوى وجواب الشكوى

(حديث الروح)^(١)

شكواي أم نجواي في هذا الدجى
أمسيت في الماضي أعيش كأنما
والطير صادحة على أفنانها
قد طال تسهيدي وطال نشيدها
فإلى متى صمتي كأنني زهرة
ونجوم ليلى حسدي أو غودي
قطع الزمان طريق أمسي عن غدي
تبكي الربى بأنينها المتجدد
ومدامعي كالطل في الغصن الندي
خرساء لم تُرزق براعة مُنشد

قنّارتني ملئت بأنات الجوى
صعدت إلى شفتي بلابل مُهَجّتي
أنا ما تعدّيت القناعة والرضا
أشكو وفي فمي التراب وإنما
يشكو لك اللهم قلب لم يعيش
لا بُدّ للمكبوت من فيضان
ليبين عنها منطقي ولساني
لكنما هي قصة الأشجان
أشكو مُصاب الدين للدّيان
إلا لحمد غلاك في الأكوان

قد كان هذا الكون قبل وجودنا
والورد في الأكمام مجهول الشذا
بل كانت الأيام قبل وجودنا
لما أطل محمّد زكت الربى
وأذاعت الفردوس مكنون الشذا
رَوْضاً وأزهاراً بغير شمين
لا يُرتجى ورد بغير نسيم
ليلاً لظالمها وللمظلوم
واخضر في البستان كل هشيم
فإذا الورى في نضرة ونعيم

(١) اشتهرت هذه القصيدة في البلاد العربية بهذا العنوان ، والصحيح ما عنونها الشاعر بـ
« الشكوى وجواب الشكوى » .

مَنْ كَانَ يَهْتَفُ بِاسْمِ ذَاتِكَ قَبْلَنَا
عَبَدُوا تَمَائِيلَ الصُّخُورِ وَقَدَّسُوا
عَبَدُوا الْكَوَاكِبَ وَالنُّجُومَ جَهَالَةً
هَلْ أَغْلَنَ التَّوْحِيدَ دَاعِ قَبْلَنَا
كُنَّا نَقْدُمُ لِلسُّيُوفِ صُدُورَنَا

مَنْ كَانَ يَدْعُو الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ
مِنْ دُونِكَ الْأَخْجَارَ وَالْأَشْجَارَ
لَمْ يَبْلُغُوا مِنْ هَدْيِهَا أَنْوَارَ
وَهْدَى الشُّعُوبِ إِلَيْكَ وَالْأَنْظَارَ
لَمْ نَخْشَ يَوْمًا غَاشِمًا جَبَّارًا

قَدْ كَانَ فِي الْيُونَانِ فِلَسْفَةٌ وَفِي الْـ
لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ قُوَّةٌ أَوْ ثَرَوَةٌ
وَبِكُلِّ أَرْضٍ سَامِرِيٍّ مَآكِرُ
وَالْحِكْمَةُ الْأُولَى جَرَتْ وَثَنِيَّةٌ
نَحْنُ الَّذِينَ بِنُورٍ وَخِيكَ أَوْضَحُوا

مَنْ ذَا الَّذِي رَفَعَ السُّيُوفَ لِيَرَفَعَ اسْمُ
كُنَّا جِبَالًا فِي الْجِبَالِ وَرُبَّمَا
بِمَعَابِدِ الْإِفْرَنْجِ كَانَ أَذَانُنَا
لَمْ تَنْسَ إِفْرِيقِيَّةٌ وَلَا صَخْرَاؤُهَا
وَكَانَ ظِلُّ السَّيْفِ ظِلُّ حَدِيقَةٍ

لَمْ نَخْشَ طَاغُوتًا يَحَارِبُنَا وَلَوْ

نَصَبَ الْمَنَآيَا حَوْلَنَا أَشْوَارًا

(١) فِي الْأَصْلِ هَكَذَا ، وَفِيهِ اضْطِرَابٌ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَسْتَقِيمَ الْوِزْنُ عَلَى حِسَابِ الْمَعْنَى

فَيَكُونُ :

قَدْ كَانَ فِي (الْيُونَانِ) وَ (الرُّومَانِ) مَذْ رَسَةً ، وَكَانَ الْمُلْكُ فِي سَاسَانِ

نَدْعُو جِهَاراً لَا إِلَهَ سِوَى الَّذِي صَنَعَ الْوُجُودَ وَقَدَّرَ الْأَقْدَارَ
وَرَوْسُنَا يَا رَبِّ فَوْقَ أَكْفُنَا نَرْجُو ثَوَابَكَ مَغْنِماً وَجِوَارَ
كُنَّا نَرَى الْأَصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ فَتَهْدِمُهَا وَتَهْدِمُ فَوْقَهَا الْكُفَّارَ
لَوْ كَانَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ لَحَازَهَا كُنْزاً وَصَاغَ الْحِلْيَ وَالذِّينَارَ

كَمْ زُلْزِلَ الصَّخْرُ الْأَشْمُ فَمَا وَهَى مَنْ بَأْسِنَا عَزَمَ وَلَا إِيْمَانُ
لَوْ أَنَّ آسَادَ الْعَرِينِ تَفَزَّعَتْ لَمْ يَلْقَ غَيْرَ ثَبَاتِنَا الْمِيدَانُ
وَكَأَنَّ نِيرَانَ الْمَدَافِعِ فِي صُدُوءِ رِ الْمُؤْمِنِينَ الرُّوحُ وَالرَّيْحَانُ
تَوْحِيدِكَ الْأَعْلَى جَعَلْنَا نَقْشَهُ نُوراً يُضِيءُ بِصُبْحِهِ الْأَزْمَانُ
فَغَدَتْ صُدُورُ الْمُؤْمِنِينَ مَصَاحِفاً فِي الْكُؤْنِ مَسْطُوراً بِهَا الْقُرْآنُ

مَنْ غَيْرُنَا هَدَمَ التَّمَاثِيلَ الَّتِي كَانَتْ تُقَدِّسُهَا جَهَالَاتُ الْوَرَى ؟
حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجَّداً لَجَلَالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصَوَّراً
وَمَنْ الْأُلَى حَمَلُوا بِعَزَمِ أَكْفَهُمْ بَابَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ^(١)
أَمَّنْ رَمَى نَارَ الْمَجُوسِ فَأُطْفِئَتْ وَأَبَانَ وَجْهَ الْحَقِّ أُنْبَلَجَ نَيْراً^(٢) ؟
وَمَنْ الَّذِي بَذَلَ الْحَيَاةَ رَخِيصَةً وَرَأَى رِضَاكَ أَعَزَّ شَيْءٍ فَاشْتَرَى

نَحْنُ الَّذِينَ اسْتَيْقَظَتْ بِأَذَانِهِمْ دُنْيَا الْخَلِيقَةِ مِنْ تَهَاوِيلِ الْكَرَى
نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا دُعُوا لَصَلَاتِهِمْ وَالْحَرْبُ تَسْقِي الْأَرْضَ جَاماً أُخْمَرَا

(١) هُوَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي حَمَلَ بَابَ حِصْنِ خَيْبَرَ وَجَعَلَهُ ثَرْساً لَهُ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَذَلِكَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ .

(٢) هُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ بْنُ سُبُكْتِكِينَ الْغَزْنَوي .

في مسمع الرُّوح الأمين فكَبِّرا
لكَ بالخُشوعِ مصلِّياً مُستَغْفِرا
سجدا لوجهك خاشعينَ على الثرى

جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكَبِّروا
محمودُ مثلُ إياز^(١) قام كلاهما
والعبدُ والمولى على قدَمِ التقى

وكأنَّ أبخرها رمالُ البِيدِ
بالنَّصر أوضَحَ من هلالِ العِيدِ
للمجدِ تُعلنُ آيةَ التَّوْحِيدِ
إلا عبيداً في إسارِ عبيدِ
من بعد أصفادٍ وذلِّ قيودِ

بلغتْ نهايةَ كلِّ أرضٍ خيلنا
في محفلِ الأكوانِ كان هلالنا
في كلِّ موقعةٍ رفعنا رايةَ
أُممِ البرايا لم تكن من قبلنا
بلغت بنا الأجيالُ حرَّياتها

عُرفَ الشُّجودُ ببيتك المغمُورِ
يحوي جلالَ كتابك المسطورِ
فالخلقُ في الدُّنيا بغيرِ شعورِ
من ملجِدِ عاتٍ ومن مغرورِ
واختصَّنا بصواعقِ التَّدْمِيرِ

رُحماك ربِّ هل بغيرِ جَباہِنا
كانت شِغافُ قلوبنا لك مُضحفاً
إن لم يكن هذا وفاءً صادقاً
ملاً الشعوبَ جُنَّاتِها وعُصَّاتِها
فإذا السَّحابُ جرى سقاہم غيثه

واستيقظت من قبل نفخِ الصُّورِ
فكأنَّهم مَوْتى لغيرِ نُشورِ
وغدت منازلُها ظلالَ قُبورِ
في أنعمِ ومواكبِ وقُصورِ

قد هبَّتِ الأصنامُ من بعد البلى
والكعبةُ العليا توارى أهلُها
وقوافلُ الصَّحراءِ ضلَّ حُدَّاتُها
أنا ما حسدتُ الكافرینَ وقد غَدُوا

(١) إياز : هو مولى السلطان محمود السبكتكين .

بَلْ مِحتَي أَلَا أرى فِى أَمَّتِى عملاً تَقَدُّمُه صَدَاقَ الحُورِ^(١)

لَكَ البرِّيَّةُ حكمةً ومشيئةً
إِنْ شئتَ أَجريتَ الصَّحارى أَنهراً
فإذا دُهي الإسلامُ فى أبنائه
فشراؤُهُم فقرٌ ودولةٌ مجدهم
عاقبتنا عدلاً فهبْ لعدونا
أَغَيْتَ مَذاهِبُها أُولى الألبابِ
أو شئتَ فالأنهارُ موجُ سَرابِ
حتَّى انطَوَّوا فى محنةٍ وعذابِ
فى الأرضِ نهبٌ ثعالِبِ وذئابِ
عن ذنبه فى الدَّهرِ يومَ عقابِ

عاشُوا بِشَرَوْتِنَا وعشنا دُونَهُم
الَّذِينَ يَخِيا فى سعادةٍ أهله
أَيْنَ الَّذِينَ بَنارِ حَبِّكَ أَرْسَلُوا الـ
سَكَبُوا اللَّيالى فى أَنينِ دُموعِهِم
والشمسُ كانت من ضياءِ وُجُوهِهِم
للموتِ بَيْنَ الذُّلِّ والإملاقِ
والكَأْسُ لا تَبقى بغيرِ السَّاقِى
أنوارَ بَيْنَ محافلِ العُشَّاقِ
وتوضَّؤُوا بمِدامِ الأَشواقِ
تُهْدِى الصَّبَّاحَ طلائِعَ الإِشراقِ

كَيْفَ انطَوَّتْ أياْمُهُم وهُمُ الأُلَى
هَجَرُوا الدِّيَّارَ فَأَيْنَ أَرْمَعُ^(٣) رَكْبُهُمْ
يا قَلْبُ حَسْبُكَ لَمْ تُلَمْ^(٤) بِطِيفِهِمْ
فازُوا مِنَ الدُّنْيا بِمَجْدِ خالِدِ
نَشَرُوا الهُدَى وَعَلَوْا مَكَانَ الفَرْقَدِ^(٢)
مَنْ يَهْتَدِى لِلْقَوْمِ أو مَنْ يَقْتَدِى
إِلَّا عَلَى مِصْبَاحِ وَجْهِ مُحَمَّدٍ
ولَهُم خُلُودُ الفُوزِ يومَ الموعِدِ

(١) الصداق : المهر .

(٢) الفَرْقَدُ : وهو نجم قريب من القطب الشمالى ثابت الموقع تقريباً ، ولذا يُهْتَدى به ،

وهو المسمَّى « النجم القطبى » .

(٣) أَرْمَعُ : قَصَدَ وتوجَّه .

(٤) لَمْ تُلَمْ : لم تنزل بهم .

يَا رَبِّ أَلْهِمْنَا الرَّشَادَ فَمَا لَنَا فِي الْكَوْنِ غَيْرَكَ مِنْ وَلِيٍّ مُرْشِدٍ

مَا زَالَ قَيْسٌ وَالْغَرَامُ كَعَهْدِهِ
وَهَضَابُ نَجْدٍ مِنْ مَرَاغِيهَا الْمَهَا
وَالْعَشْقُ فَيَّاضٌ وَأُمَّةٌ أَحْمَدِ
لَوْ حَاوَلْتُ فَوْقَ السَّمَاءِ مَكَانَةً
مَا بِأَلْهَا تَلْقَى الْجُدُودَ عَوَائِرًا^(١)
وَرَبِيعٌ لَيْلَى فِي ربيعِ جَمَالِهَا
وَضَبَاؤُهَا الْخَفَرَاتِ مَلَأُ جِبَالِهَا
يَتَحَفَّزُ التَّارِيخُ لِاسْتِقْبَالِهَا
رَفَّتْ عَلَى شَمْسِ الضُّحَى بِهَلَالِهَا
وَتَصُدُّهَا الْأَيَّامُ عَنْ آمَالِهَا

هَجَرُ الْحَبِيبِ رَمَى الْأَحْبَةَ بِالنَّوَى
لَوْ قَدْ مَلَلْنَا الْعِشْقَ كَانَ سَبِيلُنَا
أَوْ نَصْنَعُ الْأَصْنَامَ ثُمَّ نَبِيعُهَا
أَيَّامُ سَلْمَانَ بِنَا مَوْصُولَةً
وَأَصَابُهُمْ بِتَصَرُّمِ الْأَمَالِ
أَوْ نَسْتَكِينُ إِلَى هَوَى وَضَلَالِ
حَاشَا الْمَوْحِدَ أَنْ يَذَلَّ لِمَالِ
وَتُقَى أُوَيْسَ فِي أَذَانِ بِلَالِ

يَا طَيْبَ عَهْدٍ كُنْتَ فِيهِ مَنَارَنَا
وَأَسْرَتْ فِيهِ الْعَاشِقِينَ بِلَمَحَةٍ
أَحْرَقْتَ فِيهِ قُلُوبَهُمْ بِتَوْقِدِ الْإِيمَانِ لَا بَتَلْهُبِ النَّيِّرَانِ
لَمْ نَبْقَ نَحْنُ وَلَا الْقُلُوبُ كَأَنَّهَا
إِنْ لَمْ يُنَرَّ وَجْهُ الْحَبِيبِ بِوَصْلِهِ
فَبَعَثْتَ نَوْرَ الْحَقِّ مِنْ فَارَانِ
وَسَقَيْتَهُمْ رَاحًا بِغَيْرِ دَنَانِ
لَمْ تَخْطَ مِنْ نَارِ الْهَوَى بِدُخَانِ
فَمَكَانُ حُزْنِ الْقَلْبِ كُلُّ مَكَانِ

يَا فَرِحَةَ الْأَيَّامِ حِينَ نَرَى بِهَا
رَوْضَ التَّجَلِّيِّ وَارْفَ الْأَغْصَانِ

(١) الْجُدُودُ الْعَوَائِرُ : الْحُظُوظُ الْخَائِبَةُ .

ويعود محفلنا بحسبك مسفراً كالضُّبَح في إشراقه الفينان
قد هاجَ حزني أن أرى أعداءنا بين الطُّلَا^(١) والظُّلِّ والألحان
ونعالجُ الأنفاس نحن ونصطلي في الفقرِ حينَ القومِ في بستان
أشرق بنورك وابعثِ البرق القديمَ بومضةٍ لِفَرَّاشِكَ الظُّمآنِ

أشواقنا نحوَ الحجازِ تطلَّعت
إنَّ الطيورَ وإنَّ قصَّصتَ جناحها
قيثارتني مكبوتةً ونشيدُها
واللَّحْنُ في الأوتارِ يرجو عازفاً
والطُّور^(٢) يرتقبُ التجلِّي صارخاً
كحينِ مُغْتَرِبٍ إلى الأوطان
تسمو بفطرتها إلى الطَّيران
قد ملَّ من صمتٍ ومن كتمان
ليسوخَ من أسرارهِ بمعانٍ
بهوى المَشُوقِ ولَهْفَةِ الحَيْرَانِ

أكبادنا احترقتُ بأناتِ الجوى
والعطرُ فاض من الخمائل والرُّبا
أو ليس من هَوْلِ القيامة أن يكو
النَّمْلُ لا يخشى سليماناً إذا
أرشدُ براهمةَ الهُندِ ليرفعوا الـ
ودماؤنا نهرُ الدَّموعِ القاني
وكأنَّه شكوى بغير لسان
ن الزَّهْرُ نَمَّاماً^(٣) على البُستانِ
حَرَسَتْ قُراه عنايةَ الرَّحمنِ
إسلامَ فوقَ هياكلِ الأوثانِ

ما بالُ أغصانِ الصَّنوبرِ قد نأت
وتعرَّتِ الأشجارُ من حُللِ الرُّبا
عنها قَمَارِيْهَا^(٤) بكلِّ مكانٍ
وطيورها فرَّت إلى الوديانِ

(١) الطُّلَا : الخمر .

(٢) الطُّور : هو الجبل الذي تجلَّى الله عليه لموسى عليه الصلاة والسلام وكلمه .

(٣) نَمَّاماً : هو مَنْ يُزَيِّن للناس الكلام بالكذب .

(٤) القماريُّ : هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت .

يَا رَبِّ إِلَّا بُلْبُلًا لَمْ يَنْتَظِرْ وَحَيَّ الرَّبِّيعَ وَلَا صَبَا^(١) نَيْسَانَ
الْحَانَهُ بِحَرٍّ جَرَى مُتَلَاظِمًا فَكَأَنَّهُ الْحَاكِي عَنْ الطُّوفَانِ
يَا لَيْتَ قَوْمِي يَسْمَعُونَ شِكَايَةَ هِيَ نِي ضَمِيرِي صِرْخَةُ الْوَجْدَانِ

إِنَّ الْجَوَاهِرَ حَيَّرَتْ مِرَاةَ هـ إِذَا الْقَلْبِ فَهُوَ عَلَى شَفَا الْبُرْكَانِ
أَسْمِعُهُمْ يَا رَبِّ مَا أَلْهَمْتَنِي وَأَعِذْ إِلَيْهِمْ يَقْظَةَ الْإِيمَانِ
وَأَذْقَهُمُ الْخَمَرَ الْقَدِيمَةَ إِنَّهَا عَيْنُ الْيَقِينِ وَكُوْثَرُ الرِّضْوَانِ
أَنَا أَعْجَمِي الدَّنَّ لَكِنْ خَمَّرْتَنِي صُنْعُ الْحِجَّازِ وَكَرْمِهَا الْفَيْنَانِ^(٢)
إِنْ كَانَ لِي نَغْمُ الْهَنُودِ وَلَحْنُهُمْ لَكِنْ هَذَا الصَّوْتُ مِنْ عَدْنَانِ

(١) صَبَا : رِيح طَيِّبَةٌ تهب من جهة الشرق .

(٢) الْفَيْنَان : أَي ذُو الْأَفْنَان طَوِيل الْأَغْصَانِ .

جواب الشكوى

ثُمَّ نَظَمَ مُحَمَّدٌ إِقْبَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ قَصِيدَةً أُخْرَى وَضَّحَ فِيهَا تَقْصِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِهْمَالَهُمْ لِدِينِهِمْ ، وَعَدَمَ إِتْقَانِهِمْ أَمْرَ الدُّنْيَا ، تَبْرِيراً لِمَا جُوزُوا بِهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ ، وَسَرْعَانَ مَا تَغْنَى بِهِاتَيْنِ الْقَصِيدَتَيْنِ الْأَطْفَالَ ، وَالشَّبَابُ ، وَحَفْظَهُمَا الرِّجَالَ ، وَالنِّسَاءَ ، وَسَارَتَا مَسِيرَ الرِّيحِ وَطَارَتَا بِغَيْرِ جَنَاحٍ .

كَلَامُ الرُّوحِ لِلْأَرْوَاحِ يَسْرِي ^(١)	وَتُذَرِّكُهُ الْقُلُوبُ بِلَا عَنَاءٍ ^(٢)
هَتَفْتُ بِهِ فَطَارَ بِلَا جَنَاحٍ	وَشَقَّ أَنْيَنُهُ صَدْرَ الْفَضَاءِ
وَمَعْدَنُهُ تُرَابِيٌّ وَلَكِنْ	جَرَتْ فِي لَفْظِهِ لَغَةُ السَّمَاءِ
لَقَدْ فَاضَتْ دُمُوعُ الْعِشْقِ مِنِّي	حَدِيثاً كَانَ عُسْوِيَّ النَّدَاءِ
فَحَلَّقَ فِي رِبَا الْأَفْلَاقِ حَتَّى	أَهَاجَ الْعَالَمَ الْأَعْلَى بِكَائِي

تَحَاوَرَتِ النُّجُومُ وَقُلْنَ صَوْتٌ	بِقَرَبِ الْعَرْشِ مَوْصُولِ الدُّعَاءِ
وَجَاوَيْتِ الْمَجَرَّةَ عَلَّ طَيْفَاً	سَرَى بَيْنَ الْكَوَاكِبِ فِي خَفَاءِ
وَقَالَ الْبَدْرُ هَذَا قَلْبُ شَاكِ	يَوَاصِلِ شَذْوَهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ
وَلَمْ يَعْرِفْ سِوَى رِضْوَانِ صَوْتِي	وَمَا أَحْرَاهُ عِنْدِي بِالْوَفَاءِ
أَلَمْ أَكُ قَبْلُ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ	فَأَخْرَجَنِي إِلَى حِينِ قَضَائِي

(١) يَسْرِي : يَجْرِي .
(٢) عَنَاءٌ : تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ .

وقيل هو ابن آدم في غُرُورٍ تجاوزَ قَدْرَه دُونَ اِزْعِواءٍ^(١)
لقد سَجَدَتْ ملائكةُ كرامٍ لهذا الخلق من طينٍ وماءٍ
يُظَنُّ العِلْمُ في كيفٍ وكمٍ وسرُّ العَجْزِ عنه في انطِواءٍ
وملءٌ كُؤُوسِه دمعٌ وشكوى وفي أنغامِه صوتُ الرَّجاءِ
فيا هذا لقد أبلغتَ شيئاً وإنْ أَكْثَرْتَ فيه مِنَ المِراءِ

عَطَايانا سَحَائِبُ مُرْسَلَاتٍ ولكنْ ما وجدنا السَّائِلِينَ
وكلُّ طَرِيقِنَا نَوُورٌ^(٢) وَنُورٌ ولكنْ ما رأينا السَّالِكِينَ
ولم نجدِ الجِوَاهِرَ قَابِلَاتٍ ضياءَ الوحي والنُّورِ المَبِينِ
وكان تراب آدم غيرَ هذا وإنْ يَكُ أصلُه ماءً وَطِينِ
ولو صدقوا وما في الأرض نهرٌ لأَجْرِينَا السَّمَاءِ لَهُم عُيُونِ

وأخضعنا لِمُلْكِهِم الثُّرَيَّا وشيَّدنا النُّجُومَ لَهُم حُصُونِ
ولكنْ أَلْحَدُوا في خَيْرِ دِينِ بنى في الشَّمْسِ مُلْكَ الأوَّلِينَ
ثُراثُ مُحَمَّدٍ قد أهملوه فعاشوا في الخلائق مُهْمَلِينَ
تولَّى هادِمُو الأصنام قُدْماً فعاد لها أولئك يصنعونِ
أباهم كان إبراهيمَ لكن أرى أمثالَ آزرَ^(٣) في البَنِينِ

(١) ارعواء : كف وارتداع .

(٢) النُّور : الزهر .

(٣) آزر : اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام حِرْفَةً .

بكلِّ فمٍ لذكرها نشيدُ
بريَّاهها وتبتسمُ الورودُ
فيجمل في دلالكم الصُّدودُ
فلم يكتب لغيرهمُ الخلودُ
ولكن شوقكم عنه بعيدُ

وفي أسلافكم كانت مزايا
تضوُّع^(١) شقائق الصحراءِ عطراً
فهل بقيت محاسنهم لديكم
لقد هاموا بخالقهم فناءً
وكوثرُ أحمد منكم قريبُ

وأذنتِ القماري والطُّيورُ
مصليةً فجأوبها الغديرُ
كأنَّ الصبح لم يدركه نورُ
فليس لكم به عزمٌ صبورُ
وليس بغائبٍ إلا الضمير

وكم لاح الصُّباحُ سنأ^(٢) وبُشرى
وكبَّرت الخمائل في رباها
ونوم صباحكم أبداً ثقیلاً
وأضحى الصَّوم في رمضان قيداُ
تمدَّن عصرُكم جمع المزايا

وكيف ينالُ عهدي الظَّالِمينا
ولا دُنيا لمن لم يُخي دينا
فقد جعلَ الفناء لها قرينا
ولن تبنوا العُلا مُتفرِّقينا
ولولا الجاذبيَّة ما بقينا

لقد ذهب الوفاءُ فلا وفاءُ
إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانُ
ومن رَضِيَ الحياةَ بغير دينٍ
وفي التوحيدِ للهَمَمِ اتِّحادُ
تساندتِ الكواكبُ فاستقرَّت

وأنتم كالطُّيورِ بلا وُكُورِ
ليبدركم وأنتم في غرورِ

غَدَوْتُمْ في الدِّيارِ بلا ديارِ
وكلُّ صواعق الدنيا سهامُ

(١) تَضُوعُ : تفوح وتنتشر .

(٢) السَّنَا : الضياء .

أهذا الفقر في علم ومال
وبيع مقابر الأجداد أضحي
سَيُعْجَبُ تاجرو الأصنام قُذْمًا

وأنتم في القطيعة والنفور
لدى الأحفاد مدعاة الظهور
إذا سمعوا بتجار القبور

من المتقدمين إلى المعالي
ومن جهاتهم أنوار بيتي
أما كانوا جُودكم الأوالي
وليس لكم من الماضي تراث
ومن يك يومه في العيش يأساً

على نهج الهداية والصواب
وفي أخلاقهم يتلى كتابي
بناة المجد والفن العجائب
سوى شكوى اللغوب^(١) والاكتئاب
فما غده سوى يوم العذاب

أتشكرو أن ترى الأقوام فازوا
مشوا بهدي أوائلكم وجدوا
أيخرم عامل ورد المعالي
أليس من العدالة أن أرضي
تجلي النور فوق الطور باق

بمجد لا يراه النائمونا
وضيعتهم تراث الأولينا
ويسعد بالرقى الخاملونا
يكون حصاؤها للزراعينا
فهل بقي الكليم^(٢) بطور سينا ؟

ألم يُعَفِّثْ لأمّتكم نبي
ومصحفكم وقبلتكم جميعاً
وفوق الكل رحمن رحيم
فما نار الفتكم تولّى

يوحدكم على نهج الوئام
منار للأخوة والسلام
إله واحد رب الأنعام
وأسيثم حيارى في الظلام

(١) اللغوب : التعب والإعياء .

(٢) الكليم : لقب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

وحسن اللؤلؤ المكنون رهنٌ بصوغ العقد في حُسن النظام

وكيف تغيّرت بكم الليالي
تركتم دينَ أحمد ثم عُدْتُم
رقيُّ الشعب قد أضحى لديكم
وكيف تُقاسُ أوهامٌ ولغوٌ
أرى ناراً قد انقلبَت رماداً
وكيف تفرّقت بكم الأمانِي
ضحايَا للهوى أو للهوان
تقرُّرُه صلاحيةُ الزمانِ
بحكمة منزلِ السَّبْعِ المثاني
سوى ظل مريضٍ من دخانِ

أرى الفقراء عبّاداً تقاةً
هم الأبرارُ في صومٍ وفطرٍ
وليس لكم سوى الفقراء سترٌ
أضَلَّت أغنياءكم الملاهِي
وأهلُ الفقر ما زالوا كنوزاً
قياماً في المساجد راکعينا
وبالأسحارِ هُم يَسْتَغْفِرُونَا
يواري عن عيوبكم العيونا
فهم في ريبهم يتردّدونا
لدينِ الله ربِّ العالمينا

أرى التفكيرَ أدركه خمولٌ
وأصبحَ وَغْظُكم من غيرِ سخرٍ
وعند النَّاسِ فلسفةٌ وفكرٌ
وجلجلتُ الأذان بـكُلِّ أرضٍ
منائرُكم علت في كلِّ حيٍّ
ولم تبقَ العزائمُ في اشتعال
ولا نورٌ يُطلُّ من المقال
ولكن أين تلقين (الغزالي^(١))
ولكن أين صوتٌ من بلالٍ
ومسجدُكم من العباد خالي

(١) الغزالي : هو أبو حامد محمد الغزالي ، أحد أعلام المسلمين وكبار الفلاسفة ، لقب « بحجة الإسلام » صاحب مصنفات سائرة ، توفي عام ٥٠٥ هـ بمدينة « طوس » .

فَأَيُّنَ أُمَّةٌ وَجَنُودٌ صَدَقِ
 إِذَا صَنَعُوا فَصَنَعَهُمُ الْمَعَالِي
 مَرَادُهُمُ الْإِلَهِ فَلَا رِيَاءَ
 لِأُمَّتِهِمْ وَلِلْأَوْطَانِ عَاشُوا
 كَمَثَلِ الْكَأْسِ تُبَصِّرُهَا دِهَاقًا^(٢)
 تَهَابُ شَبَاةٌ^(١) عَزَمَهُمُ الْحَرَابُ
 وَإِنْ قَالُوا فَقَوْلُهُمُ الصَّوَابُ
 وَنَهَجَهُمُ الْيَقِينُ فَلَا ارْتِيَابُ
 فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا طِلَابُ
 وَلَيْسَ لِأَجْلِهَا صُنْعُ الشَّرَابِ

جِهَادُ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ حَيَاةٌ
 عَقَائِدُهُمْ سَوَاعِدُ نَاطِقَاتٍ
 وَخَوْفُ الْمَوْتِ لِلْأَحْيَاءِ قَبْرٌ
 أَرَى مِيرَاثَهُمْ أَضْحَى لَدَيْكُمْ
 وَلَيْسَ لَوَارِثٍ فِي الْخَيْرِ حِظٌّ
 إِلَّا إِنَّ الْحَيَاةَ هِيَ الْجِهَادُ
 وَبِالْأَعْمَالِ يَثْبُتُ الْإِعْتِقَادُ
 وَخَوْفُ اللَّهِ لِلْأَحْرَارِ زَادُ
 مِضَاعًا حَيْثُ قَدْ ضَاعَ الرَّشَادُ
 إِذَا لَمْ يَحْفَظِ الْإِرْثُ اتِّحَادُ

لَأَيِّ مَآثِرِ الْقَوْمِ انْتَسَبْتُمْ ؟
 فَأَيْنَ مَقَامُ ذِي الثُّورَيْنِ^(٣) مِنْكُمْ
 وَفَقَرٌ عَلَيَّ الْأَوَابِ هَلَا
 أَقَمْتُمْ فِي الذُّنُوبِ وَفِي الْخَطَايَا
 وَهُمْ سَتَرُوا عَيُوبَ الْخَلْقِ فُضْلًا
 لَتَكْتَسِبُوا فُخَارَ الْمُسْلِمِينَ
 وَدَوْلَةً عِزَّهُ دُنْيَا وَدِينَا
 رِبْحَتُمْ فِيهِ كَنْزُ الْفَاتِحِينَ
 وَتَغْتَابُونَ حَتَّى الصَّالِحِينَ
 وَإِنْ كَانُوا أَبْرَ الْمُتَّقِينَ

(١) شَبَاةٌ ، جمعها الشَّبَا والشَّبَوَات : شبابة كل شيء ، أي حدُّ طرفه .

(٢) دِهَاقٌ : مُمْتَلِئٌ ، يقال : كأس دِهَاقٌ ، أي ممتلئ ..

(٣) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

أريكة قيصر^(١) وسريز كسرى^(٢)
وأنتم تطمحون إلى الثريا
تضيعون الإخاء وهم أقاموا
طلبتم زهرة الدنيا وعدثم
وكان لديهم البستان محضاً

قد اختميا بملكهم العميم
بلا عزم ولا قلب سليم
صروح إخوانهم فوق النجوم
بلا زهر يضوع^(٣) ولا شميم
وهم أصحاب جنات النعيم

يعيد الكون قصتهم حديثاً
فكم نزعوا عن الأوكار شوقاً
ويأس شبابكم أدمى خطاهم
هي المدينة الحمقاء ألفت
لقد صنعت لهم صنم الملاهي

ويُنشئ من حديثهم الفنوننا
إلى التخليق فوق العالمينا
فظنوا فيه بالدين الظنوننا
بهم حول المذاهب حائرنا
لتحجب عنهم الحرم الأميننا

لقد سئم الهوى في اليد قيس^(٤)
ويحاول أن يُباح العشق حتى
يريد سفور وجه الحسن لمّا
فهذا العهد أحرق كل غرس
لقد أفنت صواعقه المغاني

وملّ من الشكاية والعذاب
يرى ليلاه^(٥) وهي بلا حجاب
رأى وجه الغرام بلا نقاب
من الماضي وأغلق كل باب
وعاثت^(٦) في الجبال وفي الهضاب^(٧)

(١) قيصر : لقب ملوك الروم .

(٢) كسرى : لقب ملوك الفرس .

(٣) يَضُوع : يفوح وينتشر .

(٤) قيس : من أشهر عشاق العرب .

(٥) ليلي : من أشهر عاشقات العرب .

(٦) عَاثَتْ : أفسدت .

(٧) هِضَاب : جمع هَضْبَة ، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض .

هي النَّارُ الجديدة ليس يُلقى
خُذُوا إِيْمَانًا إِبْرَاهِيمَ تَنْبُثُ
وَيَذْكُو مِنْ دَمِ الشَّهْدَاءِ وَرَدُّ
وَيَلْمَعُ فِي سَمَاءِ الْكَوْنِ لَوْنُ
فَلَا تَفْزَعُ إِذَا الْمَرْجَانُ^(١) أَضْحَى

لَهَا حَطَبٌ سِوَى الْمَجْدِ الْقَدِيمِ
لَكُمْ فِي النَّارِ رَوْضَاتُ النَّعِيمِ
سَنِيَّ الْعَطَرِ قَدْسِي النَّسِيمِ
مِنَ الْعُنَابِ مَخْضُوبُ الْأَدِيمِ
عُقُودًا لِلْبِرَاعِمِ وَالْكُرومِ

فَكَمْ زَالَتْ رِيَاضٌ مِنْ رِبَاهَا
وَلَكِنْ نَخْلَةُ الْإِسْلَامِ تَنْمُو
وَمَجْدُكَ فِي حِمَى الْإِسْلَامِ بَاقٍ
وَإِنَّكَ يَوْسُفُ فِي أَيِّ مَصْرِ
تَسِيرُ بِكَ الْقَوَافِلُ مُسْرِعَاتٍ

ضِيَائُكَ مَشْرِقٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ
بَغَتْ أُمَمُ التَّارِ^(٣) فَأَدْرَكْتُهَا
وَأَصْبَحَ عَابِدُو الْأَصْنَامِ قُدَمَاءُ
فَلَا تَجْزَعُ فَهَذَا الْعَصْرُ لَيْلٌ

لَأَنَّكَ غَيْرَ مُحَدُودِ الْمَكَانِ
مِنَ الْإِيْمَانِ عَاقِبَةُ الْأَمَانِ
حِمَاةَ الْحِجْرِ^(٤) وَالرُّكْنَ الْيَمَانِي^(٥)
وَأَنْتَ النَّجْمُ يَشْرِقُ كُلَّ آنٍ

(١) الْمَرْجَانُ : صِفَارِ اللَّوْلُؤِ .

(٢) كَنْعَانُ : أَرْضُ فِلَسْطِينَ .

(٣) التَّارُ : قِبَائِلُ كَانَتْ تَسْكُنُ فِي أَوَاسِطِ آسِيَا ، أَصْلَهُمْ مِنَ الْمَغُولِ ، اشتهروا بغزواتهم ،
وَأَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بَعْدَ هُجُومِهِمْ عَلَى بَغْدَادِ .

(٤) الْحِجْرُ : يُرِيدُ بِهِ الشَّاعِرُ حَجَرَ الْكَعْبَةِ .

(٥) الرُّكْنُ الْيَمَانِي : هُوَ رُكْنُ الْكَعْبَةِ الَّذِي فِيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ .

ولا تخشَ العواصفَ فيه وانهضْ بِشُعْلَتِكَ المضيئةِ في الزَّمانِ

أعدْ من مشرقِ التَّوحيدِ نوراً يتمُّ به اتِّحادُ العالمينَا
وأنتَ العطرُ في روضِ المعالي فكيفَ تعيشَ محتبساً دفينَا
وأنتَ نسيمُهُ فاحملْ شذاه ولا تحملْ غبارَ الخاملينَا
وأرسلْ شعلَةَ الإيمانِ شمساً وصُغْ مِنْ ذرَّةِ جبالٍ حصينَا
وكن في قمَّةِ الطُّوفانِ موجاً ومُزناً يُمطرُ الغيثَ الهُتونَا

فباسمِ محمدٍ شمسِ البرايا أقيمتْ خيمَةُ الفلكِ المُنيرِ
تَلْأَلُاً في الرياضِ وفي الصحارى وفوقَ الموجِ والسيَلِ المغيرِ
وثَبُضَ الكونِ منه مُسْتَمِدُّ حرارتَهُ على مرِّ العصورِ
ومن مراكش^(١) يغزو صداه رُبُوعَ الصَّينِ بالصَّوتِ الجهيرِ
وما مشكاةُ هذا النُّورِ إلا ضميرُ المسلمِ الحرِّ الغُيورِ

ورفعُ الذِّكرِ للمختارِ رفعُ لقدركَ نحوَ غاياتِ الكمالِ
فكن إنسانَ عَيْنِ الكونِ واشهد مقامكَ عالياً فوقَ المعالي
بخنجرِ عزمك الوَثَّابِ لاحت على الأعلامِ أنوارُ الهلالِ
نداءُكَ في العناصرِ مستجابٌ إذا دَوَّى بصوتٍ من بلالِ
وعقلُكَ في الخطوبِ أجلُّ درعٍ وعشقُكَ خيرُ سيفٍ للنُّضالِ

خلافَةُ هذه الأرضِ استقرَّتْ بمجدكَ وهو للدُّنيا سماءُ

(١) مراكش : مدينة تقع في المغرب الأقصى .

وفي تكبيرك القدسي يبدو
فيا من هب للإسلام يدعو
سترفع قذرك الأقدار حتى
وقيل لك اختكم دنيا وأخرى

صغيراً كل ما ضمّ الفضاء
وأيقظ صدق غيرته الوفاء
تشاهد أن ساعدك القضاء
وشأنك والخلود كما تشاء

الدِّيَّوَانُ الثَّانِي

الأسرار والرموز

أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات

أسرار خودي ورموز بखودي

نقله إلى العربية شعراً
الدكتور عبد الوهاب عزام

يُعتبر هذا الديوان من باكورة دواوين محمد إقبال ، فيه القصائد حول الفلسفة الإسلامية . في زمان الحرب العالمية الأولى كان إقبال ينظر إلى الجيش التركي نظرة الأمل إلا أنه حين أخذ الإنجليز يعملون على الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر من الترك تحطمت آماله ، وحينئذٍ ظهرت في أفكاره ثورة عارمةٌ تعارض أشدَّ المعارضة فكرة الاعتماد على أهل الغرب ، والوثوق بهم ، فبدأ يعمل على بناء فلسفةٍ حديثةٍ تؤدي إلى التوفيق في الحياة على أساس تربية الجيل الجديد ، وتقوية الذات . ولم ير محمد إقبال أية فائدةٍ للترك من مساعدة قوة الحكومة الألمانية ، فبنى نظريته على التصوف ، ليس على أساس روح الضعف والسلبية ، وهو ما انتشر في العهد الصفوي ، بل دعا إلى القوة ، والاعتماد على النفس^(١) ولم يقنط محمد إقبال بل كرّس حياته للعمل على الوصول إلى حيث يمكن السبب في حدوث أخطائنا السابقة ، وقد وجد أن مردَّ هذا إلى الآراء الإغريقية التي تغلغلت في عالم الفكر والثقافة بين المسلمين ، وأضحت سبب كل ما عقب ذلك من انحرافه . وقد كان من نتيجة تأثير الإغريق على الإسلام أن تحوّل هذا الدين من الإيجابية الدافقة إلى عقيدة مستسلمة تأملية ، الأمر الذي أدّى بدوره إلى حالة من التشاؤم والقدرية ، وقد ندّد بأفلاطون ، وشنَّ حملةً على الصوفية التي عدّها مسؤولة عن فكرة « وحدة الوجود » ، وقد أدّى البحث بإقبال إلى نظريته عن « خودي » أي « الذات » وهو يبدوها بالأبيات التالية التي اقتبسها من مولانا جلال الدين الرُّومي^(٢) : « رأيتُ البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي ! تبحث

(١) « إقبال إيرانيون كي نظر مين » لسر عبد القادر ص (١٨١) .

(٢) من محاضرة الأستاذ سجاد حيدر سفير باكستان في مصر ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٧ مأخوذ عن « إقبال وديوان أرمغان حجاز » للأستاذ سير عبد الحميد إبراهيم .

عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجتُ أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاقٍ من الرجال ، وبطلٍ من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروّح نفسي ، قلتُ له : لقد غرتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنفيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ : إليك عني ، أيها الرجل ! فأحبّ شيء إلى نفسي ، أعزّه وجوداً ، وأبعده منالاً^(١) . وقد ركّز محمّد إقبال كلامه في هذا الديوان على الذات التي يتركز فيها كلُّ النشاط ، وكلُّ الحركة ، والتي هي لبُّ الشخصية ؛ أي « قلب » الذات .

أراد محمد إقبال باصطلاح « خودي » رموز الذات ، ووجود الفرد ، ليشير إلى المركز المدرك والنشيط للوعي والحياة ، وهو الذي في نظره يؤلّف الوجود الأساسي لذات الإنسان بصورة جازمة . وبالأحرى يرفض الأثرة ، ويوجب على المرء أن يرتقي إلى الدرجات العليا ، والكمال .

يعتقد محمد إقبال بأن أخلاق الفرد والأمة تحدّد الإجابة عن السؤال : ما هي طبيعة الذات ؟ وهذا التأكيد مطلوبٌ إلى ما يوازن بين الفكر الشرقي والروحانيّة ، ويؤكد التقاء وجهات النظر التي ترتقي بها الكينونة الذاتيّة فوق جميع المستويات الخادعة والواهمة .

يعتبر محمد إقبال أن الاستسلام للجبرية هو الذي سبب انحطاط المسلمين ، على الرّغم من قيمهم الدّينية والرفيعة ، وأمجادهم السياسية خلال القرون المنصرمة .

(١) « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن الندوي ص ٨٥ - ٨٦ .

محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان أولاً على المقدمة المنظومة ، يبين فيها محمد إقبال مذهبه الجديد ، يقول في مطلعها :

قطع الصبحُ على الليل السفر فهمي دمي على خدّ الزهر
غسل الدمع سبات النرجس وصحا العشب بمسرى نفسي
جرّب الفارس قولي موقداً مصرعاً ألقى وسيفاً حصداً
ويشير إلى أنّ الرومي هو الذي أيقظه ، ودعاه إلى أن يسلك سبيله :

صير الروميّ طيني جوهراً من غباري شاد كوناً آخر

فصول الديوان :

- ١ - أصل نظام العالم من الذاتية واستمرار أعيان الوجود متوقف على استحكام الذاتية .
- ٢ - حياة الذاتية بتخليق المقاصد وتوليدها .
- ٣ - تستحكم الذاتية بالمحبة والعشق .
- ٤ - ضعف الذاتية بالسؤال .
- ٥ - إذا استحكمت الذاتية بالمحبة والعشق سحّرت قوى العالم الظاهرة والباطنة .
- ٦ - حكاية في معنى أنّ مسألة نفس الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة ؛ لتضعف أخلاق الأمم الغالبة عن طريق خفية .

٧ - في معنى أنّ أفلاطون اليونانيّ - الذي أثر كثيراً في أفكار الأمم الإسلامية وآدابها - ذهب مذهب الغنم ، والاحتراز من خيالاته واجب .

٨ - حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلامية .

٩ - تربية الذات لها ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : الطّاعة .

الثانية : ضبط النفس .

الثالثة : النيابة الإلهية .

وفي هذا الفصل يقصّ قصصاً حقيقية ، أو خيالية لتصوير مذهبه .

١٠ - في بيان أنّ مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله ، وأنّ الجهاد إن كان الباعث عليه « جوع الأرض » فهو حرام في شريعة الإسلام .

١١ - نصيحة ميرنجاة النقشبندي المسمى الأدب الصحراوي التي كتبها لمسلمي الهند .

١٢ - الوقت سيف .

١٣ - دعاء « ويختم به المنظومة »^(١) .

نشر هذا الديوان سنة ١٩١٥م ، فثار الناس لها بين راضٍ وساخطٍ ومستحسنٍ ومستنكرٍ ، بل بين مصفّقٍ طرباً يشني معجباً ، وصائحٍ يتعجّب ويستنكر .

نقله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام . وهاهو الآن بين أيديكم مع مقدمة الشاعر القيمة التي كتبها لهذا الديوان .

(١) إقبال . . للدكتور عبد الوهاب عزام ص ١٠٣ .

خلاصة المقدمة التي كتبها

محمد إقبال لهذا الديوان (أسرار خودي)

ما هذا الشيء الذي نسميه (أنا) أو (خودي) أو (مين)^(١) الذي يبدو في أعماله ويخفي في حقيقته ، والذي يخلق كل المشاهدات ، ولكن لطافته لا تحتمل المشاهدة ؟ أهو حقيقة دائمة ، أم أن الحياة تجلّت في هذا الخيال الخادع ، وهذا الكذب النافع ، تجلياً عرضياً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة ؟ إن سيرة الأفراد والجماعات موقوفة على جواب هذا السؤال . ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية في الآحاد والجماعات ، كما يتوقف على طباعها وفطرتها . فأمم الشرق المتفلسفة أميل إلى أن تعتبر (أنا) في الإنسان من خداع الخيال . وهي تعدّ الخلاص من هذا الغلّ نجاةً ، وميل أهل الغرب إلى العمل ، ساقهم إلى ما يلائم طباعهم في هذا البحث .

ويمضي إقبال في مقدمته قائلاً :

اختلفت في عقول الهنادك وقلوبهم ، النظريات والعمليات اختلاطاً عجيباً . ودقّ حكماؤهم في حقيقة العمل ، وانتهوا إلى هذه النتيجة : إن حياة (أنا) المسلسلة ، وهي أصل المصائب والآلام ، تنشأ من العمل ، وإن حالة النفس الإنسانية نتيجة محتومة لأعمالها .

وكانت رسالة الإسلام في غربي آسيا دعوة إلى العمل بليغة ، فالإسلام يرى أن (أنا) مخلوق ينال الخلود بالعمل ، ولكن تشابهاً عجيباً في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي يظهر في بحث هذه المسألة . فالفكر التي فسر بها شنكر

(١) مين بالأردية معناها : أنا .

أجاريه ، كتاب الجيتا (گيتا) هي الفكرة التي فسر بها القرآن محيي الدين بن عربي الأندلسي . وكان له أثرٌ بليغٌ في عقول المسلمين وقلوبهم . جعل ابن عربي بعلمه ومكانته مسألة وحدة الوجود عنصراً في الفكر الإسلامي . واقتفى أثره أوجد الدين الكرمانى ، وفخر الدين العراقي ، حتى اصطبغ بهذه الصبغة كلُّ شعراء العجم في القرن السادس الهجري .

خاطبَ فلاسفةُ الهند العقل في إثبات وحدة الوجود . وخاطب شعراء إيران القلب ، فكانوا أشدَّ خطراً وأكثر تأثيراً ، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامة ، فسلبوا الأمة الإسلامية الرغبة في العمل .

وتمتاز أمم الغرب بين أمم العالم بميلها إلى العمل ، فأراؤهم خيرٌ دليل لأمم المشرق إلى فهم أسرار الحياة .

وبدأت الفلسفة الجديدة في الغرب من وحدة الوجود التي دعا إليها الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي^(١) ولكن مسحة العمل غلبت على طبائع الغرب . فلم يلبث طويلاً طلسم وحدة الوجود التي أثبتت بأدلة رياضية . سبق الألمان إلى إثبات حقيقة (أنا) الإنسانية المستقلة ، ثم تحرّر من هذا الطلسم الخيالي فلاسفة الغرب على مرّ الزمان ، ولا سيما فلاسفة الإنكليز .

ويختم إقبال بقوله :

هذه خلاصة تاريخ المسألة التي هي موضوع هذه المنظومة . وقد اجتهدت أن أحرّر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلة الفلسفية ، وألوانها بألوان الخيال ؛ ليتيسر إدراك حقيقتها .

ولم أقصد بهذه الديباجة إلى تفسير هذه المنظومة . ولكن أردت أن أدلّ على الطريق من لم يُسلم من قبل بدقائق هذه المسألة العسيرة .

(١) يعني : اسبنوزا .

ولا ينبغي هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر ، وإنما خيال الشعر فيها وسيلة إلى توجيه الناس إلى هذه الحقيقة :

إنَّ لذة الحياة مرتبطة باستقلال (أنا) وبإثباتها ، وإحكامها ، وتوسيعها . وهذه الدقيقة تمهد إلى فهم حقيقة « الحياة بعد الموت » .

وينبغي أن يعلم القراء أنَّ لفظ « خودي » لا يستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأثر ، كما تستعمل في اللغة الأردية غالباً ، إنما معناها الإحساس بالنفس ، أو تعيين الذات .

وهي بهذا المعنى في كلمة « بيخودي » كذلك .

خلاصة مقال الشاعر

إلى الأستاذ نكلسون

مذهب الأستاذ بريدلي أنَّ كلَّ مركزٍ للشعور محدودٌ ، أي : كلُّ ذاتٍ مفردةٍ خداعٌ نظريٌّ باطل . وأنا أقول ، على خلاف هذا : إنَّ مركز الشعور المحدود الذي لا يُدرك (الذات) هو حقيقة الكائنات . فالذات حقٌّ لا باطل .

الحياة كلها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود خارجي . وحيثما تجلَّت الحياة تجلَّت في شخصٍ ، أو فردٍ ، أو شيءٍ . والخالقُ كذلك فردٌ ؛ ولكنه أوحداً لا مثل له .

وظاهرٌ أنَّ هذا التصوُّر للكائنات يخالف كلَّ المخالفة ما ذهب إليه شراح فلسفة هيكل من محدثي الإنكليز ، ويخالف أصحاب وحدة الوجود الذين يرون أن مقصد حياة الإنسان ، أن يُفني نفسه في الحياة المطلقة أو (أنا) المطلق ، كما تفنى القطرة في البحر .

أرى أنَّ هدف الإنسان الديني والأخلاقي إثباتُ ذاته لا نفيها ، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف .

قال الرسول ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله » فكلُّما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فرداً بغير مثيل .

وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق ، والإنسانُ الكامل هو الأقرب إلى الله ، ولكن ليس القصد من هذا القرب ، أن يُفني وجوده في وجود الله . كما تقول فلسفة الإشراق ، بل هو ، على عكس هذا ، يُمثِّل الخالق في نفسه .

الحياة رقيٌّ مستمر ، تسخر كلَّ الصُّعاب التي تعترض طريقها ، وحقيقتُها أن تخلق دائماً مطالبَ ومُثلاً جديدةً ، وقد خلقت من أجل اتساعها وترقيها آلات كالحواس الخمس ، والقوة المدركة ؛ لتقهر بها العقبات والمشقَّات .

وأشدُّ العقبات في سبيل الحياة المادَّة أو الطبيعة ، ولكنَّ المادة ليست شراً كما يقول حكماء الإشراق ، بل هي تُعينُ الذات على الرقي ، فإنَّ قُوَى الذات الخفية تتجلى في مصادمة هذه العقبات .

وإذا قَهَرَت الذاتُ كلَّ الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار . الذاتُ نفسها فيها اختيار وجبر ، ولكنها إذا قاربت الذات المطلقة نالت الحرية الكاملة . والحياةُ جهادٌ لتحصيل الاختيار . ومقصدُ الذات أن تبلغ الاختيارَ بجهادها .

دوام الذات أو الشخصية :

مركز حياة الإنسان ذات (خودي) أو شخص ، أعني : أنَّ الحياة حينما تتجلى في الإنسان تسمَّى ذاتاً .

وشخصية الإنسان من الوجهة النفسانية حالٌّ من التوتر ، ودوام الشخصية موقوفٌ على هذه الحال . فإن زالت هذه الحال عقبته حالٌّ من الاسترخاء مضرَّةٌ بالذات . فإن يكن في حالة التوتر هذه كمال الإنسان فأول فرضٍ عليه أن يعمل لدوام هذه الحال ، والحيلولة دون حال الاسترخاء .

وكلُّ ما يُمكننا من إدامة حال التوتر يُمكِّننا من الخلود .

وهذا التصور للشخصية يقوم معياراً لقيَم الأشياء أعني : أنَّ في ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تُحلُّ مسألة الخير والشر ، فما يقوِّي الذات خير وما يُضعفها شر . ويجب أن يقوم الدين والأخلاق والفنون بهذا المعيار أيضاً .

واعتراضي على أفلاطون ، هو في أصله اعتراضٌ على كل النظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء ، لا البقاء ، والتي تُغفل المادة ، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة ، وتدعو إلى الفرار منها ، لا إلى تسخيرها ، والتسلط عليها .

وكما تعرِّض مسألة المادة في مبحث حرية الذات ، تعرض مسألة الزمان في مبحث خلودها .

يقول برجسون : إنَّ الزمان ليس خطأً ممتداً إلى غير نهايةٍ يتحتم علينا المرور به . هذا التصوُّر للزَّمان غيرٌ صحيح ، فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصوُّر الطول ؛ أي : لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار .

إنَّ خلود الذات أملٌ ، من أراد أن يظفر به فليجدْ ، ويدأب لبلوغه ، والظفرُ به موقفٌ على أن نسلك طريقاً للفكر والعمل في هذه الحياة يعيننا على حفظ حالة التوتر ، ولا يستطيع إبلاغنا هذا الأمل دين بوذا ، والتصوُّف العجمي ، وما إلى هذين من نظم الأخلاق الأخرى . لقد أضرت بنا هذه الطرق ، فأضرعتنا وأنامتنا . إنَّ هذه المذاهب هي الليالي في أيام حياتنا .

تربية الذات :

لا ريب أنَّ الذات تستحكم بالعشق . ومفهوم العشق هنا واسع جداً . ومعناه إرادة الجذب والتَّسخير . وأعلى أشكاله أن يخلُق مقاصده ويجدُّ في نيلها . وخاصةً العشق أفراد العاشق والمعشوق ، أعني : إظهار الانفراد ، والاستقلال فيهما . وإذا جدَّ الطالب في طلب الأوحد الأسمى ظهر فيه التوَّحد ، ويتحقَّق ضمناً توَّحد المطلوب ؛ لأنه إن لم يكن واحداً مستقلاً بنفسه لم يسكن الطالب إليه . إنما يمكن عشق شخصٍ ، أو وجود معين . ولا

يمكن لشخص عشق كائن غير شخص .

وكما تستحكم الذات بالعشق تضعف بالسؤال . وكل ما ينال بغير جهد يعدُّ سؤالاً ، فالذي يرث مال غيره سائل ، والذي يتبع أفكار غيره ، أو يدّعيها لنفسه سائل .

والخلاصة : أنه ينبغي لأجل إحكام الذات أن نخلق في أنفسنا العشق ، ونتجنب كلّ ضروب الاستجداء (أي البطالة) .

إنّ في حياة الرسول ﷺ أسوةً حسنةً للمسلم ، فقد كانت حياته خيرَ مثلٍ للسعي الدائم . لقد كانت حياته كلّها صورةً للعمل .

أشرتُ في فصول من هذا المثنوي إلى أصول فلسفة الأخلاق الإسلامية ، وبيّنت أنّ لكمال الذات ثلاث مراحل :

١ - إطاعة القانون الإلهي .

٢ - وضبط النفس .

٣ - والنيابة الإلهية .

والنيابة الإلهية في هذه الدنيا هي أعلى درجات الرقيّ الإنسانيّ . ونائب الحق (الله) خليفة الله في الأرض ، وهو أكمل ذات تطمح إليها الإنسانية ، وهو معراج الحياة الروحي .

وأول شرطٍ لظهور نائب الحق أن ترقى الإنسانية في جانبها الروحيّ والجسميّ ، فإنّ ارتقاء الإنسانية يقتضي ظهور أمةٍ مثاليةٍ يتجلّى في أفرادها في الجملة هذا التوحد الذاتي ، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق .

فمعنى سلطان الله في الأرض : أن تقوم فيها جماعةٌ شوريّةٌ يتوحد أفرادها ، ويقوم على هذه الجماعة واحدٌ يمكن أن يسمى نائب الحق ، أو الإنسان الكامل ، وهذا الإنسان الكامل يبلغ ذروة الكمال ؛ التي لا تتصوّر فوقها ذروة .

وقد رأى نشأة (الفيلسوف الألماني المعروف) ضرورة ظهور هذه الأمة

المثالية ، ولكن دهريته ، وإعجابه بالسلطان مسخا فلسفته كلها « إهـ .
هذه خلاصة رسالة إقبال إلى الأستاذ نكلسون . وحسبنا في إيضاح مذهبه
ما قدّمنا من تلخيص رسائله ، ومقدمته لأسرار الذات ، ورسالته إلى نكلسون .

القسم الأول

أسرار إثبات الذات

(أسرار خودي)

رأيتُ الشيخ بالمصباح يسمى له في كل ناحية مجال
يقول : ملكتُ أنعاماً وبههما وإنساناً أريد ، فهل يُنال ؟
برمتُ برُفقة خارت قواها برشتُم أو بحيدر اندمال^(١)
فقلنا : ذا مُحالٌ . قد بحثنا فقال : ومُنيتي هذا المحال
(مولانا جلال الدين الرومي)

(١) حيدر : عليُّ بن أبي طالب ، ورستم : من أبطال الفرس .

تمهيد

« ليس في أعواد غابي سَقَطٌ هي للمنبر أو أعواد صَلْب »^(١)

نظيري النيسابوري

قطع الصبحُ على الليل السفر
غسلَ الدمعُ سُبَاتَ النُّرجسِ
جَرَّبَ الزَّارُعُ قولي مُحَصِّدا
إنَّه حَبٌّ دموعي زَرعا
ذَرَّةٌ قد نالت الشمسَ أنا
طيتني من جَامِ جَمٍّ أنورُ
صَيِّدُ أفكاري ظِباءٍ لم تُرَمِ
زَانَ بُسْتَانِي عشبٌ ما ظَهَرَ
محفلُ الشادين مني يرجُفُ
صَامِتٌ في رِبابِ الفِطْرةِ
إنني شمسٌ قريبٌ مولدي

فَهَمَى دمعِي على خدِّ الزَهَرِ
وصحا العُشبُ بِمَسَرَى نفسي
مِصرَعاً ألقى ، وسيفاً حصدا
نسجَ الروضَ وأنَّاتي معا
كم صباحٍ في فؤادي كَمنا
من غيوبِ الكونِ عِندي عبْرُ^(٢)
لم تُسَيِّبَ بعدُ من قيدِ العَدَمِ
وجنيتُ الوردَ في جوفِ الشَّجرِ^(٣)
في وتارِ الكونِ كَفِّي تعزِفِ
ما وعَى عَنِّي جليسي نغمتي
حُبُكاً في فَلَكَ لم أغْهدِ

(١) نيت درخشك وتريشه من کوتاهي جوب هرتخل كه منبر شوه داركم

(٢) جامِ جم أي : كأس جمشيد . وفي أساطير الفرس أنَّ الملك جمشيد كان عنده كأس يرى فيها الأقاليم السبعة . وفي هذا البيت وما بعده يقول الشاعر : إنه يرى الغائب ، ويدرك ما لم يخلق .

(٣) جنى الورد الذي لم يظهر من شجره : علم أنه سيظهر دون ريب ، وأنه سيجنيه ، فكأنه قد جناه .

لم يَرُغْ ضَوْئِي سِرْبَ الزُّهْرِ
ما رأت رقصَ ضيائي الأبحرُ
عينُ هذا الكون لي لا تعهد
مزَّقَ الظلمةَ فجرى فسفرُ
إنني أرقب صباحاً معلماً
أو يُرَجِرْجُ زُبْقِي فِي الْبَصْرِ^(١)
أو كسا الأطوادَ ثوبي الأحمر
أنا من خوفِ طلوعِ أزعْدُ
وبدا طُلُّ جديداً في الزَّهَرِ
حبذا من حول ناري زمزماً^(٢)

أنا لَحْنٌ دون ضَرْبِ صَعْدَا
دونَ عصري كُلُّ سرٍّ قد خفي
أنا في يأسٍ من الصَّخبِ القديم
بحرٌ صَحْبِي قطرةٌ لا تَزْخَرُ
من وجودٍ غيرِ هذا لي غناء
كم تجلَّى شاعرٌ بعد الحِمامِ
وجهه من ظُلمة الموت سَفَرُ
أنا صوتٌ شاعري يأتي غداً^(٣)
ما بهذي السوق يُشْرِى يوسُفي^(٤)
مُشعلٌ طُوري ليغشاه كليم^(٥)
قطرتي كاليمٍ فيه صَرْصَرُ
ولركبٍ غيرِ هذا لي حُداءُ
يوقظُ الأعينَ حيناً وينام
ونما من قبره مثل الزَّهَرِ^(٦)

كم بهذا السَّهْبِ مرَّتْ قافلته مثل سَيْرِ الثُّوقِ رهواً سابلته

-
- (١) لم يغش ضوئي النجوم ، ولم يضطرب شعاعي في الأعين اضطراب الزئبق .
(٢) حبذا من صلي بناري وزمزم حولهما كالمجوس .
(٣) هو صوت شاعر الغد ، ليس صوتاً للزمن الحاضر .
(٤) أفكاري لا يفهمها هذا العصر ، إنها جميلة جمال يوسف ، ولكن ليس في هذه السوق من يشتريها .
(٥) يائس ممن عرف من الناس ، وهو يرجو أن يأتي إليه كليم يفقه عنه ، كما ذهب موسى الكليم إلى الطور .
(٦) قال : إنه شاعر المستقبل لا الحاضر فقال : كثير من الشعراء لم يُعرف قدرهم إلا بعد الموت .

غير أنني عاشقٌ ، ديني النواخ
أنا لحنٌ كلٌّ عنه الوترُ
أبعد القطرة عن سيل طما
لا تعي موجي هذي الأنهرُ
ليس أهلاً لسحابي زهرة
كم بُروقي نائماتٍ في الجنان
إن تكن صحراء فاطلب لجّتي
قد حُيِّتُ الوردَ من عين الحياة
أشعلَ الذرّةَ لحنِي الثائرُ
مانثا ذا السرِّ غيري في البشرُ
أقبلن إن تبغ عيشَ الخالدين
أفشتِ الأفلاك لي السرَّ القديم
أيها الساقى ! من الراح اسقني
شعلة الماء التي من زمزم
مُقلّةُ المُبصر منها أبصرُ
تجعلُ الريشة طوداً قاهراً
هي تسمو للثريّا بالثرى
تجعلُ الصّمت ضجيجَ المحشرِ
املاً الكأس بصفو نيّر

ثورة المحشر في هذا الصياخ
لا أبالي أن عُودي يُكسرُ^(١)
وانظرنّ اليَمَّ منه التظما
لا تعي لجّتي إلا أبحرُ
ليس فيها لنموّ روضة^(٢)
ضاقت البيدُ لديها والقنان^(٣)
أو تكن سيناء فاقبس شعلتي
ووهبتُ السرَّ من عين الحياة^(٤)
رفرفت فهي يراع طائر
لم يُثَقِّب ناظمٌ مثلي الدّر
أقبلن إن تبغ مُلك العالمين
كيف يُخفى السرُّ من دون النديم ؟
وأس في قلبي جراح الزّمن
قيصرٌ يعنو لها كالخادم
وشعابُ الفكر منها أنور
وتُري الثعلب ليثاً زائراً
وتعي القطرة منها أبحراً
تجعل الدّراج حَفّ الأضقر
نورِ الفكر بنور القمر

(١) هو لحن لا يطيقه وتر . وهو لا يبالي أن يقطع أوتاره في إظهار هذا اللحن . لا يبالي أن يموت في الإعراب عن هذا الوجد .

(٢) الزهرة التي لا تنمو حتى تصير روضة ليست أهلاً لمطره .

(٣) جمع قنة ، وهي قمة الجبل .

(٤) العين الأولى عين الماء ، والثانية عين الشيء أي نفسه ، وكلمة الحياة رديف .

لأَقْوَد الرِّكَبَ شَطَرَ المنزَلِ
رائياً وَجَهَ جَدِيدِ الأَمَلِ
فَأَرَى إِنْسَانَ عَيْنِ العَارِفِينَ
مُعَلِّياً قَدَرَ الكَلَامِ المُبَدَّعِ
قارئاً مَنْ فيضِ ذَا الشَّيْخِ العَظِيمِ
قَلْبُهُ مِنْ شَعْلَةِ الوَجْدِ اسْتَعَزَّ
قَدْ رَمَى الشَّمْعُ فَرَاشِي بِاللَّهَبِ
صَيَّرَ الرُّومِيَّ طِينِي جَوْهَرَا
ذَرَّةً تَصْعَدُ مِنْ صَحْرَائِهَا
إِنَّنِي فِي لُجَّةِ مَوْجٍ جَرَى
قَدْ عَرَّتْنِي نَشْوَةٌ مِنْ كَأْسِهِ

بَاعِثاً شَوْقَ الشُّرَى فِي المُقَلِّ
سَاعِياً إِثَرَ جَدِيدِ العَمَلِ
وَأَرَى لَحْناً بِأُذُنِ العَالَمِينَ
مَازِجاً فِيهِ غَزِيرَ الأَدْمَعِ
كُتُباً تُضْمِرُ أَسْرَارَ العُلُومِ^(١)
وَأَنَا فِي نَفْسٍ مِنْهُ شَرَزَ
وَعَزَتْ جَامِي الحُمَيَّا فَالْتَهَبُ^(٢)
مَنْ غُبَارِي شَادَ كَوْناً آخِراً
لَتَنَالِ الشَّمْسُ فِي عَلَائِهَا
لَأُصِيبَ الدُّرَّ فِيهِ نَيْراً
وَحَيَاةً نَلْتُ مِنْ أَنْفَاسِهِ

لَيْلَةٌ رَأَيْتُ عَلَى قَلْبِي الشُّجُونَ وسرت « يَا رَبِّ » فِي اللَّيْلِ الشُّكُونِ^(٣)

(١) الشَّيْخُ العَظِيمُ : هُوَ جَلَالُ الدِّينِ الرُّومِيُّ أَكْبَرُ وَأَشْهُرُ شُعْرَاءِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ الْفَرَسِ . وَلَدَ بِمَدِينَةِ بَلَخِ عَامَ ٦٠٤ هـ لِأَبٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَلَاءِ ، رَحَلَ بِهِ وَهُوَ صَبِيٌّ إِلَى بِلَادِ الْأَنَاضُولِ الَّتِي كَانَتْ تَابِعَةً مِنْ قَبْلِ لِلرُّومِ ، وَاسْتَقَرَّ فِي مَدِينَةِ قُونِيَّةَ . وَلِذَلِكَ عَرَفَ جَلَالُ الدِّينِ بِالرُّومِيِّ ، كَمَا عَرَفَتْ بِلَادُ التُّرْكِ بِبِلَادِ الرُّومِ لَعَيْنِ السَّبَبِ . وَلَقَدْ تَلَقَّى الْعِلْمَ أَوَّلَ مَا تَلَقَّى عَلَى أَبِيهِ ، ثُمَّ عَقَدَ الْأَسْبَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ ، وَتَصَدَّرَ لِلوَعظِ وَالْإِرشَادِ ، ثُمَّ مَالَ إِلَى التَّصَوُّفِ ، وَأَصْبَحَ مِنْ شُيُوخِهِ وَالتَّفِ حَوْلَهُ مِنَ الْمُرِيدِينَ خَلَقَ كَثِيرٌ . وَلَهُ كِتَابٌ مَنْظُومٌ يُسَمَّى الْمَثْنَوِيَّ يَتَضَمَّنُ حِكَايَاتَ لَهَا مَغْزَى صُوفِيٍّ ، وَآيَاتَ قُرْآنِيَّةٍ ، وَأَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ يَفْسِرُهَا ، وَيُؤَوِّلُهَا ، وَلَكِنْ لَا عَلَى ظَاهِرِهَا . وَلَا يَدَانِي الْمَثْنَوِيَّ كِتَابٌ آخَرٌ فِي شَهْرَتِهِ ، وَنَفَاسَتِهِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ . وَكَانَتْ وَفَاةُ جَلَالِ الدِّينِ الرُّومِيِّ عَامَ ٦٧٢ هـ .

(٢) الْفَرَاشُ وَالشَّمْعُ مِثْلُ لِلْمَحَبِّ وَالْحَبِيبِ . فَالْفَرَاشُ يَقْدَمُ عَلَى النَّارِ ، فَيَحْرَقُ نَفْسَهُ غَيْرَ مَبَالٍ ، وَلَكِنْ الشَّمْعُ هُوَ الَّذِي غَزَا فَرَاشَهُ .

(٣) سِرْتُ مَنِي دَعْوَةِ يَا رَبِّ فِي اللَّيْلِ .

من صروفِ الدَّهرِ شاكِ صائِخُ من فراغِ الكأسِ قلبي نائِخُ
هِيضَ سِقْطَاهِ وَلِلنَّومِ هوى^(١) أرهقَ التسيارُ فكري فثوى

لاخ شيخُ الحقِّ ذاك الألمعي من حكى قرآننا بالفهلوي^(٢)
قال : يا ولهان بين العاشقين ! من شرابِ العشق فاجرع كلَّ حين
شُقَّ في العين حجابَ البصر وأثِرُ في القلبِ هَوْلُ المحشرِ
واجعلنَّ الضُّحكُ ينبوعَ البكاء واملأ العينَ دموعاً من دمَاءِ
أنت كالكمِّ صموتُ أبكم انشُرْ كالوردِ ريحاً تَفْعَمُ^(٣)
صعدنُ من كلِّ عضوٍ ، كالجرس نوحك الصامتَ في كلِّ نفسِ
أنت نارٌ فأضئ للعالمين بلهيبِ منك أذكِ الآخرين^(٤)
سرَّ شيخ الحانِ أعلن في هياج كن مُداماً واتخذ ثوبَ الرُّجاجِ^(٥)
وكنِ الفهرَ لمراةِ الفكر واصدعنِ جهراً وأعلن ما استتر^(٦)
حدثن كالنَّاي عن غابِ ناي حدثن قيساً عن الحيِّ انتأى^(٧)
جدد النُّوح بلحنٍ محدثِ ومن الآهات في الحفل انفثِ

(١) السقطان : الجناحان .

(٢) يقال عن كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي : إنه القرآن في اللسان الفهلوي ، أي :
الفارسي .

(٣) كم الزهر منقبض يخفى لونه وريحه ، فإذا انفتح نشر ريحه واستبان شكله . فعمت
الرائحة : ملأت الأنف .

(٤) أذكى النار : أشعلها .

(٥) اتخذ ثوب الزجاج : أظهر ما في باطنك ، كما تظهر الزجاجاة ما فيها .

(٦) الفهر : الحجر الصغير ، يعني : اكسر مراة الفكر ، ولا تعول على ما تبديه ، وأبد ما
للعشق في قلبك .

(٧) الناي مأخوذ من الغاب وصوته عند شعراء الصُّوفية حنين إلى غابه . وقد بدأ جلال
الدين كتاب المثنوي بقصة الناي والغاب .

كلّ حيّ فيه رُوحاً أخكم
وهلمّ اسلك طريقاً أنفأ
جرس الرّكب ! تنبّه لا تنم
وزد الحيّ حياةً من « قم »^(١)
وانف عن قلبك ما قد سلفا
واعرف اللّذة في هذا النّغم

صِرْتُ ناراً في ثيابي تُسعر
ثُرْتُ من أوتار نفسي نغماً
فرفعتُ الشّر عن سرّ خودي
كان كوني صورة لم تكمل
مِبْرَدُ العشق براني رجلاً
فرأت عيناى نبض الأنجم
وبكى الثّاس جنح الظّلّم
مَصْنَعُ الكون أراني ما حواه
أنا - من في ظلمة اللّيل أنار -
صوتها في الشرق والغرب علا
ذرة ألفت وشمساً حصدت
آهتي الحرّى سمّت فوق العنان
صِرْتُ كالنّاي ، هياجاً أضمر
شِدْتُ من حسن بياني إرمًا^(٢)
فبدا الإعجاز من أمر خودي^(٣)
كان سِقْطاً مُهملاً في الهمل
كيفَ هذا الكون والكمّ جلاً^(٤)
وبعرق البذر دورات الدّم^(٥)
فبدا سرّ حياة الأمم
فتجلّى سرّ تقويم الحياه
في طريق الملة البيضاء غبار^(٦)
لحنها في القلب ناراً أشعلا
ألف روميّ وعطارِ جنت^(٧)
عترتي النار ، وإن كنت الدّخان^(٨)

- (١) قم : فعل أمر . يعني أحي الناس بقولك قم . والكلمة بلفظها العربي في الأصل .
(٢) إشارة إلى ما يقال في وصف إرم ذات العماد .
(٣) أبقيت كلمة خودي في الشطرين كما جاءت في الأصل . ومعناها : الذاتى . وهي أساس فلسفة إقبال .
(٤) جلاني العشق كيف هذا والكون وكمه حين سلط على مبرده فسوّاني رجلاً .
(٥) رأى نبض النجوم وسير الدّم في عروق القمر ؛ أي : أدرك أسرار الكائنات .
(٦) الملة البيضاء : الأمة الإسلامية ، أي : هو غبار من سيرها في الطريق .
(٧) فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي من كبار شعراء الصوفية .
(٨) يعني : أن أصله من هذه الأمة ؛ فإن يكن دخاناً ، فهو من هذه النار .

قلمي في مسرح الفكر علا فجلا الأسرارَ في السَّبْع العُلى

ما قصدت الشعر في هذا النغم	نحتَ أصنامٍ وتعظيمَ صنم ^(١)
أنا هنديٌّ شأني الفارسي	وهلالٌ أنا ذو جامِ خلّي ^(٢)
لا تؤمِّل عندنا حسن البيان	لحنَ خنْصارٍ به أو أصفهان ^(٣)
ذاكمُ الهنديُّ يحكي السَّكرا	لكن الدَّرِّيُّ أحلى مخبرا ^(٤)
سحرَ الفكرِ تجلّيه وراغ	فإذا لي شجرُ الطورِ يراع ^(٥)
قد علا فكري وهذا الفارسي	لاءمِ الفطرة في فكري العلي
أيُّها العائبُ كأسَ الخندريس	انظرنُ يا صاح ما تحوي الكؤوس ^(٦)

في بيان أنَّ نظام العالم من الذاتية ، وأنَّ تسلسل حياة أعيان الكون لا يكون إلَّا باستحكامها

هيكُلُ الأكوانِ من آثارها	كلُّ ما تُبصر ، من أسرارها
نفسها قد أيقظت حتى انجلى	عالمُ الأفكارِ ما بين الملا
ألفُ كونٍ مختلفٍ في ذاتها	غيرُها يثبتُ من إثباتها

-
- (١) ما قصدت ما يفعله الشعراء من نحت الأصنام وعبادتها ، أي : المدح والخنوع للكبراء ، أو للآراء السائدة .
- (٢) هو هندي يغلبه اللسان الفارسي . وهو كالهلال كأسه لم تملأ أي لم يتمَّ نوره .
- (٣) خوانسار وأصفهان أخرجتا شعراء وألحاناً كثيرة .
- (٤) الهندي اللغة الأردية التي نظم بها إقبال بعض دواوينه ، والدري اللغة الفارسية .
- (٥) يعني صار قلمه من شجرة الطور المقدسة التي رأى موسى عندها النار .
- (٦) ناسبت الفارسية أفكاره فكتب بها ، وينبغي أن ينظر إلى معانيه لا إلى ألفاظه الفارسية المعيبة .

جعلت بَزْر خصام بَزَرها	نفسها تنظرُ فيها غيرَها
خلقت أضدادها من نفسها	لترى لذَّتها في بأسها
تبتلي في نفسها قوَّتها	لترى من نفسها قُذرتها
خُدغ من وهمها عينُ الحياة	غسلُها في دمها عين الحياة ^(١)
تُخربُ البستان أجلَ الوردة	تُكثر النُّوح لأجلِ النعمة
لفُليك واحدٍ ألفُ هلال	ولحرفٍ واحدٍ ألفُ مقال
عذرُها في سَرَفٍ أو قسوةٍ	أنَّها تبغي جمال الخلقة ^(٢)
حُسنُ شيرين لفرهادٍ مَحَنُ	ومن المسك رَدَى ظبي الختن ^(٣)
في فراش حرقه كالمشعل	عذرُه في شمعه المشتعل
ألفَ يوم سَطَّرتَه يَدُها	ليُجلَى في سناه غُدُها
ألفُ إبراهيم في النار اغتدى	لسراج يُرتجى من أحمد ^(٤)

همُّها الأعمالُ فهي الفاعلُ	وهي العلَّة وهي القابل
ثورةٌ فيها وإجفالٌ ، ونور	واحتراقٌ واختفاء وظهور ^(٥)

(١) خلاصة الأبيات المتقدمة : أنَّ الذاتية ، وهي واحدة ، اتخذت في الكون مظاهر مختلفةً يحارب بعضها بعضاً ، والحياة في هذا الخصام ، وهذا التنازع بين مظاهر الكون .

(٢) في الأبيات الثلاثة المتقدمة يشير الشاعر إلى أنَّ الخلقة لها مقصدٌ ، تهدم من أجله آلاف الأشكال ، ولا تبلغ الكمال إلا بهذا الهدم .

(٣) عشق فرهاد شيرين قصةٌ رائعةٌ في الأدب الفارسيّ . . والختن : بلادٌ معروفة بطيب المسك .

(٤) يعني إبراهيم الخليل وأحمد النبي عليهما الصلوات والسلام .

(٥) عمل الذاتية في الطين منه ازدهار العالم ، والليل نومها والنهار يقظتها ، والأجزاء في الكون شرر شعلتها الواحدة ، تنشق فتكون الأجزاء ، وتنبسط فتكون الصحراء ثم ينضم بعضها إلى بعض فتكون جبلاً .

والسماء النَّقْعُ يعلو سُبُلَهَا
نومُها اللَّيْلُ ، وفي الصَّحْوِ النهار
فرأى الأجزاء عقلُ المُفَكِّرِ
تُنشِئُ الصَّحراءَ إمَّا تنتشر
فاحزألت فبدت شمُّ الجبال
وهي في الذَّرَاتِ باسٌ وضياء
عملُ اليوم لآتيها علل
فعلى قدرِ القُوى قدرُ الحياه
فإذا القطرة يوماً درّةً
ومن الكأسِ استعارت شكلها^(١)
فغدا صحراء تغشاها البحار^(٢)

سعةُ الأيام ميدانٌ لها
يدُها في الطَّينِ ، للكونِ ازدهار
قسّمتْ شعلتها في شَرَر
تخلق الأجزاء إمَّا تنفطر
ثم صارت بانتشارٍ في ملال
شيمةُ الذاتِ التجلّي لا الخفاء
قوّةُ صامتةٍ حلفُ عَمَلٍ
قوّةُ الذاتِ من الكونِ النّواة
كَلِمَةُ الذاتِ تعيها قطرةُ
خارتِ الخمرُ فلا شكلَ لها
وسها طودٌ عن النَّفسِ فحار

تخفقُ العَيْنُ بشوقِ الجَلوة
شقَّ صَدْرَ المِرجِ حتى يَظْهَرا
ومن الذَّرَاتِ يُعلي رأسه
فتراه دمع عَيْنٍ هملاً^(٣)

يُعَقِدُ النُّورَ لخلقِ المقلّةِ
وإذا العشبُ نماءً أضمر
يجمعُ الشَّمْعُ بعزمِ نفسِه
ويُذِيبُ النَّفسَ إمَّا غَفَلا

في طوافٍ حولها لا مستقر
فلها عينُ ذُكاءٍ تسحر

شدّت الأرضُ قُواها فالقمر
وكيانُ الشَّمْسِ منها أكبرُ

(١) قطرة الماء استكملت ذاتها فصارت درّةً ، والخمر ضعفت ذاتها فهي مائعة تستعير قوامها من الكأس .

(٢) حذف بيتٌ قبل هذا البيت وآخر بعده اختصاراً .

(٣) حذف بيتان بعد هذا البيت اختصاراً .

وعلا الحورُ فهالَ الناظرا وعلا الطودَ أيَّاً قاهرا
وارتدى كسوةً نارٍ حاميه أصله حَبَّة نبت آبيه^(١)
إنَّ ذاتاً جمعتُ أشرَ الحياه من غديرٍ أزخرت بحرَ الحياه^(٢)

في بيان أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها

إنَّما يُبقي الحياة المقصدُ جَرَسٌ في ركبها ما تقصد^(٣)
سِرُّ عيشٍ في طِلابٍ مُضمَرٍ أصله في أملٍ مستترٍ
أحي في قلبك هذا الأملُ لا يَحُلُ طينُك قبراً مُهملاً
يخفِقُ القلبُ به بين الصدورِ هو في صدرك مرآة تُنير
يهبُ التربَ جناحاً يصعدُ ولموسى العقلِ خَضراً يُرشِدُ^(٤)
إنَّما يحيا الفؤادُ الأملُ وإذا حيَّ يموت الباطلُ
فإذا عيَّ بتخليقِ المُنى هِيَضُ سِقْطاه وأودى وهنا
أملُ الذاتِ لهيبٌ يَستعِرُ أو هو الموج الذي لا يَستقرُ
وهو المقصودُ حَبْلُ الأملِ إنَّه خِيطُ كتابِ العملِ^(٥)
ومماتُ الحيِّ فقدانُ الرجاءِ يُطفئُ الشعلةَ فِقدانُ الهواءِ

-
- (١) هذا مثل شعري آخر من قوة الذاتية شجر الجنار ، تقوى ذاته ، فيعلو ، وتكسوه حمرة كأنها النار . وكل هذا لأن حبه قوية محتفظة بذاتها .
- (٢) الخلاصة أن الذات التي تجمع قوة الحياة تخرج بحراً زاخراً من غدير صغير .
- (٣) المقصد مثل جرس القافلة ينبهها للسير .
- (٤) هو من العقل كالخضر من موسى يهديه ويبين له الحقائق . في بيان : أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها .
- (٥) الوهق : حبل فيه أنشطة تمسك به الخيل المسيبة ، ويصاد به . وخيط الكتاب : الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلى بعض .

لذة الرؤية فينا صوّرت^(١)
من مَنى التغريد خلقُ البلب
أطلق النّعمة من أوصابه
وترى الإعجاز فيه والقوى
فكذلك العقلُ منه يُنسل^(٢)

كيف فينا أعينٌ قد ظهرت ؟
من مَنى التّخاطر رجلُ الحجل
حيّ نايّ قد نأى عن غابه
ذلك العقل الذي الكون طوى
إنّما أصل الحياة الأملُ

ما ترى التجديدَ في علمٍ وفنٍّ؟^(٣)
بَرِحَ القلبُ فغشّته صُور
كلُّ عضوٍ فيه للعيش التماس
كلُّ حسٍّ وشعورٍ وادّكاز
حين تمضي في وغاها صامده
ليس قُصد المرج ألوان الزهر
إنّه للذّات تقويمُ النجاة
للحياة العلمُ والفنُّ حشَم

ما نظامٌ في شعوبٍ ، وسُنن ؟
أملٌ من قوة فيه ظَهَر
كلُّ ما نملكُ من هذي الحواس
كلُّ فكرٍ وخيالٍ واعتبار
هي آلات الحياة الجاهدة
ليس قُصد العلم والفنُّ الفكر
إنّما العلم وقاءٌ للحياة
للحياة العلمُ والفنُّ خَدم

وامضِ نشوانَ بخمر المقصدِ
محرقٍ كلَّ « سوى » في ناره
ياخذُ القلبُ بحُسنٍ وبهاء

جاهلاً سرَّ الحياة ! اجتهدِ
مقصدٍ كالضُّبح في أنواره
مقصدٍ يجتاز آفاق السّماء

(١) في هذا البيت وما بعده يضرب أمثلة لعمل الأمل في العالم . فيقول : إنّ العين خلقت حينما قصد الإنسان الرؤية ، ورجل الحجلة خلقت من أجل السير والتبخر ، وحلق البلب من أجل التغريد .

(٢) العقل كذلك من مواليد الأمل .

(٣) كلُّ نظام في الناس وسُنن وعلم وفنٍّ آمالٌ انبعثت من القلب بقوتها فتصوّرت صوراً شتى .

ثورة فيه وفيه محشر
نحن أحياء بخلق الأمل
وعلى الباطل حرباً يسير
نحن في نور بهذي الشعل

في بيان أن الذات تستحكم بالمحبة والعشق

نقط النور التي تدعى الذوات
مُشعلٌ بالحب منها الجوهر
قطرة بالعشق تُوعى ضرماً
لا يهاب العشق في السيف المضاء
هو في العالم صلح وخصام
نظرة العشق بها شق الصخور
فابغ في طينك هذي الكيمياء
امض كالرومي شمعاً يشتعل
إن في قلبك معشوقاً ثوى
عاشقوه قد شأوا كل جميل
عشقه في القلب نور أسفرا
ترب نجد منه قد خف وضاء
مُهجة المسلم مئوى المصطفى
موجة من نعه الطور الأشم
شرر في طيننا للحيات
يتجلى من قواها المضمّر
وهي بالعشق تُنير العالم^(١)
ليس من ماء وترب وهواء
للحياة الماء من هذا الحسام
هو عشق الحق ، والحق يصير
اقسن من كامل هذا الضياء^(٢)
وارم من تبريز في الروم الشعل^(٣)
أقبلن أنبك عن هذا الجوى
حبهم في كل قلب لا يحول
للثريا يرتقي منه الثرى^(٤)
طار وجداً مُصعداً نحو السماء
عزة المسلم ذكرى المصطفى
داره ، للكعبة العظمى حرم

(١) ترعي : تجمع وتدخر .

(٢) حذف بيت قبل هذا اختصاراً والكامل هنا الإنسان المرشد الذي يهدي المبتدىء .

(٣) إشارة إلى جلال الدين الرومي وشيخه شمس التبريزي الذي نقله من العلم إلى العشق ،

والروم هنا أرض الروم ، وهي آسيا الصغرى .

(٤) المعشوق المذكور في هذه الأبيات هو الرسول .

ضاق عن آن حواه الأبد
 أثرت سحق حصير عفته
 خلوات في حراء خلقا
 كم ليالٍ قد قضاها ساهدا
 سيفه في الحرب قطّاع الحديد
 سيفه « أمين » تمحو الظالمين
 سنناً في كوننا قد جددا
 فتح الدنيا له مفتاح دين
 استوى مولى لديه و غلام

مستمد من مداه الأمد
 وعلت تيجان كسرى أمته
 أمة منها وحكماً مشرقا
 فحبا الأمة ملكاً خالدا
 عينه في الذكر بالدمع تجود
 حين يدعو الحق بالنصر المبين
 ومن الماضين ملكاً بددا
 عقيمت عين مثله أم السنين
 هو والعبد سواء في الطعام^(١)

أسرت في غزوة بنت الجواد
 رجلها في القيد والرأس حسير
 بردة ألقى عليها ساترا
 نحن أعرى في الوري من أخت طي
 هو في الدنيا علينا سائر
 لطفه والقهر كل رحمة
 ويوم الفتح هذا الغافر
 إننا من قيد أوطان براء

من علا طيًّا بجندواه وساذ^(٢)
 مطرق في ذله الطرف الكسير
 إذ رأى وجهاً ورأساً حاسرا
 ليس يكسوننا لدى الأقوام شي
 وهو في الحشر إلينا ناظر
 لصديقي وعدو رأفة
 قال : « لا تثريب » وهو القادر^(٣)
 نحن من عينين نور لا وراء^(٤)

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر مثل : أنا عبد آكل أكلة العبد ، وأجلس جلسة العبد .

(٢) إشارة إلى قصة بنت حاتم الطائي حين جيء بها إلى المدينة في الأسرى فألقى عليها الرسول بردة وأطلقها .

(٣) إشارة إلى عفو الرسول يوم فتح مكة عن قريش وقوله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم .

(٤) يعني : إننا كالبصر يصدر من عينين . هو واحد وإن اختلف مصدره .

نحن في مغربنا والمشرق
أسكرتنا عينُ ساقٍ في البطاح
قد محا الأنسابَ طُراً ذا العظيم
نحن زهرٌ وشذانا ائتلفا
نحن كنّا سرّه في قلبه
كالنّدى في وجه صبحٍ مُشرقٍ
كزجاجِ نحن في الدنيا ، وراح^(١)
ناره قد أحرقت هذا الهشيم
ضمّنا منه نظاماً ألفاً
فأذاعت صيحة الحقّ به

عشقه نارَ بعودي الصّامتِ
ما حديثي عن ولاءٍ واشتياقٍ ؟
صورتي قد أوضحت مرآته
ثورة الحشر بليلى النائمِ
إنّني البستانُ في آذاره
قد غرستُ العين في حقلِ الوداد
قد شأى الدارين من يثرب طيب
أنا للجامي في الشعر فداء
قال بيتاً بالمعاني يفهق
« هو عنوان كتاب العالمين
ألفُ لحنٍ في فؤادي السّاكت
قد بكى جذعُ مواتٍ للفراق^(٢)
أنا صبحٌ أطلعت آياته
وهدوئي في اضطرابٍ دائم
في عروقي الماء من أمطاره^(٣)
من سراحِ العين لي هذا الحصاد^(٤)
حبّذا دارٌ بها مشوى الحبيب !
نظمه والنشر من جهلي دواء^(٥)
فيه دُرٌّ من مديح يبرقُ :
سيّد الكونين ، مولى الثقلين »

(١) نحن ممتزجون كما يمتزج الراح والزجاج .

فكأنما خمرٌ ولا قدح وكأنما قدحٌ ولا خمر

(٢) إشارة إلى قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عنده الرسول حين انتقل عنه إلى مكان آخر .

(٣) هو بستان ناضر من مطر آذاره . والضمير للرسول ﷺ .

(٤) جمع ما جمع من المعاني من تسريح عينه في مآثر الرسول .

(٥) الشيخ عبد الرحمن الجامي من كبار العلماء والشعراء والصوفية في القرن التاسع الهجري .

كم يُريك العِشقُ من صهبائه فترى التقليدَ من أسمائه^(١)
أحكِم العِشقَ بتقليد الحبيب لتنال القربَ من ربِّ مُجيب
في حِراء القلب فاقعدُ خاليا وإلى الحقِّ فهاجرُ راضيا
اقوِّين بالحقِّ ثمَّ ارجع إليك واحطمنَّ اللَّات والعزَّى لديك^(٢)
قوِّين بالعشق في سلطانه وابتغِ الجلوة في فارانه^(٣)
تظفرنَّ بالقربِ يا ذا السائلُ ! وتكن تفسير « إني جاعل^(٤) »

في بيان أنَّ الذات تضعفُ بالسُّؤال

أيها الجابي من الأسد الخراج ! صرْتَ كالثعلب خبأً باحتياج
ذلك الإعوازُ أصلُ العِلل كلُّ آلامك من ذا المُعضل
سالبُ الرِّفعة من فكرٍ رفيغ مطفئ الشَّمع من الذَّهن البديع
من كنوز الدَّهر أخرج ما تريد وخذ الصَّهباء من دَنِّ الوجود
وعن الرَّحل ترجَّل كعمر احذرن من منَّة الناس ، الحذر^(٥)
صاح ! حتَّامَ اجتداء المنصب ! فيم كالطفل ركوبُ القَصَب^(٦)
تجدِ الإفلاسَ بالسُّؤل أذلَّ وترى السائلَ أخزى وأقلَّ

-
- (١) للعشق أشكال مختلفة منها التقليد أحياناً . وهو يدعو هنا إلى تقليد الرسول .
(٢) هاجر إلى الحق لتقوى ؛ ثم ارجع إلى نفسك فاحطم ما بها من أهواء .
(٣) فاران : اسم مكة أو جبالها .
(٤) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] أي : لتكون خليفة الله في الأرض .
(٥) إشارة إلى قصة عمر حين سقطت درته من يده وهو راكب فنزل ليأخذها ولم يرض أن يناوله إيّاها أحد .
(٦) ركوب عود من القصب أو الجريد كما يفعل الأطفال .

فَرَّقَ الْذَاتَ سُؤَالَ وَاجْتِدَاءَ
 إِنْ يَكُنْ فِي الرِّزْقِ وَالْجَدُّ عَنَاءَ
 لَا تَرُمُ فِي الْأَرْضِ رِزْقاً بِالْبُكَاءِ
 احْذَرِ الْخِزْيَ أَمَامَ الْمُصْطَفَى
 مِنْ سَمَاطِ الشَّمْسِ يَقْتَاتِ الْقَمَرُ
 جَاهِدِ الْأَيَّامَ وَاللَّهُ اسْتَعْنُ
 عَلَّمَ النَّاسَ الصَّدُوقُ الصَّائِبُ
 وَيَحْ مِنْ يَحْمِلُ ذُلَّ النُّعْمَةِ
 أَرْهَقَ النَّفْسَ بِوَقْرِ الذَّلَّةِ
 مَرْحَباً بِالظَّامِئِ الضَّحِيانِ لَا
 بِسُؤَالِ النَّاسِ لَمْ يُنْدِ الْجَبِينُ
 تَحْتَ هَذِي الشَّمْسِ يَمْضِي ذَا الْفَتَى
 زَادَ فِي الْعُسْرِ مَضَاءَ حُدَّةُ
 كُنْ حَبَاباً مِنْ عَطَاءِ يَنْفَرُ

فَبَدَتْ سَيْنَاؤُهَا دُونَ ضِيَاءِ^(١)
 وَطَفَى حَوْلَكَ سَيْلٌ مِنْ بَلَاءِ
 لَا تَرْجُ الْمَاءَ مِنْ عَيْنِ ذُكَاءِ^(٢)
 يَوْمَ يَخْزِي كُلُّ سَاعٍ مَا وَفَى
 فَعَلَيْهِ وَسَمُ نُعْمَاهَا ظَهَرَ^(٣)
 مَاءَ وَجْهِ الْمَلَّةِ الْبَيْضَاءِ صُنُ
 أَنْ « حَيْبُ اللَّهِ سَاعٍ كَاسِبُ »^(٤)
 خَافَضَ الرَّأْسَ لِثِقَلِ الْمَنَّةِ
 بِنَقِيرِ بَاعٍ تَاجِ الْعِزَّةِ
 يَسْأَلُ الْخَضِرَ شَرَاباً فِي الْفَلَا^(٥)
 ذَاكُمُ الْإِنْسَانُ ، لَا مَاءً وَطِينِ
 عَالِيِ الرَّأْسِ كَسَرُوْ قَدْ عَتَا
 هُوَ يَقْظَانُ وَغَافِ جَدُّهُ^(٦)
 فَارَغَ الْكَأْسَ بِبَحْرِ يَزْخَرُ^(٧)

-
- (١) لا نور في سينائها يهدي إلى الحق . إشارة إلى قصة موسى .
 (٢) لا تسأل الماء ولو من عين الشمس .
 (٣) السمة التي على وجه القمر سمة اجتدائه نور الشمس .
 (٤) إشارة إلى الأثر : الكاسِبُ حبيب الله .
 (٥) لا يطلب من الخضر شربة ماء . وعند الخضر ماء الحياة كما في القصص .
 (٦) همته يقظانه وإن كان جده نائماً .
 (٧) يتخيل الشعراء حباب الماء كأساً فارغةً وهي في البحر . فضرب الشاعر الحباب مثلاً في العفة والإباء .

في بيان أنَّ الذَّات تستحكم بالمحبَّة والعشق فتسخر

قوى العالم الظاهرة والباطنة

أمرُها في الكون طرّاً يَحْكُمُ
يُدُّها من قوَّة الحق أثرُ
في خصومات الورى أقوى حَكَمُ
اسْمَعْنِ مِنِّي حديثاً عن وليّ
ذلك الصُّداح في المرج القديم
سالكُ سكران من خمِرتِه
وأتى العامِلُ في موكبِه
صاحٍ للتطريقِ جندِيّ نكير
ومضى الدَّرويش في تسياره
فأتى ربُّ العصا في شرَّتِه
فتنَحَّى عن طريق العامِل
ومضى يشكو إلى شيخ الطريق

حينما الذَّات بعشق تُحْكَمُ^(١)
فإذا ما أومات شُقَّ القمر
صاغِرٌ في حكمها داراً وجمُ^(٢)
اسمه في الهند مشهورٌ عليّ^(٣)
قصٌّ أخباراً عن الورد الشميم^(٤) :
قصد الأسواق في بغيته
معه الحرَّاسُ قد حفَّتْ به
أيها الأحمقُ أفسح للأمير
غارقاً في اللجِّ من أفكاره
ضارباً رأس الفتى في غفلته
وهو في دعرٍ وحزنٍ قاتل
دمعُه من محبس العين طليق

(١) تحكم أي : تصير قوية محكمة .

(٢) دارا وجمشيد من ملوك الفرس القدماء .

(٣) الشيخ أبو علي قلندر من كبار صوفية الهند في القرنين السابع والثامن . والقصة التي يشير إليها الشاعر وقعت بين الشيخ والسلطان علاء الدين الخلجي . وخلاصتها أنَّ أحد مريدي الشيخ ذهب إلى السوق ، وكان موكب العاهل قادماً ، فنادى أحد الحرس الدرويش ليفسح الطريق فلم ينتبه فضربه على رأسه فذهب إلى شيخه شاكياً ، فكتب الشيخ إلى السلطان : إما أن تعزل عاملك أو أنصّب مكانك ملكاً آخر . فخاف السلطان وأرسل الشاعر الكبير أمير خسرو وكان ماهراً في الموسيقى فغنى بعض شعره على الرباب ، فلما آنس من الشيخ قبولاً أبلغه رسالة السلطان يطلب عفو الشيخ فعفا عنه . ويريد إقبال بهذه القصة بيان قوة النفس التقية المستغنية .

(٤) هذا البيت يشير إلى مطلع قصيدة فارسية للشيخ أبي علي قلندر فيها ذكر البلبل والورد .

زَمَجَرَ الشَّيْخَ بِقَوْلٍ مِنْ ضَرَمَ
ثُمَّ أَمَلَى الشَّيْخَ سَطْرًا مِنْ لَهَبٍ
أَمْسَكَ الْمِزْبَرَ وَابْتَدَأَ النَّذِيرَ
«عَامِلٌ عِنْدَكَ غَرٌّ قَدْ عَصَى
اعْزَلِ الْعَامِلَ، هَذَا الْفَاجِرُ
عَبْدٌ حَقٌّ فِيهِ لِلَّهِ احْتِسَابُ
أَدُهُ غَمٌّ وَخَوْفٌ لَا يَحُولُ
قَيْدُ الْعَامِلِ بِالْقَيْدِ الثَّقِيلِ
وَرَأَى خُسْرًا لَهُ خَيْرَ سَفِيرٍ
سَاحَرَ الْأَلْبَابِ فِي الْحَانَةِ
وَلَهَا خُسْرًا بِأَوْتَارِ الرَّبَابِ
فَطَرَةً كَالطُّودِ فِي عِزَّتِهِ
احْذَرْنَ لَا تَجْرَحْنَ قَلْبَ فَقِيرٍ

مِثْلَ بَرْقٍ فِي ذُرَى الطُّودِ اضْطَرَمَ
قَالَ لِلْكَاتِبِ فِي نَارِ الْغَضَبِ :
أَبْلَغَ السُّلْطَانِ عَنْ هَذَا الْفَقِيرِ :
وَعَلَا رَأْسَ غَلَامِي بِالْعَصَا
أَوْ أَهَبْ مُلْكَكَ مُلْكًا آخِرًا «
أَرَعَدَ السُّلْطَانُ مِنْهُ ذَا الْكِتَابِ
فَحَكَى فِي لَوْنِهِ شَمْسَ الْأَصِيلِ
وَاسْتَغَاثَ الشَّيْخَ لِلصَّفْحِ الْجَمِيلِ
ذَلِكَ الْكُوكَبُ وَضَاءُ الضَّمِيرِ^(١)
مُسْتَمِدُّ الْغَيْبِ فِي تَبْيَانِهِ
فَأَهَاجَ الشَّيْخَ وَجَدًّا وَأَذَابَ
خَشَعَتْ لِلْخَنِّ فِي رَقَّتِهِ
لَا تَزُجُّ النَّفْسَ فِي نَارِ السَّعِيرِ

قصة في معنى أن مسألة نفي الذات من مخترعات الأمم المغلوبة لتضعف الأمم الغالبة بهذه الطريقة الخفية

قَدْ سَمِعْنَا أَنَّ فِي عَصْرِ قَدِيمٍ
وَفَرَتْ نَسْلًا بَذَا الْمَرْعَى الْخَصِيبِ
ثُمَّ أَلْوَى بِمُنَاهِنِ الْقَدَرِ
دَهَمَتَهَا الْأَسَدُ مِنْ آجَامِهَا
آيَةُ الْقُوَّةِ حَكْمٌ قَاهِرٌ
جَمَعَ ضَائِنٌ كَانَ فِي مَرَعَى يُقِيمُ
فَارَغَاتِ الْبَالِ مِنْ لَيْثٍ وَذَيْبِ
وَرَمَى بِالسَّهْمِ فِيهِنَّ الدَّهْرُ
نَاشِرَاتِ الدُّغْرِ فِي أَيَّامِهَا
سَرَّهَا الظَّاهِرُ فَتَحَّ ظَافِرُ

(١) أمير خسرو الدهلوي من كبار الشعراء في القرن الثامن الهجري .

ضربَ الليثُ طبولَ النوبة
وكسا المرعى بصبغٍ أحمرًا
وانبرى كبشٌ ذكيٌّ ذو عُمر
غمَّه ما قد يعانني سرُّبه
أمره أحكمَ في تدبيره
باحتيال العقل يحمي نفسه
قوة التدبير في دفع الضرر
فإذا ما ثار للثأر الجنونُ
قال : أمرٌ حار فيه العاقلُ
كيف للضأن فال الأسدِ
ليس وعظٌ من بليغٍ قادرا
لكن الليثُ رآه حملا
فادّعى في القوم دعوى ملهم
قال : كلُّ القوم « كذابٌ أشْر »
جئتُ للناس بشرعٍ مُحكم
عجلوا التوبة عن كل قبيح
ويح جلدٍ أحكمت فيه قِواء

أخذاً آفاق هذي الثَّلة^(١)
ما سوى الفرسِ لدى أسد الشرى
جرب الأحداث من خلِّو ومُر
من فعال الأسدِ يدمي قلبه
وهو يشكو الدهر في تقديره
كلُّ رخوٍ ليس يرجو بأسه
في زمان الضَّعف أقوى وأمر
صار عقلُ العبد خلاق الفتون
بحرٌ عمٌ ليس فيه ساحلٌ^(٢)
ساعدٌ رخوٌ وفولاذٌ يدٌ^(٣)
أن يردَّ الكبش ذئباً كاسرا
إن سها عن نفسه أو غفلا
مرسلٍ للأسد شرابِ الدم^(٤)
غافلٌ عن يوم نحسٍ مستمرٍ^(٥)
إنني النُّورُ لطرفٍ مُظلم
واتركوا الحر إلى الفعل الربيع
« نفي ذاتٍ » هو إحكام الحياه^(٦)

(١) طبل النوبة كان يضرب في أوقات معينة على أبواب الملوك .

(٢) قال الكبش . . إلخ .

(٣) ساعد الضأن ويد الأسد .

(٤) فادّعى في القوم . أي ادعى الكبش .

(٥) « كذاب أشْر » و « نحس مستمر » اقتباس من القرآن . جاء في الأصل .

(٦) مذهب إقبال قائم على أن الخير في إثبات الذات والشر في نفيها .

عَلَفُ العُشْبِ به الروح تطيب
 حِدَّةُ الأسنان عازٌّ مُبْرَم
 إنما القوَّةُ خسرانٌ مبيِّن
 طلبُ السُّلطان شرٌّ مستطير
 تأمن الحَبَّةُ برقاً مُحْرِقاً
 ذرَّةٌ كُنْ لا كَثيباً أَفِيحاً
 قُلْ لِمَنْ يُزْهَى بذبحِ الغنم
 يقطع السُّبُل على هذي الحياه
 يوطأ العشبُ فينمو صُعُداً
 أغفلنْ نفسك إمَّا تعقل
 اسدُدنْ عيناً وأُذنأ وفما
 هذه الدنيا فناءً في فناء
 كانتِ الأشدُّ جهاداً مَلَّتِ
 عن هوى أصغتِ إلى النَّصحِ المُنيمِ
 كان فرس الضَّان من سُتَّها
 جوهراً الآسادِ أضحي خزَفاً
 ذهب العُشبُ بنابِ ذي أشر
 ذلك القلبُ عن الصُّدر نأى
 فذوى في القلب شوق العملِ
 ذهب الإقدام والعزمُ الأيلُ

عائفُ اللحم إلى الله قريب
 بَصَرُ الإدراك منها يُظلم
 خُصَّت الجَنَّةُ بالمستضعفين
 خيرُ الفاقة من عزِّ الأميز
 وتري البيدرَ منه محرقاً^(١)
 لتنال النُّور من شمسِ الضُّحى
 اذبح النَّفْس بحقِّ تغنم
 قوَّةُ فيها وسلطانٌ وجاه
 يفتح الأعينَ من بعد الرَّدَى^(٢)
 إنما المجنونُ من لم يُغفل
 ليجوز الفكرَ أقطارَ السَّما^(٣)
 إنَّها وهمٌ فما فيها رجاء
 نازعاتٍ نحو عيشِ الدَّعة
 فدهاها الكبش بالسَّحر العظيم
 فاقتدت بالضَّان في شِرْعَتها
 حين صار القوتُ هذا العلفاً
 أطفأ الأعينَ ترمي بالشَّرر
 جواهر المرآة فيها صَدِئاً
 وهيامُ السَّعي خَلَف الأمل
 والسَّنا والعزُّ والمجدُ الأثيلُ

(١) الحبة الواحدة لا تبالي بالبرق ولكن البرق يحرق البيدر الكبير .

(٢) يداس العشب فينمو . فالذلة فيها نفع .

(٣) لعل فيها إشارة إلى ما يفعله نساك الهند ، وإلى الصورة التي تمثل ثلاثة قرود واحد يسد فمه ، والثاني أذنيه ، والثالث عينيه .

بُرثن الفولاذ فيها قد وَهَنُ
ونما الخوفُ بنقص المنَّة
كلُّ داءٍ في سقوط الهمم
نامت الأسد بسحر الغنم
واستكان القلب في قبرِ البدن
قَطَعَ الخوفُ جذور الهمَّة
يجعل الأحياء مثل الرَّمَم
سَمَّتِ العجزَ ارتقاء الأمم

في بيان أنَّ أفلاطون اليوناني الذي أثَّرت آراؤه في تصوُّف المسلمين وآدابهم كان على هذه الطريقة الغنميَّة ، وأن الاحتراز من آرائه واجبٌ

راهبُ الماضين أفلاطُ الحكيم
طَرَفَه في ظُلْمَةِ المعقول ضلَّ
فكرُهُ في غير محسوسٍ فُتِنَ
قال : في الموت بدا سرُّ الحياه
حُكْمُه في فكرنا جدُّ عظيم
هو شاةٌ في لباس الآدمي
عالمَ الأشياء سمَّاه الهراء
فعلُهُ « تحليلُ أجزاء الحياه »
زعم الخسرانَ ربحاً فكرُهُ
فكرُهُ يُغفِي ورؤيا يخلُقُ
حُرْمَ المسكين حُبَّ العملِ
من فريق الضأن في الدَّهر القديم
في حزون الكَوْنِ قد أعيَا وكلَّ
صدَّ عن كفٍّ وعَيْنِ وأُذُنِ^(١)
في خمود الشَّمْعِ يزدادُ سناء
يمحق الدُّنيا له جامٌ مُنيم
وهو في الصوفيِّ ذو بأس قويٍّ
وعَلَتْ أفكارُهُ فوق السَّماءِ
وجفاف النَّبع من ماء الحياه
ودعا الكَوْنَ فناءً سحرُهُ
عينه تُبصر آلاً يَبْرُقُ^(٢)
فقفا معدومَه لا يأتلي

(١) أعرض عن الحوَّاس .

(٢) يؤمن بعالم الأحلام لا عالم اليقظة ، ولا تبصر عينه الماء ، ولكن تبصر السراب .
الآل : السَّراب .

منكراً في الكون ما لا يُفقد
عالمَ الإمكان للحيّ وطن
ظيّهُ من خفة لا يجفلُ
لم يُلألئْ عنده قطرُ الندى
حبةً في أرضه تأبى النماء
في وغي العالم نكسٌ مُحجمٌ
قلْبُهُ يَعشو لنارٍ خامدة
طار من عشٍّ إلى الأوج العليّ
هُلك أقوام بهذا الثَّمَل

خالقاً في الكون ما لا يُشهد
عالم الأعيان للميتِ حَسَنٌ^(١)
غيرُ خطّارٍ لديه الحَجَلُ^(٢)
طيْرُهُ ما فيه صوتٌ قد شدا
وفرّاشٌ عنده يلقي الضياء^(٣)
مُشفقٌ راهبُنّا لا يُقدم
صوْرَتِ عيناها دنيا هاجدة
ثم لم يرجع إلى العش الخليّ^(٤)
حُرّمُوا بالنّوم ذوق العمل

في حقيقة الشعر ، وانسلاخ الآداب الإسلامية

حرقَةُ الإنسانِ من كور الأملِ
إنَّه الخمرة في كأسِ الحياة
الحياة الحقُّ تسخيرُ الدُّنْى
هي للمقصودِ في الدُّنيا سبيل

نارُ هذا الطّينِ من نورِ الأملِ^(٥)
وبه وقدةُ أنفاسِ الحياة
والى التسخيرِ تدعوها المُنَى
وهي للعشْقِ من الحسنِ رسول

-
- (١) الحي يعيش في عالم الإمكان ، عالم الحس ، والميت يعيش في عالم الخيال ، عالم الأعيان عند أفلاطون وهذا ردُّ على أفلاطون .
- (٢) خلق أفلاطون عالماً لا يشب ظيّبه ولا يتبختر حجله . والحجل طير جميلة في مشيها تبخر .
- (٣) الحبة في طبيعتها النمو والفراش في طبعه حب الضوء ولكن حبة أفلاطون تكره النمو ، وفراشه يكره الضوء .
- (٤) رأى إقبال أن يخلق الفكر ليعود إلى عالم الحس ، لا ليبقى في عالم التفكير والتخيّل .
- (٥) الكور : مجمرة الحداد .

أملُ الإنسان أنَّى يظهر
كلُّ خيرٍ وبهيجٍ وجميل
حُسْنُه في القلب نورٌ يسطعُ
خُلِقَ الحسنُ نضيرَ الأمل

كيف يشجو الحيَّ هذا المزهرُ؟
هو في بيدائنا نعم الدَّلِيلُ^(١)
تجد الآمال منه تطلُّع
وأدام الحسنُ نورَ الأمل

مطلعُ الحسنِ ضميرُ الشَّاعر
زادتِ الحسنَ جمالاً نظرُته
غرَّد البلبِلُ من تلحينه
ناره كلَّ فراشٍ كاوية
مُضمَّرٌ في خلفه بحرٌ وبرٌ
كم شقيقٍ في الحشا لم يطلع
فكره للبدر والنجم نجوي
خَضِرٌ في ليله ماءُ الحياة
نحن أغراؤُ بطاءِ الأرجل
لطفَت في سيرنا حيلُته
يحفز الرِّكب لفردوسِ الحياه
فمضى الركبانُ إثر الجرس
وسرت في زهرنا نفحتُه
نفسٌ منه حياةٌ تُزهرُ

طوره صبغُ الجمالِ الباهر
زادتِ الفطرة حَبّاً صنعتُه
ضاء خدُّ الورْد من تلوينه
قِصصُ العشاق منه زاهية
ألف كونٍ محدثٍ فيه استتر
وغناه وبُكَي لم يُسمع^(٢)
يُبدع الحسنُ ، وفي القبح عيى
تُزهرُ الأكوانُ من ماءٍ بُكاه^(٣)
ضلَّ سارينَا طريقَ المنزل
وعَلَت في ركبنا نغمُته
ويتمُّ الدَّور في قوسِ الحياه^(٤)
وشدا الحادي بصوتِ مؤنس
مذ سرت في روضنا نسمُته
حُرَّةٌ لوَّامةٌ لا تصبرُ

(١) يقول : إنَّ الأمل وسيلةُ العمل ، والأمل يخلقه الميل إلى الخير والجمال .

(٢) ضمير الشاعر فيه شقائق لا يراها الناس ، وفيه بكاء وغناء لا يسمعون .

(٣) إشارة إلى قصة الخضر واهتدائه إلى ماء الحياة في أرض الظلمات .

(٤) يكمل دائرة الحياة .

يَأْدِبُ النَّاسَ جَمِيعاً لِلْقُرَى نَارُهُ كَالرَّيْحِ تَسْرِي فِي الْوَرَى

وَيْلُ قَوْمٍ لِهَلَاكِ طَائِرِهِ
كُلُّ حُسْنٍ شَاءَ فِي مَرَاتِهِ
تُذْبِلُ الْأَزْهَارَ مِنْهُ الْقُبُلُ
تَهِنُ الْأَعْصَابُ مِنْ أَفْيُونِهِ
يُسْلِبُ السَّرَّوَ جَمِيلَ الْمَيْلِ
هُوَ حُوتٌ نَصْفُهُ كَالْأَدْمِيِّ
يُسْحَرُ الرِّبَّانُ مِنْهَا بِاللَّحُونِ
يُسْلِبُ الْقَلْبَ ثِبَاتاً لِحْنِهِ
يُلْبِسُ النَّفْعَ لِبَاسَ الضَّرَرِ
فِي بَحَارِ الْفِكْرِ يُلْقِيكَ فَلَاحِ
شِعْرِهِ فِينَا يَزِيدُ الْكِلَالِ
سَيْلَ بَرْقٍ مَا حَوَى نَيْسَانَهُ
فَنُّهُ بِالْحَقِّ لَا يَعْتَرِفُ
نَوْمُ أَهْلِهِ يَقْطَعُنَا
بَلْبَلُ سُوءِ قُلُوبٍ نَغْمُهُ
خَمْرُهُ اللَّأْلَاءُ أَتَرَكَ وَاحِذِرُ

صَدَّ عَنْ وَرْدِ حَيَاةٍ شَاعِرُهُ
فِي الْجِسْمِ السُّمُّ مِنْ جَرَعَاتِهِ
وَيُعَافُ الشَّدْوُ مِنْهَا الْبَلْبَلُ
وَيَمُوتُ الْحَيُّ مِنْ تَلْحِينِهِ
وَيَرُدُّ الصَّقْرُ مِثْلَ الْحَجَلِ^(١)
كِبْنَاتُ الْبَحْرِ تَقْتَادُ الْغَوِيَّ^(٢)
وَلِقَاعُ الْبَحْرِ تَهْوِي بِالسَّافِينِ
وَيُورِي الْمَوْتَ حَيَاةً فَنُّهُ
وَيُورِي الْحُسْنَ قَبِيحَ الضُّورِ
تَشْتَهِيهِ أَوْ تَطِيقُ الْعَمَلَا^(٣)
كَأْسُهُ فِينَا تَزِيدُ الْمَلَالَا
آلَ لَوْنٍ وَشَذَا بَسْتَانِهِ^(٤)
بَحْرُهُ مَا فِيهِ إِلَّا الصَّدْفُ
أَطْفَاتُ أَنْفَاسِهِ شَعْلَتْنَا
ضِغْثُ وَرْدٍ فِيهِ يَنْوِي أَرْقَمَهُ
كَأْسُهُ وَالطَّاسَ وَالْدَنَّ أَهْجِرُ

(١) السَّرْو : شجر طويل يصفه الشعراء بالرشاقة والتمايل .

(٢) بنات البحر : حيتان خرافية نصفها الأعلى كالإنسان ، تغوي الملاحين بأنغامها حتى تغرق السفن .

(٣) أي لا تشتهي العمل ، ولا تطيقه .

(٤) نيسان من شهور الربيع يكثر فيه المطر . وهذا الشاعر الذي يصفه إقبال ليس في نيسانه سيل من البرق ، أي ليس في سحابه برق ولا مطر . وقد شبه إقبال وميض البرق بالسيل . والآل : السراب ؛ أي : بستانه سراب من اللون والرائحة .

يا صريعاً خمره يُغْتَبَقُ
يا برود القلب من ألحانه
يا دليلاً للردى أفكاره
أنت للذلّ أرحت البدنا
من نسيم مرّ يدمى خدكا
أخزت العشق دجى صيحاتكا
شاحب الوجه بدا من ضركا
عاجز الهمة من ذلتكا
أدمع الأطفال في كاساته
آه من وغد ذليل يائس
صار كالناي هزيراً نائحا
ليس إلا الحقْد في جوهره
يائس فسل حليف الخيبة
نوحه روحك منه في سقام
ويح عشق قد ذكا في الحرم

لك صبح من سناها مشرق
قد شربت السّم من تبيانها
عطلت من نغم أوتارها
أنت للإسلام عار في الدنى
بعروق الورد يُلوى قدكا
غض من صورته بهزادكا^(١)
بردت نيرانه من قركا
وعليل الرّوح من علّتكَا
كنزه ما اعتدّ من آهاته
هالك من ركّلات الحارس^(٢)
شاكي الأقدار جهلاً صائحا
ليس إلا العجز في مخبره
شقوة في خسة في ذلة^(٣)
قد حمى جيرانه طيب المنام
ناره باخت بيت الصنم !

صيرفيّ القول ! إن تبغ النّجاة
نيرُ الفكر يقود العملا
فاجعلن معياره نار الحياة
مثل برق قادّ رعداً جلجلا

-
- (١) بهزاد : مصور إيراني ماهر . يقول إقبال : إنّ هذا الشاعر شوّه صورة العشق . وفي الأبيات التالية يبين ما أصاب العشق من الذلة والخور على لسان شاعر السوء .
(٢) يستجدي أو يحاول السرقة فيركله الحارس .
(٣) هذه الأوصاف تعرب عن غيظ إقبال من الشعراء الذين أذلوا الآداب الإسلامية .

مَنْ بِفَكْرِ صَالِحٍ فِي الْأَدَبِ ؟
 وَسَلِّمِي الْعُرْبَ يَا صَاحِ اعْشَقَا
 فِي رِيَاضِ الْعَجْمِ قَطَّفْتَ الزَّهْرَ
 مِنْ حَرُورِ الْبَيْدِ فَاشْرَبِي يَا رَفِيقُ
 أَسْلِمَنْ رَأْسَكَ يَوْمًا صَدْرَهَا
 قَدْ لَبَسْتَ الْخَزَّ طَوَّلَ الزَّمَنِ
 كَمْ وَطِئْتَ الْوَرْدَ فِي طَوْلِ الْمَدَى
 فَعَلَى رَمْلِ الصَّحَارَى الْمُضْرَمِ
 فِيمَ هَذَا النُّوحِ مِثْلَ الْبَلْبَلِ ؟
 قَدْ عَلَا جَدُّ الْهُمَا مِنْ صَيْدِكَ
 ابْنُ عُشٍّ حَيْثُ لَا تَرْقَى الْأَنْوَقُ
 لُتْرَى أَهْلًا لِأَعْصَارِ الْحَيَاةِ
 ارْجَعْنِي يَا صَاحِ شَطَرِ الْعُرْبِ ^(١)
 لَتُرَى صَبْحَ الْحِجَازِ اثْتَلَقَا
 فِي ربيعِ الْهِنْدِ سَرَّحْتَ الْبَصَرَ
 وَاشْرَبْنِي مِنْ تَمْرِهَا الرَّاحَ الْعَتِيقُ
 وَأَلْقَيْنِي فِي حَرِّهَا صَرَصَرَهَا
 فَأَلَفَ الْكَزْبَاسَ يَوْمًا وَاخْشُنِي
 غَاسِلًا ، كَالْوَرْدِ ، خَدًّا بِالْنَدَى
 أَقْدِمْنِي يَوْمًا وَغُصْنِي فِي زَمْزَمِ
 وَإِلَامِ الْعُشِّ بَيْنَ الظُّلَلِ ؟
 اجْعَلْنِي فِي الطُّودِ مِثْلَ عُشُّكَ ^(٢)
 تَخْتَفِي فِيهِ رَعُودٌ وَبُرُوقٌ ^(٣)
 وَتُذِيبُ النَّفْسَ فِي نَارِ الْحَيَاةِ

-
- (١) إقبال معجب بالعرب الذين حملوا رسالة الإسلام إلى أقطار الأرض لا يصدُّهم شيء ،
 ويكبر الهمة والقوة والصبر فيهم ، ويمدح الأدب العربي القوي .
 (٢) الهما : طائر خرافي إن سقط ظله على إنسان صار ملكاً ، والشاعر هنا يخاطب المسلم
 قائلاً إن الهما الذي يمنح الناس الحظ قد علا حظه بأنك صدته فأنت أعلى منه . فارفع
 عشك فوق الجبل .
 (٣) الأنوق : العقاب .

في بيان أنَّ للتربية الذاتية ثلاث مراحل :

الأولى : الطَّاعة ، والثانية : ضبط النفس ، والثالثة : النيابة الإلهية

المرحلة الأولى

الطَّاعة

شِيمَةُ الصَّبْرِ وَقَارُ الْجَمَلِ	أَلْفَةُ الْكَدِّ شِعَارُ الْجَمَلِ
زَوْرَقاً فِي الْبَيْدِ يَسْرِي هَادِياً	صَامَتَ الْأَخْفَافِ يَمْشِي مَاضِياً
شَارِدَ النَّوْمِ قَلِيلاً أَكْلُهُ	نَقَشَتْ وَجْهَ الصَّحَارَى أَرْجُلُهُ
رَاقِصاً يُقَدِّمُ شَطْرَ الْمَنْزِلِ	ثِمِلاً يَخْتَالُ تَحْتَ الْمَحْمَلِ
هَائِثٌ بِالسَّيْرِ عُجْباً يَخْطُرُ	فِي الْمَدَى مِنْ رَاكِبِهِ أَصْبَرُ

وَارْجُونَ مَنْ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ^(١)	فَاحْمِلِ الْفَرَضَ قَوِيّاً لَا تَهَابِ
فَمِنْ الْجَبْرِ سَيِّدُوا الْاِخْتِيَارَ ^(٢)	اجْهَدَنَّ فِي طَاعَةٍ يَا ذَا الْخَسَارِ
وَهَوَى الطَّاغِي وَلَوْ كَانَ اللَّهَبُ	بَامْتِثَالِ الْأَمْرِ يعلو من رَسَبِ
مَنْ ثَوَى فِي الْقَيْدِ مِنْ شَرْعَتِهِ	سَخَّرَ الْأَفْلَاكَ فِي هِمَّتِهِ
طَوَّعَ قَانُونَ لَهُ قَدْ ذُلُّوا	قَدْ سَرَى النَّجْمُ يَوْمُ الْمَنْزَلِ
فَإِذَا مَا حَادٍ يُجْفَى بِالْعِرَاءِ	وَنَمَا الْعَشْبُ بِقَانُونَ النَّمَاءِ
دُمُهُ مِنْ ذَاكَ يَسْرِي فِي الْعُرُوقِ ^(٣)	وَلَهَيْبٌ دَائِمٌ دِينَ الشَّقِيقِ
فَهِيَ بَحْرٌ وَهِيَ بَرٌّ بِاتِّصَالِ	يَرْبِطُ الذَّرَاتِ قَانُونَ الْوَصَالِ

(١) اقتباس من القرآن . وهو في الأصل .

(٢) إذا وفق الإنسان بين نفسه وبين القانون أطاع القانون مختاراً لا مجبراً .

(٣) الشقيق : شقائق النعمان . وهي في الشعر مثال الوجد والاحتراق .

كلُّ شيءٍ فيه قانونٌ سرى كيف في هذي المعاني يُمتري؟^(١)
 أرجعن يا حُرَّ دُستورٍ قديمٍ زَيْنُ رِجْلِكَ بالقيد الوسيمِ
 شدَّةٌ في شرعنا لا تشكون وحدودَ المصطفى لا تعدون^(٢)

المرحلة الثانية

ضبطُ النَّفس

جَمَلُ نَفْسِكَ تربو بالعلف في إباءٍ وعنادٍ وصلَف
 فكنِ الحرَّ وقُذِّها بزمام تبلُغن من ضبطها أعلى مقام
 كلُّ من في نفسه لا يحكم هو في حُكمٍ سواءٍ مُرغم
 إنَّما صوِّرت من طين لَزْب سيط في أمشاجه خوفٌ وحبٌ :
 خيفةُ الدُّنيا وخوفُ الآخره خوفُ مَوْتٍ ورزايا فاقره
 حبُّ جاهٍ وثرَاءٍ وبلد حُبُّ زوجٍ وقريبٍ وولد
 من مزاج الطَّينِ والماءِ البدن مَرَكِبُ الأهواءِ ، مَغْلُوبُ الفتن
 مَنْ يَمْسُكُ بعصاً من « لا إله » فلتحطَّمِ طِلْسَمُ الخوفِ يداه^(٣)
 كلُّ من بالحقِّ أحيا نَفْسَهُ لا ترى الباطلَ يُحني رأسَهُ
 ليسَ يدنو الخوفُ منه أبدا ليسَ ، غيرَ الله ، يخشى أحدا

- (١) في الأبيات السابقة ضرب الشاعر أمثالا مختلفة لسير الأحياء والأشياء على قوانين .
 (٢) ينصح المسلم بالتزام الشرع واحتمال شدته . فهذا قانون لا يسعد الإنسان بدونه .
 ويقول للمسلم كنت حراً باتباع دستورك القديم فارجع وقيد رجلك بهذا القيد الجميل ،
 ففي هذا القيد حريتك لا عبوديتك .
 (٣) لا إله : اختصار لا إله إلا الله . وهكذا يستعملها الشاعر في كثير من شعره . قوله :
 إنما السبيل إلى إبطال طلسم الخوف أن تمسك عصا من التوحيد كعصا موسى تبطل
 السحر .

كُلُّ مَنْ مَوْطِنُهُ إِقْلِيمٌ « لا »
 مُعْرِضٌ عَمَّا سِوَى اللَّهِ الْوَاحِدِ
 مِنْ قِيودِ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ خَلَا^(١)
 يَضَعُ السَّكِينِ فِي حَلْقِ الْوَلَدِ^(٢)
 يَبْذُلُ الرُّوحَ بِيَوْمِ الْخَطَرِ

دَرَّةُ التَّوْحِيدِ ، فَاحْفَظْهَا الصَّلَاةَ
 فِي يَدِ الْمُسْلِمِ هَذَا الْخَنْجَرُ
 يَفْتِكُ الصَّوْمُ بِجُوعٍ وَصَدَى
 وَيُنِيرُ الْحَقُّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ
 إِنَّمَا الطَّاعَةِ أَسْنُ الْأَمَةِ
 بِالزَّكَاةِ الْعَابِدُ الْمَالِ أَذْكَرُ
 تَكْثُرُ الْمَالُ ، وَشُحًّا تَمَحَقُ
 تِلْكَ أَسْبَابُ بِهَا تَسْتَحْكِمُ
 اقْوَا يَا مُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْقَوِيَّ
 حَجَّكَ الْأَصْغَرُ ، فَاعْرِفْهَا الصَّلَاةَ
 يُقْتَلُ الْفَحْشُ بِهِ وَالْمَنْكَرُ
 ضَابِطاً بِالْقِسْطِ هَذَا الْجَسَدُ
 هَجْرَةُ الْأَهْلِ بِهِ وَالْوَطَنُ
 إِنَّهَا خِيْطُ كِتَابِ الْمَلَّةِ^(٣)
 عَلَّمْتَ حَبَّ الْمَسَاوَاةِ الْبَشَرُ
 « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تَنْفَقُوا »
 إِنْ يَكُنْ فِي الْقَلْبِ دِينَ مُحْكَمُ
 تَحْكُمَنَّ فِي ذَلِكَ الْبَكْرِ الْأَبْيَ^(٤)

المرحلة الثالثة

النيابة الإلهية

إِنْ خَطَمْتَ الصَّعْبَ قُدَّتْ الْعَالَمَا نَافِذَ الْأَمْرِ عَلَيْهِ حَكْمَا^(٥)

(١) لا إشارة إلى نفي ما سوى الله .

(٢) يضع السكين في حلق ولده كإبراهيم الخليل .

(٣) خيط الكتاب ما تضم به صفحاته بعضها إلى بعض .

(٤) البكر : الجمل الفتي ، ويراد به الجسد مسايرة للتشبيه الذي بدأ به الفصل .

(٥) لا يزال الشاعر في تشبيه الجسد بالجمل . فالصعب هنا الجمل غير الذلول .

مشرقاً في الأرض ما دارَ الفلك
نائبُ الحقِّ على الأرض سعيدُ
هو بالجزءِ وبالكلِّ خبير
في فسيح الأرض يمضي طاويا
ينجلي من فكره مثلَ الزَّهر
يُنضجُ الفكرةَ فينا بالضَّرمِ
رَنَّ عودُ القلبِ من مضرابه
باعثٌ في الشَّيبِ ألحانَ الشَّبابِ
هو في الناسِ بشيرٌ ونذيرُ
مقصدٌ من « علَمِ الأسماءِ » هُوَ
مُحضَّرٌ من تحتِه طِرفُ الزَّمانِ
يبعثُ الأرواحَ منه قولُ « قُمْ »
ذاتُه تتبَّعُ ذاتُ العالَمِ
يبعثُ الميتَ بإعجازِ العملِ
سيرُه يخضِرُ في بیدائِه
جدَّدَ الدُّنيا بتفسيرِ جديدهِ
كونُه المكنونُ أسرارُ الحياةِ

فترى المُلِكَ الذي يخلُدُ لك
حكمُه في الكونِ خُلدٌ لا يبيدُ
وبأمرِ الله في الأرض أُميرُ
وعزمُه ، هذا البساطُ البالي^(١)
غيرَ هذا الكونِ أكوَانٌ آخرُ^(٢)
يُخرجُ الأصنامَ من بيتِ الحرمِ
يَقْظُ في الحقِ نومَانُ به^(٣)
ناشِرٌ في الكونِ ألوانُ الشَّبابِ
وهو جُنْدِيٌّ وراعٍ وأُميرُ
سرُّ « سبحانَ الذي أسرى » هُوَ^(٤)
حينما يُمسِكُ منه بالعنانِ^(٥)
وهي إلى أبدانِها مثلُ الرَّمَمِ^(٦)
سطوةٌ فيه نِجاةُ العالَمِ
قِيَمُ الأعمالِ منه في بدلِ^(٧)
كم كليمِ هامٍ في سينائِه !
عبَّرَ الرؤيا بتعبيرِ جديدهِ
نغمةٌ يُضمِرُ مزمائرَ الحياةِ

(١) البساط البالي : الأباطيل الموروثة .

(٢) يخلق من فكره أكوَاناً أخرى ، لا يقيدُه ما هو واقع .

(٣) المضرب : أداة تضرب بها أوتار العود .

(٤) الهاء في هُوَ للوقف . والبيت مردوف والقافية في « الأسماء » و « أسرى » .

(٥) يعدو تحتِه حصان الزمان ، أي يسير الزمان سريعاً إلى مقصده .

(٦) إن قال قم انبعثت الأرواح من قبور الأبدان .

(٧) يبدل قيم الأعمال بما يضع من معايير جديدة .

شاعرُ الفِطْرَةِ غَنَّى طَبْعَهُ لِيَقِيمَ الْوِزْنَ إِذْ أَبَدَعَهُ
نَقَعْنَا ثَارَ إِلَى أَوْجِ السَّمَاءِ فَبَدَا الْفَارِسُ مِنْ هَذَا الْهَبَاءِ^(١)

فِي رَمَادِ الْيَوْمِ مَنَّا تَرْقُودُ شُعْلَةٌ يَرْمِي بِهَا الْكَوْنَ الْغَدُ
رَوْضَةً تُضْمِرُهَا أَكْمَامُنَا ضَاءٌ مِنْ صَبْحِ غَدٍ أَبْصَارُنَا^(٢)
أَنْتِ يَا فَارِسَ طَرْفِ الزَّمَنِ ! أَنْتِ يَا نُوراً لَعَيْنِ الْمَمَكَنِ
مَوْكِبَ الْإِنْشَاءِ هَيَّا زَيْنِ وَتَمَكِّنْ فِي سَوَادِ الْأَغْيَنِ
قُمْ فَسَكِّنْ مِنْ ضَجِيجِ الْأُمَمِ وَامْلَأِ الْأَذَانَ زَهَرَ النَّعَمِ
جَدِّدْنَ فِي النَّاسِ قَانُونَ الْإِخَاءِ وَأَدِرْهَا كَأْسَ حُبٍّ وَصَفَاءِ
أَبْلِغِ النَّاسَ رِسَالَاتِ السَّلَامِ وَأَعِذْ فِي الْأَرْضِ أَيَّامَ الْوِثَامِ
مَنْ بَنَى الْإِنْسَانَ أَنْتِ الْأَمَلُ أَنْتِ مَنْ رَكِبَ الْحَيَاةَ الْمَنْزَلُ
أَذْبَلْتَ كَفَّ الْخَرِيفِ الشَّجَرَا فَاغْدُ فِي الرُّوْضِ رِبْعاً نَضِيراً
نَحْنُ مِنْ فَيْضِكَ نَسْمُو لِلْقَلَلِ فِي جِهَادِ الْكَوْنِ نَمْضِي كَالشُّعْلِ^(٣)

***^(٤)

(١) يكثر في الفارسية ذكر الفارس والغبار . يقال مثلاً : رب فارس في هذا الغبار .
والشاعر يقول هنا : قد أصابنا ما أصابنا ومرت بالناس محن فارتفع غبارهم فظهر هذا
الفارس من هذا الغبار يعني أن هذا الإنسان الكامل لا يناله الناس إلا بعد حوادث
شديدة .

(٢) الأكمام جمع كم الزهرة قبل أن تنفتح ، يقول : إنَّ الكم عندنا سينفتح عن روضة ،
وعيوننا تضيء بنور المستقبل .

(٣) الأبيات السبعة الأخيرة خطاب للإنسان الكامل أو النائب الإلهي .

(٤) هنا عنوان فصل حذفته وحذفت معه اثنين وعشرين بيتاً لم أجد في ترجمتها فائدة .
والكلام بعدها متصل بما قبلها .

يا أخا الوردة كن صنو الحجر
أدمياً صوّر من تُربكا
أنت إن كنت تراباً هيّنا
أيها الصّارخ من جور الدّهر
فيم هذا النوح ؟ ماذا المأتم ؟
مضمّر في السعي مضمون الحياة
قُم فشيد عالماً دون مثيل
إنما السّير على حكم الزّمان
إنّما الحرّ الشجاع الفطِن
وإذا الدّنيا عتثت عن أمره
يهدم الموجد فيمّا أثرا
يصرف الأيام عن كراتها
خالقاً من قوّة في قلبه
فإذا أعوز عيش الرّجل
حبذا عشق بغى الأمر الجليل
تجلّى في مِراس المُفضّل
عُدّة الأنذال حقداً لا سواه
الحياة الحقّ بأسّ يظهر
ربّ عفوّ كان من آفاتها
يحسب العجز قنوعاً خانع

وكن السور لبستان الزّهر^(١)
ثم شيّد عالماً بدعاً لك
فليضع غيرك منك اللبنا
يا زجاجاً يشتكي جور الحجر
والام الصّدر حُزناً تلدم ؟
لذة التخليق قانون الحياة
وخضر النار وأقدم كالخليل
هو رمي الثّرس في وقت الطّعان
من قفا الآثار منه الزّمن
حارب الدّهر ، ولم يعبأ به
يمنح الذّرات شكلاً آخر^(٢)
يمنع الأفلاك من دوراتها^(٣)
ذلك العصر الذي يرضى به
فالحياة الموت موت البطل
وجنى في النّار ورداً كالخليل
قوّة كامنة في البطل
استمع : صاح ، ذا شرع الحياة :
حُب الاستيلاء فيه مضمّر
يكسر الموزون من أبياتها
لصروف الدهر ذلّ طائع

(١) لا تكن وردة وكن كالحجر صلابة ، وكن سوراً يحمي الأزهار .

(٢) يغير نظام الموجودات إن لم تلائمه . يعني يستخر عالم الطبيعة في مراده .

(٣) يغير ما يزعمه الناس من تأثير الفلك وحكم الأيام .

قَاطِعُ سُبُلِ الحَيَاةِ الْخَوْرُ
 قَلْبُهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فَارِغُ
 فِي كَمِينٍ رَاصِدٌ هَذَا اللَّيْمُ
 احْذَرْنَ يَا صَاحِ مِنْ تَزِينِهِ
 إِنَّهُ يَخْفَى عَلَى أَهْلِ النَّظَرِ
 فِي ثِيَابِ اللَّيْنِ حِيناً يَظْهَرُ
 وَهُوَ طَوْرَافٍ فِي ثِيَابِ الْمُجْبَرِ
 وَهُوَ حِيناً فِي لِبَاسِ التَّكْرِفِ
 مَا سِوَى الْقُوَّةِ لِلصَّدَقِ دَعَمُ
 هِيَ مِنْ حَقْلِ الحَيَاةِ الْحَاصِلِ
 مَدَّعَاهُ فِي غِنًى عَنْ حِجَّةِ
 تَجْعَلُ الْبَاطِلَ حَقًّا مَائِلاً
 سَطْوَةُ الْقُوَّةِ تُحَلِّي مَا أَمَرَ
 أَثْهَاهَا الْغَافِلُ عَمَّا حُمِّلَا
 افْتَحَنْ عَيْنَاً وَأُذْنَاً وَفَمَا

قَلْبُهُ خَوْفاً وَكِذْباً يُضْمَرُ
 لَيْثُهُ فِي كُلِّ خَبَثٍ وَالْغُ
 فَاحْذَرْنَ يَا صَاحِبَ الْعَقْلِ السَّلِيمِ
 إِنَّهُ الْحَرَبَاءُ فِي تَلْوِينِهِ^(١)
 لَبَسَ الْحَقَّ عَلَيْهِمْ وَاسْتَتَرَ
 وَهُوَ حِيناً فِي اتِّضَاعٍ يُسْتَرُ
 وَهُوَ طَوْرَافٍ فِي حِجَابِ الْقَدَرِ
 يُلْبَسُ الصُّحَّةَ ثَوْبَ الدَّنْفِ
 اعْرِفْنَ نَفْسَكَ ، هَذَا جَامُ جَمِ^(٢)
 فَسَّرَ الْحَقُّ بِهَا وَالْبَاطِلُ
 إِنَّ تَحْدَى الْمَدَّعِي بِالْقُوَّةِ
 وَهَنْ الْحَقِّ يُحَقُّ الْبَاطِلَا
 إِنَّ تَقِلَ لِلْخَيْرِ شَرٌّ فَهُوَ شَرٌّ^(٣)
 أَنْتَ فِي الْكُونَيْنِ أَعْلَى مَزَلَا
 تُبْصِرُ الْحَقَّ طَرِيقاً مُعَلِّمَا

(١) الضمير في هذا البيت والأبيات التالية يعود إلى الخور . وفيها يبين إقبال تعذير الضعفاء والتماس أسماء مختلفة لضعفهم .

(٢) جام جمشيد وهي كأس خرافية كانت ترى فيها الأقاليم السبعة .

(٣) ينبغي أن يذكر القارئ أن إقبالاً يعني قوة الروح والخلق أيضاً .

قصة فتى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجويري^(١) شاكياً بغي أعدائه

مُجْتَبَى هُجْوِيرَ مَقْصُودُ الْأَمَمِ مِنْ رَأَى الْجِشِّيَ مَشَوَاهِ الْحَرَمِ^(٢)
قَطَعَ الْأَطْوَادَ وَاجْتَاَزَ السُّدُودَ بِأَذْرًا فِي أَرْضِنَا بِذَرِ الشُّجُودِ
زَمَنَ الْفَارُوقَ مِنْهُ يُشْرِقُ وَبِهِ لِلْحَقِّ يعلَوُ مَنْطِقُ
حَارِسُ الْعِزَّةِ مِنْ أَمِّ الْكِتَابِ مَعْقِلُ الْبَاطِلِ مِنْهُ فِي تَبَابِ
حَيَّتِ الْبَنْجَابُ مِنْ أَنْفَاسِهِ صُبْحُنَا نَوْرَ مَنْ نَبْرَاسِهِ
ذَا رَسُولُ الْعَشَقِ ، وَهُوَ الْعَاشِقُ فِيهِ سِرُّ الْعِشْقِ بِإِدِّ بَارِقُ

قِصَّةٌ أَسْرَدُهَا فِي أَسْطَرِ طَاوِيَاً فِي الْكِمِّ رَوْضَ الزَّهَرِ :
قَدْ أَتَى لَاهُورَ مِنْ مَرَوْ فَتَى قَدَّهُ كَالسَّرْوِ عَالٍ قَدْ عَتَا
جَاءَ عِنْدَ السَّيِّدِ الْعَالِي الْجَنَابِ كَاشِفًا مِنْ نُورِهِ عَنْهُ الضُّبَابُ
قَالَ : إِنِّي فِي عُدَاةٍ لَوْمُوا كَزَجَاجٍ بِصَخُورٍ يُصَدِّمُ
عَلَّمَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ الْكَبِيرُ كَيْفَ عِشِّي بَيْنَ أَعْدَاءِ كَثِيرِ
فَأَجَابَ الشَّيْخُ ، مِنْ فِيهِ الْجَمَالُ قَدْ تَجَلَّى فِي إِطَارٍ مِنْ جَلَالِ :

(١) الشيخ علي الهجويري مؤلف كتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب » في التصوف . كان من كبار الصوفية الذين وفدوا على البنجاب ، ووعظوا فيها ، ونشروا الدعوة الإسلامية . توفي سنة ٤٦٥ هـ ومزاره في لاهور ، يقصده الناس من كل صوب ، ونسبته إلى هجوير إحدى قرى غزنة .

(٢) الشيخ معين الدين الجشي أحد عظماء الصوفية ودعاة الإسلام في الهند . أسلم بدعوته كثير من الهنادك ، أقام في أجمير وتوفي بها سنة ٦٣٢ هـ ، ومزاره أعظم المزارات الإسلامية في الهند ، ويشير إقبال في هذا البيت إلى زيارة الجشي قبر الهجويري في لاهور واعتكافه عنده زمناً .

أيها الغافل عن سرِّ الحياة
 حرَّرنَ نفسَكَ من يأسٍ وغمٍ
 إن رأى النَّفسُ زجاجاً حَجَرُ
 وإذا خارت قواه السَّائرُ
 كم ترى نفسك طيناً قد حُقر
 فيمَ شكواك الرفيقَ النافعا
 كم عدوُّ لك ، في الحق صديقُ
 قوة الأعداء فضلاً يَعْلَمُ
 يوقظُ الخَضَمُ قِوَاك الهاجدة
 قوة العزم تذيب الحجرا
 تشحذُ العزمَ عِقَابُ السُّبُلِ
 ما حياةٌ دونَ عزمٍ مُحْكَمٍ ؟
 زلزلِ العالمَ وافعل ما ترى
 اهجرنَ الذَّاتَ إن تبغ الفناء
 ما الرَّدَى ؟ أن يدركَ الذاتَ الوَسَنُ
 يا أخا يوسف في الذَّاتِ أقم
 أخكمنَ الذاتَ وانهض عاملاً
 هاك سرّاً في حديثِ مؤنسٍ
 « جبذا سرَّ حبيب يُضْمَرُ »

لا يَميزُ الخيرَ من شرِّ الحياة
 أنت بأسٌ نائمٌ ، قُمْ لا تنم
 فهو في الحقِّ ، زجاجٌ يُكسر
 قطع السُّبُلَ عليه الفاجرُ
 شعلة الطُّور من الطَّينِ أثِرُ
 فيمَ شكواك العدوَّ الخادعا
 أنت بالأعداء ذو غُصْنٍ وريق
 من مقامِ « الذَّاتِ » حقّاً يفهم
 مثل ما تحيي الموتَ الراحدة^(١)
 لا يبالي السيلُ صخراً إن جرى
 امتحانُ العزمِ بُعدُ المنزلِ^(٢)
 ما غناءُ العيش مثل النِّعمِ ؟
 إن حَبَّتْكَ الذَّاتُ عزمًا مُسْعِراً
 واعمُرَنَّ الذاتَ إن شئت البقاء
 أتراه بُعدَ روحٍ وبدنٍ؟^(٣)
 ومن السَّجنِ إلى المُلْكِ استقم^(٤)
 ناصراً للحقِّ ، سرّاً حاملاً
 افتح الكِمْ بِحَرِّ النَّفْسِ^(٥)
 في حديثٍ عن سواه يؤثر^(٦) «

(١) السحابة الراحدة : الممطرة .

(٢) العقاب : جمع عقبة .

(٣) الردى : أن تغفل الذات لا أن يفارق الروح البدن .

(٤) كن مثل يوسف أقام في نفسه فأحكمها ، فمضى من السجن إلى الوزارة .

(٥) أبدي السر في قصة قصيرة ككم الزهرة .

(٦) هذا البيت من شعر جلال الدين الرُّومي .

قصة الطائر الذي أجهد العيش

طائرٌ مِنْ ظمأٍ قد جهدا
قد رأى الماسةً مثل الندى
خدعته شذرةٌ مثل الشرر
لم يجد ريثاً بضرب المنقر
قالت الشذرة : جُنبت الهدى
لست ماء . لا تراني ساقيه
جاهلٌ يقصد هضمي ما اهتدى
كلُّ منقارٍ بمائي ينكسر
ما رأى الطائرُ فيها أربا
حسرةٌ في صدره تتقد

كدخانٍ نفساً قد صعدا
صاغها ماءً لعينه الصدى
فرأى الجاهل ماءً في الصخر
لم يُصب ماءً بنقر الجوهر
تضرب المنقار في جسمي سدى
ما أنا من أجل غيري باقيه
لحياةٍ نورها منها بدا
وترى الإنسان منه ينبهر
فتولّى عن سناها لغبا
زفراتٍ لحنه يصعد

وأضاءت مثل دَمْعِ البلبَلِ
لضياء الشمس فيها منةٌ
كوكبٌ يرعد من نسل السماء
غرّه الأكمام والزهر الخصيب
قطرةٌ من دَمْعٍ صب تبهر

قطرةٌ في غُضنٍ وردٍ خضِل
ولخوف الشمس فيها رعدة^(١)
شاقه الجلوة في هذا الفضاء^(٢)
لم يزود من حياةٍ بنصيب^(٣)
زانت الهدب وكادت تقطر

- (١) هي مضيئة بنور الشمس ، وهي في خوفٍ أن تجفّ في أشعة الشمس .
(٢) قطرة الندى كأنها كوكب من السماء تجلى على الأرض ، والندى في شعر إقبال يرمز أحياناً للأمور العلوية .
(٣) الأكمام : أكمام الزهر ، وهذه القطرة سريعة الزوال ، لم تأخذ نصيباً من الحياة الذاتية .

فمضى الطائر فيها راغبا
أيُّها الباغي عدواً تقهرُ !
حينما الطائر أضناه صده
كانت الشَّذرةُ عضباً يُرهب
قوةَ الذَّاتِ احفظنها أبدا
أنضج القطرة كالطَّود تُرى
أثبت الذَّاتِ وفيها حَقُّق
ومن الذَّاتِ أبْنُ أسرارها

بلّ بالقطرة حلقاً لاهبا
قطرة أنت ، تُرى ، أم جوهر ؟
حيّ نفساً بحياةٍ من سواه
لم تكن قطرة طلّ يُشربُ
وكن الألماس لا قطر الندى
حاملاً غيماً مُفيضاً أنهارا
فضةً كن بالتَّام الزُّئبق^(١)
حرَّكن عن لحنها أوتارها

قصة الألماس والفحم

قصةٌ أخرى بها أدلي إليك
قال للألماس فحمُ المعدن :
نحن صنوان نمانا والدُ
وعلى التيجان أنت الزينةُ
لك حسنٌ في المرايا يسطعُ
من ظلامي قد أضاء المجرُ
مَوطىء الأقدام بين البشرِ
إنَّ حالي بكاء لَحْرى
إنني موج دُخانٍ يُعقدُ
ومن الأنجم فيك الرُّونقُ

يفتح الحقُّ بها باباً عليك :
يا حليفَ النُّور طول الزَّمن !
أصلنا في الكون أصلٌ واحدُ
وأنا في الثُّرب حظي الذَّلَّةُ
وأنا مِن كَفِّ ثرب أضيعُ
ورماداً آض فيَّ الجواهر
قد رموا في مهجتي بالشَّررِ
هل ترى أصلي وفصلي هل ترى ؟
كلُّ ما فيَّ شرارٌ يصعدُ
كلُّ جنبٍ فيك نورٌ يُشرقُ

(١) كن في صلابة الفضة باجتماع الذرات المضطربة كالزئبق .

تسارة نور بعيني قيصرًا تسارة فصّ يزين الخنجرا

قال : فاسمع يا رفيقي وافهما	ينضج التربُّ فيغدو خاتماً
شنّ فيما حوله حرباً ومرّ	وغدا بالحرب صلباً كالحجر
هيكلي من نضجه قد نوراً	وبصدري كم شعاع أسفرا
أنت من ضعفٍ وكيان تنفق	وبلين في قوام تُخرق
اهجرن خوفاً وغماً لا تهن	وانضجن كالصخر والألماس كن
من أجاد السعي والأخذ معا	فهو في الدارين بدرٌ طلعا
وبحجر الكعبة انظر حجرا	كان من قبل تراباً حُقرا
جاوَزَ الطورَ علاء لا جرم	ورجست تقيلاً كلُّ الأمم
قوة الأحياء عزٌّ ونجاة	والونى والذلُّ من ضعف الحياه

قصة الشيخ والبرهمي ، ومحاورة نهر الجنج وجبل همالا

في معنى دوام حياة الأمة بالتمسك بسنتها

برهمي في بناريس علم	غائص في فكر كونٍ وعدم ^(١)
برجال الله يحفّى فعله	ومن الحكمة وافٍ كفله
عقله فوق الثريا قد علا	ذهنه ماضٍ يحلُّ المشكلا
فكره العنقاء إما حلّقا	شعلة منها السّماك احترقا
كأسه دهرًا خلّت من خمرة	قد حماه الراح ساقى الحكمة
في رياض العلم ألمى شبكا	طائر المعنى به ما أدركا

(١) بناريس : المدينة المقدسة في الهند عند الهندوس .

فَكَسَرَهُ أَذْمَى وَلَكِنْ لَمْ تَزَلْ
أَعْرَبْتَ عَنْ يَأْسِهِ أَهَائِهِ
سَارِ يَوْمًا نَحْوَ شَيْخٍ كَامِلٍ
لَقِيَ الشَّيْخَ بِنَفْسٍ رَاجِيَةٍ
فَأَهَابَ الشَّيْخُ : يَا خِدْنَ السَّمَاءَ
ضَقَّتْ فِي الْأَرْضِ مَجَالًا فَعَلَا
طَاوِي الْأَفْلَاكِ ! فِي الْأَرْضِ قُمْ
لَا أَقُولُ أَهْجَزُ غَدًا أَصْنَامُكَ
يَا أَمِينًا لَتَرَاثِ الْأَوَّلِينَ !
بِاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ تَحْيَا الْأُمَّةُ
لَمْ يَكْمَلْ فِيكَ حَتَّى كَفَرُكَ
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ فِينَا هُجِرَا
قِسْنَا مَا هَامَ خَلْفَ الْمُحْمَلِ
إِنَّ شَمْعَ الذَّاتِ فِينَا لَا نَطْفَأُ

عُقِدَ الْأَكْوَانُ فِيهِ دُونَ حَلٍّ
وَحَكَّتْ خَيْرَتَهُ نَظَرَاتِهِ
رُبَّ صَاحِبِ بَفْؤَادٍ أَهْلٍ
تَحْسُنُ الصَّمْتَ ، وَأُذِنَ وَاعِيَهُ :
أَهْبَطَنَّ الْأَرْضَ وَارِعَ الذَّمَّ مَا
فَكَرُّكَ الْمَقْدَامِ فِي أَوْجِ الْعُلَى
لَا تَطْرُ تَطْلُبُ سِرَّ الْأَنْجُمِ
كَافِرٌ أَنْتَ فَخِذُ زُنَّارِكَ
لَا تَدْعُ نَهْجَ الْجُدُودِ الْأَقْدَمِينَ
وَكِذَاكَ الْكُفْرُ فِيهِ وَحْدَةٌ
لَيْسَ أَهْلًا لِفِؤَادِ صَدْرِكَ
وَبَعْدُكُمْ أَنْتُمْ عَنْ آزِرَا^(١)
فِي جَنُودِ الْعِشْقِ لَمَّا يَكْمُلُ
كَيْفَ يُجَدِّدُنَا طَوَافٌ فِي السَّمَاءِ

جَاشَ نَهْرُ الْجَنَجِ يَوْمًا جَائِلًا
حَامِلًا مِنْ بَرْدٍ أَوْقَارَهُ !
فِي سَفُوحٍ مِنْ هِمَالَا قَائِلًا :
عَاقِدًا مِنْ أَبْهَرِ زُنَّارِهِ !^(٢)

(١) يدعو هذا الشيخ إلى استمساك البرهمي بدينه وكمال فيه ما دام برهيمياً . ويرى الكمال ولو في الكفر خيراً من النقص . ثم يقول : إِنَّ الموحدين لا يسرون على نهج إبراهيم الذي كسر الأصنام ، والوثنيين لا يتبعون آزر الذي نحتها .

(٢) الخطاب من نهر الجنج لجبل همالا ، وخلاصة المحاوراة : أن النهر يعبر الجبل بالعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه ، وأنَّ الفناء في زواله عن مقوماته . وهذه المحاوراة تصوّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها ، وأنَّ نفيها ، أو الغفلة عنها يودي بها .

صاغك الحقُّ نجياً للسماء
قُيِّدت رجلك عن سيرٍ فما
إنما العيش مسيرٌ وُصِّلا
غضبَ الطُّودُ لقول النَّهرِ
قال : يا مرآة وجهي ! ويلكا
إنَّ هذا السَّيرَ فيه الحَيْنُ لك
بمقام لك هلاً تآبه !
يا وليد الفلك المرتفع !
قد وهبتَ النَّفسَ بحراً غاصبا
كُنْ كورِدٍ في رُباه عاكفٍ
إنَّما العيشُ نماءٌ في المكانِ
في دهورٍ لم تُزَحْزَحْ أرجلي
والى الأفلاك قُدِّي يصعد
أنت تَفْنَى في خِضْمٍ خِضْرِمِ
وبعيني لاح سرُّ الفلكِ
وبنارِ الجَدِّ طولَ الدَّهرِ
« صخرٌ قلبي وناري في الصَّخرِ
قطرةٌ إن كنت فاحفظ نفسك
وابتغِ الثُّورَ وكنْ درّاً يُضيءُ
أو فزد واعلُ سحاباً ممطرا

وحمى رجلك سيراً في العراء
هيبَةٌ فيك ورأسٌ قد سما ؟
وحياةُ الموجِ في أن يجفلا
فرمت أنفاسُه بالشررِ
كم حوى صدري بخاراً مثلكا
من يزل عن نفسه يوماً هلك
أفخارٌ بالردى يا أبله !
صِرْتَ دونَ الشَّاحلِ المتَّضِعِ
وأبحت الرُّوحَ لصاً سالباً
لا ترم للريح كَفَّ القاطف^(١)
وبروضِ الذَّاتِ قطفُ الأقحوانِ
أُتراني زائلاً عن منزلي ؟
فعلى سفحي الثُّريا ترقد
وقلالي مسجداً للأنجمِ
وبسمعي طيرانُ المَلِكِ
قد حوى صدري صنوفَ الجواهرِ
ليس للماءِ إلى ناري ممرٌ^(٢) «
جاهد الأمواجَ واجنبِ يأسكا
ثم كن قُرْطاً على وجهٍ وضيء
يُشعلُ البرقَ ويهمي أبحرا^(٣)

(١) الريح : الرائحة . لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك .

(٢) اقتباس من جلال الدين الرومي مع تغيير في اللفظ .

(٣) إن كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتى تصير لؤلؤة . أو كن سحاباً ذا برقٍ ورعدٍ
يجتدي منك البحر ماءه .

يبسط البحرُ لجذواك يسدا شاكياً من فاقة يرجو الندى
فهو في فيضك دون الموجهة وهو في جذواك بادي الذلة

في بيان أن حياة المسلم لإعلاء كلمة الله
وإن كان الباعث على الجهاد « جوع الأرض »
فهو حرام في شريعة الإسلام

صبغة الله أنز في قلبكا والهوى والصيت دغ في حبكا
إنما المسلم بالحب قهر مسلم لا حب فيه قد كفر
غض بالحق ، وبالحق نظر وله في الحق نوم وسهر
في رضاه لرضا الحق فناء كيف يرضى الناس هذا الادعاء؟^(١)
في ربي التوحيد أرسى العمدا وعلى الناس جميعاً شهدا
وعليه يشهد الداعي الأمين شاهداً أصدق كل الشاهدين
فدع القال إلى الحال الجلي وأضىء بالحق ليل العمل
وكن الدرويش في زي الأميز ذاكرأ لله يقظان الضمير
واقصدن الحق في كل الفعال يسطعن فيك من الحق جلال
خير الحرب إذا رمت الإله شر السلم إذا رمت سواه
نحن إن لم نعل حقاً سيفنا اكتسى في الحرب عاراً صفنا

(١) الحق : الله تعالى . يبلغ المؤمن درجة يفنى فيها رضا الحق في رضاه . أي يكون رضا
رضا الحق . والشطر الثاني مأخوذ من جلال الدين الرومي .

شيخنا الشيخ (ميانمير) الولي
كان ثبتاً في طريق المصطفى
قبره الإيمان في أوطاننا
سجد النجم على أعتابه
غرس الملك هواه في الفؤاد
بالهوى أضرم ناراً قلبه
دوّخت أجناده كلّ وطن
ديدن المسلم للحقّ التجاء
قصّد الشيخ العليّ القدر
صمت الشيخ لقول المالك
قطع الصمت مريداً أقدماً
قال : مولاي ! اقبل النذر الحقيق
عرقني من كلّ عضو قد همي
قال : سلطاني به أولى يدا

من سناه كلّ سرّ ينجلي^(١)
مزهّر العشق بحسّ عَزَفا
مشعل النور على بلداننا
كان ملك الهند من طلابه
طالباً في حرصه فتح البلاد
مُقرئاً « هل من مزيد » غضبه^(٢)
وتوالى الفتح في أرض الدكن
يُحكم التدبير منه بالدعاء
راجياً منه دعاء الظفر
وصفى كلّ مريد سالك
أمسكت إحدى يديه درهما
أنت للمسكين بالحق نصير
قبل أن تمسك كفي الدرهما
سائل في حلة الملك بدا^(٣)

(١) القصة التي نظمها الشاعر في هذا الفصل كانت بين السلطان شاهجهان والشيخ ميانمير وشاهجهان أحد سلاطين الدولة الإسلامية المغولية في الهند . ولا تزال آثاره في العمارة زينة الهند كلها ومفخرتها . وهو باني المزار ذائع الصيت « تاج محل » في مدينة أجرا . شاده لزوجته ممتاز محل . حكم (١٠٣٧ - ١٠٦٨ هـ) ومير محمد المعروف بميانمير هو أحد مشايخ الطريقة القادرية في الهند ولد في السند سنة ٩٣٨ هـ . وأخذ عن شيخه الشيخ محمد خضر ، ثم انتقل إلى لاهور ، فأخذ عن مشايخها . وقد عظمت مكانته ، فكان يزوره السلطان جهانجير ثم ابنه شاهجهان صاحب القصة . وتلمذ له عبد الحكيم السيالكوتي المعروف في علم الكلام . توفي سنة ١٠٤٥ هـ ومزاره مقصد الزائرين في لاهور اليوم .

(٢) هل من مزيد جاءت في الأصل بلفظها العربي . يعني جعل سيفه يقول : هل من مزيد .

(٣) قال الشيخ : سلطاني . . إلخ .

مَلَكْنَا أَفْقَرُ مِنْ كُلِّ الْبَشَرِ
جُوعُهُ بِالنَّارِ يُصَلِّي الْعَالَمِينَ
سَيْفُهُ بِالْقَحْطِ وَالْمَوْتِ رَمَى
ضَجَّتِ الْأَقْوَامُ مِنْ فَقْرٍ لَدِيهِ
حُكْمُهُ فِي النَّاسِ شَرٌّ وَأَشْرُ
بِخْدَاعِ النَّفْسِ وَالْجَهْلِ دَعَا
عَسَكَرُ الْمَلِكِ وَمَا قَدْ أُسْرُوا
غَضَّةُ السَّائِلِ جُوعُ السَّائِلِ
مَنْ لَغِيرِ اللَّهِ سَلَّ الْمُغَمَّدَا

وَعَلَى الشَّمْسِ تَوَلَّى وَالْقَمَرِ
عَيْنُهُ فَوْقَ سَمَاطِ الْأَخْرَيْنِ
نَفْسُهُ يَبْنِي وَيُرْدِي عَالَمَا
شَقِيَ الْمَسْكِينُ مِنْ جُوعٍ يَدِيهِ
قَطَعَ الطَّرْقَ عَلَى رَكْبِ الْبَشَرِ
نَهَبَهُ فَتْحًا . وَبُئْسَ الْمَدَّعَى
بَسِيفُ الْجُوعِ مِنْهُ شَذَرُ
وَحَرَابُ الْمُلِكِ جُوعُ الدَّائِلِ
سَيْفُهُ فِي صَدْرِهِ قَدْ أَغَمَّدَا

نصيحة مير نجاة النقشبندی المعروف باباي صحرائي (الأب الصَّحراوي) التي كتبها لمسلمي الهند

أَنْتَ كَالْوَرْدِ مِنَ الْأَرْضِ بَدَا
لَا تَعْدُ الذَّاتَ وَاخْلُدْ أَبَدَا
إِنَّمَا الرَّبِّحُ بِهِذِي الثَّرْوَةُ
أَنْتَ مَوْجُودٌ وَفِي خَوْفِ الْعَدَمِ
عِنْدِي الْخُبْرُ بِأَوْتَارِ الْحَيَاةِ
غَوْصَةٌ فِي النَّفْسِ غَوْصَ الدَّرَّةِ
هِيَ جَمْعٌ مِنْ رِمَادٍ شَرَرَا
هِيَ حَوْلَ الذَّاتِ طَوْفٌ فَاعْلَمْ
حَلَّقَنُ فِي اللَّوْحِ عَنْ جَذْبِ التَّرَابِ

مَنْ ضَمِيرَ الذَّاتِ نِلْتَ الْمَوْلِدَا
قَطْرَةٌ كُنْ وَاشْرَبِ الْبَحْرَ صَدَى^(١)
وَالْغِنَى فِي حِفْظِ هَذِي السَّلْعَةِ
يَا أَسِيرَ الْوَهْمِ أَخْطَأْتَ الْفَهْمَ
سَأُنَبِّئَكَ بِأَسْرَارِ الْحَيَاةِ :
وِظْهُورٌ بَعْدَ هَذِي الْخَلْوَةِ
وَاشْتِعَالٌ بَعْدُ يُعْشِي الْبَصْرَا
وَاجْعَلْنِ نَفْسَكَ بَيْتَ الْحَرَمِ
مَنْ هُوِيَّ لَا تَخَفْ ، مِثْلَ الْعِقَابِ

(١) كن قطرة لا ترضى بغاية فهي تشرب البحر في ظمئها . الصدى : الظمأ .

أَنْتَ إِنْ لَمْ تَكُ طَيْرًا وَيَحْكَا
أَيُّهَا الْجَاهِدُ فِي كَسْبِ الْعُلُومِ
« إِنَّمَا الْعِلْمُ لَدَى الْجِسْمِ شَقَاءٌ
قِصَّةُ الرُّومِيِّ تَقْضِي بِالْعَجَبِ :
وَعَلَى رَجُلَيْهِ لِلْعَقْلِ قِيُودُ
هُوَ مُوسَى دُونَ طُورٍ يُشْرِقُ
وَعَنِ الْإِشْرَاقِ وَالشُّكِّ حَكِي
وَعَنِ الْمَشَاءِ^(٤) حَلُّ الْعَقْدَا
وَحَوَالِيهِ صِرَافُ الْكُتُبِ
فَعَنِ الْغَارِ فَا بَعْدَ عُشَّكَ^(١)
عَنِ إِمَامِ الرُّومِ خَذْ نَصِيحَ الْحَكِيمِ
وَهُوَ فِي الْقَلْبِ دَوَاءٌ وَشِفَاءٌ^(٢)
كَانَ فَيْضًا مِنْ عُلُومٍ فِي حَلَبِ
فِي ظِلَامِ الْعَقْلِ بِالْفُلْكِ يَرُودُ
مَا دَرَى مَا الْعَشَقُ أَوْ مَنْ يَعَشَقُ
وَمَنْ الْحِكْمَةُ دَرًا سَلَكَا^(٣)
كُلُّ خَافٍ مِنْ سِنَاهُ قَدْ بَدَا
وَعَلَى فِيهِ بَيَانُ الْكُتُبِ

أَمْ يَوْمًا مَكْتَبَ الْمُلا جَلالُ
قَالَ : مَاذَا الْقَالَ وَالْقِيلُ وَمَا
صَرَخَ الرُّومِيُّ : مَهَلًا يَا جَهْلُ!
اخْرُجْ مِنْ مَكْتَبِي يَا أْبَلَهُ!
قَالْنَا أَرْفَعُ مِمَّا تَعْقِلُ
نَارُ شَمْسِ الدِّينِ زَادَتْ حُرْقًا
قَاسِطَارَ الْبَرْقِ مِنْ نَظَرَتِهِ
شَيْخُ تَبْرِيزٍ بِأَمْرِ مِنْ كَمَالِ^(٥)
مَنْ قِيَاسٍ وَدَلِيلٍ أَوْهَمَا
لَا تَهْوُونَ مِنْ مَقَالَاتِ الْعُقُولِ
قَالْنَا وَالْقِيلُ أُنَّى تَفْقَهُ؟
سُجِّجَ الْإِدْرَاكِ مِنْهُ تُشْعَلُ
فَرَمَى مِنْ رُوحِهِ مَا أَحْرَقَا
وَتَلَطَّيَ الثُّرْبُ مِنْ شُعَلَتِهِ

(١) إشارة إلى قصة الغار والحمامة التي عششت عليه . يعني إن لم تكن ذا همة تطير عن الأرض فلا تطلب المنزلة الرفيعة .

(٢) بيت من جلال الدين الرومي .

(٣) سلك الدر : نظمه في السلك .

(٤) أي : الحكماء المشائين .

(٥) شيخ تبريز شمس الدين التبريزي الصوفي الذي أرشد جلال الدين الرومي إلى التصوف ، وكمال هو : كمال الدين الجنيدي شيخ شمس الدين .

فإذا الأدراك من نارِ القلوب
 جهل الرومي عشقاً أضرم
 قال : هذي النار ما قصتها ؟
 قال شمس الدين يا ذا المسلم !
 حالنا أرفع مما تُفكر
 محرقٌ والكثب منها في لهيب
 ما درت أوتارُه ذا النغما
 أحرقت أسفارنا وقدتها
 ذوقنا والحال أنى تعلم ؟
 ولظاننا الكيمياء الأحمر^(١)

تجمع الحكمة زاداً بردا
 من هشيم فيك أذك اللهب
 من لهيب القلب علمُ الكامل
 صد إبراهيم عمّا يأفل
 قد نبذت الدين ظهرياً وما
 أيها الساعي لكحل المقل
 من فم التين فابغ الكوثر
 حجر الكعبة من بيت الوثن
 طفئ العشق بعلم الحاضر
 فسحاب الفكر يهني بردا^(٢)
 من تراب فيك أطلع شهب
 مقصد الإسلام ترك الآفل^(٣)
 فحوته كالجنان الشغل^(٤)
 تبتغي بالدين إلا الدرهما
 غافلاً عمّا به من كحل^(٥)
 واسألن ماء الحياة الخنجرا^(٦)
 التمس والمسك في الكلب اطلب
 لا تؤمل كأس هذا الكافر

(١) انتهت قصة الرومي والتبريزي .

(٢) بردا الأولى فعل ماض ، والثانية : البرد الذي ينزل من السحاب .

(٣) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل في القرآن الكريم وقوله حينما أفل الكوكب ثم القمر : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . وكأن الشاعر تصور الآفل خامداً . فقال : إن علم المسلم من نار القلب . والإسلام ترك ما يأفل ، أي : يخمد .

(٤) إشارة إلى قصة إلقاء إبراهيم في النار ، وكونها برداً عليه وسلاماً .

(٥) الكحل سواد طبيعي في منابت أشجار العين . يقول الشاعر : أيها الساعي للجمال المصنوع غافلاً عن جماله الطبيعي ، يعني : المسلم المقلد غيره ، الغافل عما عنده .

(٦) يعني : اركب الأهوال وراء ما تبتغي ، واطلب المنفعة عن كل ضر ، واجعل ماء الخنجر أي بريقه ماء الحياة .

قد براني السَّعيُّ في كل بعيد
وحباني سرُّ هذي الجنَّة
علمُ ذا العصرِ حجابٌ أكبرُ
من حدودِ الحسِّ لا ينطقُ
زلقت رجلاه في سُبُلِ الحياة
كشقيقٍ فيه نارٌ هامة
من لهيبِ العشق تخلو فطرته
عللُ العقل لها العشق دواء
سجدَ العالمُ للعشق الجليل
جامه من نشوة الرِّاحِ خلا

وعرفتُ السُّرَّ في العلم الجديد
قيَّمُ البستان بعد الخبرة
يعبد الوثنَ وفيها يتجر
وله الظاهرُ سجنٌ مُغلَقُ
وضعتُ في حلقهِ السَّيفَ يداهُ
شعلةٌ كالطُّلِّ فيه بارده^(١)
في طلابِ الحقِّ تبدو خبثه
مبضعُ العشق لدى العقل شفاء
هو محمودٌ لأصنامِ العقول^(٢)
ليله عن وَجدٍ « يا ربِّ » سلا^(٣)

سَروك الباسقُ قد أغفلته
أنت كالنَّاي خلِّي من جواك
تبتغي نفسك في سوقِ سِواك
من سراجِ النَّاسِ نادينا استعر
ظبيُّنا خاف سوادَ الكعبةِ

كلُّ سَروٍ غيرُهُ أكبرُّه^(٤)
بلحون الناسِ أعليت صداك
وسمَّاط النَّاسِ تجدوه يداك
أحرقَ المسجدَ من دِيرِ شرر
فرماه صائدٌ في الثُّغرة^(٥)

- (١) علم هذا العصر فيه نار كنار الشقائق لا حرارة فيها ، وله بريق كبريق الندى لا نار فيه .
(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب مكسر الأصنام . يعني : أن العشق كمحمود ، والعقول كالأصنام .
(٣) الضمير في هذا البيت يرجع إلى العقل أو علم العصر الحاضر ، ليس في كأسه نشوة . ولا في ليله دعاء « يا رب » وما فيه من وجد .
(٤) يرجع يخاطب المسلم .
(٥) نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد .

ورقُ الوردِ كالعرفِ انتشر
يا أمينَ السرِّ من أم الكتاب
نحن حُرَّاسُ حصونِ الأُمَّةِ
أكؤسُ السَّاقِي أراها كسرا
تعمُرُ الكعبةُ من أصنامنا
شيخُنا باع الدُّمى ملته
شيخُ الشَّيخِ بياضُ الشَّعرِ
قلبه بيتٌ لأصنامِ هواه
يلبس الخِرْقَةَ من يُرخي الشَّعرِ
بمريديه أدام السَّفرا
أغين عُمي حكاها النرجسُ
عبءُ الأشياخِ فينا المنصبُ
واعظُ عيناه شطرَ الوثنِ
وجهه للحنان ولَّى شيخُنا

جافلاً من نفسه! عُذُّ للمقرِّ^(١)
هل إلى وحدة ماضينا إياب؟
كُفرنا تركُ شعارِ الملَّةِ
حفلُ نُدْمانِ الحجازِ انتشرا
يضحكُ الكُفْرُ على إسلامنا^(٢)
جاءلاً زُنَّاره سُبحته^(٣)
وهو للأطفال مثلُ الشَّخرِ^(٤)
فهو صِفْرٌ مقفّرٌ من « لا إله »^(٥)
آه ! للتَّاجرِ بالدينِ اتَّجر
في هُدَى أُمَّته ما فُكِّرا
وُصدورٌ من قلوبِ تُفليسُ
حُرمةُ الأُمَّةِ منهم تذهبُ
وفتاوى تُشترى بالثمنِ
« يا رفاقي بعدُ ما تديرنا »^(٦)

- (١) يرى إقبال أنَّ الإنسان ينبغي أن يثبت في نفسه وأخلاقه وسنته . ويبعد في مساعيه دون أن ينسى مركزه فهو كالوردة ينتشر عرفها ويلتئم ورقها . فإذا تفرق الورق ففنت .
- (٢) نحن مسلمون ولكن في أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا .
- (٣) الدُّمى : جمع دمية ؛ يراد بها الإنكليز وما عندهم من مال ومناصب . إلخ .
- (٤) يعني : أن الشيخ صار شيخاً ببيضاض شعره لا بعلمه وتقواه . والأطفال يسرون وراءه ساخرين منه . وأحسب الشاعر يعني ضرباً من رجال الطرق في الهند .
- (٥) « لا إله » اختصار لا إله إلا الله حيثما جاءت في شعر إقبال .
- (٦) مأخوذ من بيت لحافظ الشيرازي :

شب از مسجد سوی میخانه آمد بیرما چیست یاران طریقت بعد ازین تديرما

الوقت سيف^(١)

نَضَّرَ اللهُ تَرَابَ الشَّافِعِيِّ
فِكْرُهُ قَدْ صَادَ نَجْمًا لَامِعًا
فَاتَ خَوْفًا وَرَجَاءً صَاحِبُهُ
تُغْدِقُ الصَّخْرَةَ مِنْ ضَرْبَتِهِ
كَانَ هَذَا السَّيْفُ فِي كَفِّ الْكَلِيمِ
شَقَّ صَدْرَ الْبَحْرِ لَمَعُ الْقَبَسِ
وَبِهَذَا السَّيْفِ يَوْمَ الْخَطَرِ
سَحَرَ الْأَلْبَابَ هَذَا الْأَلْمَعِيُّ
حِينَ سَمَّى الْوَقْتَ سَيْفًا قَاطِعًا
كَفُّهُ كَفُّ كَلِيمٍ ، ضَارِبُهُ
وَيَغِيضُ الْبَحْرُ مِنْ صَوْلَتِهِ
فَشَأَ التَّذْيِيرَ بِالْعِزِّ الصَّمِيمِ
صَيَّرَ الْقَلْبُومَ مِثْلَ الْيَبَسِ
زَلَزَلَتْ خَيْبَرَ كَفُّ الْحَيْدَرِ^(٢)

مَمَكُنٌّ إِبْصَارُ دَوْرِ الْفَلَكَ
يَا أُسِيرَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ انْظُرَا^(٣)
أَنْتَ فِي النَّفْسِ بَذَرْتَ الْبَاطِلَا
وَذَرَعْتَ الْوَقْتَ طَوْلًا ، لِلشَّقَاءِ
وَجَعَلْتَ الْخَيْطَ زُنَّارًا لَكَ
صِرْتَ يَا إِكْسِيرُ تُرْبًا سَافِلَا
اقْطَعِ الزُّنَّارَ حَرًّا لَا تَهْنُ
إِيهِ يَا غَافِلُ عَنْ أَصْلِ الزَّمَانِ
يَا أُسِيرَ الصُّبْحِ وَالْمُسَى اعْقِلُنْ
وَتَوَالِي نُورِهِ وَالْحَلَاكَ
انْظُرُنْ فِي الْقَلْبِ كَوْنًا سُتْرَا
وَحَسِبْتَ الْوَقْتَ خَطَا طَائِلَا
بِذِرَاعٍ مِنْ صَبَاحٍ وَمَسَاءِ
صِرْتَ لِلْأَصْنَامِ نَدَاً وَيْلَكَ !
يَا وَلِيْدَ الْحَقِّ صِرْتَ الْبَاطِلَا
شَمْعَةً فِي مَحْفِلِ الْأَحْرَارِ كُنْ
كَيْفَ تَدْرِي مَا خَلُودُ الْحَيَوَانِ^(٤)
« لِي مَعَ اللَّهِ » بِهَا الْوَقْتُ اعْرِفُنْ^(٥)

(١) الوقت سيف من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه .

(٢) حيدر : علي بن أبي طالب .

(٣) انظرا : فعل الأمر مع نون التوكيد الخفيفة .

(٤) الحيوان : الحياة .

(٥) إشارة إلى الأثر : لي مع الله وقت لا يسعني فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ويريد =

كلُّ ما يظهرُ ، من تسياره
ما من الشمس أراه يوجَد
وبه الشمسُ أضاءت والقمر
قد بسطت الوقت بسطاً كالمكان
يا شذاً قد فرَّ من بستانه
وقتُنا بين الحنايا سافرُ
الحياةُ الدَّهرُ يا مَنْ عرفا

والحياةُ السرُّ من أسرارهِ^(١)
إنَّها تفنَّى وهذا يخلد
وبه في العيش ما ساء وسر
وفرقت اليوم من أمس الزَّمان
وحبَّسَ السَّجنُ من بنيانه^(٢)
ليس فيه أوَّلُ أو آخِر
« لا تسبوا الدَّهر » قول المصطفى

نكتة كالذُّرَّ خذها راتقة
حيرةُ العبد مسيرُ الزَّمن
ينسج العبدُ عليه كفناً
وترى الحرَّ من الطين نجا
قفصُ العبدِ صباحٌ ومساءً
وبصَدْرِ الحرِّ ثار النفسُ
فطرة العبد حُصولُ الحاصلِ
في مقامٍ من همودٍ راكدُ
ومن الحرِّ جديدهُ الخلقة
قيدُ العبدِ صباحٌ ومساءً

بين حرٍّ ورقيقٍ فارقة :
حيرةُ الأزمانِ قلبُ المؤمن
من صباحٍ ومساءً مُذعنا
نفسه حول الليالي نسجا
يُحرِّم التحليق في جوِّ السماء
طائر الأيام فيه يُحبَّس
ليس في تفكيره من طائل
نوحه ليلاً وصباحاً واحداً
كلَّ حينٍ ، وحديثُ النِّعمة
وثوى في فمه لفظُ القضاء^(٣)

= الشاعر أن يقول إن الوقت حال الإنسان ، لا ساعات الفلك .

(١) الضمير يرجع إلى الوقت .

(٢) يقول الشاعر : إنك أحياناً كالرائحة لا تثبت في بستانها ، وأحياناً سجين في سجن بنته
يد تسيير مع ساعات الزمان ، وتحبس نفسك فيها والوقت هو أنت .

(٣) لفظ القضاء والقدر ، يعتلُّ به ، ويحيل الأمور عليه .

وأرى الحرَّ مُشيراً للقَدَرِ صَوَّرَتْ كَفَّاهُ أَحْدَاثَ الدَّهْرِ^(١)
عنده الماضي التقى والقابل عاجلاً بين يديه الآجل^(٢)

ضاقَ عن معنَيِ حرفٍ وصدى عجزَ الإدراكُ في هذا المدى
قلتُ ، واللفظُ من المعنى خجلُ وشكا المعنى من اللفظ المَحِلُ
مات معنى في حروف يُحبَس نازَه يُخمدُ منك النفسُ
سرُّ غيبٍ وحضورٍ في القلوب رمزُ وقتٍ ومرورٍ في القلوب^(٣)
إنَّ للوقتِ للحناءَ صامتا وله في القلب سرّاً خافتا^(٤)
أينَ أيامٌ بها سيفُ الدهر صرَّفته في أيادينا القُدَرُ!^(٥)
قد غرسنا الدِّينَ في أرضِ القلوب وجلونا الحقَّ من سترِ الغيوب
ومِنَ الدُّنيا حلَّلنا العُقدا واستنار الثُّربُ مِنّا سُجّدا
مِنَ دنائِ الحقِّ صرَّفنا الرِّحيق وهَدَمنا حانةَ العصرِ العتيق
يا مديراً الرِّاحِ في أضوائها ومُذِيبَ الكأسِ من لآئها^(٦)
من غرورٍ واختيالٍ تَسْكُرُ ومن الفقرِ لدينا تَسْخَرُ!
كأُسنا كانت سراجَ المحفل صَدُرنا كانَ لقلبٍ مُشعل
إنَّ هذا العصرَ مِن آثارنا من عجاجِ ثارٍ في تسيارنا

(١) عزم الحر من القضاء ، ويقول الشاعر في هذا : إن القضاء يستشير الحرَّ فيما يفعل .
(٢) لا يعتل بأن شيئاً قد فات وقته وأن شيئاً لم يحن وقته . بل عزمه يطوع كل وقت لما يريد .

(٣) القافية مردوفة والروي في حضور ومرور .
(٤) أبيات إقبال هذه في الوقت وفي التفريق بين العبيد والأحرار من أروع ما عرفته الفلسفة والشعر .

(٥) في هذا البيت والأبيات بعده يذكر إقبال ماضي المسلمين .
(٦) في هذا البيت وأبيات تليه يخاطب الشاعر أهل الغرب المسيطرين على العالم .

روضةُ الحقِّ ارتوت مِن دمننا
 كَبَّرَ العَالَمُ مِن تكبيرنا
 « اقرأ » الحقُّ لنا قَدْ علَّما
 لا تهوُّنَ قَدَرُ حُرٍّ أَعَدَمَا
 إن نكنُ عندك أصحابَ الخسارِ
 فلدينا عِزَّةٌ مِن « لا إِلَهَ »
 قَدْ تركنا غَمَّ أمسٍ وغدِ
 نحنُ ورَّاثُ هِدَاةٍ للبشرِ
 لا تزال الشمسُ تُبدي نورنا
 ذاتنا المرآةَ للحقِّ ، اعْلَمِ
 عزُّ أهلِ الحقِّ في الدنيا بنا
 كَعَبَاتٍ شَادَ مِن تعميرنا
 بيدنا رزقُهُ قَدْ قَسَمَا^(١)
 أن تَرى التَّاجَ مضى والخاتما
 قُدَمَاءُ الفكرِ أحلافَ الصَّغَارِ
 نحنُ لِلْكَوْنِ حُرَّاسُ أَبَاهِ
 ووفينا لحبيبٍ أَوْحَدِ
 نحنُ عند الحقِّ سرٌّ مَدَّخِرِ
 غيْمُنَا فِيهِ بِرُوقٌ وَسَنَا
 آيَةُ الحقِّ وجودُ المسلمِ

دعاء^(٢)

أنت في الكَوْنِ كروحٍ مُستَسِرِ
 منك فيه نعمةٌ عُدُ الحَيَاةِ
 عُدُ فسكُنْ ذِي القُلُوبِ البَائِسَةِ
 عُدُ فكلَّفْنَا الفِعَالِ المَاجِدَا
 إِنَّا نشكو تصاريِفَ القَضَاءِ
 عن فقيرٍ لا تحجِّبُ ذا الجمالِ
 عَيْنِ سُهْدٍ لِفَوَادٍ قَلِيقِ
 روحنا أنت ، ومنا تستتر
 في هواك ، الموتُ محسودُ الحَيَاةِ
 عُدُ فعمَّرْ ذِي الصدورِ اليَائِسَةِ
 ألْهَبِنَا العِشْقَ فِينَا الخَامِدَا
 أنت تُغلي السَّعْرَ والأَيْدِي خَلَاءِ^(٣)
 عشقَ سَلْمَانَ امنحنَا وِبِلَالِ
 امنحنَا واضطرابَ الزُّبُنِ

(١) يشير إلى أول سورة في القرآن : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ .

(٢) الخطاب لله تعالى .

(٣) يعني تكلفنا واجبات عظيمة وليس في يدنا اليوم أسبابها .

آيَةً أَظْهَرَ مِنَ الْآيِ الْمُبِينِ لَنَرَى أَعْنَاقَ قَوْمٍ خَاضِعِينَ^(١)
أَظْهَرَ الْبَرْكَانَ مِنْ أَعْوَادِنَا وَاَمْحُ غَيْرَ اللَّهِ فِي نِيرَانِنَا
كَفُّنَا أَلْقَتْ بِخِيطِ الْوَحْدَةِ كَمْ تَرَى فِي أَمْرِنَا مِنْ عُقْدَةٍ؟^(٢)
قَدْ مَضَيْنَا كَنَجُومٍ حَائِرَةٍ إِخْوَةٌ لَكِنْ وَجُوهٌ نَافِرَةٌ
انْظَمْنَ فِي السُّلْكِ هَذَا الْوَرَقَا جَدَّدَنْ سَنَةً حُبِّ أَخْلَقَا^(٣)
ابْعَثْنَا مِثْلَ مَا كُنَّا لَكَا ائْتَمِنْ فِيمَا تَرَى أَحْبَابَكَا
مَنْزَلَ التَّسْلِيمِ أَبْلَغَ رَكْبِنَا عَزَمَ إِبْرَاهِيمَ يَسْرَهُ لَنَا
عَلَّمَنَّ الْعَشْقَ مِنْ أَفْعَالٍ « لَا » رَمَزَ إِلَّا اللَّهُ عَلَّمُ غَافِلَا^(٤)

أَنَا كَالشَّمْعِ لَغِيرِي أُخْرَقُ وَبِدَمْعِي كُلُّ حَفْلٍ يَشْرَقُ
رَبِّ ! هَذَا الدَّمْعُ نَوْرٌ فِي الْقُلُوبِ ذُو هَيَاجٍ وَاضْطِرَابٍ وَنَحِيبِ
أَبْذُرُ الدَّمْعِ فَتَنْمُو شُعْلُ نَارُ شِقْرِ الرَّوْضِ مِنْهَا تَنْصِلُ^(٥)
أَمْسِرْ فِي قَلْبِي ، وَعَيْنَايَ الْغَدُ أَنَا فِي الْجَمْعِ فَرِيدٌ مُوَحِدٌ^(٦)
« ظَنَّ كُلُّ أَنْبِي نَعَمِ السَّمِيرِ لَيْسَ يَدْرِي أَيُّ سِرٍّ فِي الضَّمِيرِ »^(٧)
أَيْنَ يَا رَبَّاهُ فِي الدُّنْيَا النَّدِيمِ نَخْلُ سِينَاءَ أَنَا ، أَيْنَ الْكَلِيمِ ؟

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنْ شَاءَ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤] .

(٢) يعني : أضاع المسلمون خيط الاتحاد ، فتعقدت أمورهم .

(٣) الورق : ورق الكتاب ، والسلك : الخيط الذي يجمع به الورق .

(٤) « لَا » : يريد النفي في كلمة التوحيد ، نفي ما سوى الله ، و « إِلَّا اللَّهُ » هي الإثبات في هذه الكلمة .

(٥) الشقر : شقائق النعمان . وهي زهر أحمر يضرب به المثل في الاحتراق ، ولكن الشاعر يقول إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي .

(٦) قلبه متصل بذكرى الماضي ، ولكن عينيه تريان المستقبل ، وتطمحان إليه . وهذا معنى يكرره إقبال .

(٧) البيت من فاتحة المثنوي لجلال الدين الرومي في وصف الناي .

ظالمٌ نفسي فكم عنيتها
شُعلاً للحس تذرو ما به
وبها العقل جنوناً علماً
قد علت من حرها شمس السماء
كل عِرْق في ناراً يقطر
بليلي يلفظ هذا الشررا
صدُر عصري ما بقلب يوهن
يخفق الشمع وحيداً ويله !
كم أرجي مُسعداً لي في البشر

يا من الأنجم منه تستنير !
اسلُبْن نفسي ما أودعتها
أو فهب لي وجه خل لبق

يخفق الموج بموج في العُباب
ومع الكوكب يسري الكوكب
ومع الليل نهاراً أبداً
نهاراً ، أبصر ، يفنى في نهر

شُعلاً في صدرها أذكيته
وتشُب النار في أثوابه^(١)
وبها أحرق ما قد علماً^(٢)
حولها للبرق طوف في الفضاء
شُعلاً ينبُت في الشَّعر
فتراه نغماً مستعرا
نوح قيس حين يخلو المحمل^(٣)
في فراش لا يرى أهلاً له^(٤)
ونجياً كم أرجي في الدهر

أرجعن نارك من رحي الكسير
عطلن من نورها مرآتها
هو مرآة لعشقي مُحرق

لا سيرُ الموج إلا في صِحاب
وعلى الأقمار يحنو الغيَّهَبُ
ومسيرُ اليوم يقتادُ غداً
ونسيمَ الرّوض في عزف الزَّهر

(١) نار تحرق المحسوسات ، وتنفذ إلى البواطن .

(٢) هذه النار نار العشق تخرج بالعقل عن حدوده الضيقة . وتحرق ما لقنه الناس من علم .
انظر الكلام عن العشق والعقل في مقدمة ضرب الكليم .

(٣) يبكي إقبال لخلو عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلو المحمل من ليلي .

(٤) يعني : أنه كالشمع ، لا يجد فراشاً أهلاً لناره . ليس له أصحاب ، أو تلاميذ يفقهون عنه ما يقول .

رُبَّ حَانٍ أَهْلٍ مِنْ شَرِبِهِ	راقصَ المجنونُ مجنوناً به
أَنْتَ يَا وَاحِدُ لَا شِبْهَ لَكَ	عَالِماً أَنْشَأَتْهُ مِنْ أَجْلِكَ
وَأَنَا مِثْلُ شَقِيقَاتِ الْفَلَا	مُفْرَدٌ ، فِي بُهْرَةِ الْجَمْعِ خَلَا ^(١)
هَبْ نَجِيّاً يَا وَلِيَّ النُّعْمَةِ	مَحْرَماً يُدْرِكُ مَا فِي فِطْرَتِي
هَبْ نَجِيّاً لِقِنّاً ذَا جَنَّةِ	لَيْسَ بِالدُّنْيَا لَهُ مِنْ صَلَاةِ ^(٢)
رُوحِهِ أَوْدِعْ مِنْ أَنْتَائِهِ	وَأَرَى فِي قَلْبِهِ مِرَآئِيَهُ
وَأَسْوِئِهِ بَطِينِي مُحْكَمَا	وَأُزَى آزَرَهُ وَالصَّنْمُ ^(٣)

(١) الشقيقات : جمع شقيقة واحدة الشقائق التي تسمى شقائق النعمان . هو وحيد وإن كان جماعة .

(٢) يريد إقبال نجياً مجنوناً . والجنون في لغة إقبال الهيام والإقدام إلى غير حد .

(٣) يكون له ناحتاً كآزر ويكون صنماً له يتوجه إليه توجه العابد إلى الصنم .

القسم الثاني
رموز نفي الذات
(أسرار بيخودي)

٢ - رموز بيخودي (أسرار نفي الذات)

باللغة الفارسيّة

هذه المقالة الفلسفية المنظومة باللّغة الفارسيّة نشرها محمد إقبال عام ١٩١٨م وهي من حيث الاسم تبدو أنها ضد الكتاب الأول ، لكنّها في الحقيقة تفسر ، وتبيّن نفس النظرية ، وتعتبر التتمة اللاّزمة له ، وقد طبعت أحياناً القصيدتان في مجلّد واحد بعنوان « أسرار ورموز » هنا يكمل محمد إقبال فلسفته بالتأليف بين الفرد والقوى أو الذات الكاملة وبين الجماعات التي تعيش فيها .
وأما الموضوعات الرئيسية فهي علاقة الفرد بالمجتمع ، والإنسانية ، والطبيعة الاجتماعية المثالية ، والمبادئ الأخلاقيّة والاجتماعيّة .

محتوى الديوان

يبدأ الشاعر المنظومة بتمهيد في ارتباط الفرد والأمة ، ثم يعقد الفصول التالية :

١ - الأمة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوة .

٢ - أركان الأمة الإسلاميّة .

أ - التوحيد : ويستطرد في بيان التوحيد إلى فصول أخرى ، كما يعقد فصولاً أخرى للتمثيل .

ب - الرسالة : وفي هذا العنوان فصول أخرى منها أن مقصد الرسالة المحمدية الحرية ، والمساواة ، والأخوة بين بني آدم ، ويقصّ قصصاً شتى في

هذا الصِّدَد . وأن الأمة المحمّدية قائمة على التوحيد ، والرسالة ، فلا يحدها مكان ، وأنّ الوطن ليس أساس الأمة ، وأنّ الأمة المحمدية لا يحدها زمان ، ودوامها موعود ، وأنّ نظام الأمة لا يكون بغير القانون ، وقانون أمّة محمد القرآن ، وأنّ نجاح الأمة باتباع الشريعة الإلهية ، وأن حسن سيرة الأمة بالتأدّب بالآداب المحمّدية .

٣ - حياة الأمة تقتضي مركزاً محسوساً ، ومركز الأمة الإسلامية الحرم .

٤ - الاجتماع الحقيقي لا يكون إلا بقصدٍ يقصد إليه ، ومقصد الأمة المحمدية حفظ التوحيد ، ونشره .

٥ - توسيع حياة الأمّة بتسخير قوى العالم . وكمال حياة الأمّة أن تحسّ ذاتها كما يحسّ الفرد ، وينشأ هذا ، ويكمل بحفظ سنن الأمّة .

٦ - بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة واحترامها من قواعد الإسلام .

٧ - السيدة فاطمة الزهراء أسوةً كاملةً لنساء الإسلام .

٨ - خطاب إلى المسلمات .

٩ - خلاصة مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص .

١٠ - مناجاة المصنف الرّسول الذي بُعث رحمةً للعالمين .

وبيّن محمد إقبال في هذه المنظومة فكرة أنّ « الوطن ليس أساس الأمّة » فيقول : إنّ العصبية الوطنية قطعت أرحام الأمم ، وبيّن كيف هجر النّصارى دين عيسى وتقطع أمرهم بينهم . . . كلّ حزب بما لديهم فرحون .

ويذكر ميكافيلي الإيطالي ، وأثره في سياسة أوربة إلى أن يقول :

جعل الملك إلهاً دينه	كلّ قبّح ناله تحسينه
وزن الحقّ برّبع وجدى	ولدى الملك خنوعاً مسجداً

صَيَّرَ الحيلة فِتْنًا محكما

فزهـا الباطل مما أعلمـا^(١)

ويخاطب المرأة المسلمة :

احذري فتنة عصرٍ مهلك
بُعِدَتْ عن عشها في خطرٍ
فيك تسمو للمعالي فطرةً
علَّ غصناً منك يأتي بحسين

والى صدرك ضمّي وُلْدك
هـذه الأفـراح ، لا تطـر
فاتبعي الزهراء ، نعم الأسوة
فترى النضرة روضات ذوين

(١) إقبال - للدكتور عبد الوهاب عزام ص ١٣٧ .

جذ بنفي الذات . لا تهاب
اجتهد ، والله يهديك الصواب
(جلال الدين الرّومي)

تمهيد

مهداة إلى الأمة الإسلامية

إيه يا مُنكراً أحاديثَ عشقي
ختمَ اللهُ إليكِ الأمما
كم تقيّ فيك كالرسل مُنيب
لكِ طرفٌ بالنّصارى سُجرا
يا منِ الأفلاكِ مِنْ هَبْوتِها
سرتِ كال موجِ دُؤوبِ السّفرِ
كفراشٍ في لظى الحبِّ اصبري
أحكمي العشق بروحٍ قد صفا
صحبةَ النّصرانِ قلبي هجرا
ورفيقي رهنُ حسنِ الآخرين

ليس بي حُرقةٌ تكون بغير عُرفي^(١)
بكِ حقّاً كلّ بدءٍ خُتما
وجريحِ القلبِ رفاءِ القلوب
وعن الكعبةِ أبعدتِ السّرى^(٢)
« من رنا الكونُ إلى طلعتها »^(٣)
« أين تبغين مُرادَ النّظرِ ؟ »^(٤)
وخذي عُشَّكِ بين الشرِّ
جدّدي العهد بحبِّ المصطفى
حينما وجهك عندي أسفرا
واصف الطرّة منهم والجبينُ

(١) ترجمة بيتٍ لعرفي الشيرازي صدر به الشاعر هذه المقدمة . ومعناه : لا يستطيع أحدٌ إنكار ما أصف من آلام عشقي . فإنه إن شعر بالآلام التي أصفها فهذه الآلام لا تكون بي ولكن به هو . إنني أصف شيئاً لا يمكن أن يكون في قلب غيري ، فكيف يستطيع إنكاره ؟!

(٢) يعني أهل أوربة الذين سيطروا على الهند وغيرها حقبة .

(٣) الأفلاك من الهبة التي أثرتها في جهادك على الأرض .

(٤) الشطران بين الأقواس بيت للشيخ سعدي الشيرازي .

سَدَّةَ السَّاقِي بِخَذَّيْهِ يَسْدُوسُ
وَأَنَا فِيكَ قَتِيلُ الْحَاجِبِ
أَنَا مِنْ نَظْمِ مَدِيحِ أَرْفَعُ
كَمْ مَرَايَا صُغْتُهَا مِنْ كَلِمِي
لَا تَرَى الْمَنَّةَ جِيدِي تَأْطِرُ
مُقَدِّمٌ فِي الدَّهْرِ مِثْلَ الْخَنْجَرِ
أَنَا فِي نَارِ الْحَيَاةِ الشَّرُّ
مَنْشَدًا قِصَّةَ غُلْمَانِ الْمَجُوسِ^(١)
وَتُرَابٌ فِي حِمَاكِ الْحَادِبِ
لَسْتُ مَمَّنْ لَأَمِيرٍ يَرْكَعُ
فَعَنْ إِسْكَندَرَ تَعْلُو هِمَمِي^(٢)
مِنْ زَهْوِ الرُّوْضِ حِجْرِي صَفَرُ^(٣)
مِنْ قُلُوبِ الصَّخْرِ مَائِي أَمْتَرِي^(٤)
فِي ثِيَابٍ مِنْ رِمَادِي أُسْتَرُ

قَصَدْتُ بَابَكَ رُوحِي فِي خَشْوِ
إِنَّ فِي الزَّرْقَاءِ يَمًّا يَقْطُرُ
أَجْمَعُ الْقَطَرِ رِبْعًا جَارِيًا^(٥)
قَدْ حُيِّتَ الْحَبُّ مِنْ مَحْبُوبِنَا
قَذَفَ الْعَشْقُ بِقَلْبِي حُرْقًا
وَشَقَقْتُ الصَّدْرَ ، كَالْوَرْدِ لَكَ^(٦)
فِي هَدَايَا مِنْ لَهَيْبٍ وَدَمُوعٍ
فَوْقَ قَلْبٍ لَا هَبَّ لَا يَفْتَرُ
وَالِي رَوْضِكَ أَزْجِي صَافِيَا
أَنْتِ قَلْبٌ قَدْ ثَوَى فِي صَدْرِنَا^(٦)
صَاغَ مِرَاةً فَوَادِي الْمُحْرَقَا
مُدْنِيًا مِرَاتَهُ مِنْ وَجْهِكَ

(١) يعني : أنَّ الشعراء الآخرين فتنوا بذكر ألحان وغلمان المجوس ، وهؤلاء في الشعر الفارسي كغلمان النصارى في الشعر العربي يقرن ذكرهم باللهو والسكر ؛ إذ كانوا خدام الحانات .

(٢) مرآة إسكندر مشهورة في الشعر الفارسي ، يقال : إنه كان يرى فيها الأقاليم ولعلَّ أصل الخرافة منارة الإسكندرية ومراياها . ويقول الشاعر هنا : إنَّ في شعري مرايا كمرآة إسكندر ، فلست في حاجة إليها .

(٣) يعني : أنه لا يجني الزهر في حجره بل يستكبر أن يجنيه استغناء عنه .

(٤) حذف بعد هذا بيتان .

(٥) الربيع : النهر الصغير .

(٦) محبوبنا الرسول ﷺ .

(٧) يتخيل الشعراء أن الورد يمزق صدره حين يتفتح ، ويقول الشاعر : إنَّ العشْق صَاغَ قَلْبَهُ =

لتنالني نظرة من سحرِكَ وتُرِي مغلولةً في شعركِ^(١)
ثم أشدو قِصصاً من أمسك فأذْكي حُرْقاً في نفسِكَ

أسأل الحقَّ حياةً تحُصِف لفريقٍ نفسَه لا يعرف
نائحٌ والليل ساجٍ سادلُ يهَجُّ الناسُ ودمعي هاطلُ
تصطللي روعي بحزنٍ وألم وردُ « يا قُيُوم » أنسي في الظلم
أملًا في الصدر صيَّرتُ دما ليُرى في أدمُعي مُنجمًا
ما احتراقني كشقيقٍ أبدا فيم أستجدي من الفجر الندى^(٢)
أنا كالشَّمع دموعي غُسلِي في ظلام الليل أذكي شُعْلِي
محفلُ الناس بنوري يُشرقُ أنشُرُ النُّور ونفسي أحرقُ
ما لناري في الحشا من فترة ما بأسبوعي فراغُ الجمعة^(٣)
إنَّ روعي في سحيق الجسد آهةً ثوبَ غبارٍ ترتدي^(٤)
مُذ براني الحقُّ فجرَ الخلقة زلزلت أوتارَ عودي أنثي
أنَّةً للعشق تُفشي سرَّه آهةً في العشق تُذكي جمره
تجعل العصفَ لهيباً يُحرقُ وفراشاً من ترابٍ تخلُق^(٥)

= مرآة وهو يشق صدره فيضع هذه المرأة أمام الأمة الإسلامية لترى فيها حقيقتها .

- (١) أي لتقدري جمالك ، وتدركي مزاياك ، وتحبي نفسك .
- (٢) الشقيق : زهر أحمر يجعله الشعراء مثلاً للاحتراق . ويقول إقبال : ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له ، ولماذا أستجدي الندى من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر . أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندى .
- (٣) أيامه كُلُّها عملٌ وجهدٌ ، ليس فيها يوم راحة .
- (٤) روحه آهة والجسد تراب يسترها كما يتردى الإعصار بالغبار .
- (٥) تجعل العصف - وهو الهشيم ضعيف اللهب - ناراً قوية تحرق غيرها ، وتخلق من التراب فراشاً هائماً يهفو على النار .

في ضمير العشق وَنَمَّ كَالشَّقَرِ
هذه الوردة أَحْبُو صَدْرِكَ
لأرى في تُربِكَ الروضَ الينيعُ
وليه وردةٌ وجِدٌ تستعزُّ
في سُباتٍ منك أذكي حشرِكَ
وبأنفاسِكَ أرواحَ الرِّبيعِ

في معنى ارتباط الفرد والأمة

رحمةٌ للفرد حِجرُ الأُمَّةِ
فَالزَّمَنُ الجَمْعَ جَهْدَ المستطاعِ
واخْفَظْنِ ما قاله خيرُ البشرِ :
فَرَدْنِا مِرَاتَه أُمَّتُهُ
وهمما سِلْكُ نظامٍ ودُرَرُ
قيمةُ الأفرادِ جدوى المِلَّةِ
وإذا الواحدُ في الجمعِ نما
جُمعَ الماضي له في لُبِّه
صلةُ الأمسِ تراه والغدِ
هو بالأُمَّةِ قلبٌ طامحُ
روحه من قومهِ ، والبدنُ
بلسانِ القومِ يشدو منطلقاً
تُنضِجُ الفطرةَ فيه الصُّحبةُ
تُحكِمُ الوحدةَ فيه الكثرةُ

كاملٌ جوهرُهُ في المِلَّةِ
في ذُرَا الأحرارِ كنُ مثلَ الشعاعِ
كلُّ شيطانٍ منَ الجمعِ نفرُ
وكذا مِرَاتُها صورُته
أو نجومٌ تتجلى في النَّهَرِ^(١)
ومن الأفرادِ نظمُ الأُمَّةِ^(٢)
كان كالقطرة صارت خِضْرمًا
والتقى الغابرُ والآتي به
وقْتُهُ لا ينتهي كالأبدِ
وهو بالأُمَّةِ سعيٌّ رابحُ
سرُّه مِنْ قومهِ والعَلَنُ
وَمِنْ الأسلافِ يَقِفُو طُرُقًا
فتراه الفردَ وهو الأُمَّةُ
وهي ، بالوحدَةِ فيه ، وحدة^(٣)

(١) نهر المجرة .

(٢) قيمة الأفراد من فضل الأُمَّة عليها .

(٣) كثرة الأمة لا تضر بوحدة الفرد بل تحكمها ، والكثرة فيها موحدة بوحدة الفرد . ورأي =

أفرد اللفظ من البيت ترى
تسقط الأوراق من غصن ينيع
طفئت أنعام أعواد غناء
يحرّم الفرد الوحيد المقصدا
تجمع الأمة شمل المئة
نشأت بالقيد حرّاً مطلقا
ظبيّه الوئاب مسكاً يعبق
أنت لم تعرف «خودي» من «بيخودي»
إنّ في طينك نوراً قد بدا
كلّ غمّ ورضاً من دورته
أنت منه أنت حقّاً ، وأنا
يخلق النفس ويذرو ويقرّ
جوهر المعنى لديه انكسرا^(١)
فترى محرومة وصل الربيع
فاتها من زمزم الأمة ماء
فترى نظم قواه بددا
فيه تحبوه عظيم الهمة
أثبتت في الأرض سزوا بسقا^(٢)
إن حواه من نظام وهق^(٣)
أنت لا ريب من الشك ردي^(٤)
بشعاع منه أبصرت الهدى^(٥)
أنت حيّ بتوالي ثورته
أنا وهو الفرد لا يرضى ثنا^(٦)
ذو دلال في خضوع مستتر^(٧)

= إقبال أن غاية الجماعة تقوية الفرد وإسعاده ، وهو لا يفنى فيها .

(١) الفرد في الجماعة كلفظ في بيت من الشعر إن فصلت اللفظ من البيت اختل البيت ، وتعطل معنى اللفظ .

(٢) قيد الفرد بقيود الجماعة لا يعبد بل يحرره ، وثباته في الجماعة ينميه مثل الشجرة تثبتها في الطين فتتمو وإن لم تثبت في الأرض لم تنم .

(٣) الوهق : حبل فيه آخية يصطاد به يعني : أن قيد النظام للإنسان يمنع وثوبه ولكن يكمله ويطيّبه .

(٤) أثبت خودي ، ومعناها : الذاتية ، وبيخودي : أي نفي الذاتية على لفظهما في الأصل يعني الشاعر أنّ الإنسان إن لم يميز مواضع الذاتية من مواضع نفيها اشتبه عليه أمره ، وهذا أساس فلسفة إقبال . انظر المقدمة .

(٥) يعني : الذاتية .

(٦) وجودك منه ووجودي منه ، وهو مع هذا فرد لا يثنى .

(٧) هذا النور الذي يسميه الذاتية يصنع نفسه ويثبتها ويفرقها . وله دلال يظهر في صورة خضوع ، يعني أنه غالب ، وكأنه مغلوب .

يَأْسِرُ الشَّعْلَةَ هَذَا الشَّرُّ حَرَّةٌ رَهْنٌ قِيودِ فَطَرَّتْهُ
لِكَفَّاحٍ دَائِمٍ تَنْزُو قُـوَاهُ
يَسْتَثِيرُ الْحَرْبَ فِي جُلُوتِهِ
يَقْطَعُ الْجَبْرَ عَلَيْهِ الطَّرْقَا
تَتَشَطَّى الذَّاتُ فِي أَمَّتْهَا
نَكْتَةً خَذَهَا بِكَفٍّ مِخْدَمٍ

لَهَبٌ مِنْ حَرِّهِ مُسْتَعْرٌ^(١)
جَزْؤُهُ بِالْكُلِّ حَاطَتْ قُوَّتُهُ
هُوَ يُسَمَّى الذَّاتَ أَوْ يُسَمَّى الْحَيَاةَ
حِينَ يُبْدِي النَّفْسَ مِنْ خُلُوتِهِ^(٢)
وَلَهُ بِالْحَبِّ فَرْعٌ سَمَقَا^(٣)
لُتْرَى الرُّوضَةُ مِنْ زَهْرَتِهَا^(٤)
« وَانْصَرَفَ عَنِّي إِنْ لَمْ تَفْهَمْ »^(٥)

فِي مَعْنَى أَنَّ الْمَلَّةَ تَنْشَأُ مِنْ إِخْلَاصِ الْأَفْرَادِ وَأَنَّ تَكْمِيلَ تَرْبِيَّتِهَا بِالنَّبْوَةِ

مَا ارْتَبَاطُ الْجَمْعِ ، أَنَّى يَوْصَفُ ؟
إِنَّنَا نَبْصُرُ فَرْدًا فِي الْجَمِيعِ
فِطْرَةٌ تَنْهَجُ نَهْجَ الْوَحْدَةِ
كُلُّ فَرْدٍ بِأَخِيهِ ائْتَلَفَا
لَفَّهْمٍ فِي عَيْشِهِمْ مَعْتَرَكُ

قِصَّةٌ أَوَّلُهَا لَا يُعْرِفُ
زَهْرَةٌ نَقِطَفُ فِي هَذَا الرَّبِيعِ^(٦)
إِنَّمَا تَزْهَرُ وَسَطَ الرُّوضَةِ
مِثْلَ دُرٍّ فِي سُمُوطِ أَلْفَا
كُلُّ فَرْدٍ بِأَخِيهِ مُمَسِكُ

- (١) شَرُّ صَغِيرٍ ، وَلَكِنَّهُ كَبِيرٌ فِي مَعْنَاهُ يَقْوَى عَلَى الشَّعْلَةِ الْكَبِيرَةِ .
- (٢) يَظْهَرُ مِنْ خُلُوتِهِ أَيَّ يَبْدُو فِي الْكُونِ فَيُثِيرُ حَرْبًا هِيَ جِهَادُ الْحَيَاةِ الدَّائِمِ .
- (٣) الْجَبْرُ وَالْإِكْرَاهُ يَقْطَعُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ ، وَهُوَ بِالْحَقِّ وَالْإِخْتِيَارِ يَنْمُو وَيَعْظُمُ .
- (٤) تَفَرَّقَ الذَّاتُ نَفْسَهَا فَتَنْمُو مِنْ زَهْرَتِهَا رَوْضَةٌ ، أَيَّ : تَعْظُمُ وَتَكْثُرُ بِهَذَا التَّفَرِيقِ .
- (٥) هَذَا الشَّطْرُ مِنَ الْمَشْنُوعِ لِجَلَالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ .
- (٦) مَذْهَبُ إِقْبَالٍ أَنَّ غَايَةَ الْجَمَاعَةِ سَعَادَةُ الْفَرْدِ ، وَأَنَّ الْفَرْدَ لَا يَفْنَى مِنْ أَجْلِ الْجَمَاعَةِ .

من جِذابٍ تتوالى الأنجمُ كوكبٌ من كوكبٍ مستحِكُمُ

كان رَكْبُ النَّاسِ مأواهُ الجبالِ نسجُه ما أُحْكِمَتْ لُحْمَتُهُ
عودُهُ ما بلحونٍ رَنَّمَا لم يُثِرْه مِنْ رجاءٍ مِضْرِبِ
محفلٍ غُفْلٍ حديثِ المولدِ لم يُرْعَرْغُ في ثَراهِ نجمُه
فكْرُه دارٌ لَغِيْلانِ الخيالِ ذو وجودٍ ضَيِّقٍ ميدانُه
طينُه من خيفةٍ قد خُلِقَا روحُه من كلِّ صَغْبٍ تَهْرُبُ
كل ما ينمو بأَرْضٍ يَقْطِفُ ومروجٌ وسُهبوبٍ ورمالُ
فِكْرُهُ ما فَتَحَتْ زَهْرَتُهُ لَحْنُه لَمَّا يُؤْلَفُ نَغْمَا
لم يَخْزُه بزبانِي مطلبِ^(١) جامُه من خمره غير ندي^(٢)
كَرْمُه ما فارَ فيه دُمُه^(٣) خائفٌ من وهمه في كلِّ حالٍ
قد أحاطت فكره جُدرانُه قلبُه مِنْ قَضَفِ رِيحٍ خَفَقَا
يَدُهُ في أرضه لا تضربُ كلُّ ما ترمي سماءٌ يلقَفُ

ثم يهدي الله ذا قلبٍ بصيرٍ عازِفٌ في كلِّ نَفْسٍ يَنْفُثُ
تقبسُ الذرَّةُ مِنْ أنواره يَنْشُرُ الأنفَسَ مِنْه نَفَسُ
يكتب الأسفار مِنْ حرفٍ يسيرٍ وحياءٌ في مَوَاتٍ يَبْعَثُ
كلُّ قَدْرِ حالٍ في معياره^(٤) بشعاعٍ مِنْه يُزْهِى مَجْلِسُ

(١) المضرب ما يضرب به أوتار العود .

(٢) يعني : ليس عنده نشوة العمل والإقدام .

(٣) النجم : النبات الذي لا ساق له .

(٤) أي : تغيرت قيم الأشياء بما أتى به من مقاييس جديدة .

شفةٌ تُحيي وعينٌ تجذبُ وحدا الأشتات هذا عجبٌ^(١)
يَهَبُ النَّاسَ جَدِيدَ النَّظَرِ يَجْعَلُ الْبَيْدَ كَرَوْضٍ نَضِيرٍ^(٢)
فَتَرَى الْأُمَّةَ مِنْهُ سَائِرُهُ بلهيبٍ مِنْهُ حَرَّى ثَائِرُهُ
شُرراً فِي قَلْبِهَا قَدْ أَشْعَلَا فَأَحَالَ الطَّيْنَ فِيهَا شُعْلَا
سِيرُهُ يَعْطِي التَّرَابَ الْبَصْرَا فَإِذَا الذَّرَّةُ سِينَاءَ تَرَى^(٣)
عَارِيَّ الْعَقْلَ بِجَدْوَاهِ كَسَا وَهَبَ الثَّرْوَةَ هَذَا الْمَفْلِسَا^(٤)
يَنْفُخُ الْجَمْرَةَ فِي مَوْقِدِهِ وَيَذِيبُ الْغِشَّ مِنْ عَسْجَدِهِ^(٥)
وَيَفْكَ الْعَبْدَ مِنْ أَغْلَالِهِ وَيُجِيرُ الْقِنْنَ مِنْ أَقْيَالِهِ
قَائِلاً أَنْ لَسْتُ عَبْدًا فَاعْلَمْ أَتَرَى قَدْرَكَ دُونَ الصَّنَمِ^(٦)
يَجْذِبُ الْإِنْسَانَ شَطْرَ الْمَقْصَدِ جَاعِلَ الشَّرْعِ زَمَاماً فِي الْيَدِ
نَكْتَةَ التَّوْحِيدِ يُوْحِيهَا إِلَيْهِ أَدَبَ الطَّاعَةِ يَمْلِيهِ عَلَيْهِ^(٧)

- (١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتى يصيرا كنفس واحدة .
(٢) يهب الناس نظراً جديداً فيرون الأشياء على غير ما رأوها قبلاً ، فرب حسن يصير قبيحاً ، وقبيح يصير حسناً .
(٣) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء . الذرة لا ترى إلا في نور الشمس ، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات ، وينير الظلم ، فترى الذرة طور سيناء .
(٤) العقل عريان مفلس حتى يمدّه الرسول فيكسوه ويغنيه أي : هو يهدي العقل ويقويه .
(٥) يشعل العقل ، ويميز له الخبيث من الطيب .
(٦) الناس يعبدون الصنم ويستعبدون الإنسان فيقول الرسول للإنسان لست عبداً ، ولست قدراً من الأصنام .
(٧) يقيده بالشرعية ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فتري الإنسان حراً من عبادة الكبراء مقيداً بالشرع .

أركان الأمة الإسلامية

الركن الأول : التوحيد

طَوَّفَ الْعَقْلَ بِدُنْيَا الْعِلَلِ
أَغْوَزَ الْمَنْزِلُ هَذَا السَّابِلَا
فِي « آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا » مُضْمَرُ
يَبْتَلِي التَّوْحِيدُ فِيكَ الْعَمَلَا
يُشْرِقُ الدِّينُ بِهِ وَالْحِكْمَةُ
قَدْ تَجَلَّى حَيْرَةً لِلْعَالَمِينَ
يَرْتَقِي فِي ظِلِّهِ الْمُتَضَعُ
يَجْتَبِي التَّوْحِيدُ عَبْدًا ثَابِرًا
فَهُوَ فِي الْحَقِّ حَيْثُ دَائِبُ
رَبِّهِ يُفَنِّي وَيَحْيَا الْعَمَلُ
فِي « مَقَامِ الْعَبْدِ » إِنْ تَثَبَّتْ قَدَمُ
« لَا إِلَهَ » الرُّوحُ فِي أَمْتِنَا
« لَا إِلَهَ » السِّرُّ فِي أَسْرَارِنَا
صَارَ قَلْبًا إِنْ حَوَاهَا حَجَرُ
يَتَلَطَّى الْكَوْنُ مِنْ زَفَرَتِهَا
وَتُسِيلُ الْقَلْبَ مَاءٌ فِي الصَّدُورِ

قَادَهُ التَّوْحِيدُ شَطْرَ الْمَنْزِلِ
زَوْرَقُ الْفِكْرِ أَضَلَّ السَّاحِلَا
رَمَزُ تَوْحِيدِ لِقَلْبٍ يُبْصِرُ^(١)
فِيَجَلِّي لَكَ سِرًّا أُغْفَلَا
وَيُرى الأَيْدُ بِهِ وَالْمُكْنَةُ
وَتَجَلَّى عَمَلًا فِي الْعَاشِقِينَ
وَيَصِيرُ التُّرْبُ تِبْرًا يَسْطَعُ
فِيَرُدُّ الْعَبْدَ خَلْقًا آخِرَا
دُمُهُ كَالْبَرْقِ فِيهِ لَاهِبُ
عَيْنُهُ فِي الْكَوْنِ يَقْضَى تَعْمَلُ
جَرَّةُ السَّائِلِ تُصْبِحُ جَامَ جَمِ^(٢)
« لَا إِلَهَ » اللَّحْنُ فِي نَغْمَتِنَا^(٣)
« لَا إِلَهَ » السَّمْطُ مِنْ أَفْكَارِنَا
كُلُّ قَلْبٍ لَمْ تُتْرَهِ ، مَدْرُ
وَيُضِيءُ الْقَلْبُ مَنْ وَقَدَتْهَا
تَصْهَرُ الْمِرَاةُ مِنْهُ فِي الْحَرُورِ

(١) إشارة إلى الآية في سورة مريم ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

(٢) كأس جشميد التي ترى فيها الأقاليم السبعة . أي إن صدقت النية في مقام العبودية لله وحده ينقلب السائل ملكاً ووعاؤه الذي يجتدي فيه يصير كأس جشميد .

(٣) تقدّم أن « لَا إِلَهَ » اختصار كلمة التوحيد .

شعلةً في روحنا مثلُ الشَّقيق
يَبْضُ التَّوْحِيدُ مُسَوِّدَ البَشَرِ
ليس إلا القلب قربٌ وابتعادُ
وحدة القلب قوامُ الأُمَّة
قد هدى الأُمَّة سُبُلَ العمل
نزعَةٌ واحدةٌ في قلبها
لا يُجيد الفكرُ في قيثاره
نحن في الإسلام أبناءُ الخليل
أُممٌ قد عادت أوطانها
أترى الأوطان أصلَ الأمم
إنما الأنسابُ فخرُ السُّفهاء
ضمَّنا في الحقَّ أسُّ آخرُ
قد خلصنا من حدودٍ وقيود
ضمَّنا ، كالزهر ، نظمٌ مضمُرُ
وَحَدَ الرئيِّ لنا والفكرةُ
نحن فكرٌ وخيالٌ واحد
نحن من نعمائه حلفُ إخاء

كلُّ ما نمتاره منها الحريق
فأبو بكرٍ أخوه وعمر
وهذه الكأسُ بها هاجَ الفؤاد
أشرقَت سيناءُ من ذي الجلوة
هذه الفكرُ بها والأملُ
فعمارُ الحُسنِ والقُبْحُ بها
دونَ نارِ الحقِّ في أوتاره^(١)
من « أبيكم » خذ إذا شئت الدليلُ^(٢)
وبنتُ من نسبِ بنيانها
تعبد الأرضُ بها كالصَّنامِ؟
حُكمها في الجسم ، والجسمُ هباءُ
هو في الأبوابِ منّا مضمُرُ
قلبنا في الغيب إذ نحن شهودُ^(٣)
بصرٌ ليس يراه مُبصرُ^(٤)
كسها مِجمعُها جعبةُ^(٥)
ورجاءٌ ومآلٌ واحدُ
قلبنا والروحُ واللفظُ سواءُ

(١) الفكر وحده لا يجدي ، ولا بد له من حرقه الإيمان .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ قُلْ أَتَبْتَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج : ٧٨] .

(٣) أمتنا مؤسسة على العقيدة لا على الأرض . فقلوبنا ليست رهن الحس بل هي متصلة بالغيب ، أي بالمعاني التي لا تحدّها الأوطان .

(٤) نظامنا قائم غير مرئي ، كالبصر لا تدركه الأبصار .

(٥) الرئي : المظهر .

في معنى أَنَّ الخوف ، والحزن ، واليأس أمهاتُ الخبائث^(١)

وقاطعاتُ طريق الحياة ، وأنَّ في التوحيد دواءً هذه

العلل الخبيثة

عُدَّة الموت قُتُوطٌ مُحْبِطٌ	والحياة الحقُّ أن « لا تقنطوا » ^(٢)
إنما العيشُ رجاءٌ يُوصِلُ	فقنوطُ الحيِّ سَمٌّ يَقْتُلُ ^(٣)
يأسك القبر إليه ترجع	إن تكنَ أَلَوْنْدَ فهو المِصرَعُ ^(٤)
رُبَّت الخيبة في أكنافه	ونما العجز على الطافه ^(٥)
أه من نوم الحياة المُخْدِرِ	إنَّه آيَةٌ ضَعْفِ العنصر
كحله في العين يُعمي البصرا	ويردُّ الصُّبْحَ لَيْلاً أَكْدِرا ^(٦)
نفسٌ منه سَمُومٌ للحياه	كلُّ ينبوع به جَفٌّ ثِراهُ
وهو للغمِّ حليفٌ واصلُ	إنَّما الغمُّ لحيٍّ قاتِلُ
يا سجينَ الغمِّ أبصر واسمع	من رسول الله « لا تحزن » وعي ^(٧)
ذلك النصح سرى في قلبه	فغدا الصَّدِيقُ صَدِّيقاً به
نما المسلم مثل الكوكب	باسمٍ في سعيه والدَّابِ

(١) مأخوذ مما جاء في الأثر من تسمية الخمر أم الخبائث .

(٢) مقتبس من القرآن ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .

(٣) رجاء يوصل : دائم لا ينقطع .

(٤) أَلَوْنْد : جبل عال مشرف على مدينة همذان يعني : إن تكن كجبل أَلَوْنْد في اليأس مصرعك .

(٥) الضمير اليأس في أكنافه تشب الخيبة ، وبفضله ينمو العجز .

(٦) الكحل يجلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلاماً .

(٧) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

حَرَّرَ النَّفْسَ مِنَ الْغَمِّ وَدَعَّ
قُوَّةَ الْإِيمَانِ تُحْيِي فاعْلَمَنْ
قلبه من « لا تخف » قلبٌ سليمٌ
خوفٌ غيرِ الله قتلُ العملِ
وبه العزمُ يخافُ الغيرا
من نما ذا البذر يوماً في ثراه
فهو فسلٌ وهو شادٍ يَغْرِفُ
يسرقُ الرجلُ قُوَى تسيارها
إن تجلَّى لعدوٍّ خوفُكا
سيفُهِ يزدادُ فتكاً في اليد
غلنا الخوفُ ، وكم في بحرنا
إن أبى النِّعْمَةَ يوماً مِزْهَرُكُ
فاعزكُ الأذنَ يثر فيه الغناء
كلُّ شرٍّ في فؤادٍ يُضْمَرُ
من ديار الموت عينٌ قَدِما
عينُهِ تلبسُ آثارَ الحياه
يُزهر الخبُّ به والمَلِيقُ

إن عرفت الله ، أغلالَ الطَّمَعِ
وَرَدَ « لا خوفٌ عليهم » فاقْرَأْ^(١)
حين يمضي نحو فرعونٍ كليمٍ^(٢)
وهو للأحياء قطعُ السُّبُلِ
وترى المِقْدَامَ منه حَذِرا
حَرَمْتُهُ من تجليها الحياه
يد شُلَّتْ وقلبٌ يَرْجُفُ
يسلبُ الرأسَ قُوَى أفكارها
هان كالوردِ ، عليه قطفُكا
عينُهِ فيك حسامٌ لا يَدِي^(٣)
من عُبَابٍ مائجٍ في دهرنا
فمن الخوفِ تندى وترُكُ
ويهزُّ اللحنُ آفاقَ السَّمَاءِ
أصله الخوفُ ، إذا ما بُصِرُ
مثل ميم الموت قلبٌ أظلما^(٤)
أذنه تدليسُ أخبارِ الحياه^(٥)
ونفاقُ القلبِ منه يورقُ

- (١) إشارة إلى الآية : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .
(٢) إشارة إلى قصة موسى وفرعون وقول الخالق عن موسى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾
وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين .
(٣) لا يؤدي دية من قتله .
(٤) عين : جاسوس . والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصممة . فجعل الشاعر
الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت . وفي الأصل ميم مرك . ومرك : موت . فالميم
في الأصل والترجمة .
(٥) تشوه مظاهر الحياة عينه . وتحرف أخبار الحياة أذنه .

ثوبه للزُّور سترٌ والريِّبُ حِجْرُهُ الفتنَةُ فيه والحربُ
حُرِّمَ الخوفُ طُمُوحَ الهَمَّةِ فهو خَدْنٌ لحليف الذَّلَّةِ
كلُّ من يفقد سرَّ المصطفى يجدُ الإِشْرَاكَ في الخوفِ اختفى

محاورة السَّهم والسَّيف

قال سهمٌ مرهفٌ يوم الزُّحامِ قال للسيف وللحرب ضرامُ
يا من الجنَّة في أعطافه ذو الفقار العضبُ من أسلافه ^(١)
خالداً صاحبتَ يفري الفيلقا وعلى الشَّام نثرتَ الشفقا ^(٢)
نارُ قهر الله في جوهرِكا جنَّة الفردوس مأوى ظلِّكا !
إنني في الجوّ أو في جعبتني حيثما كنت ، بجسمي شعلتي
وإذا القوس رمتني للثُّبور بصُرتَ عيني بأحناء الصُّدور :
إن خلا الصِّدرُ مِنَ القلبِ السَّليم ما به يأسٌ ولا خوفٌ مقيمُ
نَفَذَ النَّصْلَ خِلالَ الأعْظَمِ فكسوتُ الجسمَ درعاً من دمِ
وإذا حَلَّاهُ قلبٌ مؤمِنُ نورُهُ الظَّاهِرُ ممَّا يُبْطِنُ
ذاب رُوحِي من فؤادٍ وَقَدَا وهمي نصلي كقطرات النَّدَى

(١) ذو الفقار : سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) في الأصل وعلى الشام نثرت الشفقا . وشام في الفارسية بمعنى الليل .

قِصَّةُ

السُّلْطَانُ عَالِمَكِيرُ وَالْأَسَدُ^(١)

إِنَّ عَالِمَكِيرَ عَالِي الْمَنْزِلِ مِنْ بَنِي تَيْمُورٍ فَخْرِ الدُّوَلِ
كَانَ لِلْإِسْلَامِ مِنْهُ عِزَّةٌ وَلِحُكْمِ الشَّرْعِ فِيهِ حُرْمَةٌ
آخِرُ الْأَسْهَمِ فِي جُعْبَتِنَا فِي ذِيَادِ الْكُفْرِ عَنْ مَلَّتِنَا
غَرَسَ الْإِلْحَادَ فِينَا أَكْبَرُ فَنَمَا فِي طَبْعِ دَارِا يُزْهِرُ^(٢)
وَحَبَا فِي الصَّدْرِ مَصْبَاحُ الْفَوَاذِ وَبَدَتْ أَمْتِنَا رَهْنًا فُسَادُ
فَتَوَلَّى الْهِنْدَ فِي ذِي الْمَحْنَةِ زَاهِدٌ رَبُّ حَسَامٍ مُصْلَتِ
اجْتَبَاهُ الْحَقُّ لِلدِّينِ الْمَبِينِ اجْتَبَاهُ أَجَلَ تَجْدِيدِ الْيَقِينِ
أَحْرَقَ الْإِلْحَادَ مِنْ بَرْقِ الْحُسَامِ وَأَنَارَ الدِّينَ فِي هَذَا الظُّلَامِ
حَرَّفَ الْجُهَّالُ عَنْهُ مَا جَرَى فَكُرُّهُمْ عَنْ قَصْدِهِ قَدْ قَصَّرَا
كَانَ إِبْرَاهِيمُ بَيْتَ الصَّنَمِ فِي لَظَى الْحَقِّ فَرَاشًا يَرْتَمِي
كَانَ فِي الْأَمْلاكَ فَرْدًا خَيْرًا زَهْدُهُ مِنْ قَبْرِهِ قَدْ ظَهَرَ^(٣)

- (١) هو محيي الدين عالمكير الملقب أورنغ زيب ، أحد عظماء الملوك في دولة المغول في الهند ، وكان حريصاً على نشر الإسلام في الهند ملتزماً حدود الشرع ، حكم الهند من سنة ١٠٩٩ هـ إلى سنة ١١٤٨ هـ ، انظر ترجمته في « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للعلامة عبد الحي الحسني ، الجزء الثاني ، طبع دار ابن حزم بيروت .
- (٢) أكبر هو جلال الدين أكبر من أعظم سلاطين المغول في الهند ، حكم خمسين سنة ، وحاول أن يجمع بين الإسلام والأديان الأخرى في دين سماه الدين الإلهي ، وكان يتقرب إلى الهنادك ، ويرعى شعائهم . ودارا أخو عالمكير المذكور هنا .
- (٣) شاهجهان بن تاج محل لزوجته . فلما ولي عالمكير لم يبن لأبيه مزاراً بل دفنه بجانب زوجته في تاج محل . ثم بنى لنفسه قبراً صغيراً ساذجاً .

ذاكم المَلِكُ الفقير الجاهد
سار صباحاً مُوغلًا في غِيْضة
في نسيم الصبح نشوانَ خَطَرِ
وأمحى السلطانُ في شوق الصلاة
وأتى ليثٌ مهيبٌ فَتِكَ
شمَّ ريحَ الإنس بُعداً فدنا
فإذا الخنجر منه في اليد
لم يفرِّع قلبه بالبغْة
ثمَّ للحقِّ دعاه الوليُّ
مثل ذا القلب الذي لم يهنِ
إنما العبد أمامَ الحقِّ « لا »
أيها الغافل ! قلباً حصّلا
ابذلِ النَّفسَ تَنَلْهَا لا مفرَّ
أحرقنْ بالعشق خوفاً وانهدا
إنَّ خوفَ الله إيمانٌ جليّ

زينة العرش المليك الماجد^(١)
معه من جُنْدِهِ ذو ثقة
سامعاً تسبيح طيرٍ في الشجرِ
من مجاز حثَّ للحقِّ خطاه
صوته يرعد منه الفلكُ
وعلى السلطان أهوى البُرثنا
باقراً كالبرق بطنَ الأسد
خال ليث الغاب ليث الصُّورة^(٢)
في صلاة الوجد معراجٌ له^(٣)
داره بالحقِّ صدرُ المؤمن
وهو للزور « نعم » لن يبطلا^(٤)
هيئن للحبِّ هذا المحملا^(٥)
ذلَّ للحقِّ تنلَّ عزَّ الدَّهرِ
حملاً في الحق ليثاً للعدى
ثمَّ تقوى غيره شركٌ خفي

(١) زينة العرش لقب هذا السلطان (أورنك زيب) .

(٢) توهم الليث صورة ليث .

(٣) ثم دعاه الوجد إلى الصلاة مرةً أخرى .

(٤) العبد لدى مولاه يفنى ولكن يثبت في جهاد الباطل واللفظان العريَّان « لا » ، و « نعم »
في الأصل .

(٥) الألف في حصلا نون التوكيد الخفيفة .

الركن الثاني

الرسالة

تاركُ الآفل ، مِنْ قَبْلِ الْخَلِيلِ
إِنَّهُ لَهِ لِلَّهِ فِينَا آيَةً
﴿ طَهَّرَا بَيْتِي ﴾ إِلَيْهِ أَنْزَلَا
قَفْرَةً مِنْ أَجْلِنَا قَدْ عَمَّرَا
﴿ تَبَّ عَلَيْنَا ﴾ نَضَّرَتْ زَهْرَتَهَا
صَوَّرَ الرَّحْمَنُ مِنَّا هَيْكَلَا
أَحْرَفَا كُنَّا وَلَسْنَا كَلِمَا
بِالرِّسَالَاتِ بَدَا تَكْوِينُنَا
ذَاكَ مَنْ « يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يَرِيدُ »
حَلَقَةً ذَاتُ مُحِيطٍ يُعْجِزُ
نَحْنُ مَمَّا جَمَعْتَنَا أُمَّةُ
مَوْجُنَا فِي بَحْرَهَا مَتَّصِلُ
أُمَّةٌ فِي حَرَزِ سُورِ الْحَرَمِ

هُوَ لِلرُّسُلِ عَلَى النَّهْجِ دَلِيلُ
رُيِّتُ فِي قَلْبِهِ ذِي الْمَلَّةِ
بَعْدَ سَيْلٍ مِنْ دَمَوَعٍ سَيْلًا^(١)
وَبَنَى الْبَيْتَ الَّذِي قَدْ طَهَّرَا
فَنَمَتُ فِي أَرْضِنَا رَوْضَتُهَا^(٢)
وَحَبَاهُ الرُّوحَ مَمَّا أَنْزَلَا
فَتَأَلَّفْنَا كَيْتَ نَظْمَا
شَرَعْنَا مِنْهَا وَمِنْهَا دِينُنَا
حَلَقَةً مِنْهَا حَوَالِينَا يَشِيدُ^(٣)
سَاحَةً الْبَطْحَاءِ فِيهَا مَرْكَزُ^(٤)
أُرْسَلْتُ لِلنَّاسِ فِيهَا الرَّحْمَةُ
مَوْجَةٌ مِنْ مَوْجَةٍ لَا تُفْصَلُ
فِي حِفَاظٍ مِثْلَ أَسَدِ الْأَجْمِ^(٥)

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

(٢) إشارة إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج : ١٦] .

(٤) بطحاء مكة .

(٥) إشارة إلى بيت البردة :

أحلَّ أمته في حرز ملته كالليث حلَّ مع الأشبال في أجم =

إِنْ تَحَقَّقَ مَعْنَاً فِي كَلِمِي
فَالنَّبِيُّ الرُّوحُ فِينَا وَالْعَصَبُ
سِفْرُهُ فِي الْقَلْبِ نَبْعُ الْقُوَّةِ
قَطْعُ حَبْلِ مِنْهُ لِلْمَوْتِ رَدِيفُ
حَيَاتِ الْأُمَّةِ مِنْ تَرِيقِهِ
وَحَدَّ الْمُرْسَلُ فِينَا النِّعْمَا
كَثْرَةُ الْأَلْفِ عَيْنِ الْوَحْدَةِ
وَحَدَّةُ الْقَصْدِ حَيَاةُ الْكَثْرَةِ
عَلَّمَ الْفَطْرَةَ خَيْرُ الرُّسُلِ
بِحَرْهُ أَخْرَجَ هَذَا الْجَوْهَرَ
هَذِهِ الْوَحْدَةُ مَا لَمْ تَفْقَدْ
خَتَمَ اللَّهِ عَلَيْنَا شِرْعَتَهُ
مَحْفَلُ الْأَيَّامِ مِنْهَا يَبْسُمُ
خِدْمَةُ السَّاقِي إِلَيْنَا صَرْفَا
« لَا نَبِيَّ بَعْدُ » فَضْلٌ عُرفَا
إِنَّهُ قُوَّةٌ هَذَا الْمَلَّةُ
كُلُّ دَعْوَى بَعْدَهَا لِلْأَفْنِ
مَا سِوَى الْحَقِّ قِلَاهُ الْمُسْلِمُ

(١) الكثرة المؤتلفة هي في الحقيقة وحدة لا كثرة . وإذا اتلفت الكثرة فاتحدت نشأت الأمة .

(٢) في حاشية الأصل بيت من البردة :

لما دعا الله داعيننا لطاعته بأكرم الرسل كنّا أكرم الأمم

(٣) لا نبي بعدي فضل من الله على هذه الأمة . ومكانة الإسلام من هذا .

نظرة الصّدِّيق ربّ الفهم
وإلى القلب من الربّ أحبّ
شَرَعُهُ حَبْلٌ وَرِيدِ الْأُمَّةِ
كَذْبُولُ الْوَرْدِ فِي رِيحِ الْخَرِيفِ
صُبْحُهَا نَوَّرَ مِنْ إِشْرَاقِهِ
وَالطَّوَايَا وَالْمُنَى وَالْأَلْمَا
وَمِنْ الْوَحْدَةِ نَشَأُ الْأُمَّةُ^(١)
مَقْصَدُ الْمُسْلِمِ دِينُ الْفَطْرَةِ
فَمُضِينَا لِلْهُدَى كَالشُّعْلِ
نَحْنُ رُوحٌ وَاحِدٌ مِنْهُ سَرَى
تَحْفَظُ الْمُسْلِمَ حَتَّى الْأَبَدِ
وَعَلَى الْمُرْسَلِ فِينَا بَعَثَتُهُ^(٢)
خَتَمَ الرُّسُلِ بِنَا وَالْأُمَمِ
جَامَعَهُ الْآخِرَ فِينَا خَلْفَا
إِنَّهُ حَرَمَةٌ دِينِ الْمِصْطَفَى^(٣)
إِنَّهُ سِرُّ اتِّحَادِ الْأُمَّةِ
أَحْكَمَ الْإِسْلَامِ طَوْلَ الزَّمَنِ
قَائِلًا : « لَا قَوْمَ بَعْدِي » فَاعْلَمُوا

في بيان أنَّ مقصود الرسالة المحمدية تمكين الحرّية والمساواة والأخوة بين البشر

عبد الإنسانُ أصنامَ البَشَرِ قيصِرُ العَسْفِ وكِسرى قَيِّدا
ومن القسّيس والمَلِك طِلابُ نصب الأَشْرَاقَ لِلصَّيْدِ الضَّرْعِ
حقله قد عاث فيه البَرْهَمُنُ أضعفَ الرِّقُّ لَدَيْهِ الهِمَمَا
فهو في عُذْمٍ وذلٍّ محتقر بخرَاجِ الحَقْلِ ، والحَقْلُ خرابُ
منه جيداً ثمَّ رجلاً ويداً بائعُ الجَنَّةِ أُسْقِفَ الخُدَعِ
ومجوسٌ أحرقت ما قد خزنُ لَحْنُهُ في عودِه سالَ دِما

وأميناً بعث المولى به رفعَ العُبدانَ بِالْحَقِّ إلى
بثٍّ في بَرْدِ الرَّمَادِ الشُّعْلَا سلب السُّلطانَ حِزْبَ الأَمْرِينِ
عزمُه هدَّ قديماتِ الصُّورِ بثَّ روحاً حَيَّتِ الموتى بها
مولدٌ مات به العصر القديم أزهرَ التحريُّرُ في روضتِه
عصرنا اللآلَاءِ في أنواره خطٌّ في العالمِ سَطِراً مُبدَعَا

(١) برويز ملك عظيم من ملوك الفرس . وفرهاد مهندس فارسيّ له مع برويز وجاريته
شيرين رائعة في الأدب الفارسي .

(٢) المدنية الحاضرة من آثار البعثة الإسلامية فهذا العصر جاء إلى الوجود في حبرها .

صدرُها من وَقْدَةِ الحقِّ أضواء
أشرق الكون بها إذ يبتنى
ولدتها الأنبياء القُدم
إخوةٌ فيها جميعُ المؤمنين^(١)
المساواة لديها فطرة
نسلها كالسَّرو حرٌّ قد علا
سجدة الحقِّ بسماها غرر
ذرةٌ منها أنارت في ذكاء
كعباتٍ من بيوت الوثن
فإذا الأتقى لديها الأكرم
طينها حريّةٌ في العالمين
ومن التمييز فيها نفرة
عهدا أحكم من ﴿ قالوا بلى ﴾^(٢)
قَبْلَ النجمِ ثراها والقمر

قصة

أبي عبيد وجابان

في معنى الأخوة الإسلامية^(٣)

مُسلمٌ في حومة الحرب أسر
قائدٌ ربُّ خداعٍ مأكُر
لم يعرف أسريه باسمه
قال للأسر : يا ذا الكرم
وضع الجندي في الغمد الحسام
وخبث في الحرب نيران العجم
فإذا المأسور جابان الكبير
قائداً من جيش كسرى ذا خطر
عجم الأيام ذئب غادر
أو يحدث أحداً عن اسمه
أمنّي . ذاك شأن المسلم
معلننا أن دمك اليوم حرام
وهوى من آل ساسان العلم
قائدٌ في جند إيران أمير

- (١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .
(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .
(٣) أبو عبيدة الثقفي : أحد قواد المسلمين في فتح العراق ، وجابان : قائد فارسي .

أقبل الجند بصوتٍ قارِع
بُو عبيدٍ قائد العُزْب الأبِي
قال يا قوم : ألسنا المسلمين
من أبي ذرٍّ علث أو حيدر
كلُّ جنديٍّ أمينُ المَلَّةِ
إنَّ جابانَ عدوٌّ غَشِمُ
دُمُه اليوم عليكم حُرِّمًا
يسأل القائد قتل الخادع
عزمُه في الحرب عن جيش غنيٍّ^(١)
نغمةً واحدةً في العالمين
من بلالٍ سُمعتُ أو قنبرٍ^(٢)
صلحُه والحربُ عهدُ الأُمَّةِ
لكن الأمنَ حباه مسلمُ
أمة المختار ! أوفوا الذُّمما

قصة

السلطان مراد والعمَّار^(٣)

في معنى المساواة الإسلامية

أخرجت أرضُ خُجندٍ صانعاً
صانعاً فرهادُ حقاً ولداً
غضب السلطان من تقصيره
قدحت عينُ المليك الشررا
سار للقاضي حزيناً يجار
قال : يا مَنْ قولُه الحقُّ المبين !
نال في التشيد صيتاً ذائعاً
لمراد مسجداً قد شيداً^(٤)
لم يرَ الإِتقانَ في تعميره
ويد المسكين فوراً بترا
دُمُه من يده يَنهَمِرُ
يا حفيظاً شرعَ خيرِ المرسلين !

(١) بو عبيد هكذا جاءت في الأصل واقتضى الوزن وذكر الاسم إبقاءها كما جاءت .

(٢) الحيدر : علي بن أبي طالب وقنبر خادمه . يعني : أن نغمة ينطق بها بلال ، أو قنبر

هي نغمة علي وأبي ذر . سواء فيها الكبير والصغير ، والسيد والمولى .

(٣) مراد : أحد أمراء خوقند في تركستان في القرن الثالث عشر الهجري .

(٤) فرهاد مهندس له قصة رائعة معروفة في الأدب الفارسي .

لستُ للسلطان عبداً فاستمع
 قرعَ الحاكم سنَّ المبلِسِ
 فأتى السلطانُ يخشى ذنبه
 عينُه من خجلٍ للقدمِ
 وقفَ الخصمان : خصمٌ يشتكي
 جَهرَ السلطان : إنِّي نادمُ
 وتلا القاضي : « حياةٌ في القصاصِ »
 ليس دون الحرِّ عبدٌ مسلمُ
 سمعَ القرآنُ يُملِي حكمه
 إذ رأى الخصمُ الذي قد فعلا
 قائلاً : « الله أعفو وكفى
 نملةٌ عزَّت سليمان القوي
 جمعَ القرآنُ مولى وفتاه
 حَكَمَ القرآنُ فينا واقطع^(١)
 ودعا السلطانُ نحو المجلسِ
 هيبَةُ القرآنِ تُدمي قلبه
 وعلى خديهِ لونُ النَّدَمِ
 وخصيمٌ في ثياب الملكِ
 لا أرُدُّ الحقَّ إنِّي جارمُ
 ذاك قانونُ حياةٍ . لا مناص
 وحَّدَ المعمارَ والمَلِكُ دمُ
 فنضاً السلطانُ فوراً كمَّه^(٢)
 آيةٌ « الإحسان والعدل » تلا^(٣)
 إنني أعفو لأجل المصطفى
 انظرن سطوة قانون النبي
 وذوي التيجان سوى بالرعاء

في بيان أنَّ الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد فلا تحدُّها الأمكنة

قلبنا الخفَّاق يأبى مَوطِناً رِيحُهُ العاصفُ تأبى مسكناً^(٤)

(١) اقطع يد السلطان قصاصاً .

(٢) شمَّر كمَّه استعداداً لقطع يده .

(٣) آية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] اقطع عدلاً ؛ والعفو إحسان .

(٤) حذف قبل هذا أبيات فيها حديث وقعة كربلاء .

لَيْسَ مِنْ هِنْدٍ وَرُومٍ قَلْبُنَا
كَعْبُ الشَّاعِرُ فِي خَيْرِ الْعِبَادِ
نَظَّمَ الدُّرَّ مَنِيرًا فِي ثَنَاهِ
مَنْ عَلَى الْأَفلاكِ فِيهِ رَفْعَةٌ
قَالَ : سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ قُلٌّ
وَكَذَا كَمْ قَالَ ذُو الْقَدْرِ الْعَلِيِّ
لِي مِنْ دُنْيَاكُمْ قَدْ حُبِّبَا
إِنْ تَكُنْ سِرًّا الْمَعَانِي تَعْلَمُ
كَانَ فِي الدُّنْيَا وَفِيهَا مَا سَكَنُ
مِنْ سَنَاهِ قَدْ تَجَلَّى الْعَالَمُ
لَسْتُ أَدْرِي مَا حِمَاهُ وَالْوَطَنُ
قَدْ رَأَى فِي أَرْضِنَا دُنْيَا لَنَا
إِذْ أَضَعْنَا الْقَلْبَ فِي هَذَا الْيَبَابِ
لَا تَحُدُّ الْأَرْضُ قَلْبَ الْمُسْلِمِ
لَيْسَ لِلْمُسْلِمِ فِي الْأَرْضِ عَظَنُ

مَا سِوَى الْإِسْلَامِ فِيهِ أَرْضُنَا
أَنْشُدُ الْمَدْحَةَ مِنْ « بَانَتْ سَعَادُ »^(١)
مِنْ سَيُوفِ الْهِنْدِ سَيْفًا قَدْ دَعَاهُ^(٢)
لَمْ تَرْقُهُ لِبِلَادٍ نَسْبَةٌ
يَا نَصِيرَ الْحَقِّ زُورًا لَا تَقُلْ
مِنْ سَنَاهِ كَحُلِّ عَيْنِ الرُّسُلِ :
بَعْضُ مَا فِيهَا حَلَالًا طَيِّبًا^(٣)
فَافْهَمِ النُّكْتَةَ فِي « دُنْيَاكُمْ »
ذَلِكَ الْمَشْرِقُ فِي لَيْلِ الزَّمَنِ
مُشْرِقًا إِذْ كَانَ طِينًا آدَمُ
أَنَا دَارٍ أَنَّهُ فِينَا سَكَنُ^(٤)
وَهُوَ فِي الدُّنْيَا كَضِيفٍ بَيْنَنَا
وَفَقَدْنَا النَّفْسَ فِي هَذَا التَّرَابِ
لَا يُرَى فِي تَيْهِ « أَنْتَى وَكَمْ »^(٥)
حَائِزٌ فِي قَلْبِهِ كُلُّ وَطَنٍ^(٦)

(١) كعب بن زهير الذي مدح الرسول بالقصيدة المعروفة : بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .

(٢) إشارة إلى البيت :

إِنَّ الرُّسُولَ لَسَيْفٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سَيُوفِ الْهِنْدِ مَسْلُوكُ

(٣) إشارة إلى الحديث : « حُبَّ إِلِي مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ . . . » إلخ . لم يقل الرسول من دنياي ، أو دنيانا بل قال : دنياكم .

(٤) سَكَنَ الْإِنْسَانُ : مَنْ يَسْكُنُ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ ، أَوْ صَدِيقٍ .

(٥) لَا يَتِيهِ فِي عَالَمِ الْعُلَلِ وَالْمَقَادِيرِ .

(٦) يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ فِي دِيْوَانِ ضَرْبِ الْكَلِيمِ :

إِنَّمَا الْكَافِرُ حَيْرَانٌ لَهْ الْأَفَاقُ تَيْهِهِ
وَأَرَى الْمُؤْمِنَ كَسُونًا تَاهَتْ الْأَفَاقُ فِيهِ =

حَصَّلَ الْقَلْبَ فِي وَسْعَتِهِ
عَقْدَةَ الْأَقْوَاتِ حَلَّ الْمُسْلِمُ
أُمَّةً مَلَأَ الدُّنْيَا قَدْ أَسَّسَا
صَارَتْ الْأَرْضُ لَدِينَا مَسْجِدًا
ذَلِكَ الْمَحْمُودُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ
تَفَزَّعُ الْأَعْدَاءُ مِنْ هَيْبَتِهِ
فَلَمَّاذَا أَرْضَ أَهْلِيهِ هَجَزَ؟
حَجَبَ الْقَصَاصُ مَعْنَى الْقِصَّةِ
هَجَرَةً شَرَعُ حَيَاةِ الْمُسْلِمِ
إِنَّهَا التَّسْيَارُ نَحْوَ الْوُسْعَةِ
أَهْجَرَ الزَّهْرَةَ أَجَلَ الرُّوضَةِ
شَرَفُ الشَّمْسِ مَسِيرٌ مُطْلَقٌ
لَا تَكُنْ نَهْرًا مِنَ الشَّخْبِ يُمَدِّ
أَقْصَدَنْ تَسْخِيرَ كُلِّ الْعَالَمِ
لَا يَقِيدُكَ مُقَامٌ فِي الْبُورَى
كُلُّ مَنْ حُرِّرَ مِنْ ذُلِّ الْجِهَاتِ
تَرَكَ السُّورَ شَذَاهُ فَسَرَى
يَا أَسِيرًا قَدْ ثَوَى فِي رَوْضَةٍ
سَيَّرَنْ نَفْسَكَ حَرًّا كَالصَّبَا

ضَلَّ هَذَا الْكَوْنُ فِي فُسْحَتِهِ
هَجَرَ الدَّارَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ^(١)
جَعَلَ التَّوْحِيدَ فِيهَا أُسًّا
إِذَا أَشَاعَ الْفَضْلَ فِينَا وَهَدَى
ذَلِكَ الْمَحْفُوظُ بِاللَّهِ الرَّحِيمِ
فِي ارْتِعَادٍ مِنْ سَنَا طَلْعَتِهِ
أَتَرَاهُ خَشْيَةَ الْأَعْدَاءِ فَرَّ؟
غَلَطُوا فِي فَهْمِ مَعْنَى الْهَجَرَةِ
هَجَرَةً سَرُّ ثَبَاتِ الْمُسْلِمِ
وَلَأَجَلَ الْيَمِّ تَرَكَ الْقَطْرَةَ^(٢)
إِنَّ هَذَا الْخَسِرَ رِبْحُ الْكَثْرَةِ
فِيهِ مَنْ فَوْقَ الْبِرَايَا تَخَفُّقُ
وَكُنَ الْبَحْرَ ، عُجَابًا لَا يُحَدِّ
لُتَرَى سُلْطَانُ أَهْلِ الْعَالَمِ
وَكُنَ الْحَوْتَ يَسِيحُ الْأَبْحُرَا
فَلَكَ يُزْهِرُ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ
فِي فَسِيحِ الْمَرْجِ عِطْرًا نَشْرَا
عَنْدَلِيًّا هَائِمًا فِي وَرْدَةٍ!
ثُمَّ عَانَقَ كُلَّ أَزْهَارِ الرُّبَى

= يعني : أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم ، بل يسخرها كما يشاء .

(١) الإمام الأعظم رسول الله ﷺ .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا؟ ﴾ [النساء : ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي ييسر فيه أداء الواجب .

احذرن من خدعة العصر الجديد التباس النهج حاذر يا رشيد

في بيان أن الوطن ليس أساس الأمة

قَطَّعُوا الأرحام بين الإخوة
قَدَّسُوا الأوطان إعجاباً بها
طلبوا الجنة في « بئس القرار »
محق الجنة هذا الشجرُ
أنكر الإنسان وجه الإخوة
ذهب الإنسان روحاً وانقضى
منصب الدين حواه الساسة
دين عيسى بطلت قصته
عجز الأسقف عن تقديره
قوم عيسى حقروا بيعته
مزق الدهري ثوب المذهب
ذا الفلورنسي عبد الوثن
خط للأملاك سفيراً منكراً
مزق الحق بحد القلم
آزر العصر ، بدا تزويره
جعل الملك إلهاً دينه

صَيَّرُوا الأوطان أسَّ الأمة
قَسَّمُوا الإنسان أسراباً بها
« فأحلُّوا قومهم دار البواز »^(١)
ليس إلا الحرب فيه ثمرُ
وانتهت قصة الإنسانية
بقيت أقوامه وهو مَضَى
فنمت في الغرب هذي الآفة
وخبث في دوره شعلته
حادث الألام عن تديره
أبطلوا في سوقهم سكتته
ومن الشيطان قد وافى نبي
كحله أودى بنور الأعين^(٢)
وبذور الحرب فينا بذرا
فطرة تؤثر عيش الظلم
خطئة بدعاً جلا تفكيره
كل قبح ناله تحسُّنه

(١) اقتباس من القرآن جاء في الأصل .

(٢) الفلورنسي : ميكافلي ، مؤلف كتاب الأمير الذي أحل للملوك كل وسيلة تبلغ بهم الغاية .

جعل النفع عيارَ الذَّمِّ حينما خَرَّ لهذا الصَّنمِ^(١)
صارت الحيلةُ فنّاً مُحكما ونما الباطلُ ممّا علّما
خطّةٌ لِلوَهْنِ فينا حبّكا في طريقِ الدَّهرِ ألقى حَسْكا
أرمدَ النَّاسَ بهذي الحكمة إذ دعا التزويرَ بالمصلحة

في بيان أنَّ الأمة المحمدية ليس لها حدودٌ زمنيّةٌ أيضاً

أرأيتَ الطَّيرَ في عُرْسِ الربيع وهياجَ الكِمْ والوَزْدَ اليَنِيعِ
وعَروسُ الزَّهرِ نشوى النِّعمِ وعلى الأرضِ قُرىٌ منْ أنجمِ
غَسَلِ العُشْبَ دموعُ السَّخَرِ وشدا الماءُ لنومِ النَّهْرِ
وإذا الكِمْ على الغصنِ رَبا منحته حِجرَها ريحُ الصِّبا
دَمِيَ البرعومُ مِنْ قُطْفَتِهِ ومضى كالرَّيحِ عن روضته^(٢)
عَشَّشَ الوُزْقَ وطار البلبُلُ وشذاً فرَّ وطلَّ ينزلُ^(٣)
ليس يُكرى من ربيعِ رونقِ حين تذكوي زهراتِ تعبِقُ
محفلِ الأزهارِ باقٍ يضحك لا يُبالي كنزُه ما يُهلك
موسمِ الأزهارِ أبقي في الدَّهرِ هو أبقي من وروِدِ وزهر^(٤)
لا يبالي جوهراً قد كُسرَا معدنُ يُنمي ويُبدى الجوهرا
كم شروقٍ وغروبٍ ، لا مقرَّ ! أكؤسٌ تؤخذُ من دَنِّ الدَّهرِ

(١) الصنم : الملك .

(٢) الريح : الرائحة .

(٣) تذهب طير وتجيء أخرى ، وتسير الرائحة وينزل الندى . فالروضة باقية على تبدل ما فيها .

(٤) موسم الزهر أبقي من آحاد الزهر . فالزهرة تذبل ، والموسم يدوم .

تذهب الآماس والباقي الغد^(١)
 من مسير الغد سيَّار القدم
 يرحل الفرد وتبقى الأمة^(٢)
 ثم ذات وصفات آخر
 تولد الأمة من قلب جليل
 ويعيش الفرد عشرات سنين
 وحياة الشعب في حفظ السنن
 موت قوم ترك قصد للحياه

خمرة من شربها لا تنفد
 ثابت في الدهر تقدير الأمم
 يسفر الخلل وتبقى الصُّحبة
 ولها عيش وموت آخر
 ينشأ الفرد من الطين القليل
 نفس الأمة يُحصى بالمئين
 وحياة الفرد روح في بدن
 موت فرد نضب ورد للحياه

ولها يوماً قضاءً يُحتَم
 أصلها الميثاق في ﴿قالوا: بلى﴾^(٣)
 ﴿نحن نزلنا﴾ لديها حجة^(٤)
 بدوام الذكر دام الذَّاكر^(٥)
 قال ربي عالماً: ﴿أن يطفئوا﴾^(٦)
 أمة يغشُّها أهلُ القلوب^(٧)

كممات الفرد تفنى الأمم
 أمة الإسلام تأبى أجلا
 لا تخاف الموت هذي الأمة
 دام ذكر ما أقام الذَّاكر
 ذلك المصباح أنى يُطفأ؟
 أمة الحق إلى الحق تُنب

(١) الآماس : جمع أمس .

(٢) يسفر ، أي : يُسافر .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ﴾ [الأعراف : ١٧٢] يعني : أنها قائمة على عقيدة أزلية عامة خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة .

(٤) إشارة إلى الآية : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

(٥) المعنى : إن كان الذكر محفوظاً فلا بد أن يدوم الذَّاكر ، فلا ذكر بدون ذاكر .

(٦) الآية : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٣٢] .

(٧) إلى الحق تنيب : الحق هنا الله تعالى .

مُضِلَّتْ بِالْحَقِّ ذَا السَّيْفِ الصَّقِيلِ مُضِلَّتْ مِنْ غَمْدِ آمَالِ الْخَلِيلِ^(١)
 مَا سَوَى الْحَقِّ مَحَاهُ بَرْقُهُ لِيَعِيدَ الْحَقُّ حَيًّا نَطَقُهُ
 نَحْنُ لِلتَّوْحِيدِ أَقْوَى حُجَّةِ لِلْكِتَابِ اخْتَارْنَا وَالْحِكْمَةِ^(٢)

أَضْمَرَ الدَّهْرُ عَلَيْنَا ثَارَهُ مَخْفِيًّا فِي صَدْرِهِ تَاتَارَهُ
 أَطْلَقَ الْفِتْنَةَ مِنْ أَحْبَالِهَا وَرَمَى بِالطَّوْدِ مِنْ أَثْقَالِهَا
 فِتْنَةٌ مَوْطِئُهَا هَامُ الْأُمَمِ نَظْرَةٌ مِنْ طَرْفِهَا قَتْلُ عَمَمِ
 أَنْفُ هَوْلِ فِي حِشَاهَا يَرْقُدُ لَيْسَ لِلْأُمَسِ بِمَثْوَاهَا غَدُ
 سَطْوَةُ الْإِسْلَامِ لِلتَّارِبِ هَوَتْ مَا رَأَتْ بَغْدَادُ رُومًا مَا رَأَتْ
 لَكِنْ اسْأَلْ ذَلِكَ الدَّهْرَ الْمُلِيمَ مُحَدَّثَ الْأَفْعَالِ ذَا الْمَكْرِ الْقَدِيمِ
 رَوْضُنَا كَانَ لَهَيْبِ التَّارِ حَلَيْنَا كَانَ نِثَارُ الشَّرِّ^(٣)
 فَلِإِبْرَاهِيمَ فِينَا فَطْرَةٌ وَإِلَى الْمَوْلَى لَدِينَا نَسَبَةٌ
 مِنْ لَهَيْبِ قَدْ جَنِينَا زَهْرًا نَارَ نَمْرُودٍ رَدَدْنَا كَوْثَرًا
 كُلُّ نَارٍ يَوْقَدُ الدَّهْرُ لَنَا زَهْرَاتٌ حِينَ تَأْتِي رَوْضُنَا

ذَهَبَ الرُّومُ وَفُضَّ الْمَوْكِبُ شَرْقُهَا أَقْوَى وَأَقْوَى الْمَغْرِبُ
 كَأْسُ سَاسَانَ مِنَ الْغَمِّ دَمٌ حَانَ يُونَانَ خَرَابٌ مُظْلَمٌ^(٤)

(١) إبراهيم الخليل : كان يأمل أن تخرج من ذريته أمةٌ موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

(٣) يعني : كانت نار التتر علينا برداً وسلاماً ، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم .

(٤) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي =

وَعَنْتَ مِضْرُ لِدَهْرِ عَرَمٍ وَثَوْتُ أَعْظُمُهَا فِي الْهَرَمِ
وَأَذَانُ الْحَقِّ فِينَا خَلَدًا أُمَّةُ الْإِسْلَامِ تَبْقَى أَبَدًا
إِنَّ لِلْكَوْنِ مِنَ الْعِشْقِ حَيَاةَ وَبِهِ أَجْزَاؤُهُ شَدَّتْ قُؤَاةَ
أَحْيَتِ الْعِشْقَ قُلُوبٌ تُسَعِّرُ شَبَّهَهَا مِنْ « لَا إِلَهَ » الشَّرَرُ^(١)
إِنْ نَكُنْ كَالَكُمْ نُطْوِي كَمَدًا فَرَدَانَا فِيهِ لِلرَّوْضِ رَدَى^(٢)

في بيان أنَّ الأمة لا تنتظم بغير شريعة وشريعة الأمة المحمدية القرآن

أُمَّةٌ خَلَّتْ يَدَاهَا السُّنَنَا كَكَثِيبٍ مِنْ رِمَالٍ وَهَنَا
سِيرَةُ الْمُسْلِمِ شَرَعٌ وَكَفَى ذَلُّكُمْ بَاطِنُ دِينِ الْمُضْطَفَى
بِانْتِظَامِ الصَّوْتِ تَعْلُو النِّغْمَةُ وَهِيَ مِنْ دُونِ نِظَامِ ضَجَّةٍ
إِنَّمَا فِي الْحَلْقِ مَوْجٌ مِنْ هَوَاءِ يَعْلَقُ النَّظْمُ بِهِ فَهُوَ غِنَاءُ
صَاحٍ هَلْ تَعْلَمُ مَا سُنْتُكَ؟ أَيُّ سِرٍّ ضَمَنْتَ قَدْرَتُكَ؟
الْكِتَابُ الْحَيُّ وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ حَكْمَةٌ فِي الدَّهْرِ تَبْقَى لَا تَرِيمُ
إِنَّ فِيهِ سِرٌّ تَكْوِينِ الْحَيَاةِ يَسْتَمِدُّ النِّكْسُ أَيْدَا مِنْ قُؤَاةِ
لَفْظُهُ لَا رَيْبَ أَوْ تَبْدِيلَ فِيهِ آيَةٌ لَا لَبْسَ أَوْ تَأْوِيلَ فِيهِ
قِسْوَةٌ فِيهِ تَشْدُّ الْخَوْرَا وَبِهَا يَرْمِي الزَّجَاجُ الْحَجْرَا

= حتى ظهور الإسلام .

(١) يعني : أنَّ الأمة الإسلامية تبقى بما في قلوبها من الوجد والهيام والإقدام على العمل وهذا العشق حياة العالم .

(٢) إن كنا في ضيق وغم منظوين ككم الزهرة فحياة هذه الروضة ، هذا العالم ، رهن بحياتنا إن متنا ماتت .

قَطَعَ الْأَشْرَاكَ عَنْ صَيْدٍ كَسِيرٍ
 ذَا بِلَاغٍ آخِرٍ لِلْمُرْسَلِينَ
 تَرْفَعُ الْخَامِلَ فِيهِ رَفْعَةٌ
 قَاطِعُو الطَّرِيقِ هِدَاةً صُيِّرُوا
 وَالْبَوَادِي مِنْ سِرَاجٍ زَهْرَا
 الَّذِي يُصَدِّعُ مِنْهُ الْجِبِلُ
 ذَلِكَ الْيَنْبُوعُ مِنْ أَمَالِنَا
 انْظُرِ الظَّمَانَ فِي حَرِّ الْقَفَازِ
 عَنُوسُهُ كَالظَّبْيِ فِي تَعْدَائِهَا
 طَائِفُ الصَّحَرَاءِ يَأْبَى الْجُدْرَا
 خَفَقَتْ فِي قَلْبِهِ هَذِي السُّوَرُ
 قَرَأَ الدَّرْسَ مِنْ الْآيِ الْمَبِينِ
 حَكَمَ الدُّنْيَا جَمِيعاً عَدْلُهُ
 مُدْنِياً قَدْ شَيْدَتْ هَبْوَتُهُ

فَدَعَا الصَّيَّادُ مِنْهُ بِالثُّبُورِ
 قَدْ تَلَاهُ « رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »
 وَتَقَيَّمُ الرُّأْسَ مِنْهُ سَجْدَةً
 مِنْ كِتَابٍ ، كَمْ كِتَابٍ سَطَّرُوا
 قَدْ أَضَاءُوا بِالْعُلُومِ الْفِكْرَا^(١)
 وَعَلَى الْأَفْلَاكِ مِنْهُ وَجَلُ^(٢)
 قَدْ حَوَاهِ الصَّدْرُ مِنْ أَطْفَالِنَا
 عَيْنُهُ حَمْرَاءُ مِنْ وَقْدِ النَّهَارِ
 دُمُهَا كَالنَّارِ فِي رَمَضَائِهَا
 ضَارِبٌ فِي الْبَيْدِ يَقْلِي الْحَضْرَا
 فَاسْتَقَرَّ الْمَوْجُ فِيهِ كَالدُّرَرِ^(٣)
 فَعَدَا بِالْحَقِّ حَرّاً لَا يَمِينُ
 عَرُشَ جَمٍّ وَطُتُّهُ رَجُلُهُ^(٤)
 وَرِيَاضاً أُنبِتَتْ زَهْرَتُهُ^(٥)

إِنَّ إِيْمَانَكَ فِي قَيْدِ الرُّسُومِ
 أَمْرُكُمْ قَطَعْتُمْ فَهُوَ « زُبُر »

سَنَنْ الْكُفْرَ لَكَ السَّجْنُ الْمَقِيمُ
 مُسْرِعِي السَّيْرِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرُ^(٦)

(١) زهر السراج : أضواء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

(٣) سكن اضطرابه واطمأن ، موجه الثائر سكن واستقر كالدرة في الماء .

(٤) جم : جمشيد أحد ملوك الفرس القدماء .

(٥) الهبوة : الغبار الذي يثور في الحرب ، أو سير الأرجل الكثيرة ، ونحوها .

(٦) إشارة إلى الآيتين : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون : ٥٣] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ »

سَكِرَ الصُّوفِيُّ مِنْ أَحْوَالِهِ وانتشى باللحن من قوَّاله^(١)
 قلبه شعرَ العراقيِّ تلا ومن القرآن أقوى وخلا^(٢)
 تاجه والعرش صوفٌ وحصير فقره يجبي رباطاً للفقير^(٣)
 وأخو الوعظ جُزافاً قائلُ كليمٌ عالٍ ، ومعنى سافلُ
 قولُه من ديلمِي وخطيب فعله حلف ضعيفٍ وغريب^(٤)
 لكتاب الله حقٌ . فاقْرَأْ كلَّ ما تبغيه منه فاطْلُبْ^(٥)

في بيان أنَّ التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد

عصرنا هذا مليءٌ بالفتن طبعه خلقٌ شرورٍ ومحنُ
 محفلُ الماضين فيه مقفر صوِّحت فيه حياةٌ تنضُرُ
 أنكرت أنفسنا أنظارنا وجفَّت نغمتها أوتارنا
 شعلةُ التوحيد فينا سلبا ناره والنُّور منَّا سلبا
 وإذا ما اعتلَّ تقويم الحياه فمن التقليد للقوم نجاه
 سننُ الآباء حبلُ الملَّة ومن التقليد جمعُ الأُمَّة
 يا خليّاً في خريفٍ من ثمر ارقب الغيث ولا تجفُ الشَّجر^(٥)

= [٦ : القمر] .

- (١) القوَّال : منشد القصائد الدينية ، وهو معروف بهذا الاسم في إيران والهند .
- (٢) العراقي : شاعرٌ صوفيٌّ فارسيٌّ .
- (٣) يعني : أنه يأخذ مالا من الفقراء المقيمين في الأربطة .
- (٤) الديلمي والخطيب من رواة حديث الضعفاء . والضعيف والغريب من أنواع الحديث .
 بين الشاعر أنهم تتبعوا المحدثين غير الثقات والأحاديث غير الصحيحة يستدلون على أقوالهم وأفعالهم .
- (٥) يعني : يجب الاستمسك بسنن الآباء حتى تعود للأمة سيرتها . كما ينتظر صاحب =

قد حُرِمْتَ البحرَ فاذا ذكر خُسَرَكَ
 فعسى سَيْلُ الجبالِ الهادرُ
 حالُ إسرائيلَ فيها تَبَصَّرَه
 انظرونَ كيف ابتلاها الزَّمَنُ
 وجهُها في كلِّ حينٍ يُلَطِّمُ
 عصرتْ عنقودَها كَفُّ الخُطوبِ
 إنَّ خبا في اللَّحْن منها قَبَسُ
 سار في إثر الجدود المحملُ
 يا من انفض له جمعٌ وجاه
 آيةَ التوحيد في القلب اسطُرا
 اجتهداً في زمان القهقري
 اقتداءً برسومِ الأولين
 لم يُصَبِّ أباًؤنا بالهَوسِ
 فكُرُّهُم كان رقيقاً مرهفاً
 فَكَّرُ الرازي ونجوى جعفر
 ضَيِّق الدينُ علينا يسره
 قد جهلت الدين عنه حائداً
 باخ لي بالسِرِّ نَبَّاضُ الحياه
 وحدهُ الشرع حياةُ الأمة
 نحن طينٌ وهو قلبٌ لا جَرَمُ

يا قليلَ الماءِ واحفظْ نهرَكَ^(١)
 منه في مجراك لَجْجٌ زاخِرُ
 إنَّ تكنَ روحُك روحاً مُبَصَّرَه
 وَعَرَّتْها في الخطوبِ المِخَنُ
 كاذَ في أعراقها يَفْنَى الدَّمُ
 ذكُرُ هارونَ وموسى في القلوبِ
 لم يزل في الصَّدر منها نَفْسُ
 حينما انفضَّ لديها المَحْفَلُ
 وخبا في صدره شمعُ الحياه
 ومنَ التقليدِ أمسك بالعُرا
 يذهبُ الأقوامَ منه شذرا
 هو أولى ، لا اجتهد الغافلين
 طُهِرَتْ أعمالُهم كالأنفُسِ
 فعلهم أوفى بشرعِ المصطفى
 أينَ ؟ والعُربُ هداةُ البشرِ
 وادَّعى كلُّ لثيم سِرَّه
 الزَّمَنُ يا حُرُّ نهجاً واحداً
 إنَّما في الخلف مقراضُ الحياه^(٢)
 فمن القرآن روحُ المَلَّةِ
 هو « حبلُ الله » من شاء اعتصم

= الشجر أيام الخريف إيقاقه وإثماره في الربيع ، ولا يقطعه أو يهمله .

(١) إن قلَّ الماء في نهرك فاحتفظ بالنهر عسى أن تأتيه السيول بالماء فيزخر مرةً أخرى .

(٢) كلمتا نَبَّاض ومقراض في الأصل .

فانتظم في سلكه كالذرر أو غباراً في الرّيح انتشر

في بيان أنّ كمال سيرة الأُمَّة من اتّباع الشّرع الإلهي

لا تقل في الشّرع معنّى مُضمّر
جوهرٌ أبدع فيه القادر
ليس علم الحقّ غير الشّريعة
شرعنا للفرد مرقاة اليقين
شريعة الحقّ نظام الأمم
إنّ فيه الأيد يا من أخلصا
قام للإسلام بالشّرع قوام
لك أيدي نكتة الشّرع المبين
إن يعارض ذو عناد مسلما
صار هذا النفل فرض الأمة
وإذا جيشُ عدوّ في الوغى
وقضى أوقاته في الدّعة
فحرامٌ أخذه بالبغته
سرّ هذا الأمر يا ذا البصر :
يتحدّاك برضوى العالیه
ويناديك أن اقصم ظهرها
ليس كفء الليث في صولته

ليس إلّا النور تحوي الدرر
جوهرٌ باطنه والظاهر
ليس غير الحبّ أصلُ السّنة
ترتقي منه مقامات اليقين^(١)
ومن النّظم دوام الأمم
اليّد البيضاء فيه والعصا
بدؤه الشّرع وبالشّرع الختام
أنت من في حكمة الدّين أمين :
في أداء النفل ما إن لزمنا
فالحياة الحقّ عين القدرة
ترك الإعداد والسّلم بغى
تاركاً للحزب أخذ العدة
قبّل أن يأخذ كلّ الأهبة
« الحياة العيش بين الخطر »
في امتحانٍ لقواك العاتية^(٢)
وبحدّ السيف فاصهر صخرها
حملٌ يرجف في ذلّته

(١) مرقاة اليقين ومقلّمات اليقين في الأصل بلفظهما العربي .

(٢) في الأصل : جبل الوند . واستبدلت به رضوى في الترجمة .

إِنَّ حَكِي الصَّعْوَةَ صَقَرٌ كَاسِرٌ
 كَتَبَ الشَّارِعُ رَبُّ الْحَكْمَةِ
 يَشْحَذُ الْعِزْمَ بِنَارِ الْعَمَلِ
 وَإِذَا تَلَغَّبُ يَعْطِيكَ الْقُوَى
 إِنَّ دِينَ الْمُصْطَفَى دِينُ الْحَيَاةِ
 إِنْ تَكُنْ أَرْضاً يَصِيرُكَ السَّمَاءُ
 يَصْقِلُ الْمِرَاةَ مِنْ صَخِرٍ شَدِيدٍ
 ضَيَّعَ الْقَوْمُ شَعَارَ الْمُصْطَفَى
 ذَلِكَ الْغَصَنُ الْعَسِيُّ الْمَعْتَلِي
 الَّذِي الْبَطْحَاءُ أَزَكَّتْ غَرْسَهُ
 أَذْبَلَتْهُ الْيَوْمَ رِيحُ الْعَجَمِ
 قَاتِلُ الْأَسَادِ ذَبَحَ الْغَنَمِ
 مَنْ أَذَابَ الصَّخَرَ مِنْ تَكْبِيرِهِ
 مِنْ عِلَا الطُّودِ سَرِيعاً مُصْعِداً
 مَنْ بَرَى الْأَعْنَاقَ ضَرْباً عَضْبُهُ
 مُوقِظَ الْآفَاقِ مِنْ خَطَوَاتِهِ
 مَنْ أَطَاعَ النَّاسُ طَرّاً أَمْرَهُ
 رَضِيَ الْقُنْعَ وَأَكْدَى جِدَّهُ
 شَيْخُنَا أَحْمَدُ^(١) مَنْ فِي قُرْبِهِ
 قَالَ يَوْمًا لِمُرِيدٍ فَهَمِ
 فَكَّرُهُمْ إِنْ كَانَ لِلنَّجْمِ ارْتَقَى

فَهُوَ كَالصَّعْوَةِ وَاهٍ خَائِرٌ
 لَكَ هَذَا اللَّوْحُ ، لَوْحَ الْقُدْرَةِ
 وَيَرْقِيكَ لِأَعْلَى مَنْزِلٍ
 وَيَرْبِّي مِنْكَ طُوداً مَا خَوَى
 شَرْعُهُ لِلنَّاسِ قَانُونُ الْحَيَاةِ
 وَيَرْبِّيكَ كَمَا الْحَقُّ يَشَاءُ
 وَيَنْقِي الرِّينَ مِنْ قَلْبِ الْحَدِيدِ
 ضَيَّعُوا رَمَزَ بَقَاءِ عُرْفَا
 مُسْلِمِ الصَّحَرَاءِ رَبِّ الْجَمَلِ
 وَرِيَاخُ الْبَيْدِ رَبَّتْ نَفْسَهُ
 صَيَّرَتْهُ النَّايَ رَوْحُ الْعَجَمِ
 وَطءُ نَمْلِ مَسَّهِ بِالْأَلَمِ
 رَاعِيهِ الْبَلْبِلُ فِي تَصْفِيرِهِ
 غَلَّ بِالتُّكْلَانِ رَجُلًا وَيَدَا
 يَلْدِمُ الصَّدْرَ وَيَدْمَى قَلْبُهُ
 قُيِّدَتْ رَجُلَاهُ فِي خَلَوَاتِهِ
 وَاجْتَدَى دَارًا وَكَسَرَى بَرَّهُ
 وَارْتَضَى الْكِذْبَةَ عِزًّا جَدَّهُ
 تَكْسَبُ الشَّمْسُ سَنًا فِي قَلْبِهِ
 احْذَرْنَ يَا صَاحِ فَكْرِ الْعَجَمِ
 فَهُوَ مَنْ سُنَّتْنَا قَدْ مَرَّقَا

(١) هو الشيخ أبو العباس أحمد الرفاعي ، صوفي عراقي من كبار الصوفية ، مؤسس الطريقة الرفاعية ، انضم إليها خلق كثير من الفقراء ، كان له به اعتقاد كبير ، توفي سنة (٥٧٧هـ) (١١٨٢م) .

يا أخي فاسمع لهذا الرّشدِ استمع نُصَحَ الإمام المُرشِدِ
وبهذا الحقِّ فاشدّد قلبكَا واتبع العُزْبَ تُصِبْ شِرْعَتكَا

في بيان أنّ حُسنَ سيرة الأُمّة من التّأدّب بالآداب المحمّدية

سائلٌ مثل قضاء مُبرم	صاحّ بالباب بصوتٍ مُبرم ^(١)
بالعصا ضلّت عليه غضبا	فهوى من يده ما قشبا ^(٢)
إنّ هذا العقل في شرخ الشّباب	لا ييالي بضلالٍ وصواب
ورأى الوالدُ فعلي فنفر	وذوى في وجهه روض الزّهر
أهةٌ في فمه تلتهب	قلبه في صدره يضطرب
كوكبٌ في عينه قد ومضا	نور الهدب قليلاً ومضى ^(٣)
روحي الغافل في الجسم ارتعد	ومضى الصّبرُ وخلّاني الجلدُ
مثل فرخ في الخريف انتفضا	من رياح اللّيل في العُشّ قضى
قال لي الوالد : يومَ المحشر	تلتقي أمّةٌ خير البشرِ
الغزاة الغرُّ من أمّته	وأولو الميراث من حكّمته
والنجوم الرّهُرُ أربابُ الصّفاء	حجّة الدّين فريقُ الشّهداء
وأولو العلم وأربابُ القلوب	وأولو الرّهد وأصحاب الذّنوب
وعلا في لجج هذا المحشر	صوتُ هذا السائل المنكسرِ

(١) وقعت هذه القصة في سيالكوت بلد إقبال وقصّها على الناس كثيراً . ومبرم في آخر البيت بمعنى ممل .

(٢) قشب : جمع وكسب .

(٣) يعني دمعت عينه ، علق الدّمع بأهدابه ثم سقط .

أيها الحائر في ذا الموكب !
« قد حباك الحقُّ طفلاً مسلماً
هين الأشياء قد شقَّ عليك
وأنا في العتب من خير الرُّسل
أفكرن في الأمر واذكر يا بُني
لحياتي البيضاء في الحشر انظر
لا تزد عبء أهلك الوهن
أنت كم في فروع المصطفى
نظرة من روضه فالتمس
مرشد الرُّوم الذي قطرته
« لا تجد الجبل من خير البشر
فطرة المسلم طراً رأفة
العظيم الخلق من شق القمر
لست من معشرنا فاعتزل
طائر أنت على دوحتنا
إن تكن ذا نعمة لا تُفرد
كل من أوتي حظاً من حياه
بلبل أنت ؟ ففي الرّوض امرح
إن تكن صقراً فلا تغش البحار

ما جوابي حين يلحاني النّبي :
لم تُنله من كتابي مغنماً
لم يصِر ذا الطّين إنساناً لديك^(١) »
بين خوف ورجاء وخجل
أمة المختار إذ ترنو إليّ
رعدتي في الخوف والحزن اذكر
عند مولاي غداً لا تُخزني
فتفتح في ربيع المصطفى
وسناً من خلقه فاقتبس
قد حوت بحراً ، سمّت قوله :^(٢)
لا تقل عندي فنون وبصر
قوله والفعل كلُّ رحمة
رحمة عمّت ونورٌ للبشر
إن تكن منه بعيد المنزل
شدّوه واللّحن من نغمتنا
بسوى بستاننا لا تُغرد^(٣)
في سوى بيته يلقي رداه
ومع السّرب بلحن فاصدح
ليس إلا خلوة الصّحراء دار^(٤)

(١) هذا قول النبي لوالد إقبال في المحشر .

(٢) جلال الدين الرومي . وما بين القوسين من ديوانه المثنوي .

(٣) أغرد : أطرب بالتغريد .

(٤) الصقر يعيش في الصحراء ، والبلبل بين الأشجار فليزِم كل بيته .

أو تكن نجماً فنور في سماك لا يكن مسراك إلا في الجباك

قطر نيسان اجمعن إن ترد
لتراه مثل قطرات الندى
وانشف النداء من جواهرها
بشعاع الضبح وضياء البكر
لن ترى دُرَّك إلا كالحباب
ألقها في اليم تغد جوهرا
قطر نيسان عن اليم نأى
واجعلن في الروض مأواه الندي^(١)
تحضن الأكمام منها ولدا
واسلب اللاء من عنصرها
الذي من سحره ينمو الزهر^(٢)
لن ترى سعيك إلا في سراب
مأوها يسطع نجماً نيرا
لجفاف . لن تراه لؤلؤا

طينة المسلم در يا بُني
قطر نيسان ! فغص في موجه
صاح ! من شمس الضحى كن أنورا
مأوها والنور من بحر النبي
وابرزن ، درأ صفا ، من لجه
كن ضياء ليس يخبو الدهرا

في بيان أن حياة الأمة تحتاج إلى مركز محسوس

وأن مركز الأمة الإسلامية البيت الحرام

عقدة تنحل من أمر الحياه
كخيال جفَلت من نفسها
حين أفشي لك من سر الحياه :
حُرَّة قد نفرت من حبسها^(٣)

(١) مطر شهر نيسان الذي ينشأ منه اللؤلؤ في ظن القدماء .

(٢) متصل بالبيت الذي قبله ؛ أي : انشف الماء بشعاع الصبح .

(٣) الأوصاف في هذا البيت وما بعده أوصاف الحياة .

وقتُها ما فيه أمسٌ وغدٌ
أنظرن نفسك حيناً واعتبر
شعلةً فيها أعدت سِترها
ماؤها قد عقدته في دُر
نارها في نفسها تخفي الحريق
فكرُك العاجزُ عنها أوهما
ما أوى للعُشُّ هذا الطائرُ
هو حرٌّ وحواءه مَحْبِسُ
ريشُه ينسل طيراً كلَّ حينٍ
عُقداً تعقد في أعمالها
تسكنُ الطين على إسراعها
كم لحونٍ في جواها رُقْدٍ
في سهولٍ كلَّ حينٍ وحزونٍ
إن تكن كالريح تأبى محبسا
حولها من خيطها ناسجة
هي في العُقدة مثلُ الحَبَّة
تفتحُ العَيْنَ على ما تُضمّر

في دُنَى الأوقات ليست تُصَفَدُ
لست إلا جَوْلاناً يستمر
من دخانٍ فأشاعت سرّها
لُرى السَّيرُ سكوناً في النّظر
وترى في الغُصن أزهارَ الشقيق^(١)
طيرانَ اللّون ورداً جُسمًا^(٢)
هو طيرٌ وهو لون طائر^(٣)
وهو في النّوح لحوناً يَنْبُس^(٤)
يخلقُ الأسبابَ منه كلَّ حينٍ
وتحلُّ العقد في تجوالها
لتزيد السَّير في إهطاعها^(٥)
يومُها ميلادُ أمسٍ وغدٍ
كلَّ حينٍ في اختراعٍ وفنونٍ
تنزلُ الصّدر فتدعى نفساً
حولها من خيطها عاقدة
مضمّرٌ فيها فروغُ الدّوحة
فإذا الدّوحة منها تظهر

(١) نار الحياة تخفي حرها ، وتظهر أعراضها في مظاهرها . ومثل الشاعر بأزهار الشقيق التي جعلها الشعراء مثلاً للالتهاب .

(٢) الحياة حركةٌ دائمة يتوهمها الإنسان ثابتة . يقول إقبال : الفكر العاجز عن إدراك الحياة يرى جسماً يسميه ورداً وليس هو في الحق إلا لوناً في طيران مستمر .

(٣) الطير : الطيران . والحياة طيران ولون طائر . لا ثبات لها ، ولا تستقر في عش .

(٤) الحياة مقيدة بأشكال وهي في الحقيقة لا تحويها هذه الأشكال . ونوحها وغناؤها متصلان .

(٥) تضع نفسها في الطين (تزرع وتغرس) لا لتسكن فيه بل تزيد إسراعاً في سيرها .

خلعة الطين عليها تُرفد
تؤثر الخلوة في الجسم الحياه
هكذا سنة ميلاد الأمم
إنما المركز روح الدائرة
ومن المركز للقوم نظام
نقطة المركز منا الحرم
نفس في صدرنا يتقد
من نداه نصرت أغصاننا
نحن من دعواه في الدنيا دليل
صوتنا يندى به في الأمم
وخذ الملة طوف حوله
وحدث في حنبه كثرتنا
إن في الجمع حياة الأمم

أيها المسلم يا ذا البصر !
زهدوا في مركز قد جمعا
يا عليلاً شاكياً جور الزمن

فإذا عين وقلب ويد^(١)
وتجلى نشأة العم الحياه^(٢)
مركز فيه حياة تنظم^(٣)
نقطة ، فيها محيط ، ضامره
ومن المركز للقوم دوام
لحننا والوجد فينا الحرم
روحنا الغالي ، ونحن الجسد
حي من زمزمه بستائنا
نحن فيه من براهين الخليل^(٤)
واصلاً محدثنا بالقدم
فهي صبح قد حوى صدر له
أحكمت من وحدة قوتنا^(٥)
إن هذا الجمع سر الحرم

قوم موسى عبرة فاعتبر
فتراهم في البرايا قطعاً^(٦)
يا أسيراً غلّه وهم وظن

(١) الحياة تلبس الطين فتراها حيواناً له عين . إلخ .

(٢) العم : الجماعة الكثيرة .

(٣) تولد الأمة حين تجمع الحياة في مركز معين ، في شريعة ، أو قانون ، أو مقصد .

(٤) الخليل : إبراهيم . نحن الدليل على صدق ما يدعي للحرم من أنه يجمع الناس ، ويكون مركز الأمة . ونحن برهان على تحقيق ما أمله الخليل في الحرم .

(٥) في حساب الحرم كثرتنا وحدة . وبهذه الوحدة تستحكم قوتنا .

(٦) حذف هنا أبيات في وصف اليهود .

اجعلن ثوبك ثوب المحرم أطلع الصُّبحَ بليلاً مُظلم
افنَ كالآباء ما بين السجود اسجدنَ حتى تُرى عينَ السجود^(١)
من خشوع المسلمين الأولين سيطروا بالحق بين العالمين
في سبيل الحق شوكةً وطئوا فإذا الروضة هذا الموطأ

في بيان أنَّ الاجتماع الحقيقي من الاستمساك بمقصد ، ومقصد الأمة الإسلامية حفظ التَّوحيد ونشره

اعرفن عني لسان الكائنات ففعال الكون فيها كلمات
ينظم المقصدُ أشتات الحياه فتراها « مطلعاً » راع الرواه^(٢)
طرفنا من تحت مهماز الطلب صرصر ما ندَّ عنه من أرب
إنما يُقي الحياة المقصدُ هو أشتات قواها ينضدُ
حينما تدري الحياة المطلبها تجعل الكون إليه سببا
وبه الأشياء طرأ تنقُد فتردَّ الشيء أو تعتقد^(٣)
يُبحر الرُّبان أجل الساحل وإلى المنزل سيرُ السَّابل
وعلى قلب الفراش الحرقُ لسراج حوله يحترق^(٤)
طاف قيس في الصحارى ولها قاصداً ليلاه يرجو وضلها
ما اقتفينا في الصحارى أثرا منذ ليلانا أقامت في القرى

(١) السجود الأول جمع ساجد .

(٢) المطلع هنا مطلع القصيدة .

(٣) اعتقد المال : اقتناه . إذا عرف الإنسان مقصده نقد به الأشياء ، فرد بعضها ، وأخذ بعضها .

(٤) يذكر أمثلة من المقاصد : الساحل للسائر في البحر ، والمنزل للسائر في البر ، والاحتراق للفراش ، وليل لقيس .

إنما المقصودُ روحُ العملِ
دورانُ السَّدمِ في أعراقنا
الحياةُ الحقُّ منه تستعِرُ
هو مضربُ لُعودِ الهمةِ
حرَّكِ الأعضاء في ركبِ البشرِ
فكنِ المجنونَ في هذا الحبيبِ
أبدعِ القميَّ فيما أسمعنا
رامَ نَقْشِ الشُّوكِ حيناً رَجُلُ
لحظةٍ يا صاحبي إن تغفلِ
ذاكُمُ العالَمُ دَيْرُ قَدُما
كم وكَم يُنبت من مقصبةِ
كم تدَمَّت من يديه روضةُ
كم تُرى نقشاً وكم تمحو يداه
كم من الأرواحِ بُتت أنَّةُ

كيفه والكم منه تجتلي^(١)
مسرَّعٌ بالجِدِّ في أغراضنا
تجمع النَّارُ به مثلَ الشَّقَرِ^(٢)
مركزُ يَجذبُ كلَّ القوَّةِ
جامعاً شَتَّى عيونٍ في نظر^(٣)
طُفَّ به طوف فراشٍ باللهيبِ
علَّم الأوتار معنى مُبدعاً^(٤)
فاختفى عن ناظريه المحمَلِ
ألفَ ميلٍ زاد بُعدَ المنزلِ
بامتزاجِ الأمَّهاتِ انتظما^(٥)
ليراعٍ فيه نارُ النَّوْحِ
لتربِّي من شقيقِ زهرة^(٦)
لُرى نقشك في لوحِ الحياةِ
لتعالَى من أذانِ نغمة^(٧)

- (١) يتبين للعمل كيفه وكمه من مقصوده .
(٢) الشقر : الشقائق . والضمير يعود إلى المقصود الحياة تستعرب به . وتجمع في نفسها ناراً
كما تجمع الشقائق النار ، في خيال الشعراء .
(٣) يجمع الأعين المختلفة على نظر واحد .
(٤) القمي : ملك القمي الشاعر . والإشارة إلى بيت له معناه .
« ذهبت لأنقش الشوك من قدمي فاختفى المحمل عن عيني . غفلت لحظة فبعدت
طريقي مئة سنة » .
(٥) امتزاج الأمهات اختلاط العناصر . والتركيب بلفظه العربي في الأصل .
(٦) هذا البيت والذي قبله بيت واحد في الأصل . والمعنى أنَّ التكمل في العالم شاقُّ أليمٍ
ينبت غابات من أجل نغمة ناي ويخرب روضات من أجل زهرة ، وقد تقدَّم هذا أول
الكتاب .
(٧) تعالى : تتعالى .

ورجال الزور دهرأ ربيأ
ثم في طينك إيماناً بذر
نقطة دار عليها العالم
قوة فيها تُدير الفلكا
لؤلؤ البحر نَمى من نورها
نفحها صيّر طيناً سنبلأ
في عروق الكرم منها شُعلة
لحنها في مزهر الكون استتر
نغمات فيك تسري كالدم
كلمة التوحيد منك المقصد
الجهاد المر حلف المسلم
أنت لا تدري بآيات الكتاب
أنت في الأيام نور وبصر
ادعون كل ليب ، أبلغ
قوله ما فيه نطق عن هوى
نبض هذا الكون قد جسّت يداه
نضّر الأزهار في روض الدهر
دينه فيه الحياة الخالده
أيها التالي الكتاب المنزل

وعلى الأحرار والى الحربا
كلمة التوحيد من فيك نشر
كلمة صار إليها العالم
وبها الشمس تُنير الحلكا
به الموج طما من نورها
وجدّها صيّر ريشاً بلبلا^(١)
وبطين الكأس منها لمعة
أيها العازف! يدعوك الوتر
أعمل المضرب في ذا النغم
أنت للتكبير فيها توجّد^(٢)
أو يدوي الحق بين الأمم
أمة العذل يسمينا الخطاب
شاهد أنت على كل البشر^(٣)
وعن الأمي قولا بلغ
صادق ما ضل يوماً أو غوى^(٤)
فتجلى سرّ تقويم الحياه
ومحا الأذناس عنها والكدر
لا تراها عن هداة حائده
شمّر ، لا تقعدن عن عمل

(١) السنبِل : نبات طيب الرائحة .

(٢) فيها : في الدنيا .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(٤) إشارة إلى الآيات : ﴿ وَالتَّجْرِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ﴾ [النجم : ١ - ٣] .

يعشق الأصنام عقل الأمم
هو أحياء سنة من آزا
اسمه لئون ودار ونسب
وعلى أقدام هذا الصنم
أيها الشارب من كاس الخليل !
سيف « لا موجود إلا هو » خذ
في ظلام الدهر أشرق للملا
خجلت لك في اليوم العسير
قد أخذت الحق عني ما دهاك

ناحت أو عابد للصنم
محدثاً فيها إلهاً للورى
هو من سفك دماء في طرب^(١)
ذبح الإنسان ذبح الغنم
يا حمي النفس من طاس الخليل !
وبه الأصنام هذي فاجذ
وانشرون حقاً عليك اكتملا^(٢)
حينما يسألك الهادي البشير :
لم تبلغه بحق لسواك !

في بيان أن توسيع حياة الأمة بتسخير قوى العالم

مؤمناً بالغيب غير الغافل
اعل عن ذا الطين غصناً ناضراً
ذلك الحاضر تفسير الغيوب
ما سوى الله لتسخير العمل
ما سوى الله تراه يخلق
عقدة تلقاك بغد العقدة
فسرن يا كم ! روضاً نفسكا
من يسخر عالم الحس سما

كارهاً كالسيل قيد الساحل !
وصل الغائب واغز الحاضرا
وهو مفتاح لتسخير الغيوب
صدره للرمي ، فاقذف لا تبلى
لترى سهمك فيه يمرق^(٣)
ليرى في الحل لطف الحيلة
سخرن يا طل ! ذي الشمس لكا
ومن الذرة يخرج عالما

(١) يعبد الناس في هذا العصر عصبية الأنساب والأوطان ، فيسفكون الدماء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] .

(٣) في الأبيات المتقدمة دعوة إلى تسخير عالم الحس ، وبيان أن هذا التسخير يؤدي إلى معرفة عالم الغيب .

كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ بَحْرِ وَبَرٍ
أَيُّهَا النَّائِمُ طَالَتْ غَفْلَتُهُ
قُمْ وَفُتِّحْ بَصِيراً قَدْ سُكِّرَا
إِنَّهُ تَوَسَّيْعُ ذَاتِ الْمُسْلِمِ
هُوَ يَلُوكُ بِسَيْفِ الزَّمَنِ
اضْرِبِ الصَّدْرَ بِقَهْرِ الْقُوَّةِ
جَعَلَ الْحَقُّ الدُّنَى لِلْخَيْرِينَ
هَذِهِ الدُّنْيَا طَرِيقُ الظَّلَعَنِ
فَأَسِرْنَهَا قَبْلَ أَنْ تَأْسِرَكَ
أَدِهْمُ الْفِكْرَ الَّذِي يَطْوِي الْفُضَاءَ
سَاقَهُ فِي الْكَوْنِ حَاجَاتُ الْحَيَاةِ
يَبْتَغِي فِي الْكَوْنِ تَسْخِيرَ الْقُوَى
نَائِبُ الْحَقِّ ، بِحَقِّ آدَمَ
لَكَ مِنْ ضَيْقِكَ ، مِنْهَا سَعَةٌ
صَهْوَةُ الرِّيحِ أَعْلَوْنَهَا آمِرَا
شَقَّ قَلْبَ الطَّوْدِ عَنْ جَوْهَرِهِ
أَلْفُ كَوْنٍ فِي فُضَاءٍ تُكَفَّتُ
بَشَعَاعٍ أَظْهَرْنَ مَا احْتَجَبَا
مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ نَاراً فَاقْبِسِ
ثَابِتُ الْأَنْجَمِ أَوْ سَيَّارُهَا
كُلُّهَا يَا صَاحِبَ عُبْدَانٍ لَكَ
سَيَّرْنَ فِكْرَكَ فِيهَا عَسَا

لَوْحُ تَعْلِيمٍ لِأَرْبَابِ النَّظَرِ
عَالَمُ الْحَسِّ جَفْتَهُ هَمَّتُهُ
لَا تَحْقُرْ عَالِماً قَدْ حُقِّرَا
وَامْتَحَانَ لَصِفَاتِ الْمُسْلِمِ
لَتَرَى أَنَّ دَمَاءَ فِي الْبَدَنِ
اخْتَبَرُ عَظَمَكَ فِي ذِي الصَّدْمَةِ
وَجَلَاهَا لَعَيُونَ الْمُؤْمِنِينَ
هَذِهِ الدُّنْيَا مُحْكُ الْمُؤْمِنِ
لَا تُضِغْ فِي جَوْفِهَا جَوْهَرَكَ
وَالَّذِي يَجْتَازُ آفَاقَ السَّمَاءِ
فَهُوَ فِي الْأَرْضِ وَفِي النَّجْمِ خُطَاهُ
لَتَرَى فِيهِ بِأَعْلَى مُسْتَوَى
حُكْمِهِ فِي الْأَرْضِ مَاضٍ حَاكِمٌ^(١)
وَلَأَعْمَالُكَ فِيهَا فَسْحَةٌ
أَلْجَمَنْ هَذَا الْجَوَادَ النَّافِرَا
شَقَّ مَوْجَ الْبَحْرِ عَنْ دُرٍّ بِهِ
رُبَّ شَمْسٍ قَدْ حَوَتْهَا ذَرَّةٌ
وَكَشَفْنَ عَنْ كُلِّ سِرٍّ حُجُبَا
وَمِنْ السَّيْلِ بِرَوْقاً فَاخْلِسِ^(٢)
الَّتِي قَدْ عُيِدَتْ أَنْوَارُهَا
وَأَمَاءُ سُخَّرَتْ مِنْ أَجْلِكَ
سَخَّرْنَ آفَاقَهَا وَالْأَنْفُسَا

(١) يعني أَنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض بالحق ، وحكمه فيها نافذ .

(٢) استخراج الكهرباء من سيل الماء .

افتح العينَ وأنعمَ نظراً
كم ضعيفٍ في قويٍّ أمراً
أيُّها المقصود من أمرٍ ﴿ انظروا ﴾
قطرةٌ من نفسها ذاتُ خَبَرٍ
وهي في البحر تراها جوهراً
كالصِّبَا لا تهفُّ حولَ الصُّورِ
دون مضرابٍ لحوناً سيِّراً
أيُّها الظَّالِع في حَزْنِ الحياه
بلغ السَّعيُّ الرفاقَ المنزلاً
وبقيتَ اليومَ قيساً مبلساً
« علِّمَ الأسماءَ » فخرُ الآدمي^(٣)

أبصرن في الراح معنىً مُضمَّراً
حين في الكون أجال البصراً
كيف في آفاقها لا تنظر؟^(١)
خمرةٌ في الكرم ، طلٌّ في الزَّهرِ
جوهراً كالنَّجم في الليل سرى
اطلبن في الروض معنى الزَّهرِ
ومن الأحرف طيراً طيِّراً^(٢)
أيُّها الغافل عن طعنِ الحياة
أنزلوا ليلي وخطوا المحملاً
في الصحارى عاجزاً مستيئساً
حكمةُ الأشياء نصرُ الآدمي

في بيان أنَّ كمال حياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد

وأنَّ توليد هذا الشعور وتكميله ، من الاحتفاظ بسنن

الأمة ورواياتها

أرأيتَ الطفلَ يا ذا البَصَرِ !
ليس يدري ما قريبٌ وبَعِيدُ
ما سوى الأمِّ يرى منه الجفاءُ
ليس تدري أذنه ما النعمةُ

ما له عن نفسه من خبرِ
كرة النِّجم بكفِّيه يريد
همُّه أكلٌ ونومٌ وبكاءُ
لحنه ثورته والضجَّةُ

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] .

(٢) إشارة إلى آلات البرق ، والهاتف ونحوها .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

فكره غُفلٌ ضعيفُ الأثرِ
ليس في تفكيره إلا السؤالُ
كلُّ نقشٍ عنده ينطبُعُ
عينه إمّا بكفٍّ تُطبق
فكره في الجوِّ واهٍ حذرُ
خلف صيدٍ في حذارٍ يُرسله
ثم غشاه لهيبُ الفكرِ
فتراه عينُه مُستعلنًا
ومن الذكري ينمّي نفسه
ينظم الأيامَ خيطَ الذهبِ
جسمه يُرمي ويكري قائلًا :
« أنا » هذي بدءٌ مقصود الحياه
مثلُ الأئمة حين النشأة
هي طفلٌ نفسه لا يعرفُ
يومه بالغدِ لم يوصل ولا
وبعين الكون إنساناً يُرى

قولُه فيه صفاءُ الجوهرِ
أين ؟ أنى ؟ ومتى ؟ في كلِّ حال
وهو كلُّ غيره يتبع
تنزّي روحه في قلقِ
كصقيرٍ لاصطيادٍ يُجبرُ
ثمَّ يدعوه إليه يُعجله^(١)
فرمى خذروفه بالشرر^(٢)
فندقُ الصدرِ يعني : ها أنا^(٣)
غده يربطُ فيه أمسه
نسّق الدُرَّ بسمطٍ مُعجب
مثل ما كنتُ أراني ماثلاً^(٤)
اليقظة في عود الحياه
مثلُ الطفلِ ضعيفِ المنة
جوهراً غشّى عليه الصّدْفُ
بصباحٍ ومساءٍ سلسلاً
كلُّ شيءٍ ما عداه أبصراً^(٥)

(١) كالصقر الصغير الذي يُعلّم الصيد ، يتلطف صاحبه في إطلاقه وراء الصيد ودعوته إلى الرجوع .

(٢) ثم يعلق التفكير به فيرمي فكره بشرر كما تدار جمره النار في خذروف فيتطاير منها الشرر . وفي الأصل « زرجك » وهي لعبة يديرها الصبيان يتطاير منها الشرر . والخذروف قرص يدار بخيط فيسمع له دوي .

(٣) يدرك الطفل نفسه فيعني بها ويقول ها أنا . وكان يرى غيره لا نفسه .

(٤) يرمي ويكري : يزيد وينقص . يشعر الإنسان بأنه مع تغير جسمه لا تتغير ذاته .

(٥) هي في الكون كإنسان العين يرى كلَّ شيءٍ إلا نفسه ، فهي تقلد وتتبع ولا تعتمد على نفسها .

بَعْدَ لَايٍ طَرَفُ الْخِيْطِ بَدَا
فَإِذَا رَازَ قُوَاهَا الدَّهْرُ
أَسْطَرّاً تَمْحُو ، وَأُخْرَى تَسْطُرُ
يُبْلِسُ الْفَرْدُ إِذَا مَا انْتَشَرَا
نَوْرُ قَوْمٍ مِنْ مَدَادِ السَّيْرِ
أَمَةٌ قَدْ نَسِيَتْ سِيرَتَهَا
أَنْتِ سَفَرٌ كَتَبَتْهُ السَّيْرَةُ
ثَوْبَنَا أَيَّامُنَا فِي الزَّمَنِ
مَا تَرَى يَا غُرُّ تَارِيخِ الْبَشَرِ ؟
فِي سَنَاهِ أَنْتِ بِالنَّفْسِ بَصِيرُ
إِنَّهُ أَعْصَابُ جَسَمِ الْأُمَّةِ
هُوَ يَجْلُوكُ كَسِيفٍ مَخْذَمِ
أَيُّ عَوْدٍ ذِي فَنُونٍ تَسْخَرُ !
خَامِدُ الشُّعْلَةِ ، فِيهِ يُشْعَلُ
شَمْعُهُ كَوَكْبٍ بَخْتِ الْأُمَمِ
عَيْنُهُ تُبْصِرُ مَا قَدْ عَبَّرَا
وَعَتِيقُ الرَّاحِ فِي كَاسَاتِهِ
صَائِدٌ يَرْجِعُ فِي أَشْرَاكِنَا
فَاذْكُرِ التَّارِيخَ وَاسْتَحْكِمِي بِهِ
أَحْكِمْنَ وَضَلَّةَ يَوْمٍ وَغَدِ

بَعْدَ مَا حَلَّتْ يَدَاهَا الْعُقْدَا^(١)
يَتَجَلَّى ذَا الشُّعُورِ الْمَضْمُرِ^(٢)
صَفَحَاتٍ بِيَدَيْهَا تَزْبِرُ
عِقْدُ أَيَّامٍ عَلَيْهِ قُدْرَا
نَفْسُهُ يَعْرِفُهَا بِالذِّكْرِ
يَنْسُخُ الدَّهْرُ غَدَاً آيَتَهَا
خَيْطُهُ أَيَّامُكَ الْمَوْصُولَةُ
وَحِيَاطُ الثَّوْبِ حَفْظُ السُّنَنِ^(٣)
قِصَّةٌ ! أَسْطُورَةٌ ؟ لَهْوَ سَمَرٍ ؟
فِي هِدَاةِ أَنْتِ بِالسَّيْرِ خَبِيرُ
إِنَّهُ فِي الرُّوحِ مِثْلُ الشُّعْلَةِ
ثُمَّ يَرْمِي بِكَ بَيْنَ الْأُمَمِ
نَغْمَاتُ الْأَمْسِ فِيهِ تُؤَثِّرُ
يَوْمُهُ لِلْأَمْسِ فِيهِ مَائِلُ
وَسْنَا الْيَوْمِ وَأَمْسِ الْمَظْلَمِ
وَتُرى الْمَاضِي حَيّاً مُحْضِراً
وَحُمَارُ الْأَمْسِ فِي نَشْوَاتِهِ
طَائِرَاتٌ قَدْ طَارَ مِنْ بَسْتَانِنَا
عِشْ بِأَنْفَاسٍ مَضَتْ ، فِي طَبِّهِ
وَالْحَيَاةُ امْضِ بِهَا طَوْعَ الْيَدِ

(١) تكون كالذي معه خيط معقد يحل عقده حتى يجد طرف الخيط فيمكنه الانتفاع به .

(٢) راز الإنسان الشيء : حاول رفعه ليعرف ثقله .

(٣) الخياط : الإبرة .

وقد الأيام قسراً بمهراز أو فعش أعمى بليلى ونهاز^(١)
صاح ! من ماضيك تبدو حالكا ومن الحال بدا استقبالكا
إن تُردّ خُلدَ حياة فصل ما مضى بالحال والمستقبل

في بيان أن بقاء نوع الإنسان بالأمومة ، وأن حفظ الأمومة واحترامها من أصول الإسلام

نَعَمَاتُ المرءِ عَزَفُ المرأةِ هو من محتتها في عِزَّةِ
كست الذُكرانَ ربَّاتُ الحِجَالِ إنَّ ثوبَ العِشْقِ من نَسِجِ الجَمالِ^(٢)
عَشَقُ الحَقِّ رِبَاهُ حِجْرُهَا ذلك اللحنُ حواه صدرُها
الذي قد بهر الكونَ سنَاهُ قرَن الطيبَ إليها والصَّلاه^(٣)
جهلَ القرآنَ جهلاً مُسلمُ قد رآها أمةً لا تُعْظَمُ
إنَّما الأمُّ علينا رَحْمَةٌ وإلى الرُّسُلِ لديها نِسْبَةٌ
رأفةُ المرسلِ في رَأْفَتِهَا سيرُ الأقوامِ من صنعِهَا
ومن الأمِّ علتْ أقدارُنا وبِسيمَاهَا بدا مِقدارُنا^(٤)
لفظةُ الأُمَّةِ فيها نُكْتُ أُنْرى فِكرُكُ فيها يَثْبُتُ ؟
إنما الأُمَّةُ من وصل الرِّجْمُ دونهُ أمرُ حياةٍ لا يَتَمُّ
قال خير الخلق ، وهو الحجَّةُ : تحت رِجلِ الأُمَّهَاتِ الجَنَّةُ

(١) المهار : الزمام .

(٢) إكبار الرجل المرأة وحبها يدعوانه إلى الإقدام والعمل ، وكذلك تهديه المرأة وتلهمه .

(٣) إشارة إلى الأثر : حُب إلي من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة .

(٤) المقدار هنا القدر ، أي مستقبل الناس مكتوبٌ في سيما الأم .

كُشِفَتْ بِالْأَمِّ أَسْرَارُ الْحَيَاةِ بِخِلَالِ الْأَمِّ تَسِيرُ الْحَيَاةُ
وَبِهَا فِي نَهْرِنَا يعلو العُبابُ ويدوم الموج فيه والحَبَابُ

هَذِهِ الْغُرَّةُ بِنْتُ الْقَرْيَةِ عَبْلَةُ الْجِسْمِ وَغُفْلُ السُّحْنَةِ
حَيَّةُ الْعَيْنِ ، كَهَامُ الْمَقُولِ دُونَ تَعْلِيمٍ وَصَقْلٍ الصِّقْلِ^(١)
أَلَمِ الْأَمِّ عَلَيْهَا يَثْقُلُ وَجْهَهَا يُعْرَبُ عَمَّا تَحْمِلُ
أَمْرِنَا يُحَكِّمُ مِنْ آلامِهَا صَبْحُنَا يَشْرِقُ مِنْ إِظْلَامِهَا^(٢)
إِنْ تَهَبُ مِنْ حِجْرِهَا لِلْأُمَّةِ مُسَلِّمًا حَقًّا عَظِيمَ النَّجْدَةِ
وَالَّتِي رَقَّتْ وَخَفَّتْ مَحْمِلًا بَاطِنُ الْمَرَاةِ فِيهِ عُطْلَا^(٣)
شَعَّ نَوْرُ الْغَرْبِ فِي فِكْرَتِهَا وَتُرى الثُّورَةُ فِي مَقْلَتِهَا
قَطَّعَتْ أَوْصَالَ هَذِي الْأُمَّةِ حِينَ طَاشَتْ عَيْنُهَا بِالنَّظَرَةِ
إِنَّ حَرِّيَّتَهَا أَصْلُ الْبَلَاءِ إِنَّ حَرِّيَّتَهَا فَقْدُ الْحَيَاءِ
لَيْلُهَا مَا ضَاءَ فِيهِ نَجْمُهَا لَمْ يَطِقْ أَعْبَاءُ أُمَّ عَلْمُهَا^(٤)
لَيْتَهَا لَمْ تَنْمُ فِي رَوْضَتِنَا لَيْتَهَا تُغْسَلُ مِنْ حُلَّتِنَا

أَنْجَمُ التَّوْحِيدِ فِي غَيْبِ الْأَبْدِ مَضْمَرَاتٌ لَيْسَ يَحْصِيهَا عَدْدُ
لَمْ تُسَيِّبْ بَعْدُ مِنْ قَيْدِ الْعَدَمِ لَمْ تُقَيِّدْ بَعْدُ فِي كَيْفٍ وَكَمٍ
جَلَّوَاتٌ فِي دَجَانَا تُضْمَرُ فِي ظِلَامِ الْكُونِ عَنَّا تَسْتَرُ
قَطَرَاتٌ لَمْ تَزِنْ زَهَرَ الرُّبَى وَزَهْوُورٌ لَمْ تَفْتَحْهَا الصُّبَا

(١) كهام المقول : عيبة اللسان . عينها خفرة ، ولسانها قليل الكلام .

(٢) تعاني الظلام في أيامها ليشرق صبحنا : أي نسعد بشقائقها .

(٣) صدفت عن الحمل والوضع .

(٤) لم يضيء في ليلها نجم : لم يولد لها ولد .

إنما تنبتُ هذي الزَهَرَاتُ ناضراتٌ في رياضِ الأمهاتِ
أيها العاقلُ ! مالُ الأُمَّةِ ليس من عقيانها والفضَّةِ
إنَّه أولادها ملءُ الأملِ في ذكاءٍ ونشاطٍ وعَمَلٍ
تحفظُ الأمُّ إخوانَ الأُمَّةِ وقوى قرآننا والمِلَّةِ

في بيان أنَّ سيِّدة النِّساء فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ للنِّساء المسلمات

أُمُّ عيسى نسيبةٌ واحدةٌ بثلاثٍ تزدهي فاطمةُ :
قرَّةُ العينِ لخيرِ الأوَّلينَ ، خاتمِ الرُّسلِ ، وخيرِ الآخرينِ
نافعُ الرُّوحِ بدنياً والوَهَنِ خالقُ العَصْرِ جديداً السُّنَنِ
وهي زوجُ المرتضى ذا البطلِ أسدِ الله الحكيمِ الفيصلِ
ملكٌ في الكوخِ زهداً قد أقام كلُّ ما يملك درعٌ وحُسامُ
وهي أُمُّ السَّيِّدينِ الأكرَمينِ حسنِ خيرِ حلِيمٍ وحُسَيْنِ
ذا سراجٍ في ظلامِ الحرَمِ حافظٌ وخِدَّةُ خيرِ الأُمَمِ
ازدري الملكَ ابتغاءَ الألفَةِ أطفأ النِّيرانَ بين الإخوةِ
ذاك في الأبرارِ ربُّ العَلَمِ أسوةُ الأحرارِ في الخطبِ العميِ
سيرةُ الأولادِ صنعُ الأمَّهاتِ وخِلالِ الخيرِ طبعُ الأمَّهاتِ
زهرةٌ في روضةِ الصِّدقِ البتولِ أسوةُ النِّسوةِ في الحقِّ البتولِ
فاقةُ السَّائلِ أذرت دمعها ليهوديٍّ أباعت درعها^(١)
كلُّ من في الأرضِ قد طاع لها ورضاها حين تُرضي بعلها
نشئت ما بين صبرٍ ورضا في الفمِ القرآنُ ، والكفِّ الرِّحَى

(١) أباع : عرض للبيع ، أي عرضت درعها للبيع لتعطي سائلاً .

دمعُها من خشية الله جرى في مصلاًها يفوقُ الجوهرا
لقطَ الروحُ الأمينُ الدُّررا وعلى العرشِ المعلى نثرا
أنا لولا الشرع عن هذا نهى وإلى شرعِ الرسول المنتهى
طفئتُ حولَ القبرِ إجلالاً لها ناثراً من سجداتي حولها

خطابٌ إلى المرأة المسلمة

مُشعلٌ مصباحُنا من نارك عرَضُنا في الصُّون من أستارك
خَلَقُك الطَّاهِرُ فينا رحمةً قوَي الدِّينُ به والأمة
طفَلُنا علَمَتِه حينَ الفِطام كلمة التوحيد من قبل الكلام
صَيَغَ مِنْ حُبِّكَ أطوارٌ لنا فَعَلُّنا ، أقوالنا ، أفكارُنا
برَقْنَا في سُحُبٍ منك ثوى شَعَّ في الأطواد ، والبيد طوى
ضَاءَ دِينُ الْحَقِّ مِنْ أَنْفَاسِكَ ونما التوحيدُ في أحجارِكَ
ذَلِكَ الْعَصْرُ غُرُورٌ مَآكِرُ وعلى الأديانِ باغٍ فاجِرُ
عَقْلُهُ أَعْمَى وَبِاللَّهِ كَفَرُ كم جهولٍ في شراكٍ قد أَسَرُ
عَيْنُهُ عَيْنٌ وَقَاحٍ فَاتِكَ بِشَبَاكِ الْهُذْبِ كم من هَالِكِ !
صَيَّدَهُ يَحْسَبُ حَرّاً نَفْسَهُ^(١) مَيِّتُهُ يَزْعُمُ قَصِراً رَمْسَهُ^(١)
بِكَ يَخْضِرُ غِرَاسُ الْوَحْدَةِ بك ينمو رأسُ مالِ المِلَّةِ
لَا تَسِيرِي غَيْرَ نَهْجِ السَّلَفِ لَا تَبَالِي بِجَدَى أَوْ تَلَفِ
احْذَرِي فِتْنَةَ عَصْرِ مُهْلِكِ وإلى صَدْرِكَ ضَمِّي وَلَدَكَ
بَعُدْتُ عَنْ عَشَّهَا فِي خَطَرِ هذه الأفراخ ، لَمَّا تَطَرِ

(١) الأسير في أغلال هذا العصر يظنُّ نفسه حرّاً ، والميت يحسب رمسه قصراً لا يدري هذا أو ذاك ما هو فيه من عبودية أو هلاك .

فيك تسمو للمعالي فطرةً فاتبعي الزهراء ، نعم الأسوة
علّ غصناً منك يأتي بحُسين فتري النضرة روضات ذوين

خلاصة مطالب المنظومة

في تفسير سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

مُزهِراً منه ترابُ القَدَمِ	ظهر الصَّدِيقُ لي في الحُلُمِ
طُورُنَا منه الكليمُ الأولُ ^(١)	ذا « أَمِنُ النَّاسِ » فينا مَنْ جَلَا
صحبة الغار وفي القبر ، الوفي ^(٢)	هو ثاني اثنين في الدين وفي
مطلَعُ الدِّيوان من أهل الوفاء !	قلتُ : يا صفوة أصحابِ الصِّفاء
فانظرون ما الطبُّ من أدوائنا	بك قرَّ الأسُّ في بُنياننا
سورةُ الإخلاص بُرءُ السَّقَمِ	قال : حتَّامَ أسيرُ الوَهَمِ
وهي للتوحيد سرٌّ هائلٌ	نَفْسٌ في كلِّ صدر جائِلٌ
ولتكن منه مثالاً للجمال	فاجلُ هذا السرِّ في كلِّ الفِعالِ
بك للوحدة في الدُّنيا سَما	الذي سَمَّاكَ عبداً مُسلماً
لم تزل عما تعودت القَدَمِ	قلتُ : أفغانٌ ، وتركٌ وعَجمُ
اقصدِ البحرَ وخلِّ القَنواتِ	طَهَّرنُ الحقَّ من هذي السَّماتِ
قد بَعُدتَ اليوم من دَوَحَتِكَا	يا أسيراً لِسماتٍ ويحكَا !
لا تقطع صاحِ ! حبلَ الوَحْدَةِ	أبدلِ الوحدةَ بالثنيةِ

(١) إشارة إلى الحديث : « أَمِنُ النَّاسِ عَلَيَّ في صحبته وماله أبو بكر » .

(٢) كان ثاني الرسول في الدخول في الإسلام وفي الغار ، وفي القبر إذ كان أول من دفن بجانبه .

عابد الواحد ! وحّد واهجرن
أئها المغفل معنى الكلم
أمة قطعها في أمم
قوة الإيمان زد بالعمل
كلّ تفريق وللحقّ ارجعن
أثبتن في القلب ألفاظ الفم
وهدمت الحصن فيه تحتمي
مات إيمان إذا لم يعمل

﴿ الله الصمد ﴾

أشعرن القلب « الله الصمد »
ليس عبد الله عبد السبب
ليس غير الله يرجو المسلم
لا تبئن شكاة أحدا
بالشعير اقنع ، تقيل حيدرا
فيم للأجواد حمل المنن
لا ترم رزق لثيم يُنغص
إن تكن نملاً وكنّت المقعدا
خفف الزاد ، طريق وعبر
اجعلن « أقلل من الدنيا » الشعار
وكن الأكسير لا التّرب بها
تخلصن من قيد أسباب وحد
ما الحياة الحقّ دور اللولب^(١)
وهو للناس جميعاً سَلَم
لا تمدن إلى الخلق يدا
مرحبا فاقتله ، وافتح خيبرا^(٢)
أنت ، من لا ونعم في حزن
يوسف أنت ، فأنى ترخص
لا تؤمل من سليمان جدى
عش ومث حراً . عداك الغرر
و« تعش حراً » بها كلّ الفخار^(٣)
معطياً لا سائلاً . في حبها^(٤)

(١) إن أخلص الإنسان الله ، وتوكل عليه لا يقيد ما يقيد الناس من أسباب ، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته ، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادة الإنسان وعزيمته .

(٢) مرحب : أحد رؤساء اليهود في خيبر ، قتله عليّ رضي الله عنه .

(٣) إشارة إلى ما يروى عن عمر رضي الله عنه : « أقلل من الدنيا تعش حراً » .

(٤) الضمير يرجع إلى الدنيا .

« بو عليّ » ليس مجهولاً لديك
 « تخت قابوس اركلن بالأرجل
 يُفتح الحانٌ عجولاً نفسَه
 جرعةً من كأسه أهدى إليك : (١)
 ابذل الرأس وبالعرض ابخلِ
 لفقيرٍ لم يدنّس كأسه

قائدُ الإسلام هارون الرشيدُ
 قال : يا مالكُ مولى الأُمّةِ
 أنت يا بلبلُ فردوسِ الحديثِ
 لِمَ يُخفى ذا العقيقَ اليمَنُ ؟
 حبّذا زهرةُ أيامِ العراقِ
 تربّه فيه من السُّقمِ نجاه
 قال : « إني خادمٌ للمصطفى
 أنا ، من قيّدتُ في حُبّي له
 لي في يثرب حبٌّ واشتياقٌ (٢)
 ويقول العشق : أمري امثلاً
 أنت تبغي أن تُرى لي سيّداً
 التعلّمك أغشى بابكاً
 إن ترُم في الدين علماً يُقتنى
 من سقى نقفورَ من ماءِ الحديدِ (٣)
 أنت يا رونقَ وجهِ المَلّةِ
 إنني أرغب في درسِ الحديثِ
 اقصدن بغداد ، نعم الوطنِ (٣)
 حبّذا حسنٌ به الأعينَ راقٍ
 قاطرٌ من كرمه ماءُ الحياه
 وبحسبي حُبّه لي شرفاً
 كيف أنأى عن مكانٍ حلّه
 أين من ليلي بها صبحُ العراقِ ؟
 لستُ أرضى بملوكٍ خولاً
 أن تُرى مولىً لحرٍّ عبداً
 خادمُ الأُمّةِ لا يعنوا لك
 فاغشين حَلقةَ درسي هاهنا »

- (١) هو أبو علي قلندر أحد كبار الصّوفية في الهند ، وقد سبقت ترجمته في القسم الأول لديوان « الأسرار والرموز » ، وما بين القوسين من شعره .
 (٢) نقفور : أحد ملوك البيزنطيين حاربه الرشيد فهزمه .
 (٣) اليمَن : من مواطن العقيق . يعني : لماذا يبقى مالك في الحجاز كما يبقى العقيق في معدنه .
 (٤) في الأصل : أنا حيٌّ بتقبيل تراب المدينة . وقد خففت العبارة في الترجمة .

الذي استغنى جديرٌ بالدلال
صبغة الحق من استغنى اكتسى
أنت من غيرك تجدو علمكما
أنت منه إشعارٍ تفخرو
خشعت أرضك من أمطاره
مطراً من مزنه لا تجتدي
سلسلت عقلك أفكار له
مستعارٌ كلم في فمكما
أعوزت طيرك ألحان الغناء
أنت في كأسك خمراً تجتدي
لو يعود اليوم فينا ذو النظر
ماز صدقاً وكذباً سمعه
ثم نادى « لست مني » يا فتى
فلإلام العيش مثل الأنجم
أنت قد غرّك صبح كاذب
أنت شمس نفسك اعرف كل حين
إن في قلبك نفساً من سواك
بسراج الناس مغناك أضاء

في دلالٍ عنده كل جمال
ورأى صبغ سواه دنساً
بطلاء منه تطلّي وجهكما
أنت ذا أم غيرتك الغير^(١)
وخلا البستان من أزهاره
لا تبذ زرعك عمداً باليد
ملأت خلقك أوتار له
مستعارٌ أمل في قلبكما
ليس في سروك في الجو رواء^(٢)
وكذاك الكأس جدوى في اليد
من به تصديق ﴿ ما زاغ البصر ﴾^(٣)
وابتلى كل فراش شمعه^(٤)
ويلتا يا ويلتا يا ويلتا
يطلع الصبح لها بالعدم
أنت عن نفسك حقاً ذاهب
لا تضحها من نجوم الآخرين
باعت الإكسير بالترب يداك
وبخمر الناس في الرأس انتشاء

(١) هل أنت أيها المسلم كما عهدتك ، أم أنت إنسان آخر .

(٢) السرو : شجر طويل شكله كالسنبله دائم الخضرة ، جميل التمايل . يقول الشاعر إن طيرنا لا يستطيع الغناء كالطير ، وسرونا ليس له رواء كالسرو .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] .

(٤) لو عاد الرسول صلوات الله عليه لميز الصادق والكاذب ، وعرف شمعه الفراش الذي يهفو إليه حباً .

لك حول الشَّمع في الحفل دوار
اغشَيْن نارك . هل في القلب نار^(١)
ابقَ في مثواك مثلَ البصر
لا تدغُ عُشَّكَ مهما تطر^(٢)
حيَّ فردٌ نفسه قد عَرفا
وقبيلٌ عن سواه صَدفا^(٣)
عن طريق المصطفى لا تذهبن
واترك الأريابَ ، والله اعْبُدن

﴿ لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُوَلِدْ ﴾

قد علا قومك عن لونٍ ودم
وعلا أسودُه حُمَرَ الأمم
في وضوء قطرةٍ من قبر
هي أغلى من دم من قيصر
اتركن عمّاً وأمّاً وأباً
وكسلمان إلى الدين انسا^(٤)
يا خليلي اسمع حديثي واعقلا
من خلايا النحل هذا المثلا :
قطرةٌ من شقير كالقَبَسِ
ثمَّ أخرى من بياضِ النرجسِ
لم تقل هذي : أنا نيلوفر
أو تقل هاتيك إنِّي عبهرُ
شأن إبراهيم في ملتنا
دين إبراهيم فيه شهدنا
إن جعلت الدم ركنَ الملة
صدعت دعواك جمعَ الإخوة
في ثرانا ليس ينمو بزركا
أنت ما أسلم حقاً فكركا

(١) هنا يقول الشاعر : لا تكن فراشاً يهفو على نار غيره بل اصطل نارك إن تكن في قلبك نار .

(٢) مذهب إقبال أن يثبت الإنسان في نفسه ، يبعد السير ولكن لا يخرج من منهاجه . فليكن كالْبَصَرِ ، يتقلب في العالم ، وهو مكانه ، وكالطائر يحلق في الجو ولا ينسى عشه . يعني أن يكون في فكره وعمله صادراً عن عقيدته وإحساسه هو .

(٣) حياة الفرد أن يعرف نفسه ويعتدَّ بها ، وحياة الجماعة أن تعتمد على نفسها ، وتصدف عن غيرها .

(٤) يروى أنَّ سلمان الفارسي رضي الله عنه سئل عن نسبه ، فقال : سلمان بنُ الإسلام .

ابن مسعود سراج المتقين
أج من موت أخيه صذره
لم يجف الدمع من حرقة
« آه للقلاريء درس العظة
« آه للسرو الذي قد وزفا
« عينه تحرم إبصار النبي

جسمه والروح وجد المختين
وأذاب القلب منه جمره
ناح نوح الأم في لوعته :
ورفيقي في طلاب الحكمة
وشريكي في ولاء المصطفى
وأنا أشهد أنوار النبي^(١) »

ما من الأنساب يقوى وصلنا
إنما حب الحجازي الحبيب
حسبنا آصرة من حبه
جدد الدهر بنا سيرته
عشقه سر اجتماع الأمة
صلة العشق لنا أقوى سبب
أيها العاشق خل النسب
نور حق مثله أمته
« نور حق ما حواه نسب
من ثوى في نسب أو بلد

ليس من روم وغرب أصلنا
قد حباننا ذاكم الوصل القريب
حسب عين نشوة في قربه
مذ حوت أعراقنا نشوته
نبضت منه عروق الملة
هو في الروح ، وفي الجسم النسب
خل إيران ، وخل العربا
قد نمت أغصاننا دوحته
ثوب حق ، لا سدى أو لحمه^(٢)
قد غفا عن لم يلد ولم يولد

(١) يقصد الشاعر من هذه القصة أن ابن مسعود بكى أخاه لما جمعهما من صلة بالنبي لا من صلة النسب .

(٢) البيت لجلال الدين الرومي .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

صاح ! ما المسلمُ للدُّنيا احتقر
زهرةً من شَقِيرٍ في القُننِ
نفساً ينفخ فيها السَّخَرُ
تُشفق الرُّهْرُ عليها تحسبُ
النَّدى منها نَعاساً يَغْسِلُ
﴿ لم يكن ﴾ أمسك بها واشدُّ يدا
ذلك الواحدُ لا شريكَ له
قد سما المسلم أعلى مَنْ سَمَا
ورده ﴿ لا تحزنوا ﴾ في المأزق
حمل الكونين طراً ظهْرُه
أذنه للرعْد إمّا جَلْجَلَا
قاتِلُ الرُّور ، وللحقِّ وزر
جمره كلُّ لهيبٍ في حشاه
ليس في ضوضاء هذي الأمم
هو في العفو وفي البذل عظيمُ
لُطفُه في الحفلِ جبرُ المنكسرِ
هو في الرّوض صفيْرُ البُلبلِ
قلبه تحت سماءٍ لا يقرّ
طائرٌ ينقُر نجمَ الحُبكِ
أنت ، يا مَنْ لم يطرُ منك جناح !
مستكينٌ تشتكي جور الزَّمان

عامراً بالحقِّ قلباً قد عمر ؟
لم ترُعها طلعةً من مُجتنِ
فتراهما لهباً يستعرُ
أنّهما خُلف عنها كوكبُ
وشُعاعُ الشَّمس فيها قُبْلُ
لُتري في الناس حُرّاً أو حَدا
عبده يابى شريكاً مثله
ليس يرضى بمُسام في السَّما
﴿ أنتم الأعلى ﴾ تاجُ المَفرق
وحوى برّاً وبحراً صدره
صدره لِلْبَرْق إمّا نَزْلا
أمره المعيار في خيرٍ وشرّ
جوهراً فيه كمالٌ للحياه
نغمّةٌ إلا أذانُ المُسلمِ
وهو حين القَهر ذو طبعٍ كريمِ
قهره في الحرب صهرٌ للحجرِ
وهو في اليد انقضاض الأجدلِ
هو فوق الرُّهْرِ ما إن يستقرّ
طائراً فيما وراء الفلّكِ
دودةٌ في ظلمةِ التُّرب تُراح
قد أصبتَ الدُّلَّ من هجر القرآن^(١)

(١) القرآن : القرآن .

قد هَبَطْتَ الأرضَ طُهرًا كالنَّدى بالكتاب الحيِّ أمسكت يدا
فإلام العيشُ في التُّرب ؟ ارحلا اصعدنْ فوق السمواتِ العُلَى

شكوى المصنف إلى من أرسل رحمةً للعالمين

نَضَّرْتَ منك مُحيّاها الحياه
الجهاتُ السُّتُّ نورٌ يسطعُ
إنَّ فقرًا فيكَ دُخْرُ الكائنات
أنتَ أشعلتَ مصابيح الحياه
صُورُ الكون بدت من دونكا
نَفْسٌ منك أطار الشُّرّرا
وَسَمَتْ لِلنَّيرينِ الذَّرّةُ
من أبي أنت وأمي أقرب
عشقك النارَ بجسمي يُضرمُ
ومتاعي أَنَّةُ مثلَ الرِّبابِ
كيف لا يُبدي شَجِ أتراحه ؟
ضلَّ عن سرِّ النبيِّ المسلمِ
كلُّهم في قلبه يشوي هُبْلُ

ورأت تعبيرَ رؤياها الحياه
منك ، والأقوامُ جمعاً تَبْعُ
قد تعالى بك قدرُ الكائنات^(١)
وحبوتِ النَّاس من رقِّ نجاه
فاقةً تشكو وتشكو الحَلْكا
فاستحالَ الطَّيْنُ مِنْهُ بشرا^(٢)
وتجلَّت من حشاها القوّةُ
مذ رأى وجهك طرفي المعجَبُ
فليُذب روحِي منه ضَرَمُ
إنها المصباح في بيتي الخراب
كيف لا يُبدي زجاجُ راحه ؟
مؤثّاً قد صار هذا الحرَمُ^(٣)
ومناةً فيه والعُزَّى تحل

(١) الفقر عند إقبال ، كما هو عند الصوفية ، ألا يستغنى الإنسان إلا بالله . انظر مقدمة « ضرب الكليم » .

(٢) يعني : أنَّ الكائنات قبلك كانت في ظلامٍ وفاقةٍ وحاجةٍ إلى من يبعث فيها الحياة والقوة .

(٣) المسلم صار بيت أو ثان بما في نفسه من أهواء ، وعبادة للكبراء .

شَيْخُنَا يَفْضُلُهُ الْبَرْهَمَانُ
 هَجَرَ الْعُرْبَ ، وَفِي الْعُرْبِ عَصَمُ
 فَتَّ بَرْدُ الْعُجْمِ فِي أَعْضَائِهِ
 هُوَ ، كَالْكَافِرِ ، يَخْشَى الْأَجْلَا
 دَاوَهُ كُلُّ طَيْبٍ مَا شَفَا
 هَالِكاً عَزَفَتْهُ مَاءَ الْحَيَاةِ
 قَلْتُ عَنْ أَحْبَابِ نَجْدٍ قِصَّتِي
 فَأَضَاءَ الْحَفْلَ مِنْ لَحْنِي آيَاةُ
 سُمْنَاتٍ رَأْسَهُ يَسْتَوْطِنُ^(١)
 وَأَطَالَ النَّوْمَ فِي حَانَ الْعُجْمِ
 دَمْعُهُ أَبْرَدُ مِنْ صَهْبَائِهِ
 صَدْرُهُ مِنْ قَلْبٍ حَيٍّ قَدْ خَلَا
 فَحَمَلْتُ النَّعْشَ عِنْدَ الْمُصْطَفَى
 وَمِنْ الْقُرْآنِ أَسْرَارَ النَّجَاةِ
 حَدَّثْتُ عَنْ رَوْضِ نَجْدٍ نَفَحْتِي
 وَدَرَى قَوْمِي أَسْرَارَ الْحَيَاةِ^(٢)

قِيلَ : أَهْدِي سَحَرَ أُورُبَّةَ لَنَا
 وَاهْبِي عَوْدَ سُلَيْمَى كَرَمًا
 اهْدِ لِلْحَقِّ ، الَّذِي قَدْ أَفْكَأَ
 إِنْ يَكُنْ قَلْبِي غَوَى لَا يُبْصِرُ
 أَنْتَ يَا مَنْ نَوْرُهُ صَبَحَ الْقُصُورِ !
 اهْتَكَنْ أَسْتَارَ فِكْرِي وَافْضَحْنِ
 وَحَيَاتِي اقْطَعْ لِأَجْلِ الْأُمَّةِ
 أَبْعِدْنِ عَنْ رَوْضَتِي الْغَيْثَ الْمَرِيعَ
 جَفَّفِ الرِّاحَ بِكَرْمِي عَاجِلًا
 وَبِقَانُونِ الْفَرَنْجِ افْتِنَا^(٣)
 وَالْأَبُوصِيرِيَّ بُرْدًا كَرُمًا^(٤)
 الَّذِي يَجْعَلُ مَا قَدْ مَلَكَا^(٥)
 أَوْ سَوَى الْقُرْآنِ لَفْظِي يُضْمِرُ
 أَنْتَ يَا عَالِمَ أَسْرَارِ الصُّدُورِ !
 طَهَّرْنِ مِنْ شَوْكَتِي رَوْضَ الزَّمَنِ
 وَاكْفَيْنِ شَرِّي أَهْلَ الْمَلَةِ
 وَاحْرَمْنِي مِنْ شَأْيِبِ الرَّبِيعِ
 وَامْلَأْنِ وَاحِيَّ سُمًّا قَاتِلًا

(١) سمنات : بيت أصنام معروف في الهند أخربه السلطان محمود الغزنوي ، ويعيد الهنادك بناءه اليوم .

(٢) الآية : شعاع الشمس .

(٣) القانون : آلة موسيقية . وفي الكلام تورية بالقانون الذي معناه الشرع .

(٤) الأبوصيري الشاعر ناظم البردة . وعود سليمان يراد به قوة العرب في الأدب والغناء .

(٥) اهد من ادعى أن فلسفتي مأخوذة من الفرنج ؛ لأنه يجهل ما في دينه من قوانين .

واخزيتني يوم حشر الأمم
أو أكن أخلصت نصحي في البيان
فدعاءً منك أجري وكفى
اسألن الله رب العرش لي
رب قد أنعمت بالروح الحزين
فاجعلن في الفعل حظي أوفرا

واحرمتني منك لثم القدم
ونظمت الدّر من سرّ القرآن
بك كم نال وضيع شرفا
يجعلن عشقي قرين العمل
ونصيأ شئت لي من علم دين
واجعلن قطر ربيعي ذررا

أمل آخر في القلب أقام
هو في صدري كقلبي نزلا
أمل أذكيت منه لهبي
كلما غيظ منّي الزمن
شب في قلبي هذا الأمل
إنه تحت ترابي جوهراً

وتعشقت ذوات الطرر
حين أطفأت سراج العافيه
وغزا قلبي قطّاع الطريق
وبكيسي لم يزل هذا النضار

همت حيناً بذوات الحور
وعلى الرّاح صحبت الغانيه
وأحاطت بيدي نار البروق
وبروحي لم يزل هذا العقار

لبس الزنار عقلي الأزري وغزا روحي بالنقش الفري^(١)

(١) الأزري المنسوب إلى آزر ناحت الأصنام ، وهذا العقل الوثني نقش في روحه نقشاً عجيباً .

في إسار الشكِّ أمضيت سنينُ
أحرفاً ما نلتُ منْ عِلْمِ اليقينِ
لم يُلح في ليلِ عُمرِي نورُ حقِّ
وفؤادي مُضمراً هذا الرجاء
ثمَّ مِنْ عيني دمعاً سَجَمَا
وهو في رأسي مقيمٌ لا يبين
ومن الحكمة في الريب رهين^(١)
لم يُنزل لي شعاعٌ من شفقِ
صدفٍ في قلبه دُرٌّ أضواء
وتجلَّى في فؤادي نغماً^(٢)

يا مَنْ القلبُ سِواه أغفلا !
سيرتي ما ضاء فيها العملُ
أنا مِنْ إظهاره في خجلِ
يا رحيماً بك للناس مفاز
هَجَرُ غير الله شأنُ المسلمِ
حسرةُ المسلم إنْ حُمَّ الممات
ويلَ يومي ، وهنيئاً لغدي
حبَّذا أرضٌ تراها موطننا !
اِذْنَنْ أذكر هذا الأمل
كيف مثلي مثلَ هذا يأملُ ؟
منك لُطفٌ يَسِّرُ الجُرأة لي
كلُّ ما أبغيه موتي في الحجاز^(٣)
كيف لي عيشٌ بيت الصنم ؟
أن يكون الدَّيرُ مثوى للرُّفات^(٤)
إنْ أقم في ذا الحِمَى من لَحدي
حبَّذا تربُّ تراه مسكننا !

(١) الحكمة : الفلسفة .

(٢) هذا الأمل الذي كرر الشاعر ذكره وأطال في وصفه تحوُّل دمعاً سجم في عينيه ، ونغماً رنَّ في قلبه .

(٣) كرَّر الشاعر هذا الرجاء في شبابه قبل وفاته بثلاثين سنة إلى أن توفي ، وروى الأستاذ يوسف جشتي شارح دواوينه الشعرية أنَّ أحد أصحاب محمد إقبال دخل عليه في يناير سنة ١٩٣٨ م (أي : قبل وفاته بثلاثة أشهر) وأخبره أنه عزم على الحجِّ ، وسأله أن يدعو الله ليقبل حجَّه ، فبكى إقبال بكاءً شديداً وقال : بل أسأل الله أن ييسِّر لي زيارة روضة الحبيب ﷺ .

(٤) يعني : أن بلاد الهند يسيطر عليها الإنكليز ، وليست بلاداً إسلامية خالصةً ، فهي ليست جديرة أن يعيش فيها المسلم ، أو يعبر فيها .

« دارُ حُبِّي ومليكي والسَّكن
كوكبي أَطْلَغُهُ بالسَّعد غدا
ليرى الراحةَ قلبي القَلِقُ
أَيُّهَا الدَّهر انظُرْ هذا السَّلام

أَيُّهَا العُشَّاقُ ! ذَا نِعَمَ الوطن ^(١)
في ظلال الدَّار هبْ لي مرقدا
ويرى الهدأةَ هذا الزَّئبقُ
قد رأيتَ البدءَ فانظر ما الختام

(١) هذا البيت أحسبه مقتبساً من جلال الدين الرومي . والسكن هنا : من يسكن إليه الإنسان ، ويطمئن .

الدِّيَّوَانُ الثَّالِثُ

رِسَالَةُ الشَّرْقِ
پیام مشرق

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
الدُّكْتُور عَبْدُ الْوَهَّابِ عَزَّام

طبع هذا الديوان أوّل مرّة باللغة الفارسية عام ١٩٢٣م ، وكتب الشّاعر فوق
عنوان الديوان : ﴿ وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة : ١١٥] وكتب تحته : « جواب
ديوان الشّاعر جوته » .

وقدّم محمد إقبال هذا الديوان على أنّه شعر الفارسيّة الكامل ، لأنّه قدّم إلى
القارئ اللغة الفارسية في مجموعة من الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشّعـر
الفارسي من الغزل والرّباعي والبيتي والقطع والمثنوي وغيرها ، ويصادفنا في
الديوان الشّعـر الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت .

والديوان روضةٌ من الشّعـر تختلف أزهارها ، ونوارها ، وضروب النبات
فيها وألوان وصنوف الرّيحان فيها ، وروائحه جمعت أشـتات الزهر من المشرق
والمغرب .



محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان على هذه الأقسام :

القسم الأول : شقائق الطور ، وهي رباعيات .

القسم الثاني : الأفكار ، وهي إحدى وخمسون قطعة وقصيدة .

القسم الثالث : الخمر الباقية ، وهي قصائد صوفية ، رمزية من الضرب الذي يسمّى في اصطلاح الأدب الفارسي والأردوي غزلاً ، وهو غير الاصطلاح العربي ، وعدد الغزليات في هذا القسم خمس وأربعون .

القسم الرابع : نقش الفرنج ، وهي أربع وعشرون قطعة وقصيدة ، يذكر فيها الشاعر بعض شعراء أوربة وفلاسفتهم ، وينقد مذاهبهم وآراءهم ، فيقبل منها ويرد .

القسم الخامس : الدقائق ، وهي قطع صغيرة ، وأبيات مفردة ألحقها الشاعر بهذا الديوان . وقد ترجم هذا الديوان بكامله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو يُقدّم إليك الآن مع مقدمة الشاعر .

مقدمة محمد إقبال^(١) لديوان « رسالة الشرق »

نظمتُ بيام مشرق لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول فيه الشاعر الألماني الإسرائيلي هاينا :

« هذه باقةٌ من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق ويتبين من هذا الديوان أنَّ المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق » .

ما المؤثرات وما الأحوال التي كتب فيها جوته هذه المجموعة من الأشعار التي هي أحسن آثاره ، والتي سمّاها هو باسم « الديوان » .

لا بدّ للإجابة عن هذا السؤال أن نبين إجمالاً هذا التأثير الذي سمي في تاريخ الأدب الألماني التأثير الشرقي . وددت أن أفصّل في هذه المقدمة الكلام في هذا التأثير ، ولكن المراجع الكثيرة التي يحتاج إليها في هذا البحث لم تيسر في الهند . وقد بين بال هورن مؤلف تاريخ آداب إيران في مقال له مقدار ما كان جوته مديناً لشعراء الفرس . ولكن العدد المشتمل على هذا المقال من مجلة نارو أندسود لم يمكن الحصول عليه في خزانة كتب في الهند ، ولا من ألمانيا . فلا مناص من أن أعتمد في كتابة هذه المقدمة على ما أذكر من دراستي السابقة وعلى الرسالة المختصرة المفيدة البارعة التي كتبها في هذا الموضوع مستر « شارلس ريمي » .

كانت طبيعة جوته المتطلعة تميل منذ الحداثة نحو الأفكار الشرقية ، وفي

(١) كتبها محمد إقبال بالأردوية ، ونقلها إلى العربية خلال ترجمة هذا الديوان الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزّام .

استراسبورج حيث كان يتعلّم القانون لقي هردر ذا المكانة والصيت في الأدب الألماني . ويعترف جوته في سوانحه بما تركت صحبة هردر في نفسه .

لم يكن هردر يعرف الفارسيّة ، ولكن لغلبة النزعة الأخلاقية عليه كان لكتب سعدي أثر بليغ في نفسه حتّى ترجم بعض فصول كلستان إلى اللغة الألمانية . ولم يكن لحافظ الشيرازي هذه المكانة عنده ، وهو يقول داعياً معاصريه : قد غنينا كثيراً على أسلوب حافظ وقد وجب الآن أن نقتدي بسعدي . ولكن مع حب هردر الآداب الشرقية هذا الحبّ لا يُعرف في شعره أو مؤلفاته الأخرى أثرٌ من هذه الآداب . وكذلك كان شلر معاصر جوته الثاني بعيداً عن تأثير الشرقيين . وقد مات قبل ظهور التأثير الشرقي ، وينبغي ألا نغفل عن هذه المسألة : إنّ قصّته « توران دخت » أخذت خطتها من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع التي كتبها نظامي الكنجوي في « هفت بيكر » واستهلّها بقوله :

كفت كز جمله ولايت روس

بود شهري بنيكوئي چو عروس

وسنة ١٨١٢ نشر فون همر ترجمةً كاملةً لديوان حافظ : وبهذه الترجمة ابتداء التأثير الشرقي في آداب الألمان . وكان عُمر جوته إذ ذاك خمساً وستين سنة . وكان هذا على حين بلغ انحطاط الألمان غايته في كلّ ناحية . لم تكن طبيعة جوته مهياة للمشاركة عملاً في الحركات السياسية في وطنه ، فلما ضاق بالاضطراب الشائع في أوروبا أخذت روحه القلقة المحلقة تلمس عشاءً في فضاء الشرق الساكن الآمن .

وقد أثارت أناشيد حافظ هياجاً كبيراً في أفكاره ، فاختر آخر الأمر « للديوان الغربي » صورةً متميزة ثابتة ، ولكن ترجمة فون همر لم تكن مؤثرة في جوته فحسب ، بل كانت مأخذاً لخيالاته العجيبة الغربية ، فيبدو نظمه أحياناً كأنّه ترجمةٌ حرّةٌ من شعر حافظ ، وأحياناً تجد قوةً تخيُّله في مصرعٍ

واحد مهيعاً جديداً تنير فيه مسائل في الحياة بالغّة في الدّقة والصّعوبة .

يقول بيل شوسكي كاتب سوانح جوته المعروف :

كان جوته يرى صورته في نغمات بلبل شيراز ، وكان يخطر له بين الحين والحين أنّ روحه لبست صورة حافظ ، فعاشت في بلاد الشرق . فنحن نجده شبيه حافظ في ذلك الشّروور الأرضي ، وتلك المحبة السّماوية ، وذلك اليسر ، وذلك العمق ، وذلك الغليان والتوقد ، وتلك السّعة في المذهب ، وهذا النّور القلبى ، وذلك التحرّز من الرسوم والقيود . بل في كلّ أمر حافظ ، لسان الغيب ، وترجمان الأسرار ، وكذلك جوته . ولحافظ عالم من المعاني في ألفاظٍ بسيطةٍ في ظاهرها ، وكذلك في طريقة جوته المطبوعة تتجلّى الحقائق والأسرار ، وكلاهما نال إعجاب الأمير والصعلوك ، وكلاهما أثر في فاتحي عصره العظام « يعني حافظ في تيمور ، وجوته في نبوليون »^(١) وكلاهما في عصر اضطرابٍ عامٍّ وخراب ، حافظ على السكون والطمأنينة في قلبه مبتهجاً بالمضيّ في ترنمه القديم .

ثم جوته مدينٌ في أفكاره لغير حافظ : للشيخ عطار ، وسعدي ، والفردوسي ، وللأدب الإسلاميّ عامّةً . فقد كتب في بعض المواضع غزلاً في قيود القافية والرديف ، وهو يستعمل في لغته استعاراتٍ فارسيّةً بغير تكلف مثل : جوهر الأشعار ، وسهام الأهداب ، والطّرة المعقودة ، بل هو في فورة الفارسية لا يحترز من الإشارة إلى الولوع بالمرد . ثم أسماء أقسام الديوان فارسية كذلك مثل « مغنى نامه - ساقى نامه - عشق نامه - تيمور نامه - حكمت نامه ، وغيرها » ومع هذا كلّهُ فليس هو مقلداً أيّ شاعرٍ فارسيّ . فطرته الشعرية حرّةٌ ولا ريب . وإنما غناؤه في مروج الشقائق المشرقية عرضيّ محض . وهو لا يفرط في غربيته ، وإنما يقع بصره وحده على الحقائق الشرقية التي تلائم

(١) لا تصحّ رواية التّقاء حافظ وتيمور فقد توفي الشاعر قبل أن يفتح تيمور شيراز .

فطرته الغربية . ولم يمل إلى التصوف العجمي قط . وكان يعلم أنَّ أشعار حافظ تفسر في المشرق تفسيراً صوفياً ، ولكنه لم يكلف إلا بالغزل محضاً ، ولم يهتم بالتفسير الصوفي في كلام حافظ أيَّ اهتمام .

وكانت معارف مولانا الرُّومي وحقائقه الفلسفية مبهمةً عنده . لا يمكن أن ينكر الرومي رجلٌ مدح سبنوزا (فيلسوف هولندي كان يقول بوحدة الوجود) وأعمل قلمه في الدفاع عن برونو (فيلسوف إيطالي وجودي)^(١) .

والخلاصة أنَّ جوته في الديوان المغربي اجتهد في إظهار الروح العجمية في الأدب الألماني .



وقد أكمل الأثر الشرقي الذي بدأ في ديوان جوته الشعراء الذين جاؤوا بعده : بلاتن ، وروكرت ، وبودن ستات .

فأمَّا بلاتن ؛ فقد تعلَّم الفارسيَّة لمقاصد أدبيَّة ، ونظم غزلاً في القافية المردوفة ، بل في العروض الفارسي ، ونظم رباعيات ، ونظم قصيدةً في نبوليون . واستعمل الاستعارات الفارسية بغير تكلفٍ ، مثل جوته : عروس الورد ، والطرة المسكية ، وشقائق العذار . وهو مولع بالتغزل المحض كذلك .

وأمَّا روكرت ؛ فكان ماهراً في الألسنة الثلاثة : العربية ، والفارسية ، والسنسكريتية . وكان لفلسفة الرومي مكانةً عظيمةً في رأيه . وتأثير مولى الروم فيما كتب من غزلٍ كان أوضح ، وكانت مصادره من الأشعار الشرقية أوسع بما عرف من لغات الشرق .

وقد التقط لآلء الحكمة من مخزن الأسرار لنظامي ، وبهارستان جامي ،

(١) يعني أنَّ الرومي كان من القائلين بوحدة الوجود ، فلو عرفه جوته لعني به ، كما عني بهذين الفيلسوفين .

وكليات أمير خسرو ، وكلستان سعدي ، ومناقب العارفين ، وعيار دانش ، ومنطق الطير ، وهفت قلزم ، بل زين كلامه بقصص وروايات إيرانية ترجع إلى ما قبل الإسلام . وقد أحسن نظم بعض واقعات التاريخ الإسلامي وأشخاصه مثل موت محمود الغزنوي ، وغزو محمود سومنات ، والسلطانة رضية^(١) وموضوعات أخرى .

وأكثر شعراء الأسلوب الشرقي قبولاً بعد جوته : بودن ستات ؛ الذي نشر منظومات بالاسم المستعار « مرزا شفيع » وقد لقيت هذه المجموعة الصغيرة من القبول ما اقتضى طبعها مئة وأربعين مرة في مدّة قصيرة . أحسن هذا الشاعر تصوير الرّوح العجمية حتى بقي الناس في ألمانيا زمناً طويلاً يحسبون أشعار مرزا شفيع ترجمة شعر فارسي .

وقد استفاد بودن ستات من أمير معزي ، وأنوري كذلك .

ولم أرد أن أذكر في هذا الصدد هاينا معاصر جوته المشهور ، إذ لم يكن في الجملة ذا صلة بالتأثير الشرقي ، ولم يهتمّ بما اقتبس شعراء ألمانيا من الشعر الشرقي إلا ديوان جوته ، على أنّ الأثر العجمي بين في مجموعته المسماة « الأشعار الجديدة » وقد أجاد جداً في نظم قصة محمود ، والفردوسي ، ولكنّ قلب هذا الشاعر الألماني الحرّ لم يستطع الإفلات من شرك سحر العجم ، حتى لقد تصوّر نفسه مرّة شاعراً إيرانياً أجلي إلى ألمانيا يقول :

« يا فردوسي ! يا جامي ! يا سعدي ! إنّ أخاكم في سجن الغم يخفق حيناً إلى أزهار شيراز » .

ثم نذكر من مقلدي حافظ الأدنين منزلة ، دوبر ، هرمن ستال لوشكي ، ستابك ، لتز ، لنت هولده ، وفون شاك . وهذا الأخير كان ذا منزلة عالية في العلم ، ونظمه قصة إنصاف محمود الغزنوي ، وقصة هاروت وماروت

(١) من دولة المماليك التي قامت في دهلي .

مشهور . وأوضح الآثار في كلامه : أثر عمر الخيام .

وبعد فلا بدّ من بحثٍ طويلٍ لكتابة تاريخ كامل لتأثير الشرق في الأدب الألماني ، والمقابلة بين شعراء إيران وألمانيا ، لتقدير أثر العجم تقديراً حقاً ، ولكن لم يتيسّر الوقت ، ولا العدّة لهذا البحث . ولعلّ هذا البحث المختصر يثير قلب أحد الشبان للتحقيق والتدقيق في هذا الشأن .

وأما « پیام مشرق » الذي كتب بعد « الديوان الغربي » بمئة سنة فلست في حاجة إلى الإبانة عنه . فسرى الناظرون فيه بأنفسهم أنّ أكثر ما يرمي إليه هو النظر في الحقائق الأخلاقية ، والدينية ، والمذهبية ؛ التي تتّصل بالتربية الباطنية في الأفراد والأمم . ولا ريب أنّ بين ألمانيا قبل مئة سنة وأحوال الشرق الحاضرة تشابهاً ما ، ولكن الحقيقة أنّ الاضطراب الباطن في أمم العالم .. الذي لا نستطيع تقدير خطره لأننا متأثرون به - هو مقدمة انقلاب حضاري وروحاني عظيم جداً .

كانت الحرب العظمى التي قامت في أوربة قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وأن الفطرة لتخلق اليوم في أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنساناً جديداً وتخلق عالماً جديداً لإقامة هذا الإنسان . عالماً يرى هيكله غير البين في مؤلفات آين شتاين ، وبركسون .

لقد رأت أوربة بعينها النتائج المخوفة لمثلها الاقتصادية ، والأخلاقية ، والعلمية . وسمعت من سنيور نيتي « الذي كان رئيس وزراء إيطاليا » قصة « انحطاط الفرنج » المحزنة ، ولكن وأسفاه لم يستطع عبّاد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدرُوا الانقلاب المدهش الذي كان يثور في الضمير الإنساني .

وإذا نظرنا نظرة أدبية خالصة نرى أنّ اضمحلال قوى الإنسان بعد الحرب لا ييسر نشوء مثلٍ روحيةٍ صحيحةٍ ناضجة . بل يخشى أن تغلب على طبائع

الناس هذه الإباحية المنهوكة الضعيفة الأعصاب التي تفرُّ من مصاعب الحياة ،
والتي لا تميز بين نزعات القلب وأفكار العقل . لا شك أنَّ أمريكا عنصر صحيح
في الحضارة الغربية ، فلعلَّ هذا الإقليم خالص من قيود الروايات القديمة ،
ولعلَّ وجدانه الاجتماعي يقبل راضياً الأفكار والنزعات الجديدة .

إنَّ الشَّرق ، ولا سيما الشَّرق الإسلامي ، يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة .
ولكن يجب على أمم الشرق أن تتبيَّن أنَّ الحياة لا تستطيع أن تُبدَّل ما حولها حتى
يكون تَبَدُّلٌ في أعماقها ، وأنَّ عالماً جديداً لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجي
حتى يوجد في ضمائر الناس قبلاً . هذا قانون الفطرة الثابت الذي بينه القرآن في
كلمات يسيرة وبليغة : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]
إنه قانونٌ يجمع جانبي الحياة كليهما الفردي والاجتماعي . وقد اجتهدت في
كتبي الفارسية أن أبين للناس صدقه ، وأنَّه لجدير بالإكبار كلُّ مسعى في العالم
- ولا سيما في بلاد الشرق - يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق
الحدود الجغرافية ، فيولد أو يجدد فيها سيرة إنسانية صحيحة قوية .

وأختم بالشَّاء على صديقي جودهري محمد حسين . ام . اي ، قد رتَّب مُسَوِّدات
« پیام مشرق » للطبع . ولولا احتمال هذه المشقة لكان عسى أن يتأخَّر نشرُ هذه
المجموعة مدَّةً طويلة .

إقبال



القسم الأول

شقائق الطور

- ١ -

شَهِيدٌ دَلَالَهُ حَفْلُ الْوُجُودِ وَكُلُّ الْكَائِنَاتِ مِنَ الشُّجُودِ^(١)
أَلَمْ تَرَ أَنَّ شَمْسَ الْأُفُقِ لَاحَتْ بَوَجهِ الصُّبْحِ مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ؟

- ٢ -

بِقَلْبِي مِنْ تَحَرُّقِهِ ضِيَاءُ وَيَجْلُو النُّورَ فِي عَيْنِي الْبُكَاءُ
فَزَادَ مِنَ الْحَيَاةِ نَوَى غَبِيٍّ يَقُولُ : الْعِشْقُ مَسٌّ أَوْ هَرَاءُ

- ٣ -

نَسِيمُ الْعِشْقِ فِي الْجَنَّاتِ جَارٍ وَيُنْمِي الْعِشْقُ أَزْهَارَ الْبَرَارِي
وَيَخْتَرِقُ الْبَحَارَ لَهُ شِعَاعٌ فِيَهْدِي الْعِشْقُ حَيْثَانَ الْبَحَارِ

- ٤ -

رَمُوزُ الْعِشْقِ فِي وَرَقِ الشَّقَائِقِ وَغَمُّ الْعِشْقِ فِي رُوحِ الْخَلَائِقِ
وَإِنْ تَصْدَعُ طَبَاقَ الْأَرْضِ تُبْصِرُ نَصِيبَ الْعِشْقِ مِنْ دَمٍ كُلِّ عَاشِقٍ

- ٥ -

وَمَا كُلُّ لَهُ فِي الْحُبِّ كَفْلٌ وَمَا كُلُّ الْوَرَى لِلْحُبِّ أَهْلٌ
عَلَى وَرَقِ الشَّقَائِقِ وَشَمُّ غَمٍّ وَيَخْلُو مِنْ شَرَارِ الْقَلْبِ لَعْلٌ^(٢)

- ٦ -

بِهَذَا الْمَرْجِ مِثْلَ الرِّيحِ^(٣) أُشْرِي عَلَامَ أَهِيْمٍ فِيهِ ؟ لَسْتُ أُدْرِي
فَإِنْ أَظْفَرُ وَإِنْ أَخْفَقُ فَإِنِّي شَهِيدٌ تَضَرُّمِ الْأَمَالِ عُمْرِي

(١) جمع ساجد .

(٢) اللعل : أي العقيق .

(٣) الريح : الرائحة .

- ٧ -

يقول العندليب : أيا صحابي ! أغيرُ الغمِّ في هذا التراب ؟
يُشِخُّ الشوكُ في عَرْضِ الفيافي ويدوي الوردُ في عُمُرِ الشبابِ

- ٨ -

لَبْدءُ أو ختامٍ لَسْتُ أُشْرِي أنا سرُّ أحاولُ كَشَفَ سرِّ
فإنْ بَدَتِ الحَقِيقَةُ دونَ ستر رجعتُ إلى « لعلَّ » و « ليت شعري »

- ٩ -

أقربي ! كالفراش هوى ، إلامه ؟ ولا تمضي مضاء فتى ، إلامه ؟
بنارك فاحترق يوماً وأقدم بنارِ الأجنبيِّ صُلَى ، إلامه ؟^(١)

- ١٠ -

أقمُ بدنأً على كفِّ الغُبارِ^(٢) شديدَ الأسرِ صُلْباً كالحجار
وقلباً فيه جيَّاشاً بهم كنهٍ في حمى الأطوادِ جار

- ١١ -

أنجمَ الصُّبحِ تُسرِعُ في فراقِ لعلَّك من رُقادي ضقتَ ذرعا
ضللتُ بغفلتي سُبُلِي ولكن أتيتَ وجُزتنا يقظانَ تسعى

- ١٢ -

وكم ذا في الوجود من الحُبور ! أرى اللَّذاتِ في شوقِ الظهورِ
ويصدِّعُ غُصْنَه بُرْعومُ زهرٍ فيبسمُ للحياةِ من الشُّرورِ

- ١٣ -

تقول فراشةٌ من قبل خلقِ أنلني لمحاةٍ قلقِ الحياةِ
رمادي فاذرهُ سَخِراً ولكن أذقني ليلةً حُرَّقَ الحياةِ

(١) هذه الرباعية مردوفة . فيها الروي قبل الكلمة المكررة .

(٢) يكثر التعبير في الفارسية عن الإنسان بكف غبار « مشت خاك » .

- ١٤ -

بني الإسلام ! سرٌّ في ضميري يُضيء كروح جبريلَ الرسولِ
أخادع آزريَّ الطبع عنه^(١) فهذا السرُّ من سرِّ الخليل

- ١٥ -

أراك بسرٍّ أفلاك تجولُ وتجهلُ سرَّ نفسك يا جهولُ
فوجّه - كالنواة - إليك عينا ليثبت من قراراتك النخيلُ

- ١٦ -

تغنى طائرٌ سحرًا طويلا فأبدعَ شدوه نغمًا وقيلًا :
أبى عمّا بصدرك لا تدغّه غناءً أو أنيناً أو عويلا

- ١٧ -

أتبغي عند مثلي من شرابٍ يرُدُّك من وجودك كالبعيد
فلا تطلب بسوقي من متاعٍ سوى صدرٍ تمرّق كالورود^(٢)

- ١٨ -

تسوءك روضتي مرأى إذا لم يسرُّك في طلابِ بذلُ روح
أبين في عُروق الورد سرّاً ريعي ليس من لونٍ وريح

- ١٩ -

أنا في الروض مُنفردٌ غريبٌ على غضني أنوخ مع الرياح
فإن تك من رفاق القلب فابعد فإنّ دمي ليرشح في نواحي

- ٢٠ -

أهاب إسكندرُ بالخضر : أقبلُ وعان الكدّ في بحرٍ وبرٍ
وموتن في الوغى تزدّد حياةً إلام تحيد عن كرٍّ وفرٍّ ؟

(١) آزري الطبع : الذي يشبه آزر والد إبراهيم ، وكان ينحت الأصنام ، وكان ولده الخليل يدعو إلى التوحيد .

(٢) جمعُ ورد . والورد في خياله يمرّق صدره ليتجلّى جماله .

- ٢١ -

له نقشٌ يُجدّد كلّ حينٍ فلا تبقى الحياةُ على غرار
فإن صوّرت يومك مثل أمسٍ فما يحوي ترابك من شرار

- ٢٢ -

بهذا المَرَج ما علّقتُ قلبي مضيتُ ولم تعوّقني القيودُ
كريح الصُّبح طفتُ به قليلاً مضيتُ ونصّرت منّي الورودُ

- ٢٣ -

أجاش بقطرتي بحراً وردّت حُمَيّاه ترابي جام جم^(١)
أقام العقلُ أصناماً برأسي خليلُ العشق بادرها بهدم

- ٢٤ -

أتيت الطُور تلتمسُ التجلّي فروحك منك لست في وصال
فأقدم في طلابك آدمياً كذاك الله في طلب الرّجال

- ٢٥ -

لخوف الموت قلبك في ارتعادٍ ولونك حال من خوف الشّتاتِ
فنفسك أحكمن وازدد نضوجاً فإن تفعل تعش بعد المماتِ

- ٢٦ -

دع الرازيّ في تفسير آي فإن ضميرنا نعم الدليلُ
يضرّم عقلنا والقلبُ يصلّي بذا نمرود فسّر والخليلُ

- ٢٧ -

فأبلغ شاعر الألوان عني : لهيبك كالشّقائق لا يضيرُ
فنفسك لا تُذيب بنار قلبٍ ولا ليلاً لمحزونٍ تنيّرُ
جميلُك أو قبيحُك لا أراه جعلت عياره ربحاً وخُسراً
بهذا الحفل من مثلي وحيداً ؟ أرى الدُّنيا بعينٍ في أخرى

(١) كاس جمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية كان يرى فيها العالم .

- ٢٨ -

دع الشُّطَّانَ لا تَركنُ إليها ضعيفٌ عندها جرسُ الحياةِ
عليك البحرَ صارَ فيه موجاً حياةُ الخلدِ في نَصَبٍ تُواتي

- ٢٩ -

أَتَكثُرُ لي حديثاً عن حياةٍ ولستُ أراكَ فيها بالحقيقِ؟
سَكِرْتُ بلذةَ التَّسيارِ حتَّى جعلتُ منازلِي مِثْلَ الطَّرِيقِ^(١)

- ٣٠ -

مَرَزْتُ بزهرةٍ ذبلتُ فقالت وجُودي مِثْلُ ما طارَ الشَّراؤُ
يَذوبُ لِمُخَنَةِ النِّقاشِ قَلْبِي فليسَ لنقشٍ لِيقتَه قَرارُ

- ٣١ -

أرى الدُّنيا على سعةٍ كحوتٍ من الأيامِ في بحرٍ عميقِ
فقلِّبك أبصرنُ واعجب لبحرٍ منَ الأيامِ في كاسِ غريقِ

- ٣٢ -

أنا في المرحِ حَدِيثُ الطيورِ ومقولُ كلِّ بُرعومٍ صَغيرِ
فأَسْلَمَ لِلصَّبا تُربي بموتي فما لي غيرُ طوفٍ بالزُّهورِ

- ٣٣ -

أوادي الوردِ يُبدي كلَّ شيءٍ فما سرُّ الشَّقائِقِ في لهيبِ؟
بأعيننا الرُّبى أمواجُ لونٍ فكيف تُرى بعينِ العندليبِ

- ٣٤ -

دماغِي يَعشقُ الأصنامَ كَفْراً يربُّها ويعبدُ كلَّ حينِ
فأبصر في فؤادي نارَ عشقٍ بعيدٌ أنتَ مِن سَنَي وديني

(١) يعني : أن كلَّ منزل يبلغه يعدُّه علامة على الطريق لا غاية . والميل الحجر يبين المسافة .

- ٣٥ -

عِوَالِمُ مِنْ نَجُومٍ لَا تُحَدُّ يطِيرُ الْفِكْرُ فِيهَا لَا يُرَدُّ
وَلَكِنْ فِي خَفَايَا الْقَلْبِ يُلْفَى لَمَّا يَحْتَوِيهِ الْحَدُّ ، حَدُّ

- ٣٦ -

بِسَلْسَلَةِ الْقَضَاءِ رِبَطَتْ رَجُلًا وَفِي سَعَةِ الْعِوَالِمِ ضُمَّتْ حَالًا
فَقُمَ إِنْ كُنْتَ فِي رَيْبٍ وَحَاوَل تَجِدُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا مَجَالًا

- ٣٧ -

بِضَرْبِكَ قَدْ عَلَتْ أَنْغَامُ رُوحِي أَفِي رُوحِي وَخَارِجَهَا تَكُونُ ؟
بِرَقِّكَ خَامِدٌ وَبِكَ اشْتَعَالِي بَلَا كَيْفٍ فَكَيْفَ تُرَى بِدُونِي

- ٣٨ -

أَيَا قَلْبِي ! أَيَا قَلْبِي ! أَيَا قَلْبِي ! أَيَا فُلُكِي ! وَيَا بَرِّي وَبَحْرِي !
قَطَرْتُ عَلَى تُرَابِي كَالنَّدَى أَمْ نَبْتُ بِتُرْبَتِي بُرْعُومَ زَهْرٍ ؟

- ٣٩ -

أَتَسْأَلُ مَنْ أَنَا مِنْ أَيْنَ جِيتَ حَبِيتُ بِمَا عَلَى نَفْسِي طُويْتُ
بِهَذَا الْبَحْرِ مِثْلَ الْمَوْجِ أُسْرِي إِذَا لَمْ أَطُوفِ فِي نَفْسِي فَنِيتُ

- ٤٠ -

عَلَيْكَ السَّيْرَ لَا تَرْغَبْ مَقِيلًا وَسِرُّ كَالشَّمْسِ لَا تَرْقُبْ دَلِيلًا
وَهَبْ لِلْآخِرِينَ مَتَاعَ عَقْلٍ وَنَارَ الْعِشْقِ فَاحْفَظْهَا بِدِيلًا

- ٤١ -

أَلَا يَا عَشْقُ ! يَا رَمَزَ الْفُؤَادِ ! وَيَا زَرْعِي النُّضِيرِ ! وَيَا حِصَادِي !
تَقَادِمَ أَهْلُ هَذَا الثُّرْبِ فَاخْرُجْ بِأَدَمِ مُحَدَّثٍ مِنْ ذَا الرَّمَادِ

- ٤٢ -

يَرَى قَلْبُ الشُّجَاعِ اللَّيْثَ وَهَمًا وَفِي قَلْبِ الْجَبَانِ الظُّبْيَ بَيْرُ
فَإِنْ تَجَبَّنَ رَأَيْتَ الْمَوْجَ وَحَشًا وَإِنْ تَشَجُّعَ فَإِنَّ الْبَحْرَ بَرُّ

- ٤٣ -

أخمرأ خلتني أم كأسَ خمرٍ ودُرأ خلتني أم كـيـس در
أراني غير رُوحِي وهي غيري متى أنظر إلى مكنون سرِّي

- ٤٤ -

تقول : بطيرنا عَلِقَتْ قيوْدُ وفي شَرِكِ الجسوم لها همودُ
ومعنى الرُّوح بالأجسام يعلو مِنُّ سيوفنا هذي الغُموْدُ

- ٤٥ -

فكيف بقلبنا وَلَدَ الرَّجَاءُ وكيف سراجُ منزلنا يُضَاءُ
ومن في العين يبصر ؟ ما يراه ؟ وكيف حوى النُّهى طينٌ وماءُ

- ٤٦ -

لنا كون لأزميلٍ ونحتٍ يقلِّبه صباحُك والمساءُ
مثالٌ من تُرابٍ لم يكْمَلِ يسوِّيه بمبرده القضاءُ

- ٤٧ -

طريقُك فأنحتنه في كفاحٍ طريقُ سواك مسلَّكه عذابُ
فإن أبدعت في عملٍ فريٍّ وإن يك مأثماً فلك الثوابُ

- ٤٨ -

دليلُ القلب لا يرضى نزولاً ولا يُرضيه مأوكُ والتُّرابُ
فلا تحسبه في جسدٍ مقيماً فلا يرضى بشطُّ ذا العُبابُ

- ٤٩ -

تَخَذْتُ لخلوتي طيني ومائي وبُوعَدَ بين أفلاطٍ وبينِي
فلم أستجد يوماً عين غيري ولم أر عالمي إلا بعيني

- ٥٠ -

ترى رمز الحياة بكل كمٍّ مجازٌ فيه يا قلبي الحقيقه
بُشربٍ مظلَمٍ ينمو ولكن له عينٌ إلى شمس الخليقه

- ٥١ -

يُضيء على المروج وكلّ سَهَبٍ وكأسُ الورد فيه نورُ حُبِّ
وما تَغشى الورى ظلماتُ ليلٍ فحرقته السّراج لكلّ قلب

- ٥٢ -

وبالعدم استزابت ثمّ راغت فحلّت قلبَ آدم للثّواء

- ٥٣ -

بقلبي سرُّ جُثمانٍ وروح فلا فزع إذا أجلي أتاني
فإمّا غاب عن عينيّ كونٌ فباقٍ ألفُ كونٍ في جناني

- ٥٤ -

مزاجَ الزّهر أعرف في يقينٍ وريحُ الورد في خلد الغصونِ
وحبّيني إلى الأطيّار أنّي عرّفتُ لها مقاماتِ اللّحونِ

- ٥٥ -

نظامُ الكون من شعر الرّجاء له الأوتار من وتر الرّجاء
بعيني كلّ ما يمضي ويأتي هو اللّمحات من دهر الرّجاء

- ٥٦ -

يهيمُ القلبُ في أثر الرّجاء وصدري من ضجيجٍ في عناءٍ
فلا تطمعُ جليسي ! في حديثي فإنّي من فُؤادي في نداءٍ

- ٥٧ -

أرى الحكماء تحطمُ كلّ شكلٍ ومن هذا الوجودِ بسومنا^(١)
يريدون الملائك في طلابٍ وما ظفروا بآدم في الحياة

- ٥٨ -

جلستُ مع الطبيعة ألف عامٍ وُصِلْتُ بها وعن نفسي فُصِمْتُ
قُصارى سيرتي في ذاك أن قد نحتُ ، وقد عبدتُ ، وقد حطمتُ

(١) معبد أصنام معروف في الهند .

- ٥٩ -

بنفسي جلوة الأفكار ، ما هذا ؟ وحوالي محشر الأسرار ، ما هذا ؟
أبن لي يا حكيم : يقيم جسمي وروحي دائم التسيار . ما هذا ؟

- ٦٠ -

بكيفك إن تُحِطُ خُبْرًا وكَمَّكَ يفيض مِنْ قطرة لك فيض يَمَّكَ
فيا قلبي لم استجداء شمسٍ ؟ من الأنفاس نوّز ليل غَمَّكَ

- ٦١ -

أفق ما القلبُ بالأنفاس يحيا ولا هو رهْنُ ما يبقى ويفنى
أخا الأوهام لا ترهب حِماماً فإن نفسٌ مضى فالقلبُ يبقى

- ٦٢ -

إلى أهل التَّصَوُّف والصفاء رجالُ الله أرباب الضياء :
أنا عبدُ الهَمَّة عبد نفس بنورِ النَّفس للخلّاق راء

- ٦٣ -

بُعْدَةٌ حاننا الغبرا غُبار ودورة كاسِنَا الفلكُ المُدار
حديثُ جهادنا مُضِن طويل ودُنْيَانَا لِقَصَّتْنَا اختصار

- ٦٤ -

وما علَّقتُ بالأنغام قلبي وفي نغم الحياة أنا الخبيرُ
وقد غنَّيتُ في الأغصان حتّى تصيح الطَّيرُ : من ذا ؟ يا زهور !

- ٦٥ -

أثرتُ بنغمتي كلَّ النوادي ومن شرر الحياة جعلتُ زادي
أضاء القلبُ من عقلي ولكن جعلتُ عيار عقلي في فؤادي

- ٦٦ -

رددتُ العُجم فتياناً بزُمري وراج متاعُهُم من بعد خُسري
وكانوا هائمين بكلِّ وادٍ وقافلة نَظَمَتُهُم بشعري

- ٦٧ -

بروح العُجَمِ مِنْ نَغَمِي شرار قرعتُ لهم بأجراسي فساؤوا
وعاليتُ الحداة لهم كعُزْفِي^(١) تباطأ محملاً ونأث ديارُ

- ٦٨ -

نفثتُ النَّارَ مِنْ رَوْحِي نفثتُ وصدرَ الشَّرقِ قلباً قد وهبتُ
وصيّرَ طينَه لهباً نُواحِي كبرقٍ في سجاياه نَفَذْتُ

- ٦٩ -

بأغصانِ الرَّجاءِ جنيثُ أكلاً وأفضى الدَّهرَ بالسَّرِّ المنيع
أرامِيَّ اخشَ للبستانِ ربّاً فإنَّ معي رسالاتِ الرِّبيع

- ٧٠ -

بحارِ العُجَمِ ليس لها قرارُ وفي أحشائها دُرٌّ كبارُ
ولكنْ لا أحبُّ ركوبَ بحرٍ إذا لم يُخشَ في موجٍ خطارُ

- ٧١ -

على دُنْيَاكَ تقضي بالهوانِ وسترُ للمغيَّبِ كلُّ آن
فأحكم يومَكَ المشهودَ واعلمُ بأنَّ غداً ضميرُ في الزمانِ

- ٧٢ -

كُرهتُ سيادةَ الإفرنجِ لكنْ سجودُكُ للقبابِ وللقبورِ
ألفتُ عبادةَ السَّاداتِ حتَّى لتنحتُ سادةً لك من صخورِ

- ٧٣ -

إلامَ تعيش في رثِّ الإهابِ ؟ إلامَ تعيش نملاً في ترابِ ؟
فَطِرُ كالصَّقَرِ معتزماً وحلُّقُ إلامَ أسيرُ حبِّ في اليَبابِ ؟

(١) إشارة إلى بيت عرفي الشيرازي :

نوارا تلخ ترمي زن جوذوق نغمه كما يابى

حدی راتیز ترمی خوان چون محمل را کران بینی

- ٧٤ -

اتخذ في الورد والأزهار عشاءً ومن طير دروساً في انتحاب
وإن ينقصن قواك الشيب فَاؤْخِذْ من الدنيا نصيباً من شباب

- ٧٥ -

أهاب بمسمعي تُراب قبرٍ : وتحت الأرض يُمكن أن يُعاشا
له نفسٌ وليس لديه روح ذليلٌ في مُرادٍ سواه عاشا

- ٧٦ -

سماطي ليس فيه ما يروقُ ولا في الكأس لألأثُ الرّحيقُ
غزالي يغتذي عُشب المَوامي ولكن صدره مسكٌ فتيقُ

- ٧٧ -

قُلوبُ المسلمين قسبن ناري ودمعي من عيونهم هَتونُ
برُوحٍ مَخْشَرٍ قد غابَ عنهم فلم تر ما رأيتُ لهم عيونُ

- ٧٨ -

أرى للعشقِ تصريفاً عجيباً يقلّب كيف ما يهوى القلوبا
رماك بأذمعٍ وسباك نفساً وصيّرني إلى نفسي قريباً

- ٧٩ -

رأيتك لا تزالُ أسير طينٍ إلى تُركٍ وأفغانٍ تُردُّ
أنا بشرٌ بلا لونٍ وريحٍ وللتوران أو للهند بعدُّ

- ٨٠ -

أثار الشُّعْرُ في جنبيّ نارا وردّ التُّربِ في طُرقي سِراراً
حديثُ الحبِّ حاولَهُ لساني فزاد السرَّ تبيانِي سِراراً

- ٨١ -

تولّى بعدُ عن عقلِ الفنون وأدمى قلبه عِشقُ الشُّجونِ
فلا تستفتِ إقبالاً لشيءٍ فإنَّ حكيمنا رَهْنُ الجنونِ

القسم الثاني

أفكار

الوردَةُ الأولى

لا أرى في المُرُوجِ لي من قريع
أبتغي في الغدير صورة نفسي
في سُطُوري رسالةً يبراع
أمس قلبي ، وعبرةً اليوم عيني ،
وأنا النّجمُ خلفته الثُّريا
أنا أولى زهورِ هذا الرّبيع
لأرى وجهَ مؤنسٍ لي سميع
خطّ سطر الحياة في ترصيع
وغدي مُنتي وكلُّ بديع
نَسَجَ الثُّربُ ثوبَ وردٍ عليّ

دعاء

أيا مالئاً كاسي بحانةٍ فطرتي
وصيّز أنيني ثروة العشق واجعلنُ
إذا متُّ فاجعني سِرَاجَ شقيقة^(١)
أذب طينَ كاسي من حرارة خمرتي
تراباً بسينائي تسعّر شُعلة
وبالبيدِ أحرقني وزد نار وسمتي

رائحةُ الورد

وحوراء في الخلد ضاقت فقالت :
يحيّرُ عقلي نهارٌ وليلاً
غَدَتْ ریحَ وردٍ وذَرَّتْ بغُضنِ
« جَهلنا بما تحتنا مِنْ جهاتِ
وما قيل عن مَولِدٍ أو مماتِ
فحلّت بعالمٍ ماضٍ وآتِ

(١) يعني : زهرة من الشقائق .

وَتَفْتَحْ عَيْنَاً وَتَبَسِّمْ كَمَا وبعد نماء هَوَتْ فِي شَتَات
لهذي الطليقة لم تبق ذكرى سوى آهة سَمَّتْ بِالشَّذَاةِ^(١)

نشيد الوقت

وَحَوَى الْأَنْجَمَ صَذْرِي	قَدْ أَحَاطَ الشَّمْسَ حَجْرِي
فِيكُمْ رُوحِي تَسْرِي	أَنَا لَا شَيْءَ وَلَكِنْ
أَنَا فِي كُوخٍ وَقَصْرِ	أَنَا فِي دُورٍ وَقَفْرِ
وَأَنَا عَيْشَةً يُسْر	أَنَا دَاءٌ وَدَوَاءٌ
أَنَا عَيْنَ الْحَيَوَانِ ^(٣)	أَنَا سَيْفُ الدَّوَرَانِ ^(٢)
رَ قَلِيلٌ مِنْ غُبَارِي	إِنَّ جَنْكِيَزَ وَتِيْمُو
نَفَثَاتٌ مِنْ شَرَارِي	ثَوْرَةُ الْإِفْرَنْجِ فِيهَا
نُقُوشِي وَابْتِكَارِي	إِنَّمَا الْإِنْسَانُ وَالْذُّنْيَا
فِي رِبْعِي كَالْبُهَارِ	وَدِمَاءٌ مِنْ قُلُوبِ
أَنَا رَوْضُ الرِّضْوَانِ	أَنَا لَفْحُ النَّيِّرَانِ
إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ إِمْرٌ	أَنَا سَيَّارٌ مَقِيمٌ
مِنْ غَدٍ يَظْهَرُ سِرٌّ	إِنَّ فِي خَمْرَةٍ يَوْمِي
فِي ضَمِيرِي تَسْتَسِرُّ	أَلْفُ كَوْنٍ ، فَانْظُرْنَهَا
وَقِبَابٌ فِي خُضْرٍ	وَنَجُومٌ فِي حَبَاكَ
أَنَا سِرُّ الرَّحْمَنِ	أَنَا ثَوْبُ الْإِنْسَانِ

(١) الشذاة : الرائحة .

(٢) دوران الفلك .

(٣) ينبوع الحياة ، وعين الحياة في الأساطير شرب منها الخضر ، فلم يمت .

سِرِّي التَّقْدِيرُ والتد	بِير مِنْ سَحَرِ فنونِكَ
أَنْتَ مَجْنُونٌ بليلى	أَنَا صَحْرَاءُ جنونِكَ
أَنَا كَالرُّوحِ بَرِّي	مِنْ خِيَالَاتِ ظنونِكَ
أَنْتَ فِي جَوْفِي سِرٌّ	وَأَنَا سِرٌّ شُؤُونِكَ
أَنَا حَادٍ أَنْتَ نُزْلُ	أَنَا حَقْلٌ أَنْتَ حَاصِلُ
أَنْتَ فَيَّاضٌ بلحسنِ	أَنْتَ نَارٌ فِي المحافلِ
يَا أُسِيرَ الطَّيْنِ فُكَّرِ	أَنْتَ عَنْ قَلْبِكَ غَافِلِ
انظُرْنَاهُ مِلءَ كَأْسِ	وَهُوَ بَحْرٌ دُونَ سَاحِلِ
إِنَّ مَوْجاً فِيكَ يعلو	مِنْهُ يَبْدُو طُوفَانِي

الرَّبِيع

- ١ -

هَلُمَّ فَإِنَّ سَحَابَ الرِّبِيعِ يَخِيَّمُ فَوْقَ الرُّبَى وَالْوَهَادِ
وَشَذُّو الْعَنَادِلِ فِي كُلِّ وَادٍ
وَدُرَّاجُهُ وَالْقَطَاءُ فِي تَهَادِي
عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ جَذَلَى شَوَادِي
شَقِيقٌ وَوَرْدٌ ضَحْوَكٌ يُنَادِي
فَطَرْفَكَ سَرَّحَ بِهَذَا الْمُرَادِ

هَلُمَّ فَإِنَّ سَحَابَ الرِّبِيعِ يَخِيَّمُ فَوْقَ الرُّبَى وَالْوَهَادِ

- ٢ -

هَلُمَّ فَمِلْهُ الرُّبَى وَالشُّهُولِ قَوَافِلُ أَزْهَارِهِ وَالْوُرُودِ
نَسِيمُ الرِّبِيعِ عَلَى كُلِّ عَوْدِ
وَلِلطَّيْرِ إِبْدَاعُهَا فِي النِّشِيدِ

ومزقت الجيب حُمُرُ الخدود^(١)
جنى الحسنُ ناشيءَ زهرٍ نضيدٍ
وللعشق إبداعُ غمٍّ جديدٍ
هلمَّ فملء الرُّبى والسَّهولِ قَوافِلُ أزهاره والورودِ
- ٣ -

صفيَرُ البلابلِ ملءُ الجِواءِ وصوتُ الصَّلَاصلِ ملءُ النَّسيمِ^(٢)
دمُ المِرجِ في جوفه كالْحَمِيمِ
فيا قاعداً صامتاً لا يريمُ !
دع الصمتَ واتركْ وقارَ الحليمِ
وخَمَرَ المعاني اشربنْ يا سقيمُ !
تدثرُ بورِدٍ وغنَّ النديمُ
صفيَرُ البلابلِ ملءُ الجِواءِ وصوتُ الصَّلَاصلِ ملءُ النَّسيمِ
- ٤ -

دع الدُّورَ واطلبْ فسيحَ البراري وانظرْ إلى صفحاتِ الجمالِ
على حافةِ الماءِ دونَ ملالِ
تأمِّلْ تَرَقُّقَ ماءِ زُلالِ
وحَدِّقْ إلى نَرجسٍ ذي دلالِ
بُنيَّاتٍ نِسانِ ذاتِ اختيالِ
وقبِّلْ عيوناً لها كاللَّالي
دع الدُّورَ واطلبْ فسيحَ البراري وانظرْ إلى صفحاتِ الجمالِ
- ٥ -

وعَيْنَ البصيرةِ فانظرْ بها أيا غافلاً عن عيانِ الخلقِ !

(١) شقائق النعمان .

(٢) الصلصل : الفاخنة ، أو طائر يشبهها ، والكلمة نفسها في شعر إقبال .

شقيقٌ بدا حَلَقاً في حَلَقٍ
بأعطافه لهبٌ قد عَلِقَ
على كبدٍ فيه ذات حرق
يلوح ندىً من دموعِ الفَلَقِ
فحدّق إلى أنجم في شفق^(١)
وعينَ البصيرة فانظر بها أيا غافلاً عن عيان الخلقِ

- ٦ -

ثرى المرجِ صرّح في هَيْجِه بما أضمرت مُهْجُ الكائناتِ
فناءُ الصفات وكونُ الصفاتِ
وما أبدتِ الذات من جَلواتِ
وما خلّته من معاني الحياةِ
وما خلّته من معاني المماتِ
فليس له هاهنا من ثباتِ
ثرى المرجِ صرّح في هَيْجِه بما أضمرت مُهْجُ الكائناتِ

الحياةُ الخالدة

لا تظنّ الخمّارَ وافى ختاماً
يجمّل المرخُ لا بثوبِ حياةٍ
من يُحط بالحياة لم يرض قلباً
مُحكماً كالجبالِ عشْ ، لا ضعيفاً
كَم مِنَ الرَّاحِ في عُروقِ الكرومِ !
مزقّته النّسيمُ كالبرعومِ
لم تخزّه المنى بشوكِ أليمِ
واهتِ النَّارُ طائشاً كالهشيمِ

(١) يشبه الندى على الشقيق بالأنجم في الشفق .

أفكار النجوم

سَمِعْتُ بكوكبٍ لأخيه يشكو : لنا بحرٌ وليس يَلُوحُ ساحلُ
خُلِقْنَا للمسير بلا وقوفٍ فليس لركبنا أبداً منازلُ

فإن تمض النجوم كما نراها فما جدوى العناء ؟ وما نُفيدُ ؟
بأشراك الزَّمان لنا إसारٌ سعيدٌ من يُجانبه الوجود

لهذا العبءُ محمله شديدٌ فليت وجودنا عدمٌ أبيدُ
كرهتُ القَبَّةَ الزرقاء أوجاً حضيضُ الثُّربِ خيرٌ لو نريدُ^(١)

فطوبى لأبي آدم في طعانٍ قد استولى على طرف الزَّمان
خليقٌ بالحياة له قوامٌ يُجدد أو يُخلِّق كلَّ آن

الحياة

بكى في الظلام سحابُ الربيع فقال : الحياة بكاءٌ مديدُ
فقال له البرُّ في ومضه : هل الضُّحكُ في لمحة ؟ لا تزيدُ
فمن أبلغَ الروضَ هذا الحديثُ فصَّار حوارَ الندى والورود ؟

(١) لو كان لنا إرادة واختيار .

محاورة العلم والعشق

العلم :

وفي قيدي ثوى ماضٍ وآتٍ
وما نظري وراء السَّابحات ؟
وأسراري عرَّضْتُ بكلِّ سوقٍ

أنا سرُّ الكواكب والجهات
وعيني حدَّقت فيما أمامي
وكم نغمْتُ في عُودي وبوقي
العشق :

وملأ الجوَّ سَمُوكَ والشرار
ونوركُ مذ هَجَرْتَ حمائي نارُ
وصرْتُ اليوم في قيد الرجيم
ورُدَّ مَشْيِبَ دُنْيَانَا شَبَابَا
أقم في الأرض فردوساً عجابا
للحنِّ واحدٍ بـمَّ و زيرُ

بسحركُ سُجَّرت هذي البحارُ
وكنْتَ لي الصديق فكنت نوراً
وُلدتُ الأَمْسَ في حرم الرحيم
هَلُمَّ فَرُدَّ رَوْضاً ذا اليبابا
هَلُمَّ بِذَرَّةٍ مِنْ نارِ قلبي
كلانا الدَّهْرَ خلٌّ لا يجورُ

غناء النجوم

وسُكِّرنا انسجامُنَا
لا يُرتجى مقامُنَا
ننظر سائراتِ
ومظهَرَ البدود^(١)

وجودُنَا نظامُنَا
في دُورنا دِوامُنَا
في فلكِ مرامُنَا
وجلوةَ الشهودِ

(١) جمع بد ، وهو الصنم ، معرب بت .

ومعرك السجود	والعذم والموجود
والغيب والمشهود	ننظر سائر
وحلبة الطعان	ونشأة الشجعان
وغير التيجان	وذلة السلطان
ولعب الزمان	ننظر سائر
مضى زمان المولى	والعبد قد تولى
سكندر قد ولى	وقيصر قد ذل
والوثن اضمحلا	ننظر سائر
والصمت والصياحا	والذل والكفاحا
والخنوع والطماحا	وتارة أفراحا
وتارة أتراحا	ننظر سائر
عقلك في عقد وحل	من كم وكيف في شغل
مثل غزال قد عقل	مضطرب ومضمحل
ونحن في العليا نحل	ننظر سائر

ما السر ما الظهور ؟	وما الدجى ما النور ؟
ما القلب ما الشعور ؟	ما فطرة ضجور ؟
ما الغيب والحضور ؟	ننظر سائر
كفرك عندنا أمم	حولك عندنا لمم
يا من صدره خضم	قنعت بالظل انسجم
نحن بعالم نهم	ننظر سائر

نسيم الصُّبح

أجبيء من لَجِّ بَحْرِ	ومن قلال الجبالِ
مُسَيَّراً لَسْتُ أدري	من أين شُدَّت رحالي
أزجسي لطائـر غـم	بشـرى ربيع الجمالِ
ونائـراً تحت عُشٍّ	نِثَارَ زَهْرٍ غَوَالِ
بُخْضـرة أتـرَدَى	وبالشقيق اتصالي
حَتَّى يهـجَّ فيـه	لـوناً وريحاً وصالي
يـمـسُّ أوراق ورِدٍ	تلطُّفـي واحتياـلي
فـلا تـمـيلُ غـصـونٌ	من طوفـي المتوالـي
وشـاعـرٍ هـيـجَّتـه	هـمـومٌ عِشـقٍ لـقالِ
مزجـت أنفـاس صـدري	بلحنـه والمقـالِ

نصيحة صقر لفرخه

تعلَّم بنيَّ بأنَّ الصُّقورَ	لها قلبٌ ليثٌ وجسمٌ صغير
فكنْ مُحْكَمَ الرَّايِ شهماً جسوراً	عليَّ السجايـا أيباً غيورا
بُغاث الطيور اهجرنها بعيدا	ودعها إذا لم تُردْ أن تصيدا
فتلك الرعايدُ نسلُ اللثام	تدسُّ مناقيرها في الرِّغام
أرى البازَ صيداً لما اصطاده	إذا قلَّد الصيد ما اعتاده ^(١)
فكم باشقٍ قد أتاه النُّوى	بصحبةٍ لقاطٍ حُبِّ هوى

(١) يعني : إن قلَّد الصقْرُ الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيداً لها مغلوباً على أمره .

فنفسك فاحفظ وعش في جذل
ودغ للدراريح لين الجسد^(١)
متاع الحياة ، تعلّم ، جهاد
نقول لفرخ عقاب عتيق :
ولا تبغ سرباً كسرب الغنم
سمعت وصاة الصقور العتاق
فليس لنا في رياض مجال
ولقطك حباً بأرض خطاء
فأما خطي في الثراب النجيب^(٢)
فإن بساط البزاة الحجر
نماك الأوابد زرق العيون
أصيل أبي يوم الخطر
جناحك من سطات البروق
فطر في السموات لا تخش خطبا
ولا تقبلن طعمة من أحد

جريشاً متيناً قوي العضل
وكن مخلباً كالمُدَى أو أحد
وصبر على محنة واجتهاد
« بريق الدماء يفوق العتيق »
توخذ كقومك منذ القدم
بالأ نقيم بطل وساق
فسيح الفيافي لنا والجبال
حبانا الإله عنان السماء
فأشرف منه حمام ريب
يحدّ مخالبهن الصخر
كأنك عنقاء جو متين
كفيل بإنسان عين النمر
من الشهب فيك كريم العروق^(٣)
وكل ما أصبت يساً ورطباً
وكن راشداً واستمع للرشد

سوس الكتب

(الأرضة)

سمعت : بمكتبي ليلة يُنادي الفراشة سوس الكتاب

(١) دراريح : جمع دراج وهو طائر معروف .

(٢) يعني : الصقر ونحوه ، وكلمة النجيب في الأصل .

(٣) الشهب : أي البيض ، وفيها تورية بشهب السماء .

يقول مررتُ بكتب ابن سينا ونقبتُ في كتب الفارياي
ولم أدر حكمة هذي الحياة وما زلت من ظلمتي في حجاب
تُجيبُ الفراشة في حُرقة : أرى نكتة لا تُرى في كتاب
رأيتُ الكفاح يُعدُّ الحياه رأيت الكفاح يُمدُّ الحياه

الشقيقة (١)

نارٌ بصذرٍ عشق فـ في أزلٍ أنيرُ
شمساً أرى وفي كل ذرة أثور
شرارها من ناري السماء تستعير
حللتُ صذرَ مرج كنفـ س أدور
وكالندي من تُربي غصنٌ بدا نضيرُ
قال : قفي قليلاً ولهبي يغورُ
وما ثواء قلب من ألمٍ يسيرُ ؟
ثوى بضيق غصن فـ في قلقٍ يفور
حتى كُستُ لوناً وعبق العبير
فراشة في قلق تطيرُ كل ناحيه
على اللهب رفرفت حتى كأنه هيه
أنا وأنت قاليه (٢)

أو كوكبٌ في صدره مُستترُ الضياء

(١) واحدة الشقائق ، التي تسمى شقائق النعمان ، وهي في الشعر مثال لحرقة القلب .
انظر المقدمة .

(٢) يعني : تحبُّ الوحدة وتكره التعدد ؛ الذي يقال فيه : أنا وأنت .

وقد تدلّني هابطاً في الأرض لاجتلاء
من فلك السماء

أو قمر مصغّر بجلوة تمّام
فمنّة الشمس على شعاعه حرام
لهم يحويه مقام

يا لك من يراعة تصوّرت من نور
مسيرها سلسلّة الغياب والحضور
وسنّة الظهور

يا مشعلاً للطير في معتكّر الظلام
ما حرقه أحستها فأنت في هيام؟
حرارة الإقّدام

نحن - وقد نبتنا مثلك من تراب -
نجهل في اضطراب نبصر في اضطراب
نُخفق في الطّلاب

أقول قول واع مجرّب شفيق :
لا تسعين لنزل وامض على الطّريق
وارض بهذا التوفيق

الحقيقة

تقول لبطة صحبت عُقاب :
أجابتها محاورة بحق
فقال الحوت في لجج عميق :
أرى ما أدركت عيني سرايا
ولكنني أرى ماء عُبابا
هنا شيء ويضطرب اضطرابا

حذاء

نغمة حادي الحجاز

يا ناقتي الخطارة
وظبيتي المعطارة
وعُدَّتِي والشَّاره
والمال والتجارة
يا دولتي السيارة !

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريبُ
مطربةُ الرُّغَاءِ
جميلةُ السُّرُوءِ
محسودةُ الحسناءِ
وغيرةُ الحوراءِ
بُنيَّةُ الصَّحراءِ !

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريبُ
كم غُصتِ في السَّرَابِ
في وقدة اليباب
وسرتِ لم تهابي
في اللَّيْلِ كالشَّهابِ
والنَّوْمِ عنك نائي

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريبُ
قطعةُ غيمٍ غادي
سفينةُ الرُّوَادِ
كالخضر في البوادي

تمضين في سداد
فلذة قلب الحادي !
حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب

هُيامك الزَّمَام
وسَيْرُك الأنغام
يتعبُك المُقام
لا الجوع والأوام
والسَّفر المُدام

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب

ممسية في اليمن
مصبحة في قرن
ترين حزن الوطن
كالخز تحت الثفن
إيه غزال الختن !

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب

بدر السماء نَعسا
خلف التلال خنسا
والصُّبحُ قد تنفَّسا
مزَّق هذا الغلسا
والريح تزجي نفسا

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب

لحني دواء السَّقم
والروح ملء نغمي
يحدو الركاب كَلَمي
من جَارحِ وبلسم

هَلَمْ بِنْتَ الْحَرَمَ !
حُثِّي الْخَطِيءَ قَلِيلاً مَنْزِلُنَا قَرِيبٌ

بين الله والإنسان

خَلَقْتُ الْأَنْعَامَ لَطِينٍ وَمَاءٍ	خَلَقْتُ تَتَاراً وَزَنْجاً وَفُرساً
خَلَقْتُ مِنَ الثُّرْبِ هَذَا الْحَدِيدَ	وَسَهْماً خَلَقْتُ وَسَيْفاً وَثُرساً
وَفَأْساً خَلَقْتُ لَجَذَعٍ وَغُصْنٍ	وَسَجْناً صَنَعْتُ لَطَيْرٍ مَغْنًى
الإنسان :	

خَلَقْتَ الظَّلَامَ فَصُغْتُ السَّراجَ	وَطِيناً خَلَقْتَ فَصُغْتُ الْكُؤُوسَ
خَلَقْتَ جِبَالاً وَبَيْداً وَمَرْجاً	خَلَقْتَ حَدَائِقَهَا وَالْغُرُوسَ
أَنَا مِنْ حِجَارٍ صَنَعْتُ مَرَايَا	أَنَا مِنْ سُمُومٍ صَنَعْتُ دَوَايَا

اليراعة

تَقُولُ يِرَاعَةٌ : لَا تَحْسَبْنِي	كَنْمَلِ الشُّوءَ يَا لَمْنِي رَفِيقِي
وَلَا أَعْشُو إِلَى نِيرَانٍ غَيْرِي	كَمَا يَهْفُو الْفَرَاشُ عَلَى الْحَرِيقِ
إِذَا حَلَّكَ الظَّلَامُ كَعَيْنِ ظَبِيٍّ	أَنْرْتُ بَنُورِ أَضْلَاعِي طَرِيقِي

وَحْدَةٌ

قَدْ قَلْتُ لِلْبَحْرِ يَوْماً فِي مَسْجِدِهِ الْمُتَعَالِي

أراك حليف طـلاب
وَكَمْ - سَوَيْتَ بِصَدْرِ
أفـيكَ مثـلي صـدرُ
فصـدَّ عُنـي بـجـزِ
وَقُلْتُ لِلطُّودِ يَوْمًا :
أَنـالَ سَمْعَـكَ صَوْتُ
إِنْ كُنْتَ تَحـوي عـقـيـقـاً
فـوَاسـنـي بـحـديـثِ
فَصـدَّ عُنـي صَمـوتـاً
جَدَدْتُ فِي السَّيْرِ حَتَّى
فَقُلْتُ : يَا نَضْوُ سِيرِ
الأَرْضُ مـرْجُ زهـورِ
أخـلفَ نـورَ قـلبِ
رَأَى الكـواكـبَ تـرنـو
وَقُلْتُ لـهِ رَبُّـي
أَمـا بـدنيـاك هـذي
أَكـلُ طينـي قـلبِ
طـابـت مـرُوجٌ ولـكنْ
أجـابـنـي بـابـتـام

قطرة الندى

فمـا تـكـنُّ بـيـالِ ؟
مـن لـامـعـات الـلـآلـي
بـجـوهر القـلبِ حـالي ؟
ولـم يـردَّ سـؤالـي
يـا خـالـيـاً مـنْ عـناء
مـن زفـرة وبـكاء
بـه عـروـقُ دِماء
إنـي حـلـيـفُ شـقاء
ولـم يـردَّ سـؤالـي
أتـيتُ بـدرَ السَّماءِ
إلى مـتى فـي مَضاء
مـن نـورِ الـلـآلـاء
فـي حـرقـة وعـناء
فـلـم يـردَّ سـؤالـي
مـن بـعد طـوف البريـة :
مـن ذرَّة لـي نـجـيـة ؟
وذـي البـرايـا خـليـة
لـيـسـت بـشـدوى حـربـه
ولـم يـردَّ سـؤالـي

مـن فـلـك الـدَّراي
لـلـبحـر ذـي التَّيـارِ

قـد قـيل لـي تـدلـي
وَاسْتَحْكـمـي و سـيـري

في الموج لا تحاري
تحوّلي واختاري
في الدّرر الكبار

فما رضىتُ بحرّاً لصُحبتني بحـالٍ
عفتُ احتسأءَ راحٍ تَسْلُبني خـلالـي

ما ضقتُ من خصالي
وعشت في اعتزالٍ
قطرتُ كاللّالي

الـورد لـي سـؤـول : ما خطبُ طير السّحرِ

وما جهاتُ النّظرِ ؟
وما وراء البَصَرِ ؟
ما الشّوك حول الزّهر

ما نحن في اصطحاب ؟ من نحنُ يا ودود ؟

ما طائري المغنّي رجّحه الأملود ؟

ما يقصدُ الغرّيد ؟
وما الصّبا تُريد ؟
ما العالمُ العتيد ؟

فقلّت : المُـروجُ حرُّ بُ الحياة في الآفاق

حفَلٌ لـه نظـام من لذّة الفراق

الرّوْحُ من إشراق
ونفسي أشواقـي
سرٌّ من الخلاق

مِنْ فـلكٍ هُـبـوطـي من طينة فتقت

مِنْ لـذّة التّجلّي نموت إذ أشـرقـت

في الغُضنِ قَدْ خَفَقَتْ
كَمْ حُجُبٍ مَرَّقَتْ
نَفْسُكَ قَدْ حَقَّقَتْ

الدَّهْرُ فِي اخْضِرَارٍ مَنْ دَمَعْنَا فِي السَّحَرِ
وَذِي الْجَهَنَاتِ طَرّاً خِدَاعُنَا فِي النَّظَرِ
بِالصَّدْرِ سَرَبُ الزُّهْرِ^(١)

مَنْ قَلْبُنَا كَالشَّرْرِ
وَنُورُنَا فِي الْبَصَرِ

فِي ثُوبٍ وَرِدٍ إِبْرُ مَنْ شَوْكَةٍ تَصُولِ
شَوْكٌ ، أَجَلٌ ، وَلَكِنْ نَادَمَهُ الْجَمِيلِ
مَنْ عَشَقَهُ نَحِيلٌ وَعَنْدَهُ الْخَلِيلُ
فِي رَوْضِهِ أَصِيلِ

الْقَلْبُ أَخْلِينَهُ مَنْ صُخْبَةِ الدَّهْرِ
عَيْنُكَ فَافْتَحْنَهَا لِلْكَوْكِيبِ الْمُنِيرِ
وَصَحْبَةِ الْبَصِيرِ مِثْلِي هَلُمَّ طِيرِي
وَفِي الْفَلَكَ الْكَبِيرِ

العشق

فَكَرِي قَدْ أَجَدَّ كُلَّ سِيرِ وَطَافَ بَيْنَ حَرَمٍ وَدَيْرِ
عَدْتُ لِلطَّلَابِ فِي الْبَرَارِي مَرْتَدِيّاً بِالنَّقْعِ كَالْإِعْصَارِ

(١) الزُّهْرُ : النُّجُوم .

بغيرِ خضرٍ أطلُبُ المنازل^(١)
تطلُبُ راحاً كأسِي الحطيمِ
منطوياً كالْمَوْجِ في البحارِ
عشقُكَ فاضَ بغتةً بقلبي
عرَّفني الوجُودَ والفناء
على حصيدي مرَّ كالْبُروق^(٢)
صُعِقْتُ تَوْأً وسُلِبْتُ حِسِّي
رَفَعْتُ للعرشِ العليِّ تُربي
وبلَغْتُ سَفِينَتِي مُرسَاها
عندي حديثُ العشقِ لا سِواه
غَنِيْتُ عَنْ وَمَضِ العُلومِ حَسبي

حياتك فابغ في الخطر الجليل

غزالٌ بئْتُ شكواه غَزَالاً
أرى الصِّيَادَ حولي كلَّ حينٍ
أبدلُ خيفةَ الصِّيَادِ أَمْنًا
أجابَ رفيقُه أن يا خليلي
ونفسُكَ فاشحذْ في كلِّ آنٍ
فَقَالَ ساقُضْ البلدَ الحراما
فلا أستطيعُ في أرضٍ مُقاما
وأنفي الغمَّ عن قلبي المعنَى
حياتُكَ فابغ في الخطرِ الجليلِ
وعش أمضي من السيفِ اليماني

(١) بغير دليل ، كما دل الخضر الإسكندر .

(٢) يكثر في الشعر الفارسي ذكر إحراق البرق البيدر ، ويكني به الصوفية عن قطع العشق علائق الإنسان بالدُّنيا .

(٣) العكس : الصورة . والكلمة نفسها في الأصل .

ففي الأخطار لِلْهِمَمِ اختِبارُ لأرواحٍ وأجسادٍ عِيارُ

الحياة

قد سألنا عن الحياة حَكِيمًا قال : خَمْرٌ يَطِيبُ فِيهَا الْأَمْرُ
قُلْتُ : بل دُودَةٌ نَمَتْ فِي تُرابِ قال : لا ! بل سَمَنْدَرٌ لَا يَقْرُ^(١)
قُلْتُ : والشر طبعها . قال : لا بل خَيْرُهَا قَدْ جَهِلَتْ وَالْجَهْلُ شَرُّ
قُلْتُ : ما شوقها يسير لُنْزُلِ قال : في الشوقِ مَنْزِلٌ مُسْتَسْرٌ
قُلْتُ : في الطِّينِ خَلَقُهَا قَالَ فَاَنْظُرْ : شَقَّتِ الطِّينُ حَبَّةً فَهِيَ زَهْرٌ

الحوار والشاعر

(معارضة لقصيدة الحوار والشاعر لجوته)

الحوار :

لا الخمرُ يوماً تَطْيِيئُكَ ولا إلينا أنتَ ناظِرُ
إِنِّي عَجِبْتُ لِشَاعِرِ بهوى الأُحِبَّةِ غَيْرِ شَاعِرِ
مِنْ حُرٍّ أَنْغَامِ الرَّجَاءِ وحرقةِ الطَّلَبِ المِثَابِرِ
نَفْسٌ تَذِيبُ بِلَوْعَةٍ وتغرُّلُ يشجُو المِزَاهِرِ
وخلقتَ بِالْأَلْحَانِ دُنْيَا لكِ العجيبَةِ خَلَقَ شَاعِرِ
تَبْدُو لَهَا إِرَمٌ كَمَا يبدو لِعَيْنِ فِعْلٌ سَا حِرِ

(١) السَّمَنْدَرُ : حيوان خرافي يعيش في النَّارِ .

الشاعر :

تَخْدَعُنْ قَلْبَ مَسَافِرٍ
مَا إِنَّ تَحَاكِي لَذَّةً
مَاذَا أَقُولُ وَفَطَرْتِي
قَلْبِي عَلَى قَلْقٍ كَمَا
فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى جَمِيلٍ
خَفَقَ الْفَوَّادُ إِلَى الَّذِي
فَمَنْ الشَّرَارُ إِلَى النُّجُومِ
إِنِّي لِيَهْلِكُنِي الْقَرَارُ فَمَا
وَإِذَا شَرِبْتُ مِنَ الرَّبِّيعِ
أَشْدُو بِشَعْرِ آخِرٍ
طَلَبِي النِّهَايَةَ فِي الَّذِي
لَا صَابِرٌ نَظَرِي وَلَا
تَوَدِي قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ
لَا صَوْتُ مُحْزُونٍ وَلَا

بِالسُّخْرِ مِنْ وَخَزَاتِ قَائِلٍ
وَخَزَاتِ شَوْكِ فِي الْمَجَاهِلِ
لَا تَرْضِي دَعَاةَ الْمَنَازِلِ
تَهْفُو الصَّبَا حَوْلَ الْخُمَائِلِ
رَائِعِ حُلُوِ الشَّمَائِلِ
يَعْلُوهُ حَسَنًا فِي الْمَحَافِلِ
إِلَى الشُّمُوسِ رَقِيَّ آمَلِ
أَعْوَجُ عَلَى الْمَرَا حِلِ
الْكَاسِ تَسْرِي فِي الْمَفَاصِلِ
وَرَبِيعِي الْآتِي أَغَازِلُ
لَا يَنْتَهِي فِيهِ الْمُسَائِلُ
قَلْبِي عَنِ الْأَمَالِ غَافِلُ
بِدَارَةِ الْخُلْدِ الْمُوَاصِلُ
أَلَمْ وَلَا وَاسٍ يَسَائِلُ

الحياة والعمل

(جواب لنظم هاتنا^(١) المسمَّى سؤالات)

يقول الساحل المسكين : دهرأ حيثُ ولم يَينُ لي ما أكون... ؟

(١) هاتنا : شاعر ألماني .

فقال الموج في صخبٍ وسيرٍ : وجودي السَّيرُ والعَدَمُ الشُّكون

الملكُ لله

طارقُ أحرق السَّفين فقالوا : ليسَ هذا من فعله برشيد
غريباءُ ومن لنا برجوعٍ ذا خطارٌ في الشرع غيرُ سديد
أمسك السَّيفَ طارقُ في ابتسامٍ قائلاً واثقاً بعزمٍ شديد :
ملكنا اليوم خالصاً كلُّ ملكٍ إنَّه مُلك ربِّنا المعبود

النهر^(١)

انظر النهر جارياً في هُيامٍ بين خُضر المروج مثل المجرَّه
كان في المهد في السَّحاب نؤوماً شاقه السَّير في مروجٍ وخضره
يبعث اللحنَ جارياً فوق صخرٍ صافي اللَّون في بهاءٍ ونضره
يقصد البحر ذا العبابُ طروباً وعزوفاً عن كلِّ شيءٍ غريباً
مَنَحْته يدُ الرَّبيع طريقاً من أقاحٍ ونرجسٍ وشقيقٍ
يضحك الوردُ إنْ تلبَّث لدينا ويقول البرعوم : قف يا صديقي
وهو قالٍ عرائسَ المرج ماضي في الرُّبى والوهاد غير رفيقٍ

(١) ترجمة نظم جوته المسمَّى نغمة محمد مع تصرفٍ كبير . وفي هذا النظم الذي كتب قبل « ديوان الغرب » بكثير أحسن الشاعر في بيان تصوير الإسلام للحياة ، وقد أريد بهذا النظم أن يكون جزءاً من قصة إسلامية لم تكمل . وإنما أردنا بهذه الترجمة أن نبين عن رأي لجوته فحسب .

وعزوفاً عن كل شيء غريباً
ومئات الأنهار في الحزن والسَّهل
قد حمانا المسيرَ قلَّةُ ماءٍ
أفسح الصَّدر للرياح سريعاً
يقصد البحرَ ذا العباب طروباً
هَدَرَ النَّهر جائزاً كلَّ سدٍّ
فاض سيلاً على رُبى ووهادٍ
هائجاً زاخراً سريعاً مشوقاً
يقصد البحرَ ذا العُباب طروباً

الجنة

وأين بجنةٍ لعب اللَّيالي
ولا فيها ليوسف غمٌّ سجنٍ
وليسَ خَليلُها يصلَّى بنارٍ
وليسَ لِصرصرٍ فيها هُبوبٌ
ولا ليقينها « هل » أو « عسى أن »
وكيفَ يلدُّ عقلٌ ذو ضلالٍ
فلا تحفل بكونٍ فيه نقصٌ
وليس هناك من فلكٍ يدورُ
ولا فيها زليخا تستجيرُ
ولا بكليمها شرٌّ يثورُ
فزورقُها على أمنٍ يسيرُ
ولا لِوَصالها هجر مريضُ
إذا وَضحت طريقٌ لا تجورُ
به المولى وليس به الغرورُ

العشق

العقلُ يُحرقُ عالماً في جَلوة منه تُغَيِّرُ

لكنَّه بالعِشْقِ يعرفُ كَيْفَ في الدنيا يُنِيرُ
العِشْقُ في الأرواحِ يخلقُ كَلَّ لَوْنٍ أو يثِيرُ
إنَّني لأذكر راقصاً ذا الحرف أو هو بي يدور
بالعِشْقِ ترتاح القلوبُ وإنَّه فيها سعيُرُ
ما كل معنى ينطوي في اللَّفْظِ ، كم معنى يثور
أنصت لقلبك ساعةً فلعلَّما يدنو العسيرُ

لغزُ السَّيفِ

ما جاهدٌ يُنبِطُ ماءَ الحجر لا يَهْتَدِي بالخضر كالإسكندر؟
كنظرِ العينِ صفِيٍّ مشرقُ لا بلل وهو غريقُ نهر
مصراعُه مكْمَلٌ منفردُ ليس عليه منَّةٌ للأشطر

الجمهورية

تريد معنى العُلَى من ساقطي همم وأين للنمل إقدام السُّليمانِي^(١)
فاتبع حكيماً ودغ جمهورهم ، أترى بألفِ رأسٍ حمارٍ عقلَ إنسان؟

(١) نسبة إلى سليمان الحكيم ، وقصته مع النمل معروفة .

إلى داعية الإسلام

في بلاد الفرنج

الدَّهْرُ عادَ بنارِ نمرود جَوْهَرُ الإسلامِ رَهْنُ تجديد
هَلَمَّ نُلِقَ الحجابَ عن حُرْقٍ كالشَّمْسِ تَغشى الورى بتجريد^(١)
أَمَلتَ حُورَ الفرنجِ من حَكَمٍ ورُعتَ أصنامُهُم بتوحيد
فقل لأهل الحجاز عن سلمى وبثَّ في الترك شوقَ معمود
على خراسان والعراق فعج وردَّ للعُجمِ شوقَ تغريد^(٢)
كم انتظرنا لعارفٍ ولكم شجا « جمال »^(٣) بلحنِ مفيود
جعلتَ عشقاً حديثَ ذي هَوس نَثَرْتَ دَرَّ الكلامِ بالييد

غنى الكشميري^(٤)

غنى أخو الشُّعر ربُّ البيان ولبلُّ كشميرَ ذاتِ الجنان
يفتُّح أبوابه إن ندر ويغلقها جاهداً إن حضر^(٥)
فقل له : يا أنيس القلوب عجبنا وفعلُك أمرٌ عجيب
فماذا أجاب الهمامُ الفقير ؟ فقير بملك المعاني أمير :
إخواننا ما رأيتم سداد أفي الدار غيري متاعٌ يراد ؟

(١) أي بظهورها دون حجاب وفي الأصل بالعري .

(٢) خراسان والعراق من ألحان الموسيقى أيضاً .

(٣) جمال الدين الأفعاني .

(٤) محمد طاهر الكشميري الشاعر المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ .

(٥) ندر : خرج وهي لغة الحجاز اليوم .

إذا كان في الدار ربُّ العرين غنَّى ففيها متاعٌ ثمين
وإن غاب عنها أنيسُ الورى فلا دارَ أفرغَ منها تُرى

إلى مصطفى كمال باشا^(١)

حزيران (١٩٢٢ م)

أمة كانت ومن حكمتها نحنُ آثارُ على مرِّ العصور
قد عرفنا سرَّ تقديرِ مضي فمضينا نقتفي سرَّ الدهور
شرراً كنا ، أجدنا نظراً فإذا شمسٌ على الكونِ تسير
شيخاً أطفأ في أحشائه نارَ عشقٍ فخنعنا في فتور
صرصر البيداء في فطرتنا أذبلت ریحُ الصَّبا فينا الزُّهور^(٢)
وعلى الأفلاك دوى صوتنا فاسمعنه اليوم في نوحِ الأسير
رُبَّ صيدٍ قد أخذنا وثبةً دون أشراكٍ كما انقضت صقور
وغدوننا يوقعُ الصيدُ بنا ولنا قوسٌ وسهمٌ في الجفير
« كلما أمكن طرفٌ فاركضنْ » كم أمارت العزمَ تدبيرُ الأمور^(٣)

الطَّائِرَة

على غصنٍ وردٍ بوقت السَّحر نغنا طائرٌ لطيورٍ آخر :

-
- (١) كان الشاعر معجباً بمصطفى كمال إعجابه بالعزم والإقدام ، فلما رآه يقلد الفرنج عابه وقال : إنَّ جديده قديمٌ أوربة .
(٢) يعني خلقنا للجهد فأضعفنا الترف .
(٣) البيت الأخير للشاعر نظيري .

« لقد سُلِبَ الأَجْنَحَ الأَدَمِيَّ
فقلت له : « يا أَمِيرَ الرِّيحِ
بطائِرةٌ قد ركبنا الهَوَاءَ
وأية طائِرة في الفلك
لها عزم صقِرٍ وأيدٌ عقاب
تُدَوِّي وتزفر حين السَّفَارِ
من الطَّيْنِ صار لنا جبرئيل
وعى الطائِرة الأَلْمَعِيَّ الكلام
فأهوى إلى ريشه ينقر
فيا مَنْ يروُقُك عقدٌ وحلٌّ
أصلحت في الأرض بعد عناء

ومكَّن في الأرض هذا الغبيَّ
أفي الحقُّ إن قلبه من جناح . . ؟
شقنا بها في عَنان السَّماء
يفوت مداها جَنَاحَ المَلِكِ
بلاهور^(١) ترنو إلى فارياب^(٢)
وفي العشِّ صمْتُ كحوت البحار
من الأرض نحو السماء دليل
وأبصر ما قلَّته في الخصام
وقال مقالَكَ لا أنكر
وفي قيد سحرك علُوٌّ وسُفْلُ
فجئت لتصلح جوَّ السَّماء^(٣)

العِشْقُ

هو الحرفُ ضاءتُ عليه القلوب
هلم أنبئك قولَ الخير
وعاه النَّدَى خلصةً في السَّماء
وباح به الوردُ للعندليب

وليس بسرٌّ وسراً يرى
بمن قد رواه وعمَّن روى
وأسمعه الوردَ قطرُ النَّدَى
عن العندليب روته الصَّبَا^(٤)

(١) لاهور تقع في باكستان وهي إحدى كبريات مدنها ، وعاصمة ولاية بنجاب اليوم .

(٢) فارياب ، تقع في تركستان .

(٣) البيت الأخير للشيخ سعدي الشيرازي .

(٤) أبيات تمثل تطور العشق من قطرة إلى غناء بلبل إلى خفق الرِّيح .

القسم الثالث

الخمر الباقية

(غزليات)

حبا الربيعُ رُبانا
 فاستيقظت أكمّام
 لا تحسبن أنْ خُلِقْنَا
 فما تزال خيالاً
 لا تغتـرر بعـلـوم
 إنَّ الفقيه مُـريـبٌ
 ضمَّ الربيعُ شتـي
 وبـتَّ ريحاً ولسوناً
 من يُحكمن نظراتٍ
 لم يشدُّ يوماً بغيـب
 قد قال في الحنان فاسـ
 في كلِّ دهرٍ خليلٌ
 لا تلحينَ أهل ديرٍ
 أقام أوْثان حـبٍ
 يضيع شـدو حياةٍ
 فالميت ليس بحـيٍّ

محافل التَّغريد
 للبلبل الغرَّيد
 في صبح دهرٍ مديد
 حوى ضمير الوجود
 الكأس خير شهيد
 فلا تكن بمُريد
 ست الأوراد بالتضيـد
 أنظارنا في الورد
 لنفسه في شهود
 كلاً ولا مـوجـود
 مع مقال شيخ رشيد :
 والنَّار من نـمـرود^(١)
 فالعشقُ جدُّ عـيد
 في القلب من محمود^(٢)
 ينساب بين الهنود
 بالنفخ من داود

عقلنا ينحتُّ رباً كلَّ حين
 ارفع البرقع جهراً لا تُبل
 فهو من قيدٍ إلى قيدٍ رهين
 ليس في حَيْك غيري ذو حنين

(١) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل ونمرود الذي ألقاه في النار .
 (٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب بمحطم الأصنام .

أنا من عيني غيورٌ ناسج
بسمه خلّس ودمعٌ ورنأً
حبّذا العشق ففي يوم النّوى
أيها الطائر من صدري اقبس
عود تيمور مضى لا لحنه
سادن الكعبة لا تأذن له

شكواي أمـرٌ عجيب
فنظرتني لي حجاب
أبلغ خلّاتق نور
حذار كـفّ تراب
في محفل من ربيع
بالرّيش منا شرار
يا واهنّ النّفس تدري
حوالك كـونٌ بعيدٌ
مثل الشّقيق تراني
والقلب غرضة رمي
في عرف أهل قلوب
لكعبتي لم أسافر
وكم قبيل أقاموا

نظراتي لك سترأ في العيون
ليس في الحبّ سواها من يمين
زاد باللّوعة عهدٌ لا يمين
لتزيد النار في هذا الأنين
هو في لحن سمرقند يبين
فلإقبال إله كل حين

من نور عيني شكاتي
وأنت في الجلوات
الحق من كلماتي^(١)
للنّفس في نظرات^(٢)
نذوب من حرقات
في الفجر من أهات
من أين لي نغماتي؟
من عالمي وجهاتي
بالرّوض في حشرات
من أسهم اللّحظات
الكذب سرّ الحياة
للأمن في طرقاتي
وأدبروا في شتات

(١) يعني بخلائق النور الملائكة .

(٢) كف التراب : الإنسان ، والنظر إلى النّفس من فلسفة إقبال التي سماها « أسرار
خودي » .

ففي دارة ضياء فيها
 فاخلق بطينك خلقاً
 مثلُ اتسامٍ شرارٍ
 إن لم تكن ذا فضولٍ
 العشقُ أبعدُ شأناً
 في العجم أذكى نشيدي
 والعرب من نارٍ شوقي

الهلال في مشكاة^(١)
 ذا يقظةٍ وحصاة
 تلَبَّث الفرصات^(٢)
 فتلك إحدى نكاتي
 من ضائع الأنثاء
 ما باخ من جمرات
 لم تأتهم نفثاتي

في ذلك الحفل سؤلي
 لذاك أزجى غنائني
 في خلوة كل لفظٍ
 يبتُّ قلبي حديثاً
 من أجل نظرة وجدٍ
 مطهَّر نظراتني
 كالكمِّ كلُّ أموري
 لكن الجلوة شمسٌ
 كالسَّوج ، ليس كياني
 ولست في البحر أبغي

عن محرم بي حقيق
 وفيه لحنُ الصَّديق^(٣)
 فيها كسترٍ صفيق
 بمقلتني وبموقني
 لوجهك المرموق
 بدمع عينٍ طليق
 لعقدة ولضيّق^(٤)
 أنمو بقلبٍ مشوق
 يهاب سيل العقيق^(٥)
 إلى الشطوط طريقي

(١) يعني الدنيا جعلها داراً صغيرة فيها القمر كسراج في مشكاة .

(٢) فرصات : جمع فرصة .

(٣) اللحن : الرمز في الكلام .

(٤) يتخيَّل الشاعر أن كم الزَّهر لانطباقه معقود .

(٥) العقيق : هو كل سيل كبير يشقُّ الأرض وواد بالمدينة .

ما بين عينٍ ورأيٍ
مهما تباعد عني
قد خطَّ في ستر عيني
بشعـوـذات أرائـني
في قَبَّةٍ قد أحاطت
شوكُ بجانب سماء
لا أستريح بعُشٍّ
طوراً بشاطئٍ نهرٍ

المغني الصبيح في الحانٍ
وتحيي دم الربيع شقيق
نغمةٌ تفتح العيون لمعنى
فتأمل بعين عشقٍ وأبصرُ
فعيونُ العقولِ تُظهرُ فيها
وعن عشقٍ خُذْ دروسَ جهادٍ
إنما العشق جوهراً لشعورٍ
ولنا غاية من الشمس أعلى
إيه يا قطرةً عن النفس تاهت

بيني وبين صديقي^(١)
فكلُّ حينٍ رفيقي
نقوشُ كـونٍ أنيق^(٢)
في قيد سحرٍ وثيق
لا أرتضي بالضيـق
لا بدُّ لي من مُروق
من لذة التحليـق
طوراً بروضٍ شقيق

ورياضُ الربيع ألواحُ ماني^(٣)
أيُّ ظمأٍ به إلى الألوان ؟
ضاق عنه طرائق التبيان
منه آياً تُضيءُ دون بيان
هذه الكائناتُ سحرَ العيان
وافعلن ما تشاء في كلِّ آن
وهو روحُ الإدراك والعرفان
إنها الشمسُ صوَّةُ الرُّكبان^(٤)
تطلبين المحالَ في الأكوان

(١) الرأي : رأي العين .

(٢) في هذا إشارة إلى الصور التي تسمى خيال الظل ، فالستر يظهر عليه الخيال لا الحقيقة ، فهو يقول : إنَّ هذا العالم نقوش في ستر العين تخدع عن الحقائق .

(٣) ماني : صاحب مذهب المانوية كان ماهراً في التصوير ، وترك ألواحاً مصورةً في كتاب عرف باسم « أرزنك » ضرب به المثل .

(٤) الصوَّة : أحجار تجعل علامة على الطريق .

إِنَّ عَاراً مَعِيشَةَ الْبَحْرِ إِنْ لَمْ تَطْلُعِي مِنْهُ دُرَّةً ذَاتَ شَانِ
يَا جَهُولاً بِقَدْرِ نَفْسِكَ لَوْلَا أَنْتِ كَانِ الْعَتِيقُ كَالصَّوَانِ^(١)

قَدْ هَدَمْتُ الْأَصْنَامَ لَمْ أَرْضَ شِكْلاً أَنَا سَيْلاً هَدَمْتُ كُلَّ سُدُودِي
وَمَنْ الْعِشْقِ قَدْ رَأَيْتُ كِيَانِي كَانِ عَقْلِي يُرِينِي وَجُودِي
وَبَدِيرِ ضِرَاعَتِي وَهُوَ أَنِّي وَصَلَاتِي بِكَعْبَةِ التَّوْحِيدِ
وَمَنْ الذِّكْرِ سُبْحَتِي بِيَمِينِي فَاَعْجَبْنِي مِنْ زُنَّارِي الْمَعْقُودِ
مَنْعَ الْحُزْنِ فِيكَ غَيْرَ نَضُوبٍ دَمْعُ قَلْبِي حَبْسُهُ عَنْ خُدُودِي
رَاقِ قَوْلِي ، وَسِيرَتِي لَجُنُونٍ :

طُوبَى لِمَحْرَقِ عَقْلِي بَنِيَّارِ رَاحِ عَتِيقِ
مَنْ يَعْتَنِي بِمَتَاعِ مَنْ نَارِهِ كَالشَّقِيقِ
أَوْحَى الرَّيِّعُ إِلَى الزَّا هَدَيْنَ بَيْعَ الدَّلُوقِ^(٢)
فَاغْرَسَ بِالْكَأْسِ الْحَمِيَّاءَ بَسْتَانَ وَجْهِهْ أَنْيَقِ
قَلْبِي رَثِي لَفْقِيهِ مَجَاوِرِ بَالْعَتِيقِ
مَا اتَّبَاعَهُ شَيْخُ خَانَ فَتَوَى بِكَأْسِ رَحِيقِ
اللَّحْنُ لَا تَقْدُرُونَهُ عَلَى غَنَائِي السَّرِيقِ
فَبَرْقَةُ اللَّحْنِ تَغْشَى إِسْكَندَراً بِحَرِيقِ
لِرَوْضِ « وَيْمَر » تَهْدِي الصَّبَا سَلَامَ مَشُوقِ^(٣)
فَذِي الدِّيَارِ أَضَاءَتْ لَعِينِ ذِي تَحْقِيقِ

(١) يعني أَنَّ الإنسانَ جهلٌ قدرَ نفسه وقَدَّرَ أشياءَ ليسَ لها قيمةٌ إلَّا بتقديره .

(٢) الدلوق : جمع دلق ، وهو لباسٌ بالمرقع يلبسه الزُّهَّاد والشَّحَّاذون .

(٣) ويمر : مدينةٌ في ألمانيا ، أقام فيها الشاعرُ غوته كثيراً ومات ودفن فيها .

والهموم في الفلق	نـوـح لـيـلـي القـلـق
والقـرـيـض مـن حـرق	والأنـيـن مـن شـرر
مـن تـضـرم العـشـق	أين حـرـص مـجـتـهـد
ذاك خـسـر في مـذق ^(١)	ذاك فـأس فـرـهـاد
عـن تـرـابـي القـلـق :	قـل لـسـا كـنـي حـجـب
ذا التـرـاب ذو فـلـق	ذا الغـبـار ذو نـظـر
وتـزـيـد في حـرقـي	مـطـرـبـتـي تـسـكـرـنـي
بـالـقـلـوب ذـي عـلـق	نـغـمـات مـسـتـحـر
فـنـدـبـت في فـرق	مـن حـذاره أـرض سـمـر
أو هـلا كـو في الحـلق ^(٢)	مـن هـجـوم جـنـكـيـز
نـظـم مـر شـدي اللـبـق	هـات مـطـرـبـي غـزلاً
التـبـريـز بـالحـرق	لأفـوز مـن لـهـب

ذلك البـدر التـمـام	مُنـيـتـي أن يـتـجـلـي
وبـعـيـنـي اقـتـحـام	فـيـدي تـمـسـك صـدري
لـيـس يـغـشـاه ظـلام	ويـقـول الحـسـن : صـبـحـي
لـيـس يـخـبـو والـهـيـام	فـيـقـول العـشـق : وـجـدي
وغـدي فـي زـمـام	لـيـس مـن يـومـي وأـمـسي
لـيـس يـحـوـيـني مـقـام	لـيـس لـي نـجـدٌ وغـورٌ

(١) فرهاد : المهندس ، وخسرو برويز : ملك الفرس ، وكان وعد فرهاد أن يهب له معشوقته « شيرين » إذا شق طريقاً في الجبل ، ففعل ولم يظفر بأمنيته ، فضرب فرهاد مثلاً في العشق الخائب .

(٢) أشار الشاعر أكثر من مرة إلى سمرقند وجنكيز كأنه يُشير إلى ما أصاب المسلمين من هذه النواحي .

خمرة الأسرار أبغني	وَكـؤوساً لا ترام
وبحانات مجوس	دائـر عنـدي جام ^(١)
لا تُقْلُ : مـالي ولحناً	لا يرى فيه انسجام
فأنا طائر غيب	عن حبيبي لي كلام
أرفع الستـر وأشدو	لي في اللحن مقام ^(٢)
أنا صمصام دمـاء	لي بالغمد كـعام ^(٣)

غُضُنُ الحَيَاة نـدي	من ظمئنا في الطّـلاب
عين الحَيَاة أراها	تعلّـه الهَيّـاب ^(٤)
فَمَنْ أبـتُ حـديثي	وأين أزجي ركابي ؟
ولا تـؤثـر آهي	ونظرتي في حجاب
فـزـمـزـمـنُ في غناء	واخفض نواح الرّباب ^(٥)
فـلا تـزالُ طـيـورُ	تنـوح تحـت نقـاب
أهل الحجاز تولوا	قـوافـلي بسـلاب
حبيـنـا عـربـي	فـلا تـفـه بعـتاب
وزن عـجـم وهنـد	لا تبـغ وزن خطـابي

(١) المجوس في الشعر الفارسي كالنصارى في الشعر العربي ، يذكر الشعراء خمرهم وحاناتهم .

(٢) من مقامات الموسيقى .

(٣) الكعام : هو الكمام للجمل ، الذي يخشى صياله - وبالفـتح جمع كعم ، وهو وعاء السّلاح - .

(٤) عين الحياة في الأساطير : عين من شرب منها لا يموت ، وقد شرب منها الخضر ، والشاعر يقول : « إن الحياة هي عطشنا في الكفاح لا ورود عين الحياة » .

(٥) الزمزمة : كلام خفي .

فأصل هذي اللآلي
هَلُمَّ فالرَّاحُ عندي
وخمرة القبول أصبى

بالليل دمع انتحابي
من دُنْ عالي الجناب^(١)
من خمرة الأعناب

من كرى الموت لا تفيقُ عيونُ
إنَّ من دونك الوجودُ محال
قد حوى الكون قلبنا وهو فيه
نغماتي الضعاف أحرقن صحبي
إن تضرَّ الصبا بطلٍّ فدعها
فإلى الحق وجه القلب واصبر
سُدَّة الوُثنِ هذه وعليها^(٤)

دون نور تفيضه من سناكا
ومحال فناؤنا في جسمাকা
عقدة لا تحلُّ فاكظم فাকা
حرقتي نغمةً أبت أن تحاكا^(٢)
نار قلب الشقيق تأبى فكاكا^(٣)
لا تؤمل بغيره إدراكا
جبهات الأباة تأبى حكاكا

كتب إلى أحد الصُّوفيَّة^(٥)

لهيب الوجد من أسماء لا عندي ولا عندك
وحرُّ القلب في البيداء ، لا عندي ولا عندك

-
- (١) جلال الدين الرومي .
(٢) أبت أن تنسج ، يعني : لا يستطيع إظهارها .
(٣) يتخيَّل الشاعر أنَّ الطلَّ يخفف من حرقة الشقائق الملتهبة ، يقول لا نبالي إن لم يسقط
الطل فهذه النار لا تفارقنا بأية حال .
(٤) الوثن : جمع وثن .
(٥) في هذه الأبيات مثالان من الشعر الفارسي ، الأول أن وزن الهزج فيه مفاعيلن ثماني
مرات وهو في العربية لا يزيد على أربع ، والثاني القافية المردوفة والردف هنا
« لا عندي ولا عندك » والروي الهمزة الممدودة قبلها .

وشيخ أنت في حان وإني ناشيء ساق
 عطاش نطلب الصهباء لا عندي ولا عندك
 رهناً قلبنا والدين حبُّ الغيد من عجم
 وناز الشوق من ظمياء ، لا عندي ولا عندك
 حطام كان أصدافاً على شطِّ لقطناها
 فقدنا الدُّرَّة البيضاء ، لا عندي ولا عندك
 وبلوى يوسف المفقود من يطيع ذكراها
 وخفق القلب في زلخاء^(١) ، لا عندي ولا عندك
 كفانا النُّور في المصباح قد أخفته أستار
 فطوق النُّور في سيناء ، لا عندي ولا عندك^(٢)

قلْبُنَا كَسُونٌ وَلَكِن	مَا بِهِ دُور الْقَمَر
دُورَانٌ لَيْسَ فِيهِ	مِنْ عَشِيٍّ أَوْ بُكْر
وَيْلُ رَكْبٍ قَدْ أَسْفَ	الْعَزْمُ فِيهِ وَضُمَر
فَهُوَ يَرْتَادُ طَرِيقاً	لَيْسَ فِيهَا مِنْ خَطَر
فَدَعِ الْعَقْلَ وَمَوْج	الْعَشَقِ صَارِعَ لَا تَقَر
فَبِذَاكَ النِّهَرِ ضَيْق	لَيْسَ فِيهِ مِنْ دُر
كُلُّ مَا يَجْرِي خِيَالُكَ	أَوْ خِيَالِي فِي الْأَثَر
هُوَ فِي الْعَيْنِ وَلَكِن	مُسْتَسْرٌّ كَالنَّظَر

غير مجدٍ بكاؤنا ويلتنا ! ضاعَ ذا النغم

(١) زلخاء : زليخاء عاشقة يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام .

(٢) الطوق : الطاقة .

نُوح قلبٍ ممزقٍ
خفق القلب ساعياً
هو فينا محذوقٌ
نبذ الستر أهله
غيرة العشق فانظرون !
مطربُ ألحان في الدُّجى
ذوق راحٍ محرم
هي مسير حياتنا
ليس للموج منزل
أشعل النار في هشيبي
« منزل الكبرياء لي »

حاصلُ الغمِّ والألم
يخلق الدَّيْر والحرم
نحن فيه على قدم
لُذت بالنفس في حرم^(١)
أينما شوقه احتدم ؟
قد شدا معجب الحكم
شربُ راحٍ لنا أمم
ما سوى السير يُغتنم
أو طريقٌ إذا التطم
من قال في القدم :
مرشد الرُّوم^(٢) ذا العلم

أبد من طينك ناراً تُضمَر
ملك جمٌّ « لنظيري »^(٣) مصرع :
ساحر العقل يعبِّي جنده
بمقام ولحوين لم تُحِط
نظري في النَّفس أحكمتُ فلم
فتجلى الحبُّ في كل الدُّنى

لا تحلَّ بعد هذا يُقدَر
« ليس من قومي من لا يُنحر »
لا تُرع للعشق جند ينصر
عود سلمى كل حين يقطر
يتوجَّه لسواها النظرُ
وأنا في شُغلي لا أنظر

(١) أهل السر الذين في عالم الغيب والشاعر على مذهبه في الذاتية ، يقول : إنَّه لم يُبال بالنظر إلى عالم الغيب بل نظر إلى نفسه ، وإنَّ عشقه الغيور لم يتجه إلى غيره بل غيره نظر إليه .

(٢) مرشد الرُّوم ، يراد به جلال الدين الرُّومي .

(٣) نظيري النيسابوري ، أحد الشعراء الفارسيين الكبار ، هو وجمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية .

ما جنونُ العشق في البيداء سدى
وبصيد الوحش في البحر اهتفن
ملء عيني دليل ما مضى
اصبحن شرباً خليعاً واخذرَن
غاية الإفصاح لمخ وكُنَى

في قرى الحسن تعالوا نجار^(١)
لا تقل : زورقنا لا يُبحر
في طريق ليس فيها خطر
عهد شيخ ليس فيه ذار^(٢)
فلغى الخلوة رمز يُعبر^(٣)

تضيّق بدار أصنام
ولكن نحو مشتاق
فاقدم واتخذ مغنا
وكيف وأنت ربّ الدّا
تُغير على ذوي التسييح
وتطرق أهل زنّار
وذو جحفل لجب
وطوراً في جماعات
وتأتني باللهيب إلى
وتأتني كالفراش إلى
فيا إقبال خذ كأساً

ولا ترضى بمحراب
تسيرُ بشوق أصحاب
ك في أرواح أحباب
ر تدخل خطو مرتاب ؟
تحمل كل أسلاب
بيل فعل نهاب
لسفك دماء أصحاب
بكاسات وأكواب
كليم غير هيّاب^(٤)
يتيم شمعه كابي^(٥)
بخمر « الدّات » لهّاب

(١) لعل الشاعر يُشير إلى مجنون ليلى وهيامه في البید ، ويعني أن هذا الهيام في فضاء الطبيعة لا بد أن ينتهي إلى صلاح الجماعات في القرى .

(٢) الذار : الشرّة وحدة الخلق .

(٣) يعبر : كتعبير الرؤيا .

(٤) إشارة إلى النّار التي لاحت لموسى عليه الصلاة والسلام .

(٥) إشارة إلى اصطفاء الرسول ﷺ .

سفاك الغربُ من كامنٍ لنفسك منك سلاب

لذعاتُ حان العُجم ليست كُفءَ ناري الحاميه
ذا أحمد العربِيُّ نظ رتُّه تحيط جهاتيه
ما حيلتي والعقلُ في عُقدٍ له متواليه
نظراتُ عينك ، فانظرن حلَّت طلسم مجازيه
حِيلُ العقول تفوقها خفقات قلبي السداميه
فاهجر كنيس تفلسف لحريم ناري الحاميه

أنت كالمرآة تفنى في جمال الآخرين فاغسلن قلباً وعيناً من خيال الآخرين
من نواح الطير في الأحرام فاقبس واحرقن^(١) ذلك العش الذي شُدَّت بمال الآخرين
وتعلم جاهداً خفق جناحيك وطرز أنت لا تستطيع طيراً بجبال الآخرين
أنا حرٌّ وغيورٌ مسرفٌ في غيرتي ممكن قتلي بكأس من زلال الآخرين
إيه يا أقرب من روحي ولا أبصره عندنا هجرُك أحلى من وصال الآخرين^(٢)

عندليبُ الربيع جُنَّ غناء وعروسُ الشقيق تُزهى بهاء
لا مغنٍ ولا مزاهرُ فيه ذاك لحنٌ من المغيّب جاء
محرم السرُّ من يسدد ضرباً في وتار الحياة أيان شاء^(٣)

(١) الأحرام : جمع حرم .

(٢) وهذه قطعة أخرى بنيت على الرمل المثلث - والرمل في الشعر العربي لا يزيد على ست تفعيلات والقافية فيها مردوفة بكلمة الآخرين ، والروي اللام التي قبل الرديف .

(٣) الوتار : جمع وتر .

من وراء الستور أنبتت سرّاً
لا تعنّف وخذ سبيل ودادٍ
أين في دارة التراب مقامٌ ؟
زهرةٌ من رياض كشمير جسمي
وأغانيّ واللحون نمّتها
لست أفشي ، فالذهر لعباً أساء^(١)
قدّر الله في الحياة التقاء
كل شيء كالرمل يمضي هباء
وبأرض الحجاز قلبي أضاء
أرض شيراز ، حبّ ذاك انتماء

نحن تربّ ، وكالنجوم سفارا
نحن من شعلة الحياة جميعاً
قل لأهل السّماء : إن تراباً
نحن في العشق زهرةٌ في نسيم
نحن في المرج نرجسٌ ناظرات
من خضمّ الزرقاء نبغي قرارا
لذة « الذات » فرّقنا شراراً^(٢)
نال بالعقل في السماء مطارا
وبكّد الحياة نقدح ناراً
كلّنا أعيّن فألّق الستارا

ليردّ العُرب دمعِي دامياً
وليردّ العُجم أنفاسِي وقد
من حياةٍ وخلودٍ كدحنا
صحب الله فؤادي هائماً
صوّر اليأس على آفاقنا
وبعوْدٍ قطّعت أوتارهُ
أنت نشء وكلامي شُعْل
ليس في قلبي إلا أن أرى
روضة تنبت ورداً وشقيقاً
صوّحت جناتهم ، روضاً أنيقاً
يا ترابي ! فلتكن قلباً خفوقاً
سار لا يرضى مقاماً أو طريقاً
عقلنا اليائس فاحذره رفيقاً
قد حبا قلباً إلى اللّحن مشوقاً
علّ شدوي مضرّم فيك حريقاً
قطرةً فيك غدت بحراً عميقاً

(١) إشارة إلى الألعاب من وراء الستار كالذي يسمّى خيال الظلّ .

(٢) يعني : لذة الاستقلال والوحدة كما يرى الشاعر في فلسفة « الذات » .

لا عرا الرُّوح هدوء ولتكن بحياة الكدِّ والكذح خليقاً

لا التَّاج يزهو عليه
فقيِّرْ حَيْثُكَ ، لَكِن
في الشَّيب ماتت قلوبُ
فمما لصدرِ نصيبُ
لا تقعدنْ عن طِلابِ
فمما بعصرِكَ هذا
غَفِلْتُ عن سرِّ وقتِ
وقتٌ عداه حسابُ
هذا الرِّباط قديم
غَفِلْتُ عن سرِّ عيشِ
ماذا يخطُّ من الذنوب
دنياك ما قد أصبنا
إقبالاً الحرَّ أمسك
فما يرى في رباط

ولا سنا الزُّينات
من الملوك الأبناء
وفتيَّة في سُبُرات
في الفجر من أهات
في واسِع الفلوات
هادٍ إلى الطُّرقات
أضعتَه في شتات
بالشَّهر والسَّنوات
ما فيه عيش مواتي
وعن جهاد الحياة
كاتبا الهفوات
فيها سوى نظرات
بذيله في ثبات
من بائعي الخرقات

عشقي الجريء صدره سعيِّرُ
إن يكمل الهيام صار ذلاً
إليك جئت في سجود وجدِ
هب سيف « لا » لكافري وأبصر

وحكمتي عن شرر تخور
قيسٌ بـ « ليلي » عندنا شهير
سيماه فوق جبهتي تفور
« إلا » ي كيف في الدنى تثور^(١)

(١) يشير إلى النفي والإثبات في « لا إله إلا الله » يعني : هب لي أنا الكافر توحيداً وانظر فعلي .

لا بلد من دورٍ يعيد أمسي
نورك فيه للذنَى نصيبُ
أحدُّ الرحمن في حجابِ
أيّا رسول الله ! إنّ ربي
في جلوات من غدي يسير
« سينا » ي كيف فاتها تنوير
وفي حماك منطقي جهير
محجّب وأنت لي ظهور

أسفي عليك نحتاً أصناماً آخر
أسفي عليك صُهرت في نار الفرن
أسفي عليك فما وُزنت بنظرة
أسفي عليك قرأت أسفار العقو
أسفي عليك تطوف من دير إلى
عوداً ولم تبحث بقلبك عن أثر^(١)
ج ومن لحاظ العين روحك قد قطر^(٢)
في حلّة فيها الترابُ له قدر
ل وما فهمت حديثَ وجدٍ يُستطر
حرم وفي معنك لم تُجد النظر

(١) هذه الأبيات مردوفة في الأصل تكرر في أواخرها الكلمة التي ترجمتها « أسفي عليك » ، وقد كررتها في أول كل بيت .
(٢) ذاب في نار الفرنج وأفنى نفسه بالنظر إليهم وتقليدهم .

القسم الرابع

نقش الإفرنج

نقش الإفرنج

أبلغني يا ريح عني
إنما العقل أسير
يتحدى العشق برقاً
سحر العقل ، وكان العشق
تبصر الأعين لونا
وراء اللون معنى
ما عجبنا أن إعجا
قد عجبنا لمريض
تجمع العلم وتلقي القل
آه ذا نقد ثمين
إنما الحكمة أمر
ليس في كتابها للحب
قطعت سبل قلوب
ذات طرف ذي كلام
ودلال لا ترى فيه

عالم الإفرنج جهرا :
زاده التحليق أسرا
منه هذا العقل فرأ
بالأكباد أدرى
حينما تبصر زهرا
هو أجلي منه يُدرى
ز مسيح نلت خبرا^(١)
داؤه عندك أشرى^(٢)
ب لا ترغب فيه
ضاع في كف سفيه
ليس فيه من نهايه
والعشق بدايه^(٣)
يقظات بالعمايه
هو في الفتنة آيه
إلى القلب سرايه

(١) الخطاب لعالم الإفرنج .

(٢) شري الداء : إذا اشتد ، وأشرى للتفضيل ، يعني : أنه كالْمسيح في المعجزات ، ولكنه لا يشفي .

(٣) أي : ليس في كتابها ألم العشق وحرّه كما يرى القلم .

سُرَّةٌ مِنْ غَمَزِ الرُّعَايَةِ
فَسَّرَ بِظَبْيٍ فِي النِّهَائَةِ
لَمَّغٍ مِنَ الْأَزْهَارِ غَايَةِ
سَدَاداً وَرَشَاداً
وَابْلَغُوا مِنْهُ مُرَاداً

لَيْسَ فِيهَا لَذَّةُ الْوُخْدِ
طُفُوتِ الْبَيْدِ وَلَمْ تَظْ
طَافَتِ الْبَسْتَانَ لَمْ تَبْ
فَهَلُّمُوا نَسَالَ الْعِشْقِ
وَاقْصِدُوا الْعِشْقَ سُجُوداً

ذَا شَعَابٍ حِينِ سَارَا
وَأَصَارَ الْمَاءَ نَارَا
رَدَّتِ الرَّمْلَ نَضَارَا
فِي قُلُوبٍ أَوْ أَنْارَا
فَقَبْلُنَا جَاهِ جَهَارَا
قَطَعَ الشُّبْلَ نَهَارَا
سَجَّ وَالنَّقْعَ أَثَارَا
ذَرَّ مِنْ ذَاكَ غُبَارَا
وَحَصَدْنَا مِنْ لَهْيٍ
عُقْدَاً فَوْقَ الْقُلُوبِ

سَلَكَ الْعَقْلُ طَرِيقاً
مَلَأَ الْعَالَمَ هَرَجاً
فِي يَدَيْهِ كَمِيَاءٌ
لَمْ يَضْغِ إكْسِيرَ حَبٍّ
سَحَرُهُ قَدْ خَالَ فِينَا
ذَاكَ قَطَّاعَ طَرِيقٍ
فَنَّهُ قَدْ هَدَمَ الْأَفْرَنَ
ثُمَّ فِي مُقْلَةٍ عَيْنِي
كَمْ زَرَعْنَا مِنْ شَرَارٍ
كَمْ عَقَدْنَا وَحَلَلْنَا

نَ جَنَاحُ الْعَنْدَلِيبِ
عَلَى الْأَرْضِ تَرِيبِ
دُ الثُّرَيَّا لَا يَخْتِيبِ
كَنْسِيمٍ فِي هَبِيبِ
سَرِّ السَّرِّ يَصِيبِ
سَارَ أَوْ شَكَّ مَسْرِيبِ
كَ لِلْمَسْرَى الرِّحَابِ

أَيْنَ مِنْ خَفَقِ الشَّوَاهِدِ
أَيْنَ مَنْ يَلْقُطُ مِنْ حَبِ
مَنْ فَتَى يَلْقُطُ عَنَقُو
أَيْنَ مَنْ يَسْرِي بِرُوضِ
مَنْ بِصِيرٍ فِي ضَمِيرِ الزَّهْدِ
أَيْنَ فَوْقَ الْأَرْضِ ظَنُّ
مَنْ طَمُوحٍ جَاوَزَ الْأَفْلَا

حَبَّذا عَقْلٌ فَسِيحٌ
 نَوْرٌ أَمْلَاكِ وَنَا
 نَحْنُ مِنْ خَلْوَةِ عِشْقٍ
 فَجَعَلْنَا مَوْطِئَ الْأَقْدَا
 فَانْظُرْ هَمَّتْنَا كَيْ
 قَدْ أَضَعْنَا الْكَوْنَ جَهْرًا
 قَدْ نَزَلْنَا شَطْطَ نَهْرٍ
 تَبَصَّرُ الْأَعْيُنُ سَطْرًا
 قَلْبُنَا بَيْتُ هَذَا الدَّيْرِ
 فَرَمَى النَّارَ بِرَطْبِ
 شَعْلَةٍ كُنَّا جَمِيعًا
 أَهْلَ شَوْقٍ وَحَنِينٍ
 أَصْبَحَ الْعِشْقُ غَوِيًّا
 فَتْنَةً لِلنَّاسِ فِيهَا
 أَثَرُ الْحَرْبِ عَلَى الْخَفَضِ
 لَمْ يَرَوْا السَّيْفَ إِلَّا
 قَطَعَ الطُّرُقَ وَسَمَّى الْـ
 أَخَذَ الدُّفَّ وَغَنَّى
 رَافِعًا فِي الْكَفِّ كَأَسَا
 حَانَ أَنْ نُحْدِثَ نَهْجًا

قَدْ أَحَاطَ الْعَالَمِينَ
 رَ الْأَنْسِ فِيهِ دُونَ مِينَ
 قَدْ بَرَزْنَا بِالسَّجَايَا
 مَ فِي الْأَرْضِ مَرَايَا
 فَ لَعَبْنَا بِالْعَطَايَا
 حِينَ حَزَنَاهُ خَفَايَا^(١)
 نَبَصَّرُ الْمَوْجَ سَرَايَا
 مِنْ غُدُوٍّ وَعَشَايَا
 لَا يَبْغِي سَبَايَا^(٢)
 وَيَبِيسُ فِي الْبَرَايَا
 وَانْتَرْنَا كَالشَّرَرِ
 وَرَجَاءٍ وَنَظَرِ
 قَاطِعًا كُلَّ وَكَاءٍ^(٣)
 خَفَقُ حَوْتٍ فِي الْعَرَاءِ
 وَعَبَّيَ لِلْقِوَاءِ
 مِنْ صَدُورِ الْأَوْفِيَاءِ
 قَطَعَ حِفْظَ الْأَمْنَاءِ
 رَاقِصًا دُونَ حِيَاءِ
 مِنْ دِمَاءِ الْأَصْفِيَاءِ
 وَنَجَدَ النُّظْرَا

(١) يعني : استولينا عليه بقوة أرواحنا ، وبذلت أيدينا احتقاراً .

(٢) في الأصل : الدير القديم ، وهو كناية عن الدنيا .

(٣) أحسب الشاعر يقصد في هذه الأبيات إلى أَنَّ العشق ، وهو الوجدان السليم قد صار

هوىً وطمعاً ، ففعل ما فعل (المترجم) .

فاغسلن لوح فؤاد
 لحن إسكندر ولى
 وأتى فرهاد يبغى
 يوسف فارق سجنأ
 وخرافات زليخا
 كل سر كان يخفى
 ومضى حفل الندامى
 فافتح العين وأمعن
 إنما تبني الحياة اليوم
 أنا في الأرض بصير
 أبصر الـذرات طراً
 وأرى الحبة تحت الثرب
 ذات أصل وفروع
 وأرى الأطواد ريشأ
 وأرى الرّيش ثباتأ
 وانقلب ليس يحو
 قد أراه لست أدري
 حبذا المبصر جهراً
 ويرى جوهر لحن
 بالحياة النّهر جار
 عاتق السّراح فتى
 كل أهل لـوجود
 ووجود غير أهل
 إنّما العشق عيون
 ومنى الحسن ظهور

وأجد الأسطرا
 وتقضى لحن دارا
 ملك برويز جهارا
 وعزیز الملك صارا
 ورقاها تتوارى
 غشي الشّوق نهارا
 وبريق القول بارا
 ترى ما لا ترى
 كونأ آخرأ
 عارف سر الحياة
 كنجوم نـاظرات
 من قبل نبات
 وثمار يانعات
 في رياح قلقات
 كجبال راسخات
 به ضمير الكائنات
 كيف في العين يواتي
 فارسأ في ذا القتر
 في اهتزاز بالوتر
 وسيجري في مضاء
 وسبقى في فتاء
 سوف يحظى بالضياء
 سوف يحويه الفناء
 ترقب الحسن ظماء
 وسيدو في جلاء

إِنَّ هَذَا الْأَرْضَ فِيهِمَا لِي دَمْعٌ مِنْ دَمَاءِ
سُورِي الدَّمْعُ عَقِيقاً فِي حُشَاهَا ذَا بَهَاءِ
« فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ جَاءَتْ نِي مِنَ الصُّبْحِ بِشَارِهِ
أَطْفَىءَ الشَّمْعَ وَلاَحَتْ لِي مِنَ الشَّمْسِ أَمَارُهُ »^(١)

جمعية الأمم

بِؤْسَاءِ الْأَرْضِ رَامُوا سُتْنَاءَ لَتَزُولَ الْحَزْبُ فِي هَذِي الْعُصُورِ
وَسَمَعْنَا أَنَّ نَبَاشِي قُبُورِ شَرَكَةً شَادُوا لَتَقْسِمَ الْقُبُورِ

شوبنهاور ونييتشا^(٢)

طَارَ مِنْ عُشَّةٍ يَسِيرُ بِرَوْضِ فَأَصَابَتْهُ شَوْكَةٌ مِنْ زُهورِ
لَعَنَ الرِّوَضَ وَالزَّمَانَ وَنَادَى بِشُورٍ لِنَفْسِهِ وَالطُّيُورِ
وَرَأَى وَسْمَةَ الشَّقَائِقِ جَوْرًا وَطَلَسَمَ الْبَرَعُومَ خَدْعُ خَيْرِ^(٣)
قَالَ ذِي الدَّارِ شَيِّذَتْ بِاعْوَجَاجِ كُلُّ صَبَحٍ بِهَا إِلَى دِيَجُورِ
نَاحَ حَتَّى تَقَاطَرَتِ نَغَمَاتُ مِنْ دَمَاءٍ ، بِدَمْعِ عَيْنِ غَزِيرِ
وَشَجَا الْهَدَهْدَ النُّوَاحُ فَوَافِي يَنْزِعُ الشُّوكَ مِنْ جَنَاحِ الْكَسِيرِ

(١) هذا البيت يضمن في شعر إقبال وهو لغالب (الشاعر الأردوي المشهور) .

(٢) فيلسوفان ألمانيان معروفان ، الأول متشائم ، والثاني يعجب بالقوة واحتمال الشدائد في هذه الحياة .

(٣) في الشقيقة سواد يجعلها الشعراء وسمة من الحرقه . وطلسم البرعوم يريد به انطباقه وانبهاه كالطلسم .

قال : أخرج من كل خسرك ربحاً مَزَّقَ الوردُ صَدْرَهُ للغير
واجعل الجُرحَ بَلَسْماً فسترضى واثْلَفَ الشَّوكُ تَغْدُ كُلُّكَ روضاً

الفلسفة والسياسة

لا تقيسوا فلسفياً بارعاً بسياسي وبالعدل احكموا
ذاك عينٌ جهرت في شمسها^(١) وجمودُ عينٍ ذا لا ترحم
ذاك في الحقِّ دليلٌ واهنٌ ذا لدى الباطل قولٌ مُحْكَمٌ

نيتشا

ثارَ مِنْ ضعفِ الأناسيِّ قلبه فبرى الخلق المكمِّل لُجْه
فتنة في الغرب من ذي جنون كان في دار الرُّجاجيِّ ضربه

بايرون^(٢)

قطراتٌ رشحت من كأسه شعلَةٌ تنمو كوردٍ وشقيق
ذو رسالاتٍ بها حرُّ الجوى فرسولُ الحبِّ منها في حريق
ضائق بالإفرنج برداً طبعه فهو في الأوطان في غمٍّ وضيق

(١) جهرت العين : لم تبصر في الشمس .

(٢) الشاعر الإنكليزي المعروف فارق وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة الثائرين بها ، ومات هناك .

وخيالٍ كم بنى مِنْ ملعبٍ فيه للبحورِ مِراجٍ وبريقٍ
جَلَسَاتُ للشَّبَابِ اثْتَلَقَتْ فهو في الغَشِيَةِ منها لا يفيقُ
طَائِرٌ فارقَ عَشَّاءَ ورأى حَلَقَ الشُّبَّاكُ^(١) أولى بالحلق

جلال وهيجل^(٢)

ليلةٌ بَتُّ أعاني حلَّها مشكلاتٍ لحكيم الألمانِ
ذاك مَنْ أبرزَ في إبداعه أبدئُ الكونِ من سترٍ لآني^(٣)
يخجلُ العالمُ من أفكاره شاكياً ضيقَ زمانٍ ومكانٍ
سرتُ في بحرٍ له فالتطمَّثُ سفنُ العقلِ بموجِ الطُوفانِ
نفثَ النَّوْمَ بعيني سحره فحمانِي فكرَ باقٍ أو فاني
وأحدَّ الشَّوْقَ طرفي فإذا نورَ وجهٍ لحكيم رحمانِي
إنه الشَّمْسُ تجلَّتْ في الضحى كلُّ أفقٍ بسناها نوراني
نورُه في مظلَمِ الأفقِ سرى كمنارٍ في طريقِ الرُّكبانِ
تنبثُ الأفكارُ في ألفاظه مثلَ ما ينمو شقيقُ النُّعمانِ
قالَ : قم يا أيها النائمُ ! هل تمخرُ السفنُ سرابَ القيعانِ
« في طريقِ العِشقِ بالعقلِ يُسار ؟ » بسراجٍ تبتغي شمسَ النَّهارِ^(٤)

(١) الشباك : الشبكة .

(٢) جلال الدين الرومي ، وهيجل الفيلسوف الألماني .

(٣) يريد أنه أدرك من الشيء المؤقت حقائق أبدية ، والآني نسبة إلى الآن .

(٤) البيت الأخير للرومي .

بتوفى

(شاعرٌ مجري قُتِلَ شاباً في الدِّفاع عن وطنه ، ولم يعثر على
بدنه لتبقى له ذكرى أرضية)

لعروسِ الرِّياضِ غَنِيَتْ حيناً زدتَ قلباً جوىً وأسليتَ قلباً
وخضبتَ الشقيق من دمك المسفوك وجُداً وجلّ ذلك خضيباً
كم بآهِ الصُّباحِ في المرجِ يسري ، في صدور الأكمّام فتختَ قلباً
نغماتٌ من الجوى ذبت فيها في « مزار » القريض تُدفن حبا
والى الترب لم تعد بمماتٍ ذاك حقّ فليس أصلك ترباً

جلال وجوته^(١)

شاعر الألمان في رَوْضِ إرم^(٢) فاز بالصحبة من شيخ العجم
شاعرٌ يشبه ذا العاليي الجناب ما نبياً كان لكن ذو كتاب^(٣)
قصٌّ للعارفِ بالسِرِّ القديم ما وعى إبليسُ والشيخُ الحكيم
فأجابَ الشَّيخُ : يا رب العلاء أنت صيادٌ ولكن في السماء
قد خلا فكرُك في القلب السليم فأجدُّ الرُّوح في الكون القديم
فرأيتُ الدرَّ في قاع البحار وديبَ الرُّوح من خلف الستار

(١) شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة فوست . وفي هذه القصة يبين الشاعر درجات تطور الإنسان في إطارٍ من رواية قديمة عن العهد الذي كان بين الحكيم فوست والشيطان ، وقد بلغ فيها الفنُّ درجةً لا يدركها الخيال .

(٢) يقصد الشاعر بإرم الجنة .

(٣) شيخ العجم : جلال الدين الرومي ، والبيت الثاني من قول الجامي عن الرُّومي : ماذا أقول في هذا العاليي الجناب - لم يكن « نبياً » ولكن له كتاب - .

ليس كلُّ قد تجلَّى العِشْقُ له ليس كلُّ أهل هذي المنزله
« قد تجلَّى لسعيد المعِيَّ مكرُّ إبليس وعشْقُ الآدمي »^(١)

رسالة برگسون^(٢)

إذا ما شئت أن تحظى بسرِّ تبوح له الحياة لمستجيب
فلا تبعدُ بنفسك عن لظاها كما جفَلَ الشَّراؤُ عن اللهب
ولا تصحبْ سوى نظيرٍ عريف ولا تمرر بأرضك كالغريب
وما صورته وهمٌّ فأعدد لعقلٍ شبَّ في أدب القلوب

حانة الفرنج^(٣)

عهدُ حاناتِ فرنج ذُكرني يا خليلي !
رَبَّتِ الخمرُ فيها عينَ خَمَّارٍ جميلٍ
نظرة الساقبي رسالا ثُ لشرَّابِ الشَّمولِ
عقلُها الخاتر غاز عشقُها كلُّ سبيلٍ
جوُّها ما أشعلته نارُ آهاتِ الحيارى
ليس فيها من خليع فيه ترنيحُ الشُّكارى

(١) البيت الأخير لجلال الدين الرومي .

(٢) فيلسوف فرنسي .

(٣) يقصد الشاعر في هذه الأبيات إلى ما يعوز الإفرنج من الإيمان وحرارة الوجدان .

حكماء^(١)

لوك^(٢)

فارغُ الكأس أتى الروضَ شقيق^(٣) يملأ الأكواب من شمس الضُّحى

كنت^(٤)

فطرةٌ ضاءت شراباً ولها نجم كأسٍ من حريم الأزل

بگسون

ماله مِنْ أزلٍ خمرٌ وكاس ناره مِنْ حرقه القلب الشَّقِيقُ

شعراء

برونگی^(٥)

ليس في كأس الحياة البرد نازٌ فباء الخضر كأسی أملاً^(٦)

بايرن

منةٌ للخضر لا تلهبُ صدري فباء القلب كأسی أملاً

(١) صوّر الشاعر كلاً من هؤلاء الفلاسفة بيت . وهذه الكنايات لا يدركها إدراكاً تاماً إلا من عرف هؤلاء الفلاسفة ، وعرف خصائص كلٍّ منهم .

(٢) فيلسوف إنكليزي .

(٣) شقائق النعمان .

(٤) فيلسوف ألماني .

(٥) شاعر إنكليزي .

(٦) ماء الخضر : عين الحياة التي شرب منها الخضر ، فخلد ، وحرّمها إسكندر .

غالب^(١)

لأزید الخمرَ والصَّدرَ لهیباً أصهرَ الدَّنَّ وكأسي أملأ

جلال الدّین الرومی

أین مزجُ مِنْ سنا جوهرِها مِنْ عروقِ الکزَمِ كأسی أملأ

حانات الفرنج

أمسِ فی حانة الفرنجة وهناً	راعني قولُ ماجنٍ ذي خلاعة
قال : لیست كنيسة تغشاها	فی دُمى للغناء تبغي سماعه
إنّھا حانةُ الفرنجِ وفيها	كلُّ ما ذمّه البریة طاعه
قد وزنا الأعمالَ فیها بوزنٍ	غیر ما حسن الأنامُ اصطناعه
لا تزنُ وزنَ أمّةٍ ذاتِ دینٍ	رثُ میزانهم فحاذر متاعه
كلُّ قبحٍ یزیدُ جاهک ، حسنٌ	كلُّ حسنٍ یضرُّه فهو شناعه
إنّ تفكّرت فالحياةُ رياءٌ	وبها الصّدقُ قولُهُ خدّاعه
إنّما الصّدقُ والوفاءُ حجابٌ	یُحرمُ السّاعي الغریرُ ارتفاعه
شیخنا قال : مؤهنّ كلُّ صُفر	بنضارٍ وزیْفَنُ كلُّ ساعه
ذاك سرُّ الحیاة لا تفشینه	تربحن فی یدیک كلُّ بضاعه

(١) أسد الله غالب شاعر بالفارسية والأردية ، يُعتبر شعره حجة باللغة الأردوية ، توفي سنة ١٨٦٨م وهذا البيت لغالب نفسه .

القسم الخامس

وقائـق

رقائق

ذَرَاتُنَا ثَوْرَةٌ تَهْدُرُ بِأَنْفَاسِنَا مُحْشَرٌ مَضْمُرٌ
لَقَدْ أَفْصَحَ الْخَضِرُ فِي الظُّلُمَاتِ عَلَى حِينِ صَاحِبَهُ إِسْكَنْدُرٌ
عَسِيرٌ عَلَى النَّاسِ فَهَمُّ الْمَمَاتِ وَفَهُمُ الْحَيَاةِ لَهُمُ أَغْسَرُ

حَبَّةُ الدُّرِّ تَعْرِفُ الْبَحْرَ لَكِنْ أَيُّ عِلْمٍ لَهَا بِدَوْرِ الرَّحَى ؟

يَصْرُ الْيَرَاعُ لِإِعْوَازِ لَبٍّ^(١) فَلَيْسَ لِمُرُودٍ كَحَلٍّ صَرِيرٍ

طِفْتُ بِالْبَيْتِ حَامِلًا أَصْنَامِي وَأَمَامَ الْأَصْنَامِ « هُو » قَدْ جَارَتْ^(٢)
وَفِؤَادِي يَسِيرُ خَلْفَ طِلَابٍ فِي طَرِيقِ كَشْعَرَةٍ قَدْ مَرَزَتْ
يَقُولُ وَرْدُ رَوْضٍ : عَيْشُ الرَّبِيعِ أَحْلَى وَصَبْحُ مَرْجٍ عِنْدِي مِنَ الْجَمِيعِ أَحْلَى
مَنْ قَبْلَ جُورِ كَفٍّ لَزِينَةٍ تَقْطِفُنِي مَوْتُ بَحْضِنِ نَضْرٍ مِنَ الْفُرُوعِ أَحْلَى^(٣)

يَا صَاحِبِي ذَاكَ قَوْلٌ عَلَى الْحَيَاةِ دَلِيلٌ

(١) يعني لأنه فارغ الجوف .

(٢) صاح بلفظ « هو » يريد الله تعالى .

(٣) وهذا مثال آخر من زيادة التفعيلات على المعهود في العربية وفي القافية المردوفة .

اللُّمَعَات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بدأتُ هذه المنظومة حينما قرأتُ منظومتِي إقبال : « أسرار خودي » ،
و« رموز بي خودي » ونشرت الأبيات الأولى منها ، ثم شُغِلْتُ عن إتمامها ،
فلبثتُ أعاودُ النَّظْمَ فيها حيناً بعد حين .

فلما أشرفت ترجمة « پیام مشرق » على النِّهاية عزمْتُ على إتمام
المنظومة ، فتمَّت بحمد الله .

وهي مهداة إلى الشَّاعر العظيم إقبال اعترافاً بفضله .

(عبد الوهاب عزام)

أَيْهِيَ اللَّيْلُ ! إِلَيْكَ الْمَفْزَعُ
 كَمْ خَفِينَا فِي غِيَابَاتِ الدُّجَى
 كَمْ أَلْفَتْ اللَّيْلَ أَمَّا حَانِيَةً
 كَمْ أَلْفَتْ اللَّيْلَ وَحِشاً رَاقِبَا
 كَمْ بَثَّتْ اللَّيْلُ سِرّاً كَتَمَا
 كَانَتْ الظُّلُمَاءُ لَوْحاً لِلْأَلَمِ
 كَانَ لِي اللَّيْلُ مَدَاداً فَتَفَدَ
 جَاشَتْ الظُّلُمَاءُ مَوْجاً بَعْدَ مَوْجٍ
 فَنَيْتَ هَذِي ، وَهَذَا زَاخِرُ
 خَلْتَنِي فِي اللَّيْلِ جَمِراً سَعِراً
 إِزَّةً قَدْ وَقَدْتُ فِي أَضْلَعِي^(١)

كَمْ حَنَتْ مِنْكَ عَلَيْنَا أَضْلَعُ ؟
 وَمَلَأْنَا اللَّيْلَ هَمّاً وَشَجَا ؟
 وَكَرِهَتْ النُّجُومُ عَيْنَا رَانِيَةً ؟
 مِنْ شُعَاعِ الصُّبْحِ سَهْماً صَائِبَا
 فَوَعَاهُ اللَّيْلُ عَنِّي أَلَمَا ؟
 خَطَّتِ الْآهَاتُ فِيهِ كَالْقَلَمِ !
 وَطَغَى قَلْبِي بِمَدٍّ بَعْدَ مَدٍّ
 وَغَزَانِي الْوَجْدُ فَوْجاً بَعْدَ فَوْجٍ !
 وَانْجَلَّتْ هَذِي ، وَهَذَا غَامِرُ
 وَنَجُومُ اللَّيْلِ مِنْهُ شَرَرَا
 وَسَحَابٌ هَاطِلٌ مِنْ أَدْمَعِي ؟

كُنْتُ سَطِراً لَمْ يُفَسِّرْهُ أَحَدٌ
 فِي ضَمِيرِي كُلِّ مَعْنَى مِنْهُمْ
 قَدْ ثَوَى الْعَالَمُ فِي قَلْبِي وَمَا
 جَلَّ قَلْبِي أَنْ أَرَاهُ جَامِ جَمٍّ^(٣)
 إِنَّمَا الْأَقْطَارُ فِي قَلْبِي الْعَمِيدُ

خَطَّاهُ فِي غَيْبِهِ اللَّهُ الصَّمَدُ
 حَرَّتْ فِي الْإِعْرَابِ عَنْهُ بِالْكَلِمِ
 خُطَّ شَيْءٌ فِيهِ إِلَّا الْحَرْفُ « مَا »^(٢)
 صُورُ الْأَقْطَارِ فِيهِ تَنْتَظِمُ
 أَحْرَفٌ أَوْحَتْ إِلَى مَعْنَى بَعِيدِ

(١) الإمرة : جبل النار .

(٢) يعني : لم يكن العالم في قلبه إلا نفياً .

(٣) جام جم أو كأس جمشيد ، في خرافات الفرس : كأس كانت تُرى فيها الأقاليم السبعة .

ليس في الناس عليه مَحْرَمٌ^(١)
أتراني مسمعاً من في القبور^(٢)
ناطقٌ فيهم كأني أبكم !
ضاعٌ في ضوضائهم هذا الأذان !
وعلى الأذان ران الصمم ؟
قلبه رخوٌ خليٌّ من شرر
بعضه يوري ، وبعضٌ يضلُّد
طفىء الجمرُ ولم تور الزناد !

ربّ معنيّ في ضمير يكتّم
وقلوبٍ رمسها هذي الصُّدور
أنا في النَّاسِ فصيحٌ أعجم
صمّتِ الأذانُ عن هذا البيان
كيف يُجدي القومَ هذا النِّغم
كيف يُجدي القَدْخُ في هذا الحجر ؟
إنَّ خَفَقَ القلبِ قدحٌ مُجهَّدُ
كيف يُجدي النفخُ في هذا الرِّمادُ

ثمّ يلتفُّ عليه الغسقُ
فيه بين الغيبِ والوَمَضِ وضوح
فهو سطرٌ من غيابٍ وحضور^(٣)
قامت الأنجمُ فيه نُصْبا
كيباضِ الطُّرسِ يعلوه المِداد
ألّفت منه سَطُورٌ وضَّح
وكأنَّ الضَّوءَ تفصيلُ الظُّلم
أعجمت معناه تلك النُّقْطُ
وحوى الأحرفَ سَطْرٌ مظلمٌ^(٤)

يَخْرِقُ اللَّيْلَ شعاعٌ يَخْفِقُ
كمنارِ البحرِ يخفى ويلُوح
أو يراعِ اللَّيْلِ يخفى ويُنير
تارةً يبدو طريقاً لحبا
أو بياناً من بياضٍ وسواد
كلُّ لونٍ فيه حرفٌ مُفْصِحُ
ورآه تارةً خطاً أجَم
فهو سَطْرٌ من ظلامٍ أرقطُ
كلُّ لونٍ فيه حرفٌ أعجمُ

(١) المَحْرَمُ هنا : الأمين على السر ، كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .

(٣) هذا من قول إقبال : أي كرمك شبتاب سرايا تو نوراست برواز توبگ سلسله غيب وحضور ست (يا براعة الليل كلك نور ، وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور) .

(٤) حاصل المعنى في هذه الأبيات : أن النفس تارةً تدرك إدراكاً واضحاً ، وتارةً تُغم عليها الحقائق .

يا لُبْنَى أوقدي ، طالَ المدى
أوقدي يا لُبْن قد حارَ الدَّلِيل
ارفعي النَّارَ وأذكي جمرها
شَرِّدي هذا الظلامَ الجاثما
حَبِّذا النارَ بليلِ توقدُ
حَبِّذا عندك هذا النزلُ
ما لذا المنزلِ قد سارَ الفريق
قد ترحَّلنا من الفجِّ العميق
رَنَّا في آفاقنا هذا النَّداء
قد غنينا عن مبيتٍ ومقيل
وعن الرَّغبة والخوفِ سُوى
نحن لا نرضى بنار الغسق
نحن لا نرضى بنجم الصُّبح لاح
نحن لا نرضى نجوماً لامعه
قد رحلنا بالجوى والحُرق
أين منا طائراتُ سَبَّاق
نحن ركبٌ في جواه مُوضع
كلُّ حُرٍّ ضاق عنه الموطنُ

أوقدي علَّ على النار هدى^(١)
أوقدي النَّارَ لأبناء السَّيل
علَّ هذا الركبَ يعيشو شطرها
أرشدني هذا الفراشُ الهائم
حَبِّذا المؤمنُ هذا الموقدُ ؟
لو حوانا في سفارٍ منزل
إنَّما النيرانُ أعلامُ الطَّريق
لا نبالي بقريبٍ أو سحيق
فأممنا البيتَ يحدونا الرِّجاء^(٢)
وعن الأمواه والظلُّ الظليل
خُلع النعلان في وادي طوى^(٣)
نحن لا نرضى بنور الشَّفَق
لا ولا نرضى تباشير الصُّباح
إنما نبغى شمساً طالعها
وغنينا عن رسيم الأينق
جَمَعَ الغَرْبُ لها والمشرقُ
لم يَسْغُهُ في جواه موضعُ
وانطوى دون مناه الزَّمَنُ

(١) إشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ لَعَلَّيْكُمْ مِنْهَا يَقْبَيسُ أَوْ آجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

(٣) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ إِنِّي أَنَارُكَ فَخَلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه : ١٢] .

كلُّ طيَّارٍ على متن الفكر
طائرٌ منه يغارُ الملَك
بارقٌ في اللُّوحِ لا ينطفئُ
زودينا بهيَّامٍ ووجيب

وعلى متنِ هيَّامٍ لا يقر
طائرٌ من تحته ذا الفلكُ
كلُّ غاياتٍ لديه مبدأ
زودي يا لبنَ من هذا اللهب

جالَ في الظلماءِ نورٌ من نغم
أشعاعٌ فيه صوتٌ صائح
أذنَ الرِّكبِ لهذا المنشدِ
سال في القلبِ مسيلَ المطرِ
أو خريِرِ الماءِ من نبعِ زلال
رَنَ في نفسي رنينُ الجرسِ
طوتِ البيداءُ عنه السَّابِلَ
سبقَ القلبُ إليه الأذنا
دارَ قلبي شطرَ هذا المطربِ
« غنني يا منيتي ! لحنَ النُّشورِ
عُذتْ يا عيدي إلينا مرحبا

مُرِّقتُ منه دياجيرُ الظلم
أم كلامٌ منه نورٌ لائح ؟
أطربَ الناشدَ صوتُ المنشد^(١)
ينبتُ الرُّوحُ بسهبٍ مقفرِ
بشرَ الغارقِ في بحرِ الرُّمالِ
صاح في أذني فقيدٌ مبلِس
وهداهُ الصَّوْتُ شَطَرَ القافله
كبلالٍ لصلاةِ أذنا
دورةَ الإبرة شطرَ القطبِ
ابركي يا ناقتي ! تمَّ الشُّرور
نِعمَ ما رَوَّحتَ يا ريحَ الصِّبا^(٢) »

حبذا الصَّوْتُ فَمَنْ هذا البشير ؟
وَمَنْ المُسعدُ في هذي الهموم ؟
ومن الهابط في نورِ السَّما

ومن الهاتفُ بالقلبِ الكسير ؟
وَمَنْ البارِقُ في هذي الغيوم ؟
هادياً في الأرضِ جيلاً مظلماً ؟

(١) المنشد في الشطر الأول ، منشد الشعر ، وفي الثاني : الذي يدلُّ على الضالة ،
والناشد : من ينشدها .

(٢) جاء هذان البيتان بالفاظهما العربية في مثنوي جلال الدين الرُّومي .

ومن الهادي إلى أرض الحبيب
ومن السائق شطر الحرم
ومن القاريء في بيت الصنم
ومن الحر الذي قد حطما
ومن الأبى على كل القيود
ومن الباعث في ميت الأمم
لاخ كالغرة في هذا السواد
جرف الناس أتى مزيد
وطغى اللجج عليه والتطم
عارض الموج على أغماره
سبح اللجج وبالشط استقر
يجرف التيار جسماً جامداً
إن عزم الحر بحرٌ مُزبدٌ
هذه الأقدار في تسيارها
ومن الشاعر يُذكي القافيه
تقشع الأرض من أوزانه
وكان الدهر صوتٌ كُتبا
هو بالأشعار بحرٌ فائض
حدّثته الأرض عن أخبارها
هو بالأمس خبيرٌ بغد
كشف الله عن الغيب له
عرّف الشرق وراد المغرب

يعرف النهج وقد حار اللبيب ؟
والى الأصنام سِيرَ الأمم ؟
سورة الإخلاص في هذا النغم ؟
من قيود الأسر هذا الأدهما ؟
ومن القاطع أغلال العبيد ؟
ثورة العزة من هذي الهمم ؟
بص كالجمرة في هذا الرماد
ضلّ فيه المقتدي والمرشّد
فرساً كالصخر في هذا الخضم
وطوى اللجج على تيّاره
داعياً والناس غرقى في النهر
تقذف اللجة قلباً خامداً
جائش في الدهر لا يتبدّد
همم الأحرار في أسفارها^(١)
فهي نورٌ وهي نارٌ حاميه ؟
ويهيّم النجم من ألقانه
قد حكاه الشعر لحناً مطرباً^(٢)
وهو للأزمان قلبٌ نابض
وحبته الرّهر من أسرارها
وهو اليوم نجيّ الأبد
فلسان الغيب يُملّي قوله
فانجلي السّر له ما كذبا

(١) هذه : مبتداً ، وهمم : خبر .

(٢) يعني : أن الدهر أمام الشاعر كعلامات الموسيقى ، والشعر قراءة هذه العلامات .

فرأى العلمَ سبيلاً للردى
صوتُ « إقبال » على شطّ المزار

أيها الدّاعي إلى سرّ « خودي »
فطسرةُ الله التي أودّعها
إنها سرُّ الحياة الخالدة
إنّها التّيّارُ مثلَ الكهرباء
إنّما العيشُ جهادٌ لا يقرّ
من يضيء ذا السرّ في أعماقه
وتعالى عن حدود الأزمنة
شعلٌ في قوله تضطرم
مُطلعٌ في اليأسِ صُبْحُ الأملِ
أرايت الغيث في أرضِ موات
هممُ الأحرارِ تحيي الرّمَمَ
لا يُصدُّ الحرُّ عمّا يامل
هو باللهِ العليّ اتصلا
من يضيء في قلبه إيمانه
فهو باللهِ عليّ وقويّ
جاهد واللهُ في تسييره
قائمٌ بالحقّ بين البشر
يُمسِك الدُّنيا ولا تُمسِكُه
وترى الدُّنيا انطوت في كسبه
إنّهُ القانون باللهِ سرى
يسعُ النَّاسَ جميعاً همُّه

إذ رأى القلبَ خليّاً من هدى
أسمعَ اليقظان في هذي الدّيار

ليت أنّا بهداها نهتدي
كلُّ نفسٍ خابَ من ضيّعها
دونها كلُّ حياةٍ هامة
إن يُعطّل لمحّة كان الفناء
وركوذُ الحيّ موتٌ مستمرّ
ضاقتِ الأفلاكُ عن آفاقه
وتجافى عن قيود الأمكنة
وطما في القلب بحرٌ خضرم
نافخٌ في الموت روح العمل
منبتاً فيها أفانين النّبات
نفخةُ الأبرار تحيي الأمما
أو يحدُّ البرُّ فيما يفعل
جلّ ربي عن حدودٍ وعلا
وينز في سبله وجدانه
وهو باللهِ غنيّ ووليّ
تحسبُ الأقدارَ في تقديره
ماله في باطلٍ من وطّر
يملك الأرضَ ولا تملكه
ليس منها ذرةٌ في قلبه
عادلاً في حكمه بين الورى
في سبيل اللهِ ماضٍ عزُّمه

جَاهِدْ فِي الْخَيْرِ لَا يَتَّشَدَّ
وَفَقِيرٌ وَغَنَاءٌ لَا يُخَدُّ
هُوَ بِاللَّهِ وَفِي اللَّهِ غَنِيٌّ
عِزُّهُ فِي صَدْرِهِ يَتَّقَدُّ
فَقْرُهُ اسْتَغْنَاؤُهُ عَنْ كُلِّ يَدٍ
ضَاقَ عَنْ هَذَا الْغِنَى كُلُّ ثَرِيٍّ

صغار الهمم

إِنَّ فِي النَّاسِ قُلُوباً جَامِده
هَمُّهَا مَا يَبْتَغِيهِ الْجَسَدُ
حَدَّثَتْ آرَائُهَا آفَاقَهَا
لَا تَبَالِي حِينَ تَبْغِي أَرْبَا
إِنَّمَا قَانُونُهَا أَهْوَاؤُهَا
وَتَرَى أَهْوَاءَهَا تَغْلِبُهَا
وَالِى الْأَرْضِ تَرَاهَا مُخْلِده
إِنَّمَا آفَاقُهَا هَذَا الْبَدَنُ
إِنَّمَا أَحْيَاؤُهَا كَالرَّمَمِ
جَذْوَةُ الْإِقْدَامِ فِيهَا خَامِده
كُلُّ مَا تَهْوَى طَعَامٌ وَدُدُ
فَحَكَّتْ فِي ضَيْقِهَا أَخْلَاقَهَا
عُمِرَ الْكُونُ بِهِ أَمْ خَرِبَا
سُخِّرَتْ فِي نَفْعِهَا آرَاؤُهَا
كُلُّ حِينَ فِي هَوًى يَجْذِبُهَا
لَا تُرَى نَحْوَ الْمَعَالِي مُضْعِده
إِنَّمَا مَبْرَكَهَا هَذَا الْعَطَنُ
خَامِدَاتِ الْعِزِّ مَوْتَى الْهِمَمِ

العالمُ مَعْبُد

إِنَّمَا الْعَالَمُ طُورًا مَعْبُدُ
كُلُّ مَنْ أَدْلَى بِقَوْلٍ طَيِّبٍ
كُلُّ مَنْ أَحْسَنَ يَوْمًا عَمَلًا
كُلُّ مَنْ فِي أَرْضِهِ قَدْ زَرَعَا
كُلُّ مَنْ يَغْرِسُ مَخْضَرَّ الشَّجَرِ
كُلُّ مَنْ أَحْسَنَ ، فِيهِ يَعْْبُدُ
يَنْبِتُ الْخَيْرَ كَغَيْثٍ صَيِّبٍ
كُلُّ مَنْ أَحْيَا مَوَاتًا هَمَلًا
لِيقِيَتِ النَّاسَ وَالْعُجْمَ مَعَا
فِيهِ لِلْإِنْسَانِ ظِلٌّ وَثَمَرُ

كل من يَنْبِطُ بشراً في السبيل
كل من يَبْنِي بناءً حسناً
كل من أحدثَ علماً للبشر
كل من أحدثَ فكراً مُحْكَمًا
كل من جَدَّ وإن لم يجد
كل من أثَّرَ فيها أثراً
كل من في دهره قد أجملاً
كلُّهم لله نِعْمَ العَابِدُ
فاصطنع للخيرِ فكراً ويداً

لا رهبانية في الإسلام

يحبسُ الأعمال والفكر معه
فثوى في ضيقه قد خنعا
عابداً تخشى البرايا وجلاً
موضحاً فيه سبيلاً للنَّجاة
ذاكراً مولاه في كلِّ عمل
يَتَّصِلُ بالحق لا يخش الفتن
إن يفكَّرُ ظالماً في ظلمه
يطلبُ الرزق بعزم وجناح
لا يرى حول الدُّنْيا حائماً
لو يراه الجوع يوماً ما أسفَّ
لم يطق صبراً عليه فهلك
فأسار الحرَّ فيه مهلك

ليس منا من ثوى في صومعه
ضاق نفساً عن مجالٍ وسعا
ليس شيئاً أن تُرى معتزلاً
إنما العابد من خاض الحياة
أخذاً بالعَدْلِ ما عنه حول
إنه بالحق موصولٌ ومن
ثورةً مضمرةً في حلمه
أرأيت الصَّقرَ في متنِ الرِّيح
طائراً في الجو يسمو عازماً
يأكلُ الجوع ولا يرضى الجيف
فإذا الجدُّ رماه في الشُّرك
ليس يحوي الحرَّ يوماً شبك

يا فتى هذا الجهاد الأكبر
قل في الناس عليه صابر
يا أسير الوهم أقدم لا تبُل
عزومات الحر فيه تُخبر
ليس إلا الحر فيه ظافر
وامض فيمن صحَّ عزماً واتَّكل

معنى التَّوَكُّل

مَنْ يَنْمَ عَنْ سَعِيهِ لَا يَتَّكِلُ
مُقَدِّمٌ فِي أَمْرِهِ الْمَتَّكِلُ
عَازِمٌ مَاضٍ عَلَى خَيْرِ سَنَنِ
أَرَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي نَوْرِ الصَّبَاحِ
إِنَّهَا تَخْرُجُ فِي كَفِّ الْقَدَرِ
طَالِبَاتِ الرِّزْقِ فِي كُلِّ رَجَا
يَا لَهَا مَنْ أَمَلٍ قَدْ صَوَّرَا
أَرَأَيْتَ الْعَزْمَ فِي شَكْلِ جَنَاحِ
لَا يَصْدُ الطَّيْرَ خَوْفُ التَّهْلُكَةِ
ضَرْبِ الْمَخْتَارِ هَذَا مَثَلَا
أَرَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي أَوْكَارِهَا
ثَاوِيَاتٍ تَبْتَغِي أَرْزَاقَهَا
مَنْ وَنَى فِي سَعِيهِ لَمْ يَتَّكِلْ
إِنَّمَا التُّكْلَانُ عَزْمٌ وَعَمَلٌ

إِنَّمَا التُّكْلَانُ سَعْيٌ مُتَّصِلٌ
وَاثِقٌ بِاللَّهِ فِيمَا يَأْمُلُ
لَا يَبَالِي بِعِقَابٍ أَوْ مِحْنٍ^(١)
تَطْلُبُ الرِّزْقَ بِعَزْمٍ وَجَنَاحِ
مَقْدَمَاتٍ لَا تَبَالِي بِالْخَطَرِ
تَمَلُّ الْجَوَّ وَثُوقاً وَرَجَا
طَائِراً يَطْلُبُ رِزْقاً قُدَّراً
خَافِئاً لَا يَنْشِي دُونَ النَّجَاحِ
أَوْ تَبَالِي بِطَرِيقِ مَهْلِكِهِ
لِلَّذِي يَسْعَى عَظِيماً أَمَلًا^(٢)
رَاجِيَاتٍ رِزْقَهَا فِي دَارِهَا ؟
لَيْسَ تَذْرِي مَنْ إِلَيْهَا سَاقَهَا
إِنَّهُ لِلْوَهْمِ وَالْعَجْزِ وَكُلِ
إِنَّهُ الْإِقْدَامُ فِي ضَوْءِ الْأَمَلِ

(١) العقاب : جمع عقبة .

(٢) جاء في الأثر : لو توكلتم على الله حقَّ التوكل ؛ لرُزقتم كما ترزق الطير ؛ تغدو خماساً ، وتروح بطناناً .

إِنَّهُ الإِعْدَادُ وَالْعِزْمُ مَعَا إِنَّهُ التَّقْدِيرُ فِي سَعْيِ الْبَشَرِ
 هُمُّ الْأَحْرَارِ فِي إِيْمَانِهَا سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَبْدَلُ
 إِنَّهُ الْحَرْزُ إِلَى الْقَصْدِ سَعْيِ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ بَعْضِ الْقَدْرِ
 سُنُّ الْخَلْقِ فِي أَكْوَانِهَا مَا لَهَا كَرُّ اللَّيَالِي حَوْلُ

غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل

آه مَنْ لِي بِقُلُوبٍ وَاعِيَةٍ آه مَنْ يَفْقَهُ هَذَا الْكَلِمَا ؟
 آه مَنْ يَدْرِكُ هَذَا النِّعْمَا ؟ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ مَاذَا قَدْ عَدَا ؟
 آه لِلنُّورِ الَّذِي قَدْ طَفَأَا آه لِلنَّارِ الَّذِي تَشْتَعَلُ
 آه لِلنَّارِ الَّذِي تَشْتَعَلُ خَمَدَتْ فَالْقَلْبُ بَرْدٌ وَهَمُودُ
 خَمَدَتْ فَالْقَلْبُ بَرْدٌ وَهَمُودُ إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ زَنْدٌ وَحَجَرُ
 إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ زَنْدٌ وَحَجَرُ إِنِّي أَضْرِمُ هَذَا الْأَلْمَا
 إِنِّي أَضْرِمُ هَذَا الْأَلْمَا إِنِّي أَنْفَخُ فِي هَذَا السَّوَادِ
 إِنِّي أَنْفَخُ فِي هَذَا السَّوَادِ عَلَنِي أَذْهَبُ هَذَا الْخَبْثَا
 عَلَنِي أَذْهَبُ هَذَا الْخَبْثَا إِنِّي أَبْعَثُ فِيهِمْ نَغْمِي
 إِنِّي أَبْعَثُ فِيهِمْ نَغْمِي إِنِّي أُمْطِرُ فِي أَرْضِ مَوَاتِ
 إِنِّي أُمْطِرُ فِي أَرْضِ مَوَاتِ

الأمل

لَا تَرَانَا فِي جِهَادٍ نِيَّاسُ لَيْسَ مِنْ أَمْتِنَا مَنْ يَشَاوَا

أشعل الإيمان في كل دُجى
وَأَرْفَعَن في كلِّ ليلٍ شُعْلاً
وصلِّ القلبَ بخلاقِ الرجاءِ
إنَّما الإنسانُ فِكْرٌ وَعَمَلٌ
أمل الإنسان في القلب ضياء
إنَّه النَّارُ التي تَشْتَعَلُ
إن دَجَا باليأس ليلٌ غَيْهَبُ
هو وَخِيُّ اللهِ يَهْدِي عبده
هو نورُ اللهِ في أفق النجاة
إنَّه القُطْبُ إليه يَنْزَعُ
إبرةٌ تهدي إلى قَصْدِ السَّيْلِ
يا دليلاً هادياً في كلِّ وادٍ
يَقْدَحُ القلبُ إذا ما خَفَقَا
فهو نورٌ وهو نارٌ يَلْذَعُ
فاؤْمَلْ لخيرٍ وصابرٍ لا تَمَلْ
وقضاءُ اللهِ عَوْنُ الأَمَلِينَ
لا يَرُدُّ اللهُ قلباً آملاً
ربَّ عبدٍ مخلصٍ قد أقسما
وجهادُ العبدِ أولى أن يُبرَ
إنَّ عِزَّمَ الحَرِّ فيه قَسَمٌ
قد تولَّى اللهُ هذا المَقْسِمُ

واقْدَحِ العِزْمَ إذا الهَوُلُ دجا
وابعثن من كلِّ يأسٍ أملاً
واخلقن في كلِّ حينٍ ما تشاء
يَضْدَعُ الظُّلَمَاءُ في نور الأمل
وهو في الكفِّ جهادٌ ومَضَاءُ
إنَّه النَّجْمُ الذي لا يَأْفُلُ
يَضْدَعُ الظُّلَمَةَ هذا الكوكبُ
ويُريه في الدِّياجي قَصْدَهُ
هو هدي اللهُ في هذي الحياه
كلُّ قلبٍ وإليه يَفْزَعُ
تَقْصِدُ القُطْبَ وعنه لا تَمِيلُ
أنت سرُّ اللهِ في كلِّ فؤادٍ
شَرّاً منه منيراً مُحْرِقاً
يوضح النَّهْجَ وفيه يَذْفَعُ
إنَّما الدُّنْيَا رجاءٌ وَعَمَلٌ
وهو في عَوْنِ الأَبَاةِ العَامِلِينَ
لا يَرُدُّ اللهُ عبداً عاملاً
فأَبَرَّ اللهُ مِنْهُ القَسَمُ^(١)
إنَّه الفعلُ على القولِ أَمْرٌ
مُضْمَرٌ يَغْلُمُهُ مَنْ يَغْلُمُ
فدعاه في يقينٍ يقسم

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر : « ربَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » .

الوجدان السليم

ذلك الوجدان إن لم يصدأ
أو تحجبه رياح عاتيه
أو يجلله ظلام الغفلة
أيقظ الوجدان يا من غفلا
أيقظ الوجدان واسمع وخيه
إنه المرآة ، إمّا صقلا
اجله بالفكر والعلم معا
لا تضع في الشوق هذا الجوهر
لا تضع في لغوهم هذي الحكم
نحن في الدنيا حوانا مهمّة
تقصد المنزل هذي القافلة
فاتبعن خريتها لا تبلس
إنه الوجدان في هذي الفلاة
أرايت الفلك تسري ماخره
تهتدي فيها بنور بارق
تهتدي النهج على لمحاته
وهدها إبر لا تغفل
إنما الوجدان في بحر الحياة

من غشاوات الهوى أو يطفأ
صرصر الأهواء فيها سافيه
أو يخجبه حجاب الشهوة
فمضى يحيا حياة هملا
أيقظ الوجدان واتبع هديه
تبصر العالم فيه مثلا
واجله بالذكر حتى يسطعا
لا تطغ من باع فيه واشتري
لا تغل ضوضاؤهم هذا النغم
مجهل أعلامه تشبهه
في فياف خاف فيها السابله
وأصخ فيها لصوت الجرس^(١)
إنه داع ينادي للنجاء
في ليالٍ وبحارٍ زاخره
من منارٍ في الدياجي خافق
وتوقى الصخر من مضاته
قاصدات قطبها لا تعدل
إبرة القطب ومضباح النجاء

(١) جرس القافلة ، وفيه إشارة إلى قول سعدي الشيرازي - ما زمنز مقصود من خبريم - أبين قدر هست كه بانگ جرس ميايد .

طغيانُ العقلِ على القلبِ

محنةٌ للناس هذا الزمنُ
كلُّ ما نبصرُ فيه فتنُ
أُطْلِقَ الإنسانُ مِنْ أغلاله
جُرِّدَ العالمُ مِنْ أستاره
وأجال الفكرَ في طيَّاته
وأحاط الأرض من أقطارها
فارعاً في ظهرها أجبالتها
طائراً في اللوح من فوق السَّحاب
طاوياً أقطارها لا يغترب
يَسْمَعُ الهمسَ بأقصى المغربِ
ضاقَت الأرض عليه فانتحى

كلُّ إنسانٍ به مُنتَحِنُ
فتنٌ فيها تحارُ الفطنُ
سُيِّبَ الشَّيْطَانُ مِنْ أحواله
وانبرى يكشفُ عن أسرارهِ
ومضى يبحث في ذرَّاته
ومضى يبحث في أغوارها
مخرجاً من بطنها أثقالها
حيثُ لا يطمع صَقْرٌ أو عُقاب
كل ما يسمو إليه يقترب
من بأقصى الشرق فاسمغ واعجب
في ذرى الأفلاك يبغى مسرحاً

آه لو أعطي قلباً خافقاً
آه لو يعمر قلباً راحماً
آه لو أغمرَ عيناً ساجمه
آه لو هَدَّبَهُ إيمانُهُ
آه لو سَيَّطَرَ في أهوائهِ
آه لو لم يُغِمِّه طغيانُهُ
ليتَهُ لم تُطْغِهِ أعمالُهُ
ليتَهُ لم تغشه أضواءُهُ
آه لو أنَّ شعاع الكهرباء

مثل ما أعطي عقلاً بارقاً
مثل ما يَغْمُرُ عقلاً راجحاً
مثل ما أعمل كَفّاً حاطمه
مثل ما مَكَّنَهُ عِزِّفَانُهُ
مثل ما سيطر في أجوائهِ
فيهلِّدُ فوقه بنيانُهُ
ليتَهُ لم تُغَمِّهِ أموالُهُ
وتوقِرُ سمعَهُ ضوضاؤه
في ظلام الصَّدر منه قد أضاء

ويلسه من ماردٍ قد دمَّرا ما بناه مخرباً ما عمرا
ليته حاط الذي قد شيدا بوئام وسلام وهدي
ليته حاط البلاد الزاهرة ليته صان الجنان الناضرة

إنَّ هذا العصرَ روضٌ مُزهرُ كلُّ غُضنٍ فيه نامٍ مثمرُ
نُضرت فيه فنون الزَّهر أَيْنَعَتْ فيه ضُروبُ الثَّمَرِ
أهٍ لکن في مهبِّ العاصفة كلُّ حينٍ تعتریه جائفه
صَرَصَرٌ تأتي عليه لا تَذَرُ تَخطم الأغصانَ فيه والشَّجر
يَخْرُبُ البستان من قد غرسا يَهْدِمُ البُنيانَ من قد أسَّسا
كلُّ طاعٍ يدَّعي البستانَ له يتغى الأشجار والبنيانَ له
لو تآخوا ورَضُوا بالمعدله وجنوا في غير بغى أَكَلَه
لو تآخوا واهتَدَوْا واستثمروا ثمَّ أسمى عدلُهم ما دمَّروا
لأَوْزا مِنْه إلى ظلِّ ظليل ورأوا في زهره كلَّ جميل
وجنوا أثمَّاره وانتفعوا ونما بستانهم فاستمتعوا
فتعالوا ننظرِ الدَّاءَ العصي ونرى الأسباب في الداءِ الدَّوي
إنَّ هذا الشُّعر لا يحصي العِلل إنَّه يعيا بذا الأمرِ الجَلل
إنَّه لمحَّةُ عينٍ عابره ليته كفُّ طيبٍ ما هره
إنَّه نفثَةُ نفسٍ شاعره ليتها كفُّ حكيمٍ قادره

البيت

معبدٌ لله ما أطهره فيه سرُّ الله ما أظهره
روضهٌ يَنْبُتُ فيها الخَلِقُ وترى الحقُّ عليها يُشْرِقُ

تنشأ الخيرات فيه وترب
 أنفس فيه كنفس واحد
 بل شمول مثلث للوالد
 كلها حب وإيثار فلا
 فأخ يفدي أخاه جاهدا
 وترى الأم عليهم حانية
 وأبوهم في غدو ورواح
 روضة للحب فيها مثلاً
 كل خير هاهنا منبعه
 مسجداً يسعد فيه الوالدان
 يعبد الرحمن من قد عبدا
 فالى توحيد من غير بين
 إن تشاؤوا مثلاً لا يدفع
 فاقروا يا قومنا كي تشهدوا
 ﴿واعبدوا الله﴾ فيها فاقروا
 أحكموا الأسرة من قرآنها
 واعمروا البيت ببر ووفاء
 إن هذا البيت في نظم الأمم
 كل بيت ألفت أحاده

من رأى الخير له أم وأب !
 ألفتها في حماها الوالده
 كالمرايا حول وجه واحد
 حسد فيها ولا حق ولا
 وكلا الصنوين يفدي الوالدا
 تسهر الليل إليهم رانية
 يسط الحب عليهم والجنح
 كل غصن بأخيه اتصلا
 كل بر هاهنا مطلعته
 وهما الخلأق فيه يعبدان
 والديه وإلى البر اهتدى
 قرن الرحمن بر الوالدين
 بينا كالشمس نوراً يطلع^(١)
 ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا﴾
 ﴿قل تعالوا أتل﴾ فيها النبأ^(٢)
 وارفعوا بالدين من بنيانها
 وسلام ووئام وإخاء
 مثل بيت الشعر في نظم النغم
 آزرت أسبابه أوتاده

(١) الآية : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ [الإسراء : ٢٣] .

(٢) الآيتان : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء : ٣٦]

﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾

[الأنعام : ١٥١] .

ونظام البيت من نظم الكلم
كل لفظ من حروف ألفا
ونظاماً واحداً يُبنى القصيد
في قوافٍ ألفت أبياتها
ومعانٍ بعد هذا غاليه
هل رأيتم قط من شعرٍ رفيع
كيف تُبنى للمعالي أمم
من بيوتٍ في خلافٍ وشقاق
كل بيتٍ فيه لفظٌ ثائر
لا تقل فيها زحافٌ وعلل

كل لفظٍ بأخيه ينتظم
كل حرفٍ بأخيه ائتلفا
ليس فيه من قصورٍ أو مزيد
ورويٍ ناظمٍ أشتاتها
ترتقي الأنفس فيها عاليه
كل بيتٍ فيه ذو معنىٍ وضيع
من بيوتٍ جمعها لا يُنظم
يؤذن البيت أخاه بالفراق
كل لفظٍ فيه حرفٌ نافر
بل شذوذٌ وسنادٌ وخلل

ليت شعري ما أصاب المسجدا
لا أرى جمعاً لديه نُظما
ما أحسن اليومَ ترتيلَ القرآن
خرسَ المنبرِ عن أصواته
ذهبَ العبادُ عنه قددا
غلبَ الملهى عليه والطريق

كانت الأمس زهوراً زاهيه
وذوت أوراقها والزهر
وحمتها الماءَ أيدي ساقيه
فطغى الشوكُ عليها والتراب
أنعموا التفكير فيها والنظر

روضة البيت أراها ذاويه
صوّحت أعشابها والشجر
صدفت عنها عيونٌ واقيه
غاب بستانيتها دون إياب
إنها يا قومنا إحدى الكبر

هي أصل الداء أو أصل الدواء نعمة الأقوام فيها والشقاء

اعمروا بالخير هذا المسجد
اعمروا البيت وردوا والديه
نضروا الروضة من إروائها
أرجعوا الطير إلى أوكانها
ألفوا الأحرف في كلماتها
وابتغوا الخيرات فيه أبدا^(١)
واجعلوه حرماً يؤوى إليه
وابتغوا النعمة في أفيائها
ليشب الولد في أحضانها
وانظموا الأمة من أبياتها

تنافر الجماعة

إننا نبصر في كل مكان
من وجوه مات فيها الخفر
يلعن الوجه أخاه نافرا
قطعوا من بينهم كل سبب
ثورة تبصرها كل طريق
ليست الأم بها أما ترى
لا ولا الأخت لها حرمتها
لا صغير قد رعى حق الكبير
فنرى في قبحها أفعالها
تلك فيض من قلوب في نفور
إنما الناس صلاح وفساد
إننا نبصر أحاداً ولا
حسرة الأنفس في هذا الزمان
وعيون حار فيها النظر
يغض الطرف أخاه ناظرا
هجر الناس حياء وأدب
يتجلى الهجر فيها والعقوق
لا ولا الوالد فيها عزرا
من أخيها وقدت حسرتها
أو كبير راحم ضعف الصغير
تسمع الألفاظ أصداء لها
تقدح النيران منها في الصدور
بالتسام أو شقاق وعناد
نبصر الحُب بها متصلا

(١) المسجد : هو الأسرة .

إنها الأعداد في غير حساب
ومن الأعداد بَغْضٌ واختلاف
ومن الأعداد حَقْدٌ وشقاق
فإذا سارث على غير سَنَن
وإذا أَلْفَتْهَا في قَاعِة
فهي نظمٌ وائتلافٌ وأطْراد
فانظروا ما النَّظْمُ في أَعْدَادنا
انظّموا هذي القلوبَ النّافره
املؤوا الأنفُسَ خيراً وهدي
اغسلوا بالحُبِّ هذا الدّرنا

لم يؤلفها على النّهجِ احتساب
ومن الأعداد حُبٌّ وائتلاف
ومن الأعداد رُحْمٌ ووفاق
فهي بغِضٌ وشقاقٌ وفتن
فاستقامت في طريقٍ واحده
وحسابٌ بالغٌ كلّ مراد
وانظروا ما الجمع في آحادنا
واجمعوا هذي الوجوه الثائره
واجمعوا بالحُبِّ هذا البدنا
أطفئوا بالودِّ هذا الضّعنا

ما ينال الحُبُّ يوماً بالهوى
يجمعُ الحقُّ نفوساً شارده
ليس إلا الحقُّ في جمع القلوب
أرضعوها الحقُّ في ألبانها
واجعلوه قِبْلَةً في كلّ حين
ومن الحقِّ إلى الخير طريق
ومن الخير إلى الحبِّ المسير

كلُّ حقٍّ من سناه يُشْرِقُ
كلُّ خيرٍ من جداه ينبُعُ
كلُّ ينبوعٍ إليه عائد
باريُّ بالحقِّ كلّ العالمين
برّه في خلقه فيضٌ عميم

لا يُرى للحقِّ إلا مَشْرِقُ
ليس للخيرات إلا مَنبُعُ
إنّما للحبِّ نهرٌ واحد
مَنبُعُ الحقِّ هو الحقُّ المبين
مَنبُعُ الخير هو البرُّ الرَّحيم

منبغ الحب هو الله العلي
 فأضيئوا النفس من إيمانها
 املؤوا الأنفس من نور اليقين
 إنما الإنسان من لحم ودم
 ذلك اللحم إلى ماء وطين
 فإذا أطفئ فيه ذا الضياء
 إن هذا الجسم ذو وزن وحد
 هالك من عاش في ضيق الجسد
 أنت في جسمك من طين وماء
 أنت في الروح حياة وطماح
 أنت في قلبك سر العالمين
 لا يحد القلب في الآفاق حد
 أيها الغافل عن سر الإله
 ضاق عن أمر الإله العالم
 كل ما أدركت من معنى جميل
 كل ما أوعاه تاريخ البشر
 كل ما سجد عن أخياره
 هو نور الله في القلب الصغير
 هو نبض القلب في الدنيا انتشر
 إنما الإيمان بالدنيا يدور
 فاجعلوا منه تباشير المنى
 ارفعوا الأنفس فيه صاعده
 عن متاع وطعام وشراب

هو مولى للبرايا ومولى
 وانظروا الآيات من إحسانها
 وانظروا إبداعها في كل حين
 فيه قلب كسراج في ظلم
 ذلك النور لرب العالمين
 فهو وحش همة سفك الدماء
 وبهذا القلب كون لا يحد
 من يعيش في وسعة القلب خلد
 أو قوام فيه لحم ودماء
 ورجاء وجهاد وكفاح
 فيه أمر الله للخلق مبین
 إنه يكبر عن وزن وعد
 انظرون في القلب يوماً لتراه
 وحواه القلب ، هذا الخاتم
 كل ما أبصرت من أمر جليل
 من جلال وجمال وعبر
 كل ما حدثت عن أبراره
 أو تجلّي الله في الكون الكبير^(١)
 هو خفق القلب يرمي بالشرر
 فهو نار في دجاها وهو ثور
 واملؤوا الآفاق منه بالسنا
 ارفعوها عن معان خامده
 ومعان كلها نبت الثراب

(١) الكون الكبير : القلب .

قيمة الإنسان قلبٌ للعلی
كلُّ ساعٍ قذره بغيثه
أيها القانع دوداً في تراب
أيها السادر في لهوٍ ودذ
أنقذوا الإنسان من هذا الردى

لا رياشٌ ومتاعٌ للبلی
وزنه بين الورى منبثه
حلّقن في جوّها مثل العقاب
من لهذا الكون في يومٍ وغد
أبصر الإنسان يا قومي هوى

أيها المسلم يا من خلّقا
انهضن يا صاح بالعبد الثقيل
قد قضى الخلاق بالأمر إليك
سَطَرَن بالحق في هذي البلاد
أنقذ الإنسان من هذا الشقاء
املا الأرض بحبٍّ وصفاء
واحكمن بالحق في أرجائها
واملا الآفاق حقّاً وسناً
علّم الإيمان والحقّ العلي
زهّد مَنْ يملك آلاف الألوف
قولة في الحقّ أعلى عنده
كلُّ ما يمسك منها درهم
هذه الأموال جمعاً يا بني
إنّها اللعبة في عين الحكيم
جوهرأ يحسب من لا يعرف
إنّما الجوهر قلبٌ قد أضاء
لا يعاف الحرُّ أكل الطيبات
ربّما استولى على أعدادها

ليكون الحقّ فيه خلّقا
أنت في الأرض عن الله وكيل
قسم الأرزاق يوماً بيدك
واحكمن بالعدل ما بين العباد
وأزل من أرضنا هذا العناء
وسلام ووداد وإخاء
وانعمن بالأمن في أفيائها
واملان بالخير آفاق الدنا
علّم الإيثار والزهد الغني
وهي في عينه لغوٌ وزيف
فعلة في الخير أعلى عنده
كلُّ ما ينفق منها مغنم
لا تساوي ذلة الحرّ الأبى
إنّها الدّزهم في كفّ الكريم
وهي عند العارفين الصّدْفُ
وسِع الأرض جميعاً والسّماء
أخذاً في الأرض كلّ الثمرات
ربّما أوفى على أمادها

أَخْذاً أَوْ مَعْطِياً لَا يَشْرَهُ
عَبْدُ الدُّنْيَا وَلَا تَسْتَعْبِدُهُ
حَائِثُاً لِلرِّزْقِ صَقِراً طَائِراً
فَإِذَا شِئِمَ هَوَاناً فَزَعَا
وَاسْتَمَدَّ الْعِزَّ مِنْ هَمَّتِهِ
فَإِذَا الْمَاءُ لَهَيْبٌ وَدُخَانٌ
وَإِذَا سُدَّ عَلَيْهِ كُلُّ بَابٍ
إِنَّ مَوْتَ الْحَرِّ فِي ذَلَّتِهِ

رَابِحاً أَوْ خَاسِراً لَا يَأْبَهُ
فَاكْهَافاً فِي نَعْمَةٍ لَا تَفْسِدُهُ
لَا يُرِيغُ الرِّزَاقُ فِيهَا صَاغِراً
مِثْلَ مَا يَفْزَعُ مَنْ قَدْ لُسَعَا
وَاسْتِثَارَ النَّارَ مِنْ عَزْمَتِهِ
وَإِذَا الْحَلَمُ ضَرَابٌ وَطِعَانٌ
فَارَقَ الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِ إِيَابٍ
وَحَيَاةَ الْحَرِّ فِي عَزَّتِهِ

قَالَ لِي شَيْخٌ وَقَوْرُ الْمَعِي
كُنْتُ يَوْمَافِي عَيُونٍ وَنَخِيلٍ
وَمَعِي مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ نَقَرُ
وَإِذَا صَقَرٌ عَلَيْنَا حَلَقَا
أَسْرَعَ الرِّفْقَةُ فِي نَضْبِ الشَّرْكَ
وَهَوَى فَاَنْقَضَ هَذَا الْأَجْدَلُ
فَطَوَى سَقَطِيهِ هَذَا الْمَهْلِكُ
وَأَتَى الصَّيَّادُ لِلطَّيْرِ الْأَسِيرِ
سَابِخُ الْجَوِّ بِخِيطٍ عُلِقَا
ذَلِكَ الصَّيَّادُ فِي جَوْ السَّمَاءِ
قَاهِرُ الْجَوِّ بِعِزِّ وَجْنَاهِ
ضَاقَتْ الْأَجْوَاءُ عَنْهُ مَسْرَحَا
ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ جِئْنَا نَنْظُرَ
فَإِذَا دَمْعَةٌ عَيْنٍ هَامِلَةٍ

مَنْ بَنَى يَنْبَعُ شَهْمٌ عَرَبِي
فِي الْقَرْيِ مَنْ يَنْبَعُ النَّخْلُ الْجَمِيلُ
اصْطِيَادُ الطَّيْرِ فِيهِمْ وَطَرُ
سَابِحاً فِي جَوِّهِ قَدْ خَفَقَا
وَسَمَانِي وَضَعُوها فِي الشَّبَكِ
بَلْ هَوَى هَذَا الْقَضَاءُ الْمَنْزِلُ
وَتَوَى فِي حَبْلِهِ يَرْتَبِكُ
عَيْنُهُ فِي اللَّوْحِ لَكِنْ لَا يَطِيرُ
ذَلِكَ الْخَفَّاقُ فِيهِ أَخْفَقَا
صَادَهُ بِالْخَتْلِ صِيَادُ الْقَضَاءِ
بَدَّلَ الشُّبَّاكَ مَنْ مَثْنِ الرِّيَّاحِ
كَيْفَ يَرْضَى فِي إِسَارٍ مَطْرَحَا ؟
لَنْرَى الْأَجْدَلَ أَنَّى يُوَسِّرُ
وَإِذَا الْمَهْجَةُ فِيهَا سَائِلُهُ

ذا يسمّى « الحرّ » من بين الصّقور
فكن الصّقر الأبى العاليا
واحذر يا حرّ هذي التهلكه
إنّها معركة للأبطال
في وغاهما كلّ حزم ضيعة
لا تغرّنك مرايا بارقه
إنّها رأس بلا قلب يسير
قد أضلّ الغي هذي الأمما
فدعاهما في ظلام تصطدم

الشيوعية

تسلّك الإنسان في سلّك الغنم
فيه عُشب ورُغاء ونبيب
ثمّ عيش مثل ما عاش القطيع
وعصا الرّاعي تربيته أكله
لا ، ولا يثغو إلى أين المصير
قطعه عن منبع الخير العمم
فيه إنسان عن العُجم سما
وحنان القلب من أخت وأم
كافر بالسّلم لا بالفتن
عن ضياء الله والحق عمي

أحدث الدّعوات في هذي الأمم
تعدّ الإنسان بالمرعى الخصيب
تعدّ الإنسان أعشاب الرّبيع
يوعدّ المرعى ولا شيء له
ليس يرغو سربهم : أين المسير
ويتّم الشّبه فيه بالغنم
كفره بالله والخير وما
وضياع البيت منه والرّجم
كافر بالله لا بالوثن
يبصر الظّلمة عند الصّنم

(١) الحرّ : نوع من الصقور قلّ أن يعيش بعد إمساكه .

كلُّ ما في البيت من ودٍّ وحبٍّ لا يساوي عنده مكيالَ حبٍّ
كلُّ ما يدعو أناسٌ بالشعور لا يساوي عنده كفٌّ شعير
ذاكمُ السَّيرُ وهذا المنتهى أنعموا التفكيرَ يا أهلَ النُّهى

إقبال

بَيْنَ الإِقْبَالِ مِنْ سِرِّ الحِياهِ وأزالَ السُّتْرَ عن نورِ النجاءِ
بَيْنَ الإِقْبَالِ مِنْ سِيرِ الزَّمانِ وأفاضَ النُّورَ من هدي القرآنِ
بَثَّ في النفسِ كلاماً مِنْ شَرَرٍ منه عشقُ الحقِّ في القلبِ استعر
فَتَقَّتْ نظراتُهُ كلَّ حجابٍ فرأى الدَّوحَةَ من تحت التُّرابِ
ضَاقَتْ الآفاقُ عن نظراتِهِ ضَجَّتْ الأفلاكُ من أناتِهِ
وَصَلَّتْهُ نَفْحَةٌ مِنْ رَبِّهِ فتجلَّى نورُهُ في قلبِهِ
قد ثوى في قلبه كلُّ الجهاتِ واستوى في فكره ماضٍ وآتِ
سال في ألحانه دمعٌ ودمٌ والتقى الماءُ عليها والضَّرمُ

يا بَرودَ القلبِ خذْ مِنْ نارِهِ فالحياءُ الحقُّ في أشعارِهِ
يا مواتَ القلبِ خذْ مِنْ رجْعِهِ^(١) يا جمودَ العينِ خذْ مِنْ دَمْعِهِ
يا صغِيرَ الهَمِّ خُذْ مِنْ هَمَّتِهِ يا كليلَ العَزمِ خُذْ مِنْ عَزَمَتِهِ
يا أسيرَ اليأسِ خذْ آمالِهِ في دجى اليأسِ أثِرُ أقوالِهِ
أيُّها المسلمُ صعد في السماءِ وابلغن في جوِّها أعلى العلاءِ
وخذِ الإقدامَ مِنْهُ والطَّماحَ وجناحاً قاهراً هُوجَ الرِّياحِ

(١) الرَّجْعُ : المطر ، كماء ، جاء في القرآن .

ذا جلالُ الدِّينِ مَنْ خَلَفَ العُصُورَ قد أتى في شِغْرِه نَارٌ ونورٌ^(١)
 إِنَّه الإسْلَامُ في عِزَّتِه إِنَّه الإيْمَانُ في قُوَّتِه
 إِنَّه القرآنُ في أنوارِه إِنَّه الفرقانُ في أسرارِه

بَلِّغِي يَا رِيحُ في شَطِّ النَّوَى أدمعي قِبراً بِلَاهُورِ ثَوَى
 وَاَمْضِي يَا بَرْقُ بوجدي وهيامي أبلغن قِبراً بِلَاهُورِ سَلَامِي
 إِنَّ : إقبالاً بِلَاهُورِ أَقَام رَحْمَةً اللهُ عَلَيْهِ وَالسَّلَام

دعاء

فالتقَّ الإصباحُ ربَّ المشرقين باسطَ الليلُ وربَّ المغربين !
 أنت في الصُّبحِ ضياءٌ في جمال أنت في الليلِ ضياءٌ في جلال
 ناشِرَ الشَّمْسِ خِضْماً من ضياء طاوي الذِّرةَ شمساً في خفاء
 أنت نورٌ في ظهورٍ وجلاء أنت نورٌ في حجابٍ وخفاء
 يا جليساً في دُجى أستاره يا خفياً في ضُحى أنواره
 يا أنيساً في قلوبِ العارفين وحياءاً لقلوبِ الغافلين
 يا ضياءَ العينِ في النورِ العمم وضياءَ القلبِ في داجي الظُّلم
 قربُك المؤنسُ في هذي القفار هديك المنقذُ في هذي البحار
 ناظمَ الكونِ البليغِ المبدعا محسناً مطلقه والمقطعا
 خلُقك الألفاظُ فيه وافيه أمرك الوزنُ له والقافية^(٢)
 كلُّ لفظٍ فيه نُظَّارٌ إليك كلُّ معنى فيه برهانٌ عليك

(١) مولانا جلال الدين الرومي ، والشاعر يعترف باقتدائه به .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

منك هذا العقل ، هذا الثائر
جاوز الأفلاك يسعى نحوكا
منك هذا القلب ، هذا الخافق
ذاكر إياك راج كل حين
طالب إياك ساع حائر
يكشف الأستار يبغي وجهكا
في الدياجي منك نور بارق
خفته ذكر وشوق وحنين

اجعلن عقلي ضياء ثاقبا
واشددن فكري بصدق وسداد
واملأن قلبي بحب وصفاء
وازفعن في الحق صوتي عاليا
واجعلن وجهك قصدي لا سواه
وامنح المسلم قلباً خافقا
امنحنه العقل والقلب السليم
واجعلنه في البرايا حكما
اجعلنه قائداً بين البشر
يصدع الباطل حقاً صائبا
واحبني التوفيق في كل مراد
واحفظنه من شقاق ومراء
وجناني فيه غضباً ماضيا
هوئن في عين قلبي ما عداه
واحبه بالعلم عقلاً بارقا
واهده رب الصراط المستقيم
قاضياً بالعدل إمّا حكماً
هادياً للخير لا يسعى لشر

أنقذ الإنسان من هذي الغم
هدم الإنسان ما قد عمرا
فاهد بالإيمان عقلاً حائرا
أذكر الناس بحب ووئام
أنجين من بغيها هذي الأمم
حينما أمر عقلاً كفرا
واجعل القلب عليه أمرا
إنك الداعي إلى دار السلام^{(١)(٢)}

(١) في القرآن الكريم : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس : ٢٥] .
(٢) تمت الترجمة عشية يوم الجمعة السابع من رجب سنة ١٣٧٠ من الهجرة ، في مدينة كراچی . والله الحمد أولاً وآخراً ﴿ سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] . المترجم الدكتور عبد الوهاب عزام .

الدِّيَّوَانُ الرَّابِعُ

زُبُورُ الْعَجَمِ

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدُّكْتُورُ حُسَيْنُ مَجِيدِ الْمَصْرِيِّ

هذا الديوان - في الأصل - جزءٌ هو أشبه بالفصل ، ترتيبه قبل الأخير في الديوان ، عنوانه : « زبور العجم » .

وليس من التزيد وتجاوز الحد قولنا : إنه على لطافة حجمه يستغرق جمهرة أفكار محمد إقبال في عموم وشمول ، ويكشف النقاب عن وجه الحقائق التي أوماً إليها الشاعر ، ويوضح على نحوٍ دقيق عميق قيماً ومثلاً كان حاثاً عليها موجباً للأخذ بها ، كما يجري عليه صفاته ويميزه بسماته مفكراً ، يغوص على الجوهر منصرفاً عن المظهر ، في دعوة بلغت من الجرأة مداها ، يتمسك صاحبها فيها التمسك الشديد العنيد بمذهبه الجديد ، ضارباً صفحاً عن معروف القوم ومألوفهم في العصور الخوالي ، وإن كان في نظرهم مقدساً من تراثهم .

محتوى الديوان

يحتوي أصل الديوان على أربعة أقسام :

القسم الأول : فيه دعاء ، وست وستون قطعة أكثرها بدون عنوان .

القسم الثاني : فيه خمسٌ وسبعون قطعة تقلُّ فيها العناوين أيضاً .

القسم الثالث : (الذي هو بين أيديكم) هو بعنوان « حديقة السرِّ الجديد »

(كلشن راز جديد) وهو على طريقة «كلشن راز» .

أخرجه الشاعر عام ١٩٢٩م ساجلاً به كتاباً لصوفي من أهل القرن السابع

وأوائل الثامن هو الشيخ محمود الشبستري ، عنوانه روضة السرِّ (كلشن راز) ،

ألّفه الشيخ الشبستري إجابة لأسئلة في التصوف أرسلها إليه بعض الصوفية ،

ولهذا سماه الشاعر - محمد إقبال - « روضة السرِّ الجديد » (كلشن راز جديد)

وفيه يُجيب عن تسعة أسئلة فيها رقائق فلسفية وصوفية .

القسم الرابع : كتاب العبودية ، ويبيّن فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة والفنون الجميلة على مذهبه المعروف .

وإليكم الآن القسم الثالث من هذا الديوان الذي نقله من الفارسية إلى العربية شعراً الأستاذ حسين مجيب المصري :

لك عينٌ ، نظراً فيها خلقت لك نفسٌ ، ولها دُنيا خلقت
نامَ هذا الشَّرْقُ لا يرعاه نَجْمٌ بنشيد العَيْشِ فجراً قد خلقت^(١)

تمهيد

خبأ في الشَّرْقِ ذِيَّكَ اللهيبَ فأين الرُّوحُ بل أين الوجيب^(٢)
وأضحى صورةً ترنو إليها وما للعيش من ذوقٍ لديها^(٣)
يجافي قلبه طيفَ الأمانِي ويُسكت نايَه رجْعُ الأغاني^(٤)
عن المقصود من قولي أُنبتُ على سفيرٍ لمحمودٍ أجبتُ
توالت بَعْدَ ذا الشيخِ العهود وما لِلنَّارِ في روحٍ وقود^(٥)
لنا كَفَنٌ ونَرْقُدُ في ثرانا قيامُ البعثِ يوماً ما عنانا^(٦)
وفي تبريزَ عينٌ للحكيم رأَتْ آثارَ جنكِزِ الظُّلوم^(٧)

(١) رعى النجم : راقبه ، وانتظره . وفي الأصل أنَّ الشرق نام مستتراً عن النجم .

(٢) خبت النار : انطفأت . الوجيب : خفقان القلب .

(٣) يرنو : ينظر في سكون ودوام . الذوق : نورٌ يلقيه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل .

(٤) يجافي : ضد يواصل ويؤانس . الرجع : الصدى .

(٥) أبان : أفصح وبين . والسفر : الكتاب . والإشارة إلى كتاب گلشن راز لمحمود الشبستري الذي نظم الشاعر منظومته تلك في الرد عليه . وقدت النار وقوداً : اشتعلت .

(٦) الإشارة في قيام البعث إلى تحرك الهمم إلى العمل على ما فيه صلاح الدنيا والآخرة . عنانا : أحمنا .

(٧) تبريز : مدينة في شمال إيران ينسب إليها الشبستري . وإقبال يذكر ما ماج به عهد المغول من جسام الخطوب ، وقد عاصر الشبستري هولاكو ، فذكر چنكيز على سبيل المجاز .

ولكن ثورة أخرى وجذت
 رفعت أنا عن المعنى النقابا
 ألت تری بلا كأس خُماری
 وكلُّ الخیر فیمن قال تَغْدَم
 فما اشتاق داراً للحبيب
 ترابي ليس من هذا الممر
 لقد صافيت جبريل الأمينا
 بفقري كان لي مال الكليم
 وما الصَّحراء تحويني تُرابا
 زجاجي منه ترتعد الصُّخورُ
 هي الأقدارُ تكمنُ خلف ستري
 بذاتي برهةً ها قد خلوتُ
 وليس العارُ من شعري عليا

وشمسٌ غير هذي ما شهدتُ
 جعلتُ الشَّمسَ ما كان الترابا
 وليس لشاعرٍ غيري شعاري^(١)
 بأنِّي شاعرٌ يا صاح فافهم^(٢)
 وما في القلب من وجدٍ مذيب
 وفيه القلبُ لا يشقى بأسر
 عَدُوًّا لا أشاهدُ لي مينا^(٣)
 وجاء الملك في سَمَلٍ العديم^(٤)
 ولا الدأماء تطويني عُبابا^(٥)
 وأفكاري بلا شطِّ بُحور
 قیاماتٍ أقمتُ بمحضِ أمري
 بدنيا الخُلدِ أخلقها بدوت
 فللعطار لن تجد السِّمِّيَّ^(٦)

- (١) الخمار : صداع السكر . يقول : إنَّ مذهبه مخالف لمذهب غيره من الشعراء .
 (٢) عدم الشيء : لم يجده . يا صاح : يا صاحبي ، حذف آخره للترخيم . وكأنما إقبال يكره أن يعدَّ شاعراً .
 (٣) العدو المبین : الشديد العداوة .
 (٤) الكلیم : موسى عليه السلام . وظاهر أنَّ الإشارة إلى قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] وقد أراد موسى أنه فقير الدنيا لأجل ما أنزل الله إليه من خير الدين وهو النجاة لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، وقال ذلك وهو راضٍ بهذا البدل ، وفرحاً به وشاكراً له ، والفقر عند الصوفية من مقاماتهم . وهو ليس فقدان الغنى ، بل فقدان الرغبة فيه والميل إليه ويؤثر عنهم قولهم (الفقر فخري) . السَّمَل : الثوب البالي . العديم : الفقير .
 (٥) الدأماء : البحر . والعباب : الموج .
 (٦) العطار : هو الشاعر الفارسي الصُّوفي « فريد الدين العطار » من أهل القرن السادس الهجري . وله منظومة بعنوان منطق الطير ، يصور فيها فناء الصُّوفي في الذات =

بروحي للحياة مع الفناء
 رأيتُ ثراك عن روحٍ غريباً
 ولي في القلب وهاجُ السَّعير
 وذاك القلبُ حبُّ في ثراه
 وذوق الذاتِ شهدٌ في لهاتي
 لقد جربت ذلك في البدايه
 وجبريلُ كتابي إن رآه
 لسرُّبي ظل يشكو من مقامه
 جلاء للتَّجَلِّي لا أريد
 كفتُ عن الوصالِ السَّرمديّ
 غرورَ المرءِ هبني والخضوعا

صراعٌ ، لا أرى غَيْرَ البقاء
 ففيه نفختُ من روعي ديباً^(١)
 دجاءك أنير بمصباحي المنير^(٢)
 كلوحٍ خطُّه ما في سواه^(٣)
 وهذا كُلُّه من وارداتي^(٤)
 منحت الشرق منه في النهايه
 أنارَ لنا بلمحٍ من سناه^(٥)
 وحالُ القلب بين في كلامه
 ولكن ما حوى القلبُ العميد^(٦)
 لذتُ شكاةَ قلبٍ لي شجي^(٧)
 إذا ما ذابَ أو أمسى دُموعا !

السؤال الأول

وقفتُ حيال فكري في التحيرُ فما مفهوم ما يُدعى التفكيرُ

= الإلهية . وكأنما يريد إقبال ليقول : إنَّ شعره في تصوير مذهبه مغاير لشعر العطار .
 السَّميُّ : النظير هنا .

(١) الدبيب : دبُّ الشراب والسُّقم في الجسم ديباً : سرى ، وكأنه مشى .

(٢) السعير الوهاج : النار المتأججة المضيفة .

(٣) يشبه قلبه باللوح الذي كتب فيه . غير أنَّ ما يحويه مخالفٌ لما يحوي غيره .

(٤) اللهاة : لحمه في الحلق . الواردات : ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمُّدٍ من الإنسان .

(٥) السنا : الضوء . وقد صرفنا المعنى عن أصله بعض الشيء في ترجمة هذا البيت خشية فهم المبالغة فيه على ظاهرها .

(٦) العميد : من هدَّه العشق .

(٧) السَّرمديُّ : الخالد . والشَّجيُّ : الحزين .

طريقَ شَرْطُهَا من أَيِّ فكر ؟ نطيعُ اللهَ ثمَّ نكادُ نكفر !

الجواب

بِصَدْرِ الْمَرْءِ مَنَّا أَيُّ نَورٍ
بدا لي الثَّابِتُ السَّيَّارُ جَهْرَهُ
وفيه النَّارُ حيناً مَنْ دَليْل
بهذا النُّورِ لِلرُّوحِ الشُّرُوقِ
بمَسِّ التُّرْبِ يَنأى عَن مَكَانٍ
وما بتردُّدِ الأنفاسِ يَقي
ويهنأُ في الشَّوْاطِئِ بِالمَقامِ
عَصَا مُوسَى وهذا كان بحرّه
غزالٌ ، وهو يرعى في السَّماءِ
له في الأرضِ والزُّرْقَا مَقَرٍ
ومن أحواله ظِلْمٌ ونور
لإِبْلِيسَ وآدَمَ منسَهُ مَظْهَرُ

عَجِيبٌ ، غِيُّهُ عَيْنَ الحَضُورِ
أراه النَّارُ أو نوراً بنظره^(١)
وَيَسْطَعُ نورُهُ مِنْ جَبْرِئِيلِ
شعاعٌ منه شمساً قد يفوق
بقيدَ اليومِ يَخرجُ مِنْ زَمَانِ^(٢)
دُؤوباً مثله في البَحْثِ تَلْقَى ؟
يَعْبُ البَحْرَ أحياناً بِجامِ^(٣)
وَقَدْ ضُرِبَتْ فَشَقَّتْ مِنْهُ صَدْرَهُ
وَيُزَوِّى مِنْ مَجْرَتِهَا بِماءِ^(٤)
وحيداً بين قافِلَةٍ يَمُرُ^(٥)
وجناتٍ وموتٍ ثمَّ صُورٍ
ويَكْمُنُ تحتَه لا شَكَّ مَخْبَرِ^(٦)

(١) جَهْرَهُ : عياناً . أو : بمعنى الواو .

(٢) التُّرْبِ : التُّراب . اليوم : المراد به هنا مرور الليل والنهار .

(٣) عَبَّ الماء : شربه بلا تنفس ، والجام : الكأس .

(٤) المجرة : نجوم تسمى حاملة التبن أو نائثرته في الفارسية ، والطريق اللبنيّة في الإنجليزية ؛ لأنها تشبه طريقاً يتناثر فيه التبن ، كما شبهت في الشعر الفارسي والعربي بالنَّهر .

(٥) الزرقاء : السماء .

(٦) يشير إلى أن إبليس مخلوق من نار وهو يجسد الفكر ، أمّا آدم وهو يجسد الروح فإنه بالإلهام انعكاس للنور الإلهي .

إليه العيْنُ في شوقٍ شديد
 بعينٍ خلوةٍ ها قد رآها
 حرامٌ عَضْبُ عَيْنٍ بامتهان
 وذاك البحرُ يخلقه بنهره
 فيبدو صورةً ليست لجنسه
 هياجٌ فيه منعدمٌ صداه
 وهذي كأسه تحوي الزمانا
 حياةً منه بالأوهاق تُرمى
 ولكنْ نَفْسَهَا أسرث بذلك
 وأنتَ العالمينَ إذا غزوتنا
 وهذا البحثُ في القفر احذرْنه
 ضعيفٌ؟ خذْ من الذَّاتِ قوى
 بغزو الذَّاتِ إنْ يوماً ظفرتنا
 لك الدنيا ، ليسعد يومُ نصرك
 جعلتَ البدر يسجدُ في هوانٍ

تجلُّ منه إعجابُ الحميد^(١)
 تجلُّ عينه الأخرى ملاحا^(٢)
 فشرطٌ للطريق ، له اثنتان
 ويُصبح جوهراً في مستقره
 وغواصاً يصير للقط نفسه !
 له لونٌ ، وما أحدٌ رآه
 وبالتدريج نُذركه عيانا
 ومنْ يعلو ولا يعلو لتُصمى^(٣)
 وغيرَ الله أوردتِ المهالك^(٤)
 فَوَخذك من هلاكٍ قد نجوتنا^(٥)
 عليك بعالمٍ فيك ادخلْنه
 تريدُ الله ؟ قرّبها ، لذاكا
 لك الآفاقُ في ملكٍ وجدنا
 سماءٌ قد شَقَقَتْ فِتْه بِقَدْرِكَ
 عليه رميت أوهاق الدُّخان^(٦)

(١) تصرفنا بعض الشيء في ترجمة هذا البيت كراهية فهم المبالغة فيه على ظاهرها ، والحميد : هو الله تبارك وتعالى .

(٢) ملاحا : ملاحا .

(٣) الأوهاق : جمع وهق وهو حبل ذو أنشودة يطرح في عنق الحيوان أو الإنسان ليؤخذ به . ويصمى : يقتل .

(٤) غير الله : ترجمة ماسوا في الفارسية أي ما سوى الله . وفي هذا إشارة إلى طلب الوجدانية والانصراف عن التعدد إلى الواحد .

(٥) يريد بالعالمين عالم الطبيعة وعالم الذَّات .

(٦) الأوهاق : تقدّم شرحها .

بهذا الدَّيرِ حَرّاً قَدْ أَقْمَتَا وَأَصْنَاماً كَمَا تَهْوَى نَحْتَا^(١)
 مِنَ الدُّنْيَا بِمَلِكٍ كُلِّ حَذْفُوزٍ مَقَامَ الصَّوْتِ وَالْأَلْوَانِ وَالنُّوزِ^(٢)
 وَتَنْقُصُهُ وَأَنْتَ تَزِيدُ فِيهِ تَغْيِيرُهُ عَلَى مَا تَشْتَهِيهِ^(٣)
 بِقَطْعِكَ عَنْهُ قَلْبِكَ كُلَّ قَطْعٍ وَإِبْطَالِ الطَّلَسَمِ لِسَحْرِ تَسْعِ^(٤)
 إِذَا مَا شِئْتَ غَوْصاً فِي ضَمِيرِهِ فَقَمَّحَكَ فَضْلَنْ عَلَى شَعِيرِهِ
 وَهَذَا الْمَلِكُ ، وَالْمَلِكُ الْعَظِيمُ وَتَوَّعَهُ هُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ^(٥)

السُّؤَالُ الثَّانِي

وَعَلِمَ كَانَ سَاحِلَ أَيِّ بَحْرٍ ؟ بَعِيدِ الْقَاعِ يُخْرِجُ أَيَّ دَرٍّ

الجواب

حَيَاةً ، يَأْهِيهَا بَحْرًا يَمُور وَسَاحِلُهُ الْفَطَانَةُ وَالشُّعُورِ^(٦)
 عَمِيقٌ مَوْجُهُ أَبْدًا يَمِيدُ وَفِي الشُّطَّانِ أَطْوَادٌ وَبِيدُ^(٧)
 غُيَابٌ فِيهِ قَدْ عَدِمَ الْقَرَارَا فَلَا تَسْأَلْ ، عَلَى شَطِّ أَغَارَا^(٨)

-
- (١) الدَّيرُ القديم : من أسماء الدُّنْيَا فِي الشَّعْرِ الْفَارْسِيِّ .
 (٢) الْحَذْفُوزُ : الْجَانِبُ . وَجَمْعُهُ حَذَافِيرُ . يُقَالُ : ذَكَرَهُ بِحَذَافِيرِهِ ؛ أَيَّ بِجَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، وَتَفَاصِيلِهِ .
 (٣) يَرِيدُ الْعَالَمَ .
 (٤) الطَّلَسَمُ : كِتَابَةٌ لِلسَّحَرَةِ . وَالتَّسْعُ هِيَ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ .
 (٥) فِي رَأْيِ إِقْبَالِ أَنَّ الْمَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ عَلَى أُسَاسٍ مِنَ الدِّينِ أَيَّ : الدِّينِ الْحَنِيفِ .
 (٦) الْفَطَانَةُ : الْإِدْرَاكُ ، وَالْفَهْمُ .
 (٧) يَمِيدُ : يَضْطَرِبُ . الشُّطَّانُ : جَمْعُ شَاطِئٍ . الْأَطْوَادُ : جَمْعُ طُودٍ وَهُوَ الْجَبَلُ .
 وَالْبِيدُ : جَمْعُ بِيْدَاءٍ وَهِيَ الصَّحْرَاءُ .
 (٨) الْعِبَابُ : الْمَوْجُ .

روى الصَّحراء منقطعاً عن اليمِّ
 وما تلقاه جاء إلى حضوره
 بخلوته انتشى كره الرِّفقا
 ويظهر أولاً للمستنير
 وقربه من الدُّنيا شعور
 بدا بالعقل مرفوع النُّقاب
 وفي دنياه ليس له مُقام
 ترى الدُّنيا ولكن ليس فيكا
 من الأزهار دنيا اللون طاقه
 طريق القلب سرى إليها
 إذا أغمضت عنها العين هانت
 برؤيتنا لدنيانا النَّماء
 ومنظورٌ وناظرٌ غورٍ سرٌّ
 أنا المشهودُ يا مَنْ أنت تشهدُ

أفاد العين معنى الكَيْف والكمِّ^(١)
 ينيرُ بفضل فيضٍ من شعوره^(٢)
 بقلب الكائناتِ بدا شروفاً^(٣)
 بمראהٍ ليؤخذ كالأسير
 فأدرك سرّها وهو الخبير
 ولكن قد تعرّى بالخطاب
 من الدُّنيا له هذا المقام^(٤)
 بما تحويه فلتدع الشُّكوكا
 نُقيدها ، لها منّا انطلاقه^(٥)
 ويثني كلُّ مخلوق عليها
 وإلا البحر والأطواد كانت^(٦)
 بنا لغصونها هذا العلاء
 تضرُّع قلب ذرات لأمر
 لتجعلني ، فبالنظرات أوجد^(٧)

- (١) اليمُّ : البحر .
- (٢) الحضور في الاصطلاح : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .
- (٣) انتشى : سكر . والمراد أنه طاب نفساً بعزلته .
- (٤) المقام : بضم الميم الإقامة . وبفتحها الرياضة الروحية عند الصوفية التي توجه سلوكهم ، وهي من الأمور المكتسبة الاجتهادية وتخضع للإرادة . وقالوا : إنَّ المقام هو القيام أو موضع قيام العبد في طريق الحق . ومن مقامات الصوفية التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرِّضا .
- (٥) طاقة الزهر : ما يجمع منه في حزمة . يقول : إنَّ العالم الخارجي خليطٌ من ألوان وأشكال وروائح . ونحن نقيّد هذا العالم ونخضعه لنظام معين .
- (٦) الأطواد : تقدم شرحها .
- (٧) الإشارة هنا إلى الخلاف بين الواقعية والمثالية .

وذا تُ الشَّيْءُ تَكْمُلُ بِالْوَجُودِ وَبِالْتَّمَكِينِ مِنْ هَذَا الشُّهُودِ
فَلَيْسَ زَوَالُهَا بِالْبَعْدِ عَنَّا وَنُورُ شَعُورِنَا فَقَدْتُهُ مَنَّا
تَجَلُّنَا بِهِ الدُّنْيَا تَكُونُ بِنَا نُورٌ تَجَلَّى أَوْ رَيْنُ (١)
وَمِنْهَا الْعَوْنُ فِي اللَّأْوَاءِ جَرَّبُ بِأَحْوَالِ لَهَا نَظْرًا فَأَدَّبُ (٢)
وَأَيُّقِنُ أَنَّ آسَادَ الْفَلَاةِ أَرَادَتْ عَوْنَ نَمْلِ لِلنَّجَاةِ (٣)
تَعِينُكَ ، أَنْتَ تِلْكَ الذَّاتُ فَاعْرِفْ كَجَبْرِيلِ الْأَمِينِ إِذَا فَرَفَرَفْ
وَعَالِمُ كَثْرَةِ بِالْعَقْلِ شَاهِدُ لَتَدْرِكَ مَظْهَرًا يَبْدِيهِ وَاحِدُ (٤)
وَمِنْ رِيحِ الْقَمِيصِ فَنَلَّ نَصِيبَا تَنَسَّمَ مِنْ ضَفَافِ النَّيْلِ طَيِّبَا (٥)
وَذَاتُكَ نَيِّرِينَ بِهَا تَصِيدُ وَمِنْ تَدْيِيرِهَا لَهَا الْقِيُودُ (٦)

(١) إقبال لا ينكر الوجود ، بل ما يبدو من مظاهر الموجودات ، وهو يؤكد أثر العقل على ما يقع تحت الحس ، ويشير إلى أن العالم يحمل طابع الإنسان عليه .

(٢) اللأواء : الشدة .

(٣) هذا مذكور بقوله تعالى في سورة النمل : ﴿ وَخِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٧) حَقَّ إِذَا أَتَوَا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨) فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿ [النمل : ١٧ - ١٩] فلما رأت النملة جنود سليمان فرت منهم فتبعها غيرها وصاحت محذرة منبهة . وهذا منها شبيه بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم وكأنها بذلك أنجت النمل كما أنجت جنود سليمان من ظلم كادوا يرتكبونه وهم لا يشعرون وهو سحق تلك النمل ، فعجب سليمان لها على ضعفها كيف كانت سبباً في نجاة جنوده من ظلمهم النمل من هلاكها . آساد الفلاة : أسود الصحراء . وهم هنا جنود سليمان .

(٤) إنَّ النظر في هذا الكون بكلِّ ما وسع أول دليل على قدرة الواحد تبارك وتعالى .

(٥) قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُوفِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان ، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف ، فارتدَّ إليه بصره . الريح : الرائحة . تنسم : شم .

(٦) المراد بالنيرين الشمس والقمر .

وتلك الذات في دنيائك أضرم بغزوك ما ترى أو غاب حطّم^(١)

السؤال الثالث

يقال لممكن صلة بواجب وما بعد وقرب يا مخاطب؟^(٢)

الجواب

وهذا العالم الفاني فجذّ وعقل كيفه والكم قيّد
لإقليدس وطوسسيّ أراه وعقل قاس أرضاً قد كفاه^(٣)
وليس حقيقة فيه الزّمان ولا أرض ولا حتّى المكان
أقم هدفاً لترشق بالسّهام وما المعراج فافهم من كلامي^(٤)
أتحوي مطلقاً دنيا الجزاء وليس سوى ضياء للسماء^(٥)

(١) في الأصل المكان واللامكان أي هذا العالم والعالم الآخر . يرى إقبال أنّنا لا نتجاوز عالمنا بالعقل ، ولكننا نبلغ العالم الثاني بالروح الملهمه . وتسمى هذي القوّة الروحية سلطاناً .

(٢) في الأصل : القرب والبعد والكثير والقليل .

(٣) هو إقليدس الذي علم الهندسة في الإسكندرية على عهد بطليموس ووضع مبادئ علم الهندسة السّطحية . والطوسي : هو نصير الدين الطوسي فلكي رياضي ، كان معقود الصلة ببلاط هولكو . وقد شرح كتاب الأصول لإقليدس .

(٤) رشقه بالسهم : رماه به .

(٥) في الأصل دير المكافاة . والدّير في الشعر الفارسي يطلق على الدّنيا . يشير إلى قوله تعالى في سورة النور ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] وعند إقبال أنّ النور أقرب شيء إلى المطلق .

وما لحقيقة زمنٌ وحَدٌ لها حَدٌ ولكن ليس يظهرُ وليس بباطنٍ أيُّ ارتفاعٍ إلى أبدٍ لعقلٍ ما السبيل ؟ وأعرجُ كان ، بغيته السُّكون ومزَّقنا الحقيقةَ في يدَيْنَا وفي غير المكانِ رأى مكانا زمانٌ ما بدا لي في الضمير يمرُّ العام ، ما ساوى الشعيرَا لذاتِكَ عُدْ ، تَخَلَّص من هديرٍ وفصلُ الجسمِ عَنْ روحٍ كلامٍ وتخفي الرُّوحُ سرَّ الكائنات

فكيف تريدُ دنيا لا تحدُّ ! ولا يخفى بها ما كان أكثر^(١) ويقبلُ ظاهرٌ كلَّ اتِّساع^(٢) فواحده كثيرٌ ، والقليل على القشر البابُ له يكون^(٣) مظاهِرَ للفوارقِ ما رأينا وكالزُّنار يتَّخذُ الزمانا^(٤) خلقت الوقت يمضي بالشهور^(٥) بآية ﴿ كم لبثتم ﴾ كن بصيرا^(٦) ونَفْسُك أَلْقِ في قاعِ الضَّمير^(٧) فتفرقةً وتمييزُ حرامٍ وهذا الجسمُ حالٌ للحياة

- (١) في الأصل أنَّ حدها في داخلها لا في خارجها وليس في داخلها منخفضٌ ولا مرتفع ولا قليلٌ ولا كثيرٌ .
- (٢) يذهب إقبال إلى أنَّ الزمان والمكان مما يقيس به العقل عالم الطبيعة إلا أن العقل يعجز عن إدراك المطلق ؛ لأنه يربط الواحد بغيره والقليل بالكثير .
- (٣) كان هنا تامة .
- (٤) راجع ما قلناه في المكان واللامكان في ديوان « هدية الحجاز » . والزُّنار : ما يشد به النصارى وسطهم .
- (٥) الحقيقة في نظر إقبال لا تقبل التجزئة وهي في تغير ، وليس في الإمكان قياس الزمان بالأعداد .
- (٦) حبة الشعير مضرب المثل في حقارتها في الفارسية ، أمَّا آية ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فمن قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : ١٩] ولقد لبثوا في الكهف طويلاً طويلاً . وإقبال بذلك يقدِّم الحجَّة على عجز الحساب عن قياس الزمن .
- (٧) الهدير : صوت الرُّعد والبحر .

لها الحنَاء مِنْ صَوْرِ عروس
 تَسْتَرُ الحقيقةُ بالنُّقَاب
 وبينَ الرُّوح والجَسَدِ الفراق
 رجالُ الدينِ سُبْحَتُهُمْ تدور
 ففي التَّمويه منقطعُ الشَّيْه
 وقلْبُكَ ثُمَّ عقلُكَ فاصْحَبْنِ
 بتقليدٍ لهم ذاتاً أضاعوا
 وكم جزءٍ لواحدٍ قد رأينا
 ترى دنيَاكَ ما يبدو كترب
 وصورةٌ ميتٍ رسمَ الحكيم
 وما منَ حكمةٍ قلبي رآها
 أرى الدُّنيا بثورتها تميد
 دَعِ الأعدادَ واطرحها ، لتهمل
 فمنَ كلِّ جزِيءٍ كانَ أكثر

هي المعنى ، ففي حُلِّ تَمِيس^(١)
 ويسعدُها الظهورُ بلا حجاب
 بغربٍ ، أين في الحكم الوفاق^(٢)
 بأمرِ الحكمِ ليسَ لهم شُعور
 هو الجسدُ الذي لا روح فيه^(٣)
 إلى الأتراكِ فازحَلْ ، وانظُرُن
 بدينٍ ربطُ حكمٍ لم يراعوا
 بأعدادٍ لنُحصيه أتينَا
 أراها برهةً من صُنْعِ ربي^(٤)
 بلا عيسى ولا ضربِ الكلیم^(٥)
 بشوقِ حكمةٍ أخرى ابتغاهَا
 خفوقٌ هزَّ باطنها شديد^(٦)
 وبعض الوقت في ذاتٍ تأمل
 جنونِ قولةِ الطوسي وآخر^(٧)

(١) تَمِيس : تتبختر .

(٢) يقول : إنَّ أهل الغرب يفصلون بين الروح والجسد ، وبالتالي فصلوا بين الدين والدولة ، وعكف رجال دينهم على العبادة دون أن يلتفتوا إلى شأن من شؤون الحكم في دولتهم .

(٣) يريد نظام الحكم الذي ينفصل عن تعاليم الدين . والتَّمويه : الخداع بالظاهر .

(٤) يريد ليقول : إنَّ العالم كتلةٌ من المواد ، ولكنها أحداثٌ متلاحقة . وسلوكٌ منظم ، والطبيعة للذات الإلهية ، كالطبع للذات الإنسانية ، وهي في تصوير القرآن عادةً إلهية ، كما يقول إقبال .

(٥) هو عيسى عليه السلام الذي أحيا الموتى ، والكلیم موسى عليه السلام الذي ضرب البحر بعصاه .

(٦) تميد : تضطرب .

(٧) في الأصل : نصير الدين الطوسي ، وفخر الدين الرازي من أهل القرن السادس الهجري .

أرسطو مرةً إياه فاعرف وبيكون لحنه يوماً لتعرف^(١)
لهذين المقام فغادرته تضيّع بمنزل ، فحذار منه
بعقلك وهو يدرك كل كم وباطن معدن أو قاع يـم^(٢)
على دنياك سيطر ثم هيمن وفي أفلاكها الأجرام مكن^(٣)
ولكن حكمة أخرى تعلم وذاتك نخ عن يوم لتسلم^(٤)
ودغ دنيا الدياجي والنهار يميناً فاطلبن بلا يسار^(٥)

السؤال الرابع

أهذا محدث هجر القديم فكانا الكون والباري العظيما
أمعروف وعارفه ، إلهي لم الأشواق أزمضت الظليما^(٦)

الجواب

حياة الذات إيجاد لغير وللمعروف بعد كل خير^(٧)

(١) أرسطو صاحب المنطق يمثل الاستنتاج ، وفرانسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزي يمثل الاستدلال بالتجربة .

(٢) المعدن : المنجم . واليم : البحر .

(٣) هيمن على الشيء : راقبه وحفظه .

(٤) في الأصل : عني خداع الليل والنهار .

(٥) الدياجي : الظلمات ، والمراد بها هنا : الليل .

(٦) يقول : إن المحدث انفصل عن القديم ، فأصبح الأول العالم ، أما الثاني فالله تبارك

وتعالى .. وإذا ما كان المعروف والعارف هما ذات الله ، فما الحنين الذي أضنى

الإنسان . والظليم : التراب ، والمراد به الإنسان .

(٧) يقول : إن الفراق بين العارف والمعروف خيرٌ عظيم .

قديماً أو مغايره حسبنا طلسماً كان حُسباناً ، فخبنا^(١)
 ذكرنا الأَمْسَ والغد في دوام (فكان) و (سوف) أَسْرٌ للكلام^(٢)
 وفطرْتُنَا انقطاعاً عنه كانا سيلاً قد ضللنا في سُرانا^(٣)
 وليس لنا بفرقتِه عيارٌ وواصلنا ، فدامَ له القرار^(٤)
 بنا وبه ! عجيبٌ ، أيُّ حالِ ففرقتُنا فراقٌ في وصال^(٥)
 فراق يمنح النَّظر الترابا وقشاً ما به بلغ السَّحابا^(٦)
 وهذا العشق يزكو بالفراق مع العشاق كانَ على وفاق^(٧)
 تباريح الفراق لنا الحياةُ تخلَّدنا ، فيبقينا المماتُ^(٨)
 مَنْ المولى ؟ وَمَنْ إياه يُعبد هما سرٌّ يؤيِّدُ أن سنخلد^(٩)
 يدومُ له التجلِّي نورُ ذاتِ ويين الجمع معنى للحياة^(١٠)
 وتلك محبةٌ في الجمع تُبصر بغيرِ الجمع ذا ما ليس تُبصر

- (١) مغاير القديم هو المحدث . وحسبه حسبناً : عدّه وأحصاه . وكان هنا تامة .
- (٢) في تفيد معنى المصاحبة . والأس : الأساس .
- (٣) السرى : السير ليلاً .
- (٤) العيار : ما يكون في الدراهم والدنانير من الذهب والفضة يكسبها قيمتها . والمراد به هنا القيمة . واصله : ضد قاطعه وماجره .
- (٥) في الأصل : ليس بدوننا ولسنا بدونه .
- (٦) المراد بالتراب هنا الإنسان . وفي الأصل : يجعل القش جبلاً . وفي الفارسية كاه بمعنى : القش ، وكوه بمعنى : جبل .
- (٧) زكا : نما وصلاح . وفي الأصل : أنَّ الفراق حامل المرأة للعشق . وحامل المرأة يعين على التزين ، وإصلاح المظهر .
- (٨) تباريح الشوق : شدّته وآلامه .
- (٩) في الأصل : ما أنا وما هو . وإقبال بذلك ينكر مبدأ فناء النفس الإنسانية في الذات الإلهية ؛ لأنه يتحدث عن الفراق والتلاقي ، ويرى الخير كلّ الخير في اجتماع المحب بالمحبيب .
- (١٠) الجمع : الجماعة من الناس .

تجلياتُ محفلنا تأملُ تجلّي الله لا الدُّنيا تأملُ^(١)
فلا الأبوابَ أمسكنا علينا ونحنُ به بمفردنا اختلينا^(٢)
ويجعلُ نفسه عَنَّا غريباً يُداعينا كمعزفه طروباً^(٣)
وننحتُ مثلَ صورته الحجارة ونسجدُ ، ما رآته العينُ ، تاره
هتكنّا سترَ فطرتنا علينا جمالَ حبيبنا ها قد رأينا^(٤)
وهذا التُّرب ما جَ به الخيال فباطنه أضاء ولا يزال^(٥)
ولكن من فراقٍ وهو يشكو بفضلِ فراقه تلقاه يزكو^(٦)
به كانت له هذي البصيره فهذا ليله أضحي الظهيره
وأنفد حزنه جزعُ الصُّبور ومن حزنٍ تبدّل بالسُّرور^(٧)
وأصبح دمهعه دُرّاً ثميناً الحزن أودتِ الغصوننا^(٨)
وذاتك : إن تعانقها طويلاً تجد في الخلد من موتٍ بديلاً !
مقاماتٌ لها بالحبِّ عقدُ وما من منتهى يحدّوه حدُّ^(٩)
تسير له الأمورُ بلا ختام به الفجرُ الضُّحوكُ بلا ظلام

- (١) الحفل : مكان اجتماع المجتمعين .
(٢) أمسك عليه الباب : أوصده . وفي الأصل : أنَّ هذا المحفل يخلو من باب ودار وقصر .
(٣) في الأصل : أنه يجعل نفسه غريباً عنا تارةً ، ويعزف علينا كآلة الطرب تارةً أخرى .
(٤) هتك الستر : مزقه أو جذبه من موضعه .
(٥) الترب : التراب . والمراد به الإنسان الذي خلق من تراب .
(٦) يزكو : ينمو ويصلح .
(٧) أنفد : أفنى . والجزع عدم احتمال الصبر ، يقول : إنه حزن حزناً لا يطيقه حتى الصُّبور .
(٨) أودّه : ثناه وعطفه . يقول : إنَّ للحزن ثماراً طيبة أثقلت الغصون . وهو مأخوذ من نخلة المأتم في الفارسية ، بمعنى النعش .
(٩) في الأصل : أنه ربطها في عقدة فهو مقيد ، كما أنه يمضي لا يقف عند نهاية فهو مطلق . يحدو : يسوق . والوخد : سرعة السير .

يفايِر عقلنا وعزُّ الطريق ودنيا كان في وهج الشروق^(١)
 بآلاف العوالم قد مررنا على بعض التوقف هل قدرنا ؟
 خلوداً في حياتك يا مسافر وفي موتٍ ، إلى الدَّاني فبادر^(٢)
 وليس البحر يفرقنا انتهاء تعلّق فيه ، ما هذا فناء^(٣)
 وجودُ الذات في ذاتٍ محال لتصبح نفسها ، هذا كمال^(٤)

السؤال الخامس

أجبنِي من أنا ؟ وَضَح (أنا) لي وما في الذات من (شدُّ الرِّحال)^(٥)

الجواب

بذاتٍ عُوذَةٌ للكائنات وأوّلُ نورها أصلُ الحياة^(٦)
 وتصحو مِنْ رُؤاها في كراها بكثْرٍ بَعْدَ واحدِها تراها^(٧)

-
- (١) الوهج : اتقاد الشمس وحرها . وفي الأصل : أنه عالم في نور برهة .
 (٢) المسافر في اصطلاح الصوفية : هو من سار قلبه متوجهاً إلى الحق . الداني : القريب . بادر : سارع . أي سارع إلى أول وأقرب طريق إليك ، واسلكه .
 (٣) لا يريد إقبال للنفس الإنسانية فناء في الذات الإلهية كفناء القطرة في البحر على أن ذلك قصارى ما ينشد الصوفي . ويقول : إنّ الإنسان إذا تعلق بالذات الإلهية فليس هذا فناء فيها .
 (٤) يعني : أن كمال الذات الإنسانية في قدرتها على ضغط كيانها ، حتى إذا اتصلت بالذات الكلية .
 (٥) الرِّحال : جمع رحل ، وهو ما يشد على ظهر البعير لركوبه . وشدُّ الرِّحال كناية عن السفر ، وفي الأصل : (أي معنى في قولنا سافر في الذات) .
 (٦) العوذة : ما يعلق على الإنسان لحفظه من الشرّ والحسد .
 (٧) الرؤى : جمع رؤيا وهي الحلم . والكرى : النوم . الكثرة : وعند إقبال أن الحياة في تعدد الأناسي على اختلافهم والوحدانية لله .

ونمضي في اتساع ، ماربونا
يضمُّ صميمُها في العمق بحرا
تخالفُ منْ بشيمته تَصَبَّر
كنارٍ ، والذاتُ لها شَرارُ
وراءَ حدودِها والغيرُ تشهد
تأمل في انطواء كيف تبدو
ثُور وراءَ سترٍ للخفاء
بنارٍ في الصِّميم ثوث وقامت
فَمِنْ هذا لعالمنا النظام
ذواتٌ أطلعتها من شعاع
ترابُ الجسم للذات الحجاب
وتلك الذات تشرق منْ صدورٍ
ومعنى لانا كم قلت بين
على صلة بأرواحِ جُسومٍ
بذلك مولدٌ من غير أمٍ
على خلد حصولك بالتياع

ولولا ذاك منها ما زكونا^(١)
وقلبُ القطرِ موجٌ ما استقرا
وفي ملأ لنا تبدو بمظهر^(٢)
نجومٌ ، سائر وله القرازُ^(٣)
وفي الجمع الكبير كَمَنْ توحدُ^(٤)
ترابٌ ديسَ ، منه كيف تنمو
وتبحثُ في دوامٍ عن رواء
تحاربُ نفسها ، والحربُ دامت
وكالمرآة قد أضحي الرِّغام^(٥)
جواهرُ أُخرجتْ كانت بقاع
وتبدو الشمسُ أطلعها السَّحاب
بجوهرها التُّراب لنا كنورٍ
(بذاتك فلتسافر) فلتُعَيِّن
فسافر كي تحقِّق ما تروم^(٦)
ومن سطحٍ كإمساك بنجم
كانك قد رأيت بلا شعاع

(١) ربا : زاد ونما ، وما في الشطر الأول شرطية زمانية ، أي تتسع مدة نمونا . وزكا : كريا .

(٢) الشيمة : الفطرة ؛ أي : تخالف من يصبر بطبعه ، فهي لا تستطيع صبرا . الملاء : الجماعة .

(٣) يشبهها كذلك بالنجوم الثوابت والسيارة .

(٤) توحد : انفرد واعتزل .

(٥) الرِّغام : التراب .

(٦) الجُسوم : جمع جسم . تروم : تريد .

وعن أملٍ وعن وجلٍ تناء
 طلسمَ البرِّ والدأماءِ فاصدع
 بأوبةٍ مَنْ يطوف بلا مكان
 لهذا السرِّ تفسيرٌ محال
 فما قلبي (أنا) وهي الضياء
 ويرجفُ من سناها الأزهران
 مقرُّ ضمِّها كان القلوبا
 عن الغيرِ افتراقٌ ، وارتباط
 خيالٌ في التراب له الكيان !
 سجينٌ ، في قيودٍ ، كيف أفلت !
 بصدرك مثل مصباحٍ منيرٍ

كشقٌ أنت محدُّثه بماء^(١)
 وبدرَ التَّمِّ فلتصدغ بإضباع^(٢)
 له الدُّنيا لتحملُ في الجنان^(٣)
 وتنفع فيه عينٌ لا مقال^(٤)
 وفي ﴿ إنا عرضنا ﴾ ما نشاء^(٥)
 زمانٌ تحتضنه والمكان^(٦)
 لهذا التُّربِ أصبحت النُّصيا^(٧)
 بنفس ضيعةٍ ، وبه اختلاط^(٨)
 أيحويه الزَّمان أم المكان ؟^(٩)
 فما الرَّامي وأوهاقٌ تدلَّت ؟^(١٠)
 لك المرآةُ ، فيها أيُّ نور

- (١) التناهي : البعد . الوجل : الخوف .
 (٢) الدأماء : البحر .
 (٣) الأوبة : العودة . الجنان : القلب .
 (٤) المقال : القول . أي : أنَّ الرؤية بالعين تنفع في معرفة السرِّ لا الكلام .
 (٥) قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . والأمانة الطاعة ، وقد عظم شأنها . وحملها الإنسان على ضعفه ولم يف ، ولم يراع حقَّها ، فكان ظلوماً ، وبكنه عاقبتها جهولاً . وقيل : إن هذي الطاعة تتمُّ باختيار الإنسان وإرادته .
 (٦) الأزهران : الشمس والقمر ، السَّنا : النور ، والسناء : الرفعة . وفي الأصل : أن الفلك يرتعد من سناها ، أو سنائها .
 (٧) التُّرب : التراب . وإقبال يسمي الإنسان على الدوام حفنة التراب .
 (٨) الضيعة : الضياع ، وبه : أي بالغير .
 (٩) الخيال في الفارسية بمعنى النية .
 (١٠) الأوهاق : الحبال التي يصاد بها .

عليها أنتَ قد كنتَ الأمينا بإدراكِ لذاتِكَ كنُ قمينا^(١)

السؤال السادس

أهذا الجزء عن كلِّ يزيد ! وكيفَ البحثُ عنه لمن يُريد ؟

الجواب

وما لِلذَّاتِ مقياسٌ لدينا
من الأفلاك تهبطُ ثُمَّ تَعْلُو
فَمَنْ بالنَّفْسِ يملكه الشعور
حوتها ظلمةٌ والصَّدر نورُ
لها حكمٌ بها الأبوابُ تسحر
خلوداً في الصميم العيش كانا
مقامُ الكونِ منها قد تقدَّر
أتسألُ عن طبيعتها وتسأل
وماذا عَن طبيعتها لقائل
فما قولِي ؟ وفي قول النَّبي

وأعظمُ ما يلوحُ لناظرينا^(٢)
ببحرِ الكونِ تسقطُ ثُمَّ تَسْمُو^(٣)
سواها ، أو بلا ريشٍ يطير
تناءت جنةٌ ، في الحُضْنِ حورُ^(٤)
وَمِنْ قاعِ الحياةِ أتتْ بجوهر
ولكنَّ للعيونِ بدا زمانا
وتحفظه بما للعينِ يَظْهَر
وعنها ما بقدرٍ ليس يفصل
فجير ظاهر والضدُّ مائل^(٥)
بذا الإيمانِ في قولِ جلي^(٦)

(١) القمين : الجدير .

(٢) الناظران : العيانان . يقول : إِنَّ الذَّاتِ أعظمُ ما نرى ، وإن كانت الرؤية ليست بالبصر .

(٣) تسمو : تعلو .

(٤) تناءت الجنة : بعدت .

(٥) المراد بالضد هو الاختيار . مائل : قائم . وفي الأصل أنَّ الاختيار داخلها .

(٦) قيل : إن جبريل مضى إلى النبي عليه الصلاة والسلام في هيئة رجل وسأله عن الإيمان فقال له : هو أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله وبالقدر خيره وشره .

ومسا للخلق عندك غير جبر
وتلك الروح من نفس الإله
وهذا الجبر وهم أو ظنون
تصول بعالم للكيف والكم
وذاك الجبر منه إن أفاقت
برغبتها خفوق النجم واجب
تميط السُّتر عما أضمرته
وأهل النور قد وقفوا طويلاً
ومن كرم لها خمر الملائك
تقول : وهل إليها من سبيل
لك الأيام فاجعلها خلوداً
لهذا العقل من حسٍّ صدور
لعقل جزؤه ، للنوح كل
وذاك العقل ما وسع الخلودا

وَمِنْ بَعْدٍ وَمِنْ قَرَبٍ بِأَسْرٍ
بخلوتها تلوح بلا اشتباه^(١)
بغير إرادة روح تكون!^(٢)
وعن جبر إلى المختار تُقدِّم^(٣)
لها الدنيا كتلك النوق ساقط^(٤)
برحمتها تَلَأَتِ الكواكب^(٥)
وجوهرها بعينها رأت^(٦)
أرادوا أن يروا وجهاً جميلاً^(٧)
وكان عيارها ترباً كذلك^(٨)
إذا أورد مقاماً للعويل
ونح في الفجر ، عقلك لن يفيدا
ومن عشق نحيب الفجر نور
ونوح دام ، ما إن دام عقل
من الأنفاس ما يحصى عديداً^(٩)

-
- (١) أي أنَّ الروح في خلوتها مع الله تبدو في كل مظاهرها بجلاء .
(٢) كان هنا تامة .
(٣) صال : غلب وقهر ، في الأصل أنها تغير على عالم الكيف والكم . وتمضي من الجبر إلى الاختيار .
(٤) في الأصل : أنها إذا نفضت عنها غبار الجبر ساقط عالمها كما تسوق الناقة . والنوق جمع ناقة .
(٥) خفوق النجم : اضطرابه . وفي الأصل أنَّ السماء تدور بإذنها .
(٦) تميط : تزيح وترفع .
(٧) أطلقنا أهل النور على النورانية ، وهم طائفة من الملائكة .
(٨) الكرم : شجر العنب . والملائك : الملائكة . والعيار ما يضاف إلى الدنانير والدراهم من ذهب وفضة . والمراد قيمتها . والتراب : التراب ، فهي تستمدُّ قيمتها من ترابها .
(٩) في الأصل : إنَّ أنفاسنا تحصى الساعات كعقرب الساعة . والعديد : العدد .

بخلق الليل يُشغل والنهار
 قصارانا نواح العشق كانا
 وذات إن بدا المعروف عنها
 لعينك مثلها هذا الضياء ؟
 فكيف تخاف من ريب الفناء
 وموتاً غير هذا خاف قلبي
 سكون الخفق في شوق أليم
 وأنفسنا بأيدينا نُكفّن
 فوئك كامن لك في الكمين
 بجسمك كان حفرٌ للحفير

ومن نارٍ له بعض الشرار^(١)
 وتحوي برهةً منه زمانا
 لحلت عقدةً في العمق منها^(٢)
 وتحسب أن سيدرُكها الفناء
 إذا نضجت ، فعنها الموت نائي
 وروحي بل وماءً لي وتربي
 وإبعاد الشرار عن الهشيم^(٣)
 وموتٌ جاءنا نلقى بأعين
 تذكر ، واخش عادية المنون^(٤)
 ومنكرٌ فيه جاوره نكير^(٥)

السؤال السابع

ومن عبر السبيلَ ومن مسافرٍ ووصف كمالٍ من في ذكرٍ ذاكر ؟

الجواب

أطل نظراً على قلب تردد بصدرك منزلٌ ، إيّاه فاشهد^(٦)

-
- (١) يقول : إنه لا يأخذ الشعلة بل شرارها .
 (٢) المراد بالمعروف عنها العظيم من قدرتها .
 (٣) يقول : إن الموت الحق الذي يرهبه هو عدم العشق ، والهشيم : ما يبس وتكسر من النبات .
 (٤) المنون : الموت .
 (٥) منكر ونكير : اسم ملكين يحاسبان الناس في القبر ، والحفير : القبر .
 (٦) المنزل : مكان النزول ومرحلة من المراحل التي ينتهي إليها سالك طريق التصوّف .

وفي حَضَرٍ بِذلكَ تلكَ سفرة
فأين مقرُّنا يا ليت شعري
ومالك غايَةٌ ، لا تبغ غايَةً
بنا نضجاً ظننْتُ وما نضجنا
وفي عدم الوصول لنا الحياةُ
تجوُّلنا برحبِ الأفقِ كانا
لغبننا ، حولَ أنفسنا ندورُ
ودوماً كنْ لذاتك في الكمين
وما لأجيجِ عِشقٍ من فناء
كمالاً نظرة كانت بذات
بذات الحقِّ تخلو آنذاكا

ومن ذاتٍ إلى ذاتٍ ، بخطرَةٍ^(١)
وما لحنا لشمسٍ أو لبدرٍ
فروحُك تنتهي عند النهاية
نقصنا في المنازل أو كملنا
بسفرتنا تحشُّانا المماتُ^(٢)
وطئنا ذا المكانَ وذا الزَّمانا^(٣)
بقاعِ الكونِ موجتُنا ثور^(٤)
ومن شكٍّ ففرَّ إلى اليقين
ونظرَةٌ ذي اليقين بلا انتهاء^(٥)
وذلك بالخروج عن الجهات^(٦)
تري مولاك والمولى يراكا^(٧)

- (١) الحضر : ضد السفر . الخطرة : ما يلوح في الفكر . ومن معاني السفر : السير إلى الله من منازل النفس حتى يصل العبد إلى مقام القلب .
- (٢) السفرة : المرة من السفر . والباء هنا للسببية . تحشاه : استثناه . يقول في الأصل : إن هذا السفر لنا حياةٌ خالدة .
- (٣) الرحب : السعة . والمراد بالمكان والزمان هذا العالم بأسره . وفي الأصل مجالنا من السمكة إلى القمر . وهما في الفارسية ما هي وماء . كما قال إن الزمان والمكان تراب طريقنا .
- (٤) لغبنا : تعبنا .
- (٥) أجيج النار : شدة اشتعالها .
- (٦) المراد بالجهات : العالم أجمع .
- (٧) عند إقبال أن هذا ما تبلغه الذات في أوج كمالها حتى في اتصالها المباشر بالذات المحيطة بالكل . جاء في سورة النجم عما شاهده ﷺ ليلة المعراج : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] أي : إنَّ بصره أثبت ما رأى إثباتاً صحيحاً مستيقناً ، فما عدا عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها .
- ومن المفسرين من قال باستحالة تلك الرؤية كما أنَّ منهم من أجازها لأن موسى =

بنور فلتنر من ﴿ لن تراني ﴾ وإن أغمضت عينك أنت فان^(١)
بذاتك كن قوياً في حضوره حذار من الضياع ببحر نوره^(٢)
ومما ماج فيك لتعط ذره بجانب شمسنا لتنير مره
تحرّق حيث يبدو في جلاء وأظهر منك ذاتك في ضياء^(٣)
برؤيته ، لعالمنا إمام له لا للورى كان التمام^(٤)
وإياه اطلبن إذا افتقدته بفضل ثيابه خذ إن وجدته^(٥)
ولا تمذذ إلا الملاً يميننا ولا تغمض عن الشص العيوننا^(٦)
لأمر الدين والدنيا إمام هو الرائي ، وقد عمي الأنام^(٧)
كمثل الشمس تشرق في الصباح لديه شمس أفكار صحاح
وغربي له حكماً أقاما عن الشيطان قد خلع الزماما
بغير العزف ليس له غناء حوته بما يطير به السماء^(٨)
ومن بستانه الصحراء أجمل مدينته فدغ ، فالفقر أفضل

طلبها .

- (١) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَّ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِيَّ فَلَمَّا تَبَيَّنَ رَبُّهُ لِّلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ صُورُهُ كَأَنَّه كَالْإِبْرَةِ الَّتِي يُدْفَنُ فِيهَا الْحَبُّ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .
- (٢) هذا صريح في دلالة على أن إقبالاً لا يأخذ بمذهب الفناء في الذات الإلهية .
- (٣) يقول : أنر ذاتك عياناً وذاته في الخفاء .
- (٤) الورى : الناس . والمراد هنا بالتمام : الكمال .
- (٥) أخذ بفضل ثيابه : تمسك بما يمكن التمسك به منها .
- (٦) الملاً : هو الشيخ الذي لا يفقه الدين على ما ينبغي . الشص : الحديدية التي تؤخذ بها السمكة . يقول : إن مثل هذا الشيخ يخدعك ، كما تُخدع السمكة بالشص لتصاد .
- (٧) الأنام : الناس .
- (٨) يقول : لا غناء ولا صدى عند الغرب إلا بالمعازف ، ولا يطير في السماء إلا بطائرة صنعها . وهذا من الدليل على إغراقه في المادية .

من السَّرَّاقِ شَرْدُمَةٌ تَغِيرُ وراءَ الخبزِ طالَ بها المَسيرُ^(١)
 صَحَا جِسْمٌ وَلِلرُّوحِ السُّبَاتُ مع الدِّينِ الفنونُ مُحَقَّرَاتُ^(٢)
 لَدَى الكَفَّارِ زَادَ الكُفْرَ عَقْلُ ولِلإنْسَانِ عِنْدَ الغَرْبِ قَتْلُ
 وَهَذَا رَاصِدٌ وَلِذَا الكَمِينُ إلهي ! كُنْ لَهُم نِعَمَ المَعِينُ !
 إِذَا مَا شِئْتَ بَلَّغْهُمْ كَلَامِي نِظَامُ الحَكَمِ كَالسَّيْفِ الحُسَامِ^(٣)
 عَلَى هَذَا الحَسَامِ الرُّوحُ تَجْرِي يَصُولُ عَلَى الرِّقَابِ وَلَيْسَ يَدْرِي^(٤)
 لِيَدْخُلَ ذَلِكَ الصَّنَمُ صَامُ غِمْدَهُ وَإِلَّا أَهْلَكَ الْإِنْسَانُ بَعْدَهُ^(٥)

السؤال الثامن

أَتَعْرِفُ مَا تَضَمَّنَهُ (أَنَا الْحَقُّ) أَتَحْسِبُهُ هَرَاءً حِينَ يَنْطِقُ^(٦) ؟

الجواب

أَعَاوِدُ عَنْهُ قَوْلًا لِي يَطُولُ وَعِنْدَ الْقَوْمِ سِرٌّ مَا أَقُولُ^(٧)
 بِحَلَقَتِهِ مَجْوسِيٌّ أَشَاعَا (حَيَاةً بِالْأَنَا خَدَعْتَ خَدَاعَا)

- (١) السَّرَّاقُ : جمع سارق . والشَرْدُمَةُ : الجماعة من الناس .
- (٢) السُّبَاتُ : النوم . فِي الْأَصْلِ : الدين والفن والعلم . وَأَطْلَقْنَا الفنونَ عَلَى العلوم والفن .
- (٣) السَّيْفُ الحُسَامِ : القاطع . يَقُولُ : إِنَّ هَذَا نِظَامَ الحَكَمِ فِي بِلَادِ الغَرْبِ .
- (٤) يَصُولُ : يَثْبُ . وَفِي الْأَصْلِ : إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَا يَمِيزُ فِي الضَّرْبِ بَيْنَ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ .
- (٥) الصَّنَمُ : السَّيْفُ . يَرِيدُ لَهُ أَنْ يَسْتَقَرَّ فِي غِمْدِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ بِقَتْلِهِ النَّاسَ .
- (٦) أَنَا الْحَقُّ : قَوْلٌ مَنْسُوبٌ إِلَى الحَلَّاجِ ، ذَلِكَ الصُّوفِي الَّذِي كَانَ يَتَجَوَّلُ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجْدُ وَالطَّرِبُ ، وَحَرَصَ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى آرَائِهِ وَتَعَالِيمِهِ الَّتِي خَرَجَتْ عَلَى مَأْلُوفِ الْقَوْمِ فِي زَمَانِهِ ، فَبَلَّغَتْ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ مِيلَافًا شَدِيدًا ، وَاتَّهَمُوهُ بِالْحُلُولِ وَالْكَفْرِ ، وَأَفْتَوْا بِقَتْلِهِ ، فَصَلَبَ فِي بَغْدَادِ سَنَةِ ٣٠٩ هـ . وَإِقْبَالَ يَرَى فِي الحَلَّاجِ رَأْيًا آخَرَ يَنَاقِضُ رَأْيَ قَوْمِهِ ، وَيَعَانِدُهُ . وَلِذَلِكَ انْبَرَى لِلدَّفْعِ عَنْهُ فِي عَدِيدٍ مِنْ تَأْلِيفِهِ .
- (٧) عَاوِدُ الشَّيْءِ : عَادَ إِلَيْهِ . وَالْمِرَادُ بِالْقَوْمِ هُنَا أَهْلُ إِيْرَانِ وَالْهِنْدِ .

سبات الرب فيه الحلم كُنَّا
ولولاه لما وُجد المكان
هو العقل المميز بل هو القلب
وفي الأحلام تُغرق ناظريكا
وباستيقاظه يفنى الجميع
لدينا العلم نورٌ بالقياس
تغيّر حسنا سبب التغيّر
فما من حولنا ريحٌ ولون
وهذا كله وهمٌ عجاب
وخدعة حسنا لا ريب فيها
فما ذات لنا في الكائنات
حريم الذات ما بلغتْ نظره
لها يومٌ بلا فلكٍ يدور
إذا سميت تلك الذات وهما
معي قل : من تخامره الظنون

وهذا الحلم منه قد خلقنا !^(١)
بما يحوي ولا وُجد الزمان
هو التفكير والتصديق والريب^(٢)
وأقوالاً وأعمالاً لديك^(٣)
فمن شوقاً سيثري أو يبيع^(٤)
وتعويلُ القياس على الحواس^(٥)
لعالمنا ، فيشملنا التطور
ولا يبدى لنا الآثار كون^(٦)
على وجهٍ لخالقنا حجاب
دخلنا من خداع الحسن فيها^(٧)
بذات حسنا قطع الصلات
تشاهدها بلا نظر ، بخطر^(٨)
تأملها فما شكٌ يشور^(٩)
كمظهرٍ أي شيءٍ قلت حتما
تأملها ، لتعرف من يكون

- (١) السبات : النوم . يقول : إن هذا الكون وما فيه حلم رآه الله في سباته . وهو ينسب هذا إلى المجوسي ؛ لأن الله جل جلاله لا تأخذه سنة ولا نوم .
- (٢) يقول : إن العقل والقلب هما هذا الحلم .
- (٣) الناظران : العينان .
- (٤) يثري : يشتري .
- (٥) التعويل على الشيء : الاعتماد عليه .
- (٦) الريح : الرائحة . وطالما سمى إقبال العالم عالم الرائحة واللون .
- (٧) التيه : الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر .
- (٨) الحريم : ما يحيط بالبناء كالحرَم . الخطرة : الفكرة .
- (٩) يقول : إن أيامها ليست زماناً يحسب بدوران الفلك .

أعمالنا ترى ؟ أورد دليلاً
لقد خفيت ، دليلاً فاطرحن
أراها الحق ما في ذاك باطل
إذا نَضِجَتْ ، لها امتنع الزوال
جناحٌ لو حبوت به الشَّرار
بما أبلاه ربي ما الخلود
لروح طابَ خلد ، تستعار
وما للطَّودِ والوادي البقاء !
عن المنصور ما جدوى الكلام ؟
بذاتك ضع ، ودغ عنك الجدال
بفكرك كان ذلك مستحيلاً^(١)
تفكّر ، ذلك السرّ اكشِفْ
لها أكلٌ ، فأيقن لا تجادل^(٢)
فراقُ العاشقين هو الوصال
لخلد في الخفوق به وطارا^(٣)
يبحثُ ليسَ هذا ما يُريد^(٤)
ويشملُها من العشق العقار^(٥)
ستبقى الذّات ، للدُّنيا الفناء^(٦)
بذاتك فاطلبن ربَّ الأنام^(٧)
وحققها بما الحلاجُ قال^(٨)

السؤال التاسع

وسرّ الوَحْدَةِ الخافي أتدري أعلمُ عارفٌ يا ليت شعري ؟!^(٩)

- (١) يقصد أن العالم ظاهر لنا ، إلا أنه مع ذلك في حاجة إلى دليل ، وهو ما يعجز حتى فكر جبريل .
- (٢) الأكل : الثمر والرزق الواسع .
- (٣) حباه : أعطاه .
- (٤) أبلى في ذلك بلاء حسناً : أظهر قدرته فيه . والمقصود هنا عمل . وفي الأصل أن خلود الله ليس جزاء على عمله ، لأن هذا الخلود ليس له بالبحث والطلب .
- (٥) يشمل : يسكر . العقار : الخمر .
- (٦) الطود : الجبل . يقول أي قيمة لبقاء الجبال والوديان ، فالبقاء للذات وللدنيا الفناء .
- (٧) المنصور : هو الحلاج . وقد ذكر إقبال معه من يسمى « شنكر چربا » وهو مفسر هندي لكتاب من كتب الهند المقدسة . الأنام : الناس .
- (٨) دع عنك : اترك وأهمل .
- (٩) العارف : العالم ، والحكيم ، والصُّوفي في ذروة المعرفة .

الجواب

مقامٌ تحت قُبَّتِها يَطِيبُ وفيها النُّيرانُ إلى مَغيبٍ! ^(١)
ونعشُ الشَّمسِ يَحْمِلُه المِساءُ كواكِبُه لها الكفنُ الضياءُ
كمنهالِ الرُّمالِ هَوَتْ جبالُ لهذا البحرِ بعد الحالِ حالُ
على الأزهارِ عاصفةٌ تُثور ورعبٌ للقوافلِ من مَغيرِ
وإنَّ بالدُّرِّ زانِ الطَّلُّ زهرا فباقٍ تارةً ليزولَ أخرى ^(٢)
بغيرِ سماعِها الألحانُ تَفنى وتلقى النَّارُ في الأحجارِ دفناً ^(٣)
حمامٌ عنه تَسألُ أيجدي من الأنفاسِ قُيدنا بقيد ^(٤)

غزل

لنا الكاساتُ دارتُ بالفناء وقد ذُقناه من دَنِ ونائي ^(٥)

(١) المراد بهذي القبة قبة السماء. وبالنيرين: الشمس والقمر، ولهما المغيب بعد ظهورهما.

(٢) الطَّلُّ: الندى. وهذا الندى يبقى تارةً ثم يزول تارةً أخرى.

(٣) يقول: إنَّ الألحان التي لا تسمع تموت في قيثارتها، كما تموت النار الكامنة في الحجر.

(٤) الحمام: الموت، والتَّسأل: السؤال.

(٥) الغزل عند الفرس منظومة ذات رويٍّ واحدٍ لا تقلُّ أبياتها عن سبعة ولا تزيد على خمسة

عشر، وموضوعها الغزل وغالباً ما تتضمن المعاني الصُّوفية. والشاعر يلتزم في البيت الأخير منه ذكر لقبه الشعري. وإقبال لا يلتزم شروط الغزل في هذي المنظومة.

دارت الكأس: تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر. يقول الشاعر: إننا جميعاً نلقى الفناء.

تسمّى ساحةً قد جال فيها بدنيا ، مِنْ نجومٍ في ضياء
بها إن ذرةً أبدت نَفَارا فرُقِيّةَ نظرةً كلَّ الغناء^(١)
أطلبُ أن يقرَّ لنا قراّر بنا الأيامُ تجري جري ماء
شغاف القلب فاحفظ فيه ذاتاً وكوكبها سراجٌ للمساء^(٢)
هي الدُّنيا مقامُ الآلينا وذا العرفانُ عند العارفين^(٣)
بقلبٍ باطلاً ما إن أردنا وهذا الحزنُ منه قد أفدنا^(٤)
هنا الرغباتُ ما هم يَرمقونه وبهجةً شوقهم ما يَطلبونه^(٥)
وفي الإمكان تخليدٌ لذات وجعلُ الوصلِ من هذ الشّتات^(٦)
ومصباحٍ يَزرُقُرتنا تألّق بإبرتنا سماءٌ سوف تُرتق^(٧)
لدى القيومِ ذوقٌ للكلام تجلّى في جموعٍ للأنام^(٨)
فَمِنْ برقِ التجلّي كان فيه وذاك الجامُ منذاً يحتسيه^(٩)

- (١) الرقية : ما يقرأ على المسحور ليزول عنه أثر السحر . والغناء : الكفاية . وتكفي نظرة تبطل هذا النفار ، كما تبطل الرقية السحر .
- (٢) شغاف القلب : غلافه ، والسراج : المصباح .
- (٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] وأفل النجم : غاب . وهذا في شأن إبراهيم عليه السلام الذي لم يحبَّ عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال ؛ لأنَّ مثل هذا التغيّر من صفات الأجسام .
- (٤) أفاد : استفاد .
- (٥) يرمق : ينظر ويطلب .
- (٦) الشّتات : التفرق .
- (٧) رتق الفتق : سدّه .
- (٨) القيوم : من أسماء الله الحسنى ، وهو بمعنى الباقي . وفي الأصل : الله الحي . الجمع : الجماعة . والأنام : الناس .
- (٩) الجام : كأس الشراب . احتسى : شرب . وفي الأصل : من قدح برق التجلّي في قلبه ، وشرب تلك الخمر ، ثم ضرب رأسه بالكأس .

لِمَنْ قَلْبُ عِيَارِ الْحَسَنِ مِنْهُ وَطَافَ بَيْتٍ مِنْ ؟ مَا زَالَ عَنْهُ^(١)
(أَلَسْتُ) لَخْلُوءٍ قَدْ صَعَّدَتْهَا (بَلَى) أَيُّ الْمَعَارِفِ رَدَّدَتْهَا^(٢)
لِعَشَقٍ أَيُّ نَارٍ فِي التَّرَابِ وَحَرَّقَ لَحْنَنَا كَمْ مِنْ نِقَابِ^(٣)
تَدَوَّرُ الْكَأْسُ ، لَكِنْ مَا بَقِينَا بِمَحْفَلِهِ الْحَيَاةُ غَدَتْ رَيْنَا^(٤)
لِعِزْلَتِهِ فَوَادِي قَدْ تَحَرَّقَ أَهْيَى مَحْفَلًا مَا إِنْ تَفَرَّقَ
وَأَنْثَرُ حَبَّةً فِي الْأَرْضِ ذَاتِي لَهُ قَدْ صُنْتُ لَا لِسَوَاهُ ذَاتِي !

-
- (١) العيار : ما يضاف من ذهبٍ أو فضةٍ إلى الدينار والدرهم . زال عن المكان : غادره .
وفي الأصل : بمنزل من يطوف قمره .
(٢) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] والشاعر يسأل عن الخلوة التي ذكرت فيها ألسنته ، والمعزف الذي ردد لحنها .
(٣) التراب هنا هو الإنسان .
(٤) ما بقينا : ما دما باقين . بمحفله : أي بمحفله الله .

الخاتمة

لِيُشْهِزْ مِنْكَ ذِيَاكَ الْحُسَام
وَتَمْلِكُ قَدْرَةً فَارْفَعْ نَقَابَا
دُجَاكَ أَنْزِ بِأَنْوَارِ الْيَقِينِ
وَعَيْنَكَ فَافْتَحَنَّ عَلَى فِؤَادِكَ
وَمِنْ قَلْبِي لَتَقْتَبِسَ الشَّرَارَا
وَالَا ، نَارَ غَرْبٍ خَذْ وَحَاذِرْ
بِغَمْدِكَ لَا يَطِيبُ لَكَ الْمَقَامُ^(١)
تَنْلُ شَمْسًا وَبِدْرًا وَالسَّحَابَا
يَدَا بِيضَاءَ أَظْهَرَ لِلْعُيُونِ^(٢)
مِنْ الشَّرِّ الثُّرَيَّا فِي حَصَادِكَ^(٣)
أَنَا الرُّومِيُّ إِمَّا شَتَّتَ نَارَا^(٤)
وَمُتَّ فِي الْقَلْبِ كِي تَحْيَا بِظَاهِرْ

- (١) شهر السيف : أخرجه من غمده . الحسام : السيف .
(٢) الدُّجَى : الليل . واليد البيضاء : المشعة . قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ (٢٧) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿ ٢٢ ﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿ طه : ٢٢ - ٢٤] .
(٣) الشرر : جمع شررة وهو ما يتطاير من النار كالشرار . والحصاد : الزرع . في الأصل . من فتح العين على قلبه ، نثر الشررة ، وحصد الثريا . والثريا مجموع كواكب تشبه بالعنقود والسنبلة في الشعر الفارسي .
(٤) الرومي : هو جلال الدين الرومي من أهل القرن السابع الهجري أكبر وأشهر شعراء التصوف عند الفرس ، وصاحب كتاب المثنوي الذي يعد أعظم الكتب أهمية في التصوف الإسلامي . وإقبال يردد ذكر الرومي في كتبه ، وينظر إليه نظرة المريد إلى الشيخ .

الدِّيَّوَانُ الْخَامِسُ

جِنَاحِ جَبْرِيلَ بِالْحَبْرِ

نَقَلَهُ مِنَ الْأُرْدُوِيَّةِ إِلَى الْفَرَنْسِيَّةِ نَثْرًا
السَّيِّدُ مِيزْزَا سَعِيدٌ ظَفَرِشَاغَتِي
وَالسَّيِّدَةُ سَوْرَانُ بُوْسَاكُ

ثُمَّ نَقَلَهُ مِنَ الْفَرَنْسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ نَثْرًا
الْأَسْتَاذُ عَبْدُ الْمُعِينِ الْمُلُوحِي

ثُمَّ صَاغَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الْأَسْتَاذُ زُهَيْرُ ظَاظَا

طُبِعَ هذا الديوان عام ١٩٣٥م ، وهو يحتوي على قصائد باللغة الأردوية حول زيارات محمد إقبال لفلسطين ، ومصر ، وأفغانستان ، وإنكلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وإسبانيا .

لا يُوجد في الأدب الأردوي ما يمكن مقارنته بهذا الديوان من حيث العمق وسعة المطلب والبيان ، وما يلفت انتباهنا هنا هو أنَّ محمد إقبال يحكي خواطره الخاصّة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين وبكائه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلاميّة التاريخيّة ، وما يلفت النظر هو الجزء الخاص عن المحاورّة بين محمد إقبال وجلال الدين الرُّومي ، فالمرید الهندي (محمد إقبال) يسأل بالأردوية والروميّ يُجيب عن كل سؤال من المثنوي ، وهذا الحوار يوضح لنا أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

ربّما لا يجد القارئ العربي في هذا الديوان محمد إقبال البليغ الجذاب في شعره الأخاذ الذي تفرّد به بين كبار شعراء الأردوية القُدماء والمُعاصرين ، وهو بسبب كثرة نقل هذا الديوان من شعر إلى نثر ، ثم من نثر إلى صياغة شعرية بالعربية ، فهكذا زال جمال الشعر وروعته وخفّت بلاغة الشاعر وإبداعيته ، لذا ضُمَّنْتُ إلى بعض عيون قصائد هذا الديوان تراجمها النثرية للعلامة السيد أبي الحسن علي الحسيني النّدوي ملتقطاً من كتابه « روائع إقبال » الذي قرأ هذا الديوان - مع جميع دواوينه - بكل عمق ودقّة بلغته الأصليّة فبلّغ مُحسناً ومُجيداً بترجمته النثرية مبلغاً لم يبلغه أحد قبله ولا بعده .

محتوى الديوان

يحتوي هذا الديوان على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : إحدى وستون قطعة تتناول أفكار الشاعر الشائعة في شعره في صور شتى ، ورباعيات قليلة .

القسم الثاني : قصائد نظمها في الأندلس حين زارها .

القسم الثالث : قصائد ، ومن عيونها « لينين أمام الله » وهي صورة تمثيلية رائعة ، ويوجد في هذا القسم غير هذه القصيدة ، بعض القصائد منها عن فلسطين ، ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي ومحمد إقبال .

وقطع كثيرة متفاوتة العناوين ومختلفة المواضيع .

وقد نقله أولاً من الأردوية إلى الفرنسية نثراً ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المعين الملوحي ، ثم صاغه في العربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا ، وهو الآن بين أيديكم .

القسم الأول

(١)

دَوْتُ بِصَرْخَةٍ رَغْبَتِي أَرْكَانَ حَضْرَتِهِ الشَّرِيفَةِ
فَاسْتَرْحَمْتُهُ الْعَاكِفُونَ لَفِطٍ جَرَّاتُهَا الْمُخِيفَةُ
هِيَ ذِي مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ وَحُورُهَا أُسْرَى خِيَالِي
بَصْرِي يَكْدُرُ مَا يَفِيضُ بِهِ التَّجَلُّي مَنْ جَمَالِ
إِنْ كَانَتْ أَقْتَصَرَتْ عَلَى نَقْشِ الْمَسَاجِدِ هَمَّتِي
لِي سَاعَةً تَجْتَاحُ فِيهَا الْكَوْنُ حِدَّةً نَظَرْتِي
مَاذَا فَعَلْتُ ، أَبَحْتَ سِرِّي هَاهُنَا ، لَكِنْ لِمَاذَا ؟ !
وَأَنَا هُوَ السِّرُّ الْوَحِيدُ لَهُمْ بِصَدْرِ الْكَوْنِ هَذَا
أَنَا مَا سَكَرْتُ بِمَا سُقِيتُ فَهَلْ بِكَأْسِكَ مِنْ ثُمَالَةٍ
مَا مَدَحَةٌ لِلْبَحْرِ أَنْ يَهْبِ النَّدَى ظِمْثًا حِيَالَهُ

(٢)

لِمَ أَهْتَمُّ بِأَخْطَاءِ النُّجُومِ ؟	وَأَذِيبُ الْقَلْبَ فِي هَذَا الْعَنَا
إِنْ أَصَابَتْ شَاوَهَا أَوْ أَخْطَأَتْ	فَهُوَ شَيْءٌ لَيْسَ يَعْنِينِي أَنَا
ثُمَّ هَلْ يُمْكِنُنِي أَرْثِي لَهَا	وَأَنَا أَطْلُبُ مَنْ يَرِثِي لِحَالِي
لَسْتُ فِي كَوْنِكَ إِلَّا حَفْنَةً	فَلِمَاذَا يُشْغِلُ الْعَالَمُ بَالِي
هُوَ لِي أَمْ لَكَ أَنْتَ	عَالَمِي أَمْ عَالَمُكَ ؟
كُلُّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ	لَيْسَ لِي مِنْهُ نَصِيبٌ
جَاهِدَ الْعَقْلُ جَهَادَةً	هُوَ أَمْ أَنْتَ الْمَصِيبُ
أَنَا مَا قَصَّرَ فِي بَحْرِيكَ هَذَا مِنْ مَضَائِي	
رُغْمَ أَنِّي لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِمَا خَلْفَ الْفَضَاءِ	
كَيْفَ إِبْلِيسُ السَّرَّاجِيمِ	قَالَ : لَا ، لِلْكَوْنِ هَذَا

ولمـاذا (أنا حتى الآن لا أدري لمـاذا) !!
 ليت شعري أنت حقاً أم أنا موضع سرّ
 أنا بالنسبة لي طوّختُ في خيرِي وشرّه
 يا أبا القاسم يا جبريلُ يا قرآنُ إنّي^(١)
 حلفُ سيرٍ فإليكم أيّها السّادة عنّي
 أيّنا يشرحُ ما في القول هذا من حلاوة
 أنا أم أنت الذي يَمْنُحُـهُ هـذا الطّـلاوة
 عطرُك اللهم في الإنسان ما زالَ ولونُك
 وبإشراقه هذا النّجم قد أشرقَ كونُك
 أنا من آدم فرغ وهو من صنّع يدَيك
 هل أساءت هذه الرّحلة في شيءٍ إليك

قد تألّفت فرزده ألقاً هذا العـذاز
 وأدم لي حكمتي في أسره ليلَ نهـاز
 خذ إلي أسرك قلبي فلقد طابَ التّـهـالُك
 أنا لا أرغبُ أن يُكشِفَ حُبّي وجمـالُك
 أنت كاللّـجّة لا ساحلَ لك وأنا الجدولُ لا لـجّة لي^(٢)
 قل لها تأخذني في حضنها وأغثنـي مرةً من ساحلي

(١) يريد الشاعر أن يقول : إنّ القلب السليم هو الذي لا يحول بينه وبين الله رسولٌ ولا ملك ، إنّه حتى القرآن الكريم ممكن أن لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .

(٢) المقصود ﴿ تَقَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] أنت أقرب إلي من حبل الوريد وأنا لا أرى شيئاً ، يا للفضيحة أنا كالجدول ، أيّاً كان ذلك الذي سيمر على ضفافه فإنه من غير أن يبذل كبير جهدٍ سيميز بين الحصى الخضراء والزرقاء .

أما أنت فكاللّـجّة ، حتى السماء إذا نظرت إليها قلن تجد أكثر من مرآة تعكس زرقتها .

إِنْ أَكُنْ قَوَّعَةً فَارْغَةً
أَنْتَ مَنْ يَجْعَلُ مِنْ هَذَا الْحَصَى
رَبِّ مَا قَدَّرْتَ لِي رَجْعَ الرِّبْعِ
فَعَسَى تَرْوِي بِهِ قُبْرَةً
مَعَ مَا أَرْهَقْنِي عِبَاءُ الْحَيَاةِ
سَتَرِي كَمْ تَوْبَةٍ فِي صَفْحَتِي
أَنَا قَدْ يَخْمَرُ وَجْهِي خَجَلًا
فَرَجَائِي عِنْدَمَا تَقْرُؤَهَا
أَعْرِفُ الْحَبَّ الَّذِي خَبَّأَتْهُ
أَنْتَ لَوْ تَجْعَلُهُ قُطْبًا لَهَا
أَرْحَمِ الْكَئَلِ الضَّعِيفِ
بَدَلًا مِنْ ذَا الرَّرْغِيفِ

(٤)

سَوَاءَ أَهَزَّتْكَ أَمْ لَمْ تَهْزَكْ
أَنَا وَقَحُّ لَسْتُ أَسْأَلُ عَدْلًا
سَمَاءً وَأَرْضٌ وَرِيحٌ غَضَابٌ
فَهَلْ لَكَ فِي الْخَلْقِ مِنْ فَرْحَةٍ
أَنَا الْعَطْرُ خِيْمَتُهُ وَرَدَّةٌ
وَبِالرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِ أَسْبَابِهَا
وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّنِي فِي السَّمَاءِ
رَضِيْتُ بِبُؤْسِي الَّذِي اخْتَرْتَهُ
خِلَا الرُّوْضِ مَا فِيهِ مِنْ أَجْمَةٍ
إِذَا كَانَ صِيَادُنَا مَاهِرًا
إِلَى عَالِمِ الْحُبِّ لَا تَسْتَطِيعُ

فَمَنْ الْمَسْئُولُ عَنْ هَذَا السُّلُوكِ ؟
جَوْهَرًا يُلْهَبُ تِيْجَانِ الْمُلُوكِ
فَاحْفَظِ اللَّهُمَّ هَذَا النَّفْسَا
ذَلِكَ الْغَصْنَ الَّذِي قَدْ يَسَا
مَعَ مَا أَخْرَجْتَنِي مِنْ جَنَّتِكَ
وَأَرَى كَمْ رَحْمَةٍ فِي صَفْحَتِكَ
حِينَ تَبْدُو صُحُفِي بَيْنَ يَدَيْكَ
أَنْنِي أَنْظُرُ يَا رَبِّي إِلَيْكَ
عَنْ قُلُوبِ سُمْتَهَا مِنْ ضَرَمِكَ
لَمْ تَطْفُفْ إِلَّا بِهِ فِي حَرَمِكَ
ضَاعَ فِي حَقْلِ وَيْدُرْ
أَعْطَاهُ قُوَّةَ حَيْدُرْ

شَكَاوِي أَطْلُبُ تُضْغِي إِلَيَّ
فِيَا طَالَمَا الْعَدْلُ يَبْغِي عَلَيَّ
وَكُلُّ عَلَى قَبْضَةٍ مِنْ تَرَابٍ
وَهَلْ هَذِهِ رَحْمَةٌ أَمْ عَذَابٌ
تَقَاوُمٌ رِيحًا بِسْتَانِكَ
إِلَى الْآنَ تَزْهَوُ بِأَلْوَانِكَ
وَضِيْعٌ وَأَكْثَرُ مِنْ مَزْدَرِي
وَأَنْشَأْتُ مَمْلَكَةً فِي الْعَرَا
فَتَاهَتُ عَلَيْهِ الْمَهَا وَالظُّبَاءُ
فَلَيْسَ يَصِيدُ بِهِذَا الْعَرَاءُ
وَصَوْلًا مَلَائِكَةً فِي السَّمَاءِ

ورائيه ليس تُعطى سوى
ومن أين تعرف معنى الوصال
سألتك تملأ روح الشباب
وتؤتي الشواهي عون الجناح
وأمنية العُمر هذي الجراح

(٥)

لمن لا يهابون سفك الدماء
إذا لم تنل من ضرام الهجر
بأنات إقبال هذا الفجر
لتنزل منزلها في القمم
تقسمها بين كل الأمم

نمط العيش هاهنا
أدرك الحسب أحمس
ففي لهيب انتظاره
ضاع عمري بلحظة
تربس من شرارة
هب له خلد روحه
وانظر الأرض عندما

أفقد الحسب بهجته
نفحة الموت جذوته
بذد العمر حُرقتة
أخذت منه زهرته
قاومت منه شغلته
وأدم فيسه سخطته
يهب الأرض نظرتة

(٦)

أنا أرجو ألا يقوم رمادي
ورجائي ألا يكون عذابي
ثم أرجو ألا أخور وأبكي
وعسى هذه المحافل ألا
ربما يذكر المسافر يوماً
فرجائي ألا يصير حنيناً
جعل الحسب من فؤادي بحراً
أنا أرجو ألا أفاجأ يوماً
ورجائي ألا أكون ببحتي

أبدأ هاهنا بتقويم قلبي
مثل يومي غداً أمامك ربي
وترى الحور لوعتي ونحيبي
ياخذوا أي فكرة عن لهبي
كل وخز راہ عبّر الطريق
ذلك الوخز في فؤادي الرقيق
لم أجد ساحلاً له في حياتي
وأرى ساحلي شعوري بذاتي
وهو بحثٌ بغير لونٍ ومنهج

كالذي ضاعَ عمرهُ خلفَ ليلَى يقتفي إثرَ هودجٍ بَعْدَ هودجٍ^(١)
 آدمُ الأرضِ في صعودٍ غريبٍ ولهذا النُّجوم طرّاً تمورُ
 ربما صارَ للسمواتِ بدرّاً ربما عادَ نجمُهُ المكسورُ
 مولاي سرُّك ماضٍ في عوالمه من عالمِ الطَّير حتَّى عالمِ السَّمَكِ
 ولستَ غيرَ صراخِ الفَجْرِ أملكهُ أنا بكونك كالغُصْفورِ في الشَّرَكِ

(١) في الأصل ص ٢٦٧ حرفياً (ملاحقة الهودج) .

إشارة إلى أسطورة : كان امرؤ القيس وهو شاعر عربي في القرن الأول قبل الهجرة . ذو شهرة واسعة وقع في حبِّ ليلَى ؟ عندما رآها فكان يلحق بكلٍ يعير يحمل هودجاً على أمل أن تكون فيه ، والعبارة تعني (كل ملاحقة نصر على تحقيق الغاية التي وضعها الإنسان لنفسه) .

وفي تأويلات أخرى أنَّ المجنون أرسل رسالة إلى حبيبته ليلَى ثم نفذ صبره فلحق بحامل الرسالة .

قال الأستاذ الملوحي : ونلاحظ في هذا التعليق جملة من الهفوات فحبيبة امرؤ القيس التي ذكر امرؤ القيس هودجها ليست ليلَى في قوله :

ولما دخلت الخدر خدر عنيزة . . . إلخ

قلت في ديوان الأسرار ص ٧٠ يعلق عزّام على البيت :

صدر عصري ما يقلب يؤهل نوح قيس حين يخلو المحمل
 قال : يبكي لخلوّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلوّ المحمل من ليلَى وقد يكون من ذلك قول المجنون :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحيّ غير نساها
 وفي البداية والنهاية حوادث سنة ٦٣١ هـ : كان السَّهروردي صاحب العوارف مرةً في مجلسه فكان يكرر هذا البيت :

ما في الصحاب أخو وجد تطارحه إلا محب له في الركب محبوب
 فقام شاب وكان في المجلس فأنشده :

كأنما يوسف في كل راحلة له وفي كل بيت منه يعقوب
 فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب فلم يجده ووجد مكانه حفرةً فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت .

أَيْهَـا السَّاقِي لَقَدْ قَامَ الْغَفَاة
 ذَرَّةٌ لَمْ تَخْلُ مِنْ عَاصِفَةٍ
 نُهَبَتْ خَيْرَاتُنَا أَجْمَعَهَا
 أَيُّ عَيْنٍ قَدْ أَصَابَتْ رَكْبَنَا
 فِتْنَةٌ فِي الْقَلْبِ قَدْ أَوْدَتْ بِنَا
 أَيْنَ فِي وَدْيَانِنَا الْمَاءُ الَّذِي
 لَمْ لَا يَنْطَلِقُ التَّوْقُ الَّذِي
 حُجِبَتْ غَطَّتْ عَيُونَ الْمُؤْمِنِينَ
 رَغِمَ أَنْ النَّهْرَ وَالْبَسْتَانَ فِي تَبْرِيزَ بَسْتَانَ وَنَهْرَ
 لَمْ يَزَالَا لَمْ تَقُمْ جَوْقَةٌ رُومِي مِنْ ذَهْرَ
 قَلَّ لَهَا إِنْ شُئْتَ هَذَا النَّهْرَ وَالْبَسْتَانَ قُومِي
 لَوْ تَرَى إِذْ رَقَصْتَ تَبْرِيزَ فِي حَضْرَةِ رُومِي
 أَيْهَـا السَّاقِي إِذَا الْمَاءُ هَطَلَ
 وَابِلًا يَا أَيْهَـا السَّاقِي فَطَلَ
 لَذَوِي الْكَدِيَّةِ أَسْرَارَ الْمُلُوكِ
 لَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ عَنْ هَذَا السَّلُوكِ
 لَيْسَ مِنْ طَغْرُلٍ أَوْ سَنْجَارٍ فِي بَيْتِي هَبْ
 رَغِمَ هَذَا مَا لَجْمَشِيدٍ عَلَى قَلْبِي قِيُودُ

أَلَا يَا أَيْهَـا السَّاقِي
 لَعَلِّي أَنْ أَرَى يَوْمًا
 لَمَّاذَا أَغْلَقْتُ أَبْوَابَهَا
 مِنْ الْكَاسَاتِ هَاتِيكَ
 مَكَانِي مِنْ مَعَانِيكَ
 الْحَانَاتِ فِي الْهَنْدِ

مضت هدرأ ثلاثُ قرونٍ بَعْدَ سقوطِ سرهندي^(١)
 مضت هدرأ ثلاثُ قرونٍ في حانٍ هَدَمناها
 ولم تتحَمَّلِ التُّدْمَانُ بُعْدَكَ أَيُّهَا السَّاقِي
 ذوت غزليتي لا شيءٍ والأشياء حَرَّمَهُ
 علينا بائع الأَهْوَتِ بَعْدَكَ أَيُّهَا السَّاقِي
 قلوبُ أسودنا في الغاب قد هَجَرَتْ تحقُّقَهَا
 مع الضُّوْفِيِّ والمَلَأَ عَيْدُ أَيُّهَا السَّاقِي
 من انتزعَ الحقيقةَ من مَهْنَد حَبْنَا هَذَا
 ومسا أبقَى لها إلا قَرَاباً أَيُّهَا السَّاقِي
 كلامُ القلبِ حينَ يكونُ حَيّاً خَمَرُنَا الباقِي
 وإلا كان للأرواحِ موتاً أَيُّهَا السَّاقِي
 أنا ليلٌ بلا قمرٍ وما لي هاهنا قَذُرُ
 ألا يا أَيُّهَا السَّاقِي بكأسك ذلك البدرُ
 بكأسك سرُّ ذِيَّكَ الشُّكُونِ وهذه الحُرْكَةُ
 فأينَ الماءُ ، ماذا كان رَدُّ الخضرِ لِلسَّمَكَةِ

(٩)

ساقِي ما حصل الذي أبغيه الذَّاتُ عالمها متى نلغيه
 القلبُ منشغلٌ بما عاطيته عَمَّنْ يغنيه ومنْ يَسْقِيهِ
 ذهبَتْ بجوقته كؤوسُك كُلُّهَا لم تبقِ إلا الصَّمْتُ في واديه

(١) إشارة إلى المصلح الكبير الإمام الزباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد
 السُّرهندي المتوفى سنة ١٠٣٤هـ ، ويذكره الشاعر في مناسبات عديدة في دواوينه
 المختلفة ، انظر للاطلاع على حياته وجهوده الإصلاحية الجزء الثالث من سلسلة
 العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي لكتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام »
 طبع دار ابن كثير بدمشق .

ما مثله متسوّلٌ في حانةٍ باللامبالاة التي ترويه^(١)
لو جاء ماءُ الخضرِ كسر كاسه ورثى لذي كلفٍ به يأتيه

ساقِيَّ والكأس الصغيرة لم تعد تكفي هلمَّ له بما يكفيه
فرغتِ دنانُ القومِ في أديارهم وأتيتُ أسألك الذي تخفيه
بصري على طمحٍ وقلبي جامحٌ فاسترُ إذا أحببتَ ما أنويه
غادرتُ لؤلؤتي التي أغرقتها في البحر تنعمُ من ضيائك فيه

نظراتُ هذا الشعرِ تسحرُ لبنا والحسنُ لا يحتاجُ للتنويه
تضفي على لونِ الشقائق رونقاً وتزيدها ألماً بما تضفيه

مرةً تبصرُ المحبَّ شريداً مرةً تبصرُ الملوكَ لديه
مرةً يقحمُ النُّزال عريّاً مرةً يحشدُ الدروع عليه

(١٠)

أحرقْتُ رغبتِي بلاهةً سُوقِ فأتتني ملوكُه تشتريها
لستُ أبتاعُ سكرةَ الملكِ غُبناً بعبوديتي التي أنا فيها
لا يليقُ الوجودُ هذا بحرٌ سرُّه يشتكي وجودك ذاكا
لم يجدْ هاهنا من الموتِ بداً أو مفسراً من الحياة هناك
لذةُ العشق من فراقٍ وهجرٍ فأتق الله أن تقولَ لماذا
ما ترددتُ أو تشردتُ يوماً أو تسكَّعتُ في طريقٍ كهذا
لا يملُّ الشَّاهين ما يرتجيه بين غابٍ يرودها وجبالٍ

(١) انظر : « حانة القلندرية في (منطق الطير) للعطار ص ٣٧١ ، طبع دار الأندلس .

ويرى في اتخاذه العُشَّ عاراً
من تُرى يَسَّر الذَّبِيح لبرُّ
كثرة الدَّرْسِ أم نباهة نفسٍ
سلوة الشرق حين يجرح شعري
جئتُ (آلوند) ^(١) مرةً بعد أخرى
ليس يحتاجُ زخرف القول معنى
ما استعارت يدُ الحديقة لونا

ناعمٌ بأله شديدُ المحالِ
بعدما كان تلَّه للجيينِ
إنَّ في ذاك آيةً للضَّنينِ
وضريحي لكلِّ طلعةٍ حرِّ
فغبارُ الطريق يعرفُ سرِّي
كيفما قلته سبيت الغواني
حين صاغت شقائق النُعمان

هو ذا الحبُّ مرةً إلفَ وادٍ
مرةً بالغياب يَشْقَى وأخرى
طالما ألهبَ المحاريبَ وجداً
مثله مثلُ الإمام عليّ

مرةً وحده يغني الجبالا
يملاً القلبَ غبطةً ووصالا
طالما أضلح المنابر بالآ
أخذ العلم كله والقتالا

(١١)

ألا يتذكَّـرُ يومَ اللقاء
وما قدَّسَ الحبُّ من بقعةٍ
ذوى الحبُّ في أنفـس العاشقين
وصرنا إلى زمنٍ ماله
يقولون أستاذنا آزرُ
هُمُ وثيُّون لا يعرفون
نعمُ همُ إلى الآن لم يعرفوا

وتاريخ لحظته الحاسمة
وأسيافَ نظرتـه القاسمة
ولم يبقَ منه سوى وسوسة
إلهٌ سوى صنمِ المدرسة
ولآن ما عرفوا رسمه
فمن فنَّ آزرَ إلا اسمـه
رشاقة فطرتـه البادئة

(١) آلوند : جبل في إيران جنوبي غرب طهران وهو بمثابة (رضوى) عند شعراء العرب
ومن هنا اختار عزّام أن يستبدل آلوند برضوى في ترجماته ومن الجدير بالذكر أن إقبال
نظم جناح جبريل على غرار رباعيات (بابا طاهر الهمداني) الذي يكثر في شعره ذكر
جبل آلوند وميمند .

تطوّح معبدهم في الرّياح
تعجّبت من عالم هكذا
هب الكرم رونقه يا كريم
وحانات إيران قد أجذبت
يظنون شعري لأجل الرّبيع
دمبي وغباري هما الجوهران
وأنت سفكت عليها دمي
بفضلك لا أشتكي الأصدقاء
وثوب الحياة التي خضتها
فهبني بسرّك ذوق الفناء
فلا الحزن ثبط من عزمهم
نعم ، عقد الفكر أطلقها
متى الحب تمنحني سرّه

ولم تبق زاوية هادئة
فلا هو عُش ولا هو قفص
فلم يبق في الدنّ إلا غصن
وهذي التي فجّرت عيننا
وما علموا ما الذي بيننا
اللذان يجيشان فيما تشيد
وخلد التألق أجر الشهيد
ولا أشتكي جور هذا الزمان
بفضلك أخلعه في أمان
كما فني السابقون الأول
ولا الخوف أقعدهم في الدّول
وخلّصتني من شياطينه
وتجعلني من مجانينه

(١٢)

يَهَبُ الشّقيق بلا حسابِ خمره
عجباً من الصّوفيّ يترك زُهدَه
الحبُّ يجعلُ حيثُ مدّ بِسَاطَه
يرثون شرفة أبرويز بمكرهم
هذي النّجومُ عتيقةٌ كسمائها
يا ليت شعري والقيامةُ أزلفتُ
مولاي عينك لو أدت لحاظها
أنا غبطتي عند الصّباح تنهّدي
لم لست مُهتَمّاً بهذا كلّهُ ؟
عيناك لامعتان إلا أنّها

فترى الكؤوس على مدى البستان
لأقلّ بارقة بهذا الحان
من طعمة المتسولين ملوكا
فتظنّ كان كمثلهم صُعلوكا
هل من نجومٍ غيرها وسماء
ما حظّها من هذه الضّوضاء
عني لحلّ الويل بي في لحظتي
حاشاك تحرمني وداعة غبطتي
ولو اهتممت جعلت منه يقينا
دلّت على عدم اكترائك فينا

أنا لا يلائمني ريح طافح
ويظن من خيلائه عن فرحة
قالت لي الحمقى تبدد شملنا
فأجبهم إن كان غير مناسب
حقاً أبو الحسن المحقق قال لي :
أتظن تبقى الشمس مشرقة إذا

بالزهر لم يُذكر مدى أحزاني
غنى له العصفور في البستان
فكن ابنَ عصرك أيها المجنون^(١)
فمن المناسب حربنا المكنون
الروح لا تفنى إذا فني الجسد
هي أنكرت هذا الشعاع إلى الأبد^(٢)

(١٣)

عدم اكتراثك لم يزل وشقائي
رباه أين أنا وأنت وإن يكن
ولك الوجود جميعه أم لي أنا
ما خضت إلا وقعةً نشبت به
ما خضت طوال العمر إلا وقعةً
بحرارة الرومي كنت أخوضها
ما أفلحت تلك العقاب وقد نمت
فلصقنا الملكي سرّاً واحداً
للحُب أغنية وما لغنائها
هي إن تكن أو لم تكن عربية

لم أستفد شيئاً بكل غنائي
هذا فضاؤك أنت أين فضائي ؟
والكون سخرك أم تموج ذاتي
في ساحها أنفقت كل حياتي
نشبت على لغز من الألفاظ
حيناً وحيناً باكتئاب الرّازي
وترعرعت بين النُور الكاسرة
لم تدره تلك العقاب الحائرة
لغة ، ولا تحتاج لالفاظ
فالسّر كل السّر في الألفاظ

(١) شاهد من سعدي شيرازي وهو حرفاً : انسجم مع الزمن .

(٢) في الأصل (أيمن أن تظل الشمس مشرقة لو أنكرت أشعتها) وفي الهامش أن الشمس هي الذات الكونية ، وأشعتها هي الذوات الفردية .

قلت : وقريب من هذا .

رباه ذاتك في سماء حياتنا شمس أشعتها ذوات الناس
وقريب من هذا قول شوقي في معارضته لعينية ابن سينا :

يا نفس مثل الشمس أنت أشعة في عامر وأشعة في بلقع
فلذا طوى الله النهار تراجع شتى الأشعة والتقت في المرجع

ما بين دروشة ولا ملكية
كلتاها تغزو الوجود فهذه
البعض قد ترك الركاب لغيرها
لو أتقن الحادي مقاماً واحداً
الفكر حتى بالفضيلة لم يعد
والقلب حتى بالتجارب كافر
فإلى متى هذا النفور يقودنا
الله يعلم ما رأت نفسي التي

(١٤)

فرق إذا صلحت أمور الذات
بيد الجنود وتلك بالنظرات
والبعض يكتنم جرحه ويعاني
لم يرغبوا عنه لحاد ثان
يرضى بقول القلب في تفسيرها
ويرد قول الفكر في تقريرها
وإلى متى تجتاحني أنفاسي
أقسو عليها رحمة بالناس

أنا لا يبدو مجالي هاهنا
وأرى اللعبة من ماء وطين
أي عين هاهنا ما افتنت
تربت من أعين كانت ترى
كم لنا قافلة مرهقة
إن هذا المشتري والنييرين
هذه الأرض وهاتيك السماء
قفزة واحدة من عاشق
أنت إن حاولت كتمان الهوى
صرخة الحب التي تملكني
رغم ما تطلقه من حيرة
هي عندي وكما أعرفها

إن تكن رباً فيعني عندنا
وجع في الرأس لا يتركه

صرت تهتم بأرضي وسماء
لهناء في صباح ومساء

أَسْتَمِيحُ الْعُذْرَ إِمَّا إِنْ تَكُنْ مَخْضَ إِنْسَانٍ عَلَى هَذَا الْوَهَادُ
فَهُوَ لَا يَعْنِي (تَمَاماً) عِنْدَنَا وَجَعاً فِي الرَّأْسِ ، لَكِنْ فِي الْفَوَادُ

(١٥)

وَاضِحٌ قَوْلِي ، وَفِكْرِي نَيِّرُ رَغِمَ أَنِّي حَافِلٌ بِالْحَيَرِ
طَيْتَنِي هَذَا الَّتِي أَمْلِكُهَا كُلُّ مَا أَعْرِفُهُ عَنْ قَدْرِي
لَيْسَ عِنْدِي غَيْرَ شَيْءٍ وَاحِدٍ أَنَا أَمْ أَنْتَ الَّذِي يَمْلِكُهُ ؟
أَنْتَ لَوْ مَكَّنْتَنِي مِنْ صَوْنِهِ عَنْ زَمَانِي لَمْ أَكُنْ أَهْتِكُهُ
كَيْفَ لَا تُعَرِّبُ عَنِّي صِرْخَتِي كَيْفَ لَا تَمْلَأُ أَرْجَاءَ السَّمَاءِ
أَنَا غَنِّيْتُ كَمَا عَلَّمْتَنِي أَنَا أَمْ أَنْتَ الَّذِي صَاغَ الْغِنَاءُ ؟ !
خَطأً إِنْ كَانَ فِي تَصْمِيمِنَا مَا الَّذِي يَدْعُو إِلَى تَكَرَّارِهِ
ذَلِكَ الْإِنْسَانُ مَا قِيمَتُهُ وَمَتَى يَخْرُجُ مِنْ فُخَّارِهِ
رَغِمَ أَنَّ الْغَرْبَ مَا عَلَّمْنِي مِنْ جَمِيعِ الْعِلْمِ غَيْرَ الثَّرَاهَاتِ
فَأَنَا يَوْسُفَنِي (الْمَلَأَ) الَّذِي صَارَ لِلْإِسْلَامِ عَاراً فِي الْحَيَاةِ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ^(١) يَا نَوْرَ السَّمَاءِ كَيْفَ لَا تَشْرِقُ فِي أَرْضِ الْبَشَرِ
أَنْتَ سُلْطَانُ اللَّيَالِي لَا كَمَا قَالَتِ الْحَمَقَى أَسِيرٌ لِلْقَدَرِ
إِنَّ أَصْنَامِي الَّتِي فِي مَعْبَدِي مِثْلُهَا تِلْكَ الَّتِي فِي مَعْبَدِكَ
لَمْ تَحْطُمْهَا يَدٌ غَيْرُ يَدِي فَتَرْفَعُ عَنْ يَدٍ غَيْرِ يَدِكَ
ذَلِكَ الْأَعْمَى الَّذِي تَقْصِدُهُ مَا لَهُ عِلْمٌ بِمَا فِي قَلْبِكَ
هُوَ لَا يَبْصُرُ حَتَّى نَفْسَهُ وَتَرَاهُ تَحْفَةً مِنْ رَبِّكَ

(١) في ترجمة النشر للأستاذ الملوحي « يا أنت ! وقد اختلف النقاد في تحديد المنادى »
ص ٩٨ .

ربّاه هذا الشُّوق ينبضُ روعةً
بالرَّغم من هذا فأرخصُ سلعةً
ملكَ المرابون البلادَ جميعها
والناسُ يعتقدون رَغم شقائهم
لم تمنح العلماءَ حتى قشةً
والإنكليز وهم عبادٌ مثلنا
ملئت كنائسهم بكلِّ ملذّةٍ
هل في مساجدنا بكلِّ بلادنا
قرآنك الحقُّ المبين وإن يكن
لو يرغبون برأيهم أن يجعلوا
فردوسك اللهم لم يره هنا
الإنكليز بلادهم فردوسهم
ما زال فكري في سمائك حائماً
تأبى عليّ ملائكةُ فطرتي
لك ذلك الدُّرويش جرح نفسه
لا في سمرقند ولا دلهي ولا
أنا لستُ مسكيناً ولستُ مراوغاً
غضبت عليّ الأصدقاء جميعهم
لم أستطع أبداً أسمي سُمهم

ويروجُ حتى في ابتياع الدّاء
عند الشراء مواهبُ العلماء
وتقامروا حتّى على الأديانِ
لإنكليز بمطلق السُّلطانِ
وجعلتهم أخلقى العبادِ وفاضاً
يُغطون أبناء الحمير رياضاً
فهنا اللحومُ وهاهنا الكاساتُ
إلا المواعظُ تلك والصلواتُ^(١)
قاسى كلامَ مفسّريه وعانى
القرآن (بازند المجوس)^(٢) لكان
أحدٌ وأنتَ هو السَّميعُ المُبصرُ
والمسلمون إلى سمائك تنظرو
فاسجنه في فلكٍ من الأفلاكِ
أن أستمراً بهذه الأشراكِ
حاشا تكون لقلبه جهتانِ
في أصبهانَ له مقامٌ ثانٍ
والحقُّ : أرفضُ غيرَ نفسي شاهداً
والحقُّ لا يبقى صديقاً واحداً
حلوى وأعرفُ أنّه قتالُ

(١) المقصود اللادنيوية التي مُني بها المسلمون واللا دينية التي انتهى إليها الغرب ، فليس في كنائسه إلا دنيا ، وليس في دنيا المسلمين إلا مساجد .

(٢) البازند : شرح ترجمة معدلة لكتاب زرادشت (رافستا) ويُشير الشاعر إلى عناصر في هذا الدين مثل الثنوية وارتكاب المحارم (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(دومند) عندي لا يسمّى صخرة
لما قُذِفَتْ لِنَارِ نَمْرُودِ أَتَى
وصمْتُ لَمَّا قَالَ : هل لك حاجة
رَبَّاهُ ! إني أَتَعَبْتُني حيرتي
الحسنُ من حولي يشيع وصاله
سكرانُ مغتبطُ السَّجِيَّةِ منتشٍ
يا ليت شعري كيف يُخَرِّمُ برعمُ
لم يستطع إقبالُ يَكتُمُ جرحه
من سوف يُسَكِّتُ ذلك الوَقَحَ الذي
وعليه من قُلُوبِ الجِبَالِ جِبَالُ
جبريلُ يسألني فلم أَتَكَلَّمْ
أنا مسلمٌ أنا لستُ حبة شيلم
ما عاد يمكن أن أغضَّ عيوني
والحُبُّ في صدري يذيع فتوني
بالفقر فرحانُ الفؤاد بهيجُهُ
من رغبةٍ في الابتسام تهيجُهُ
حتَّى أمام الله قام وقال
لم يبق للمتجملين جمالا

القسم الثاني

علق إقبال على هذه القصيدة بقوله :

تفضّل جلالة السلطان نادر شاه - الذي استشهد بعد ذلك - بدعوتي فاغتنمتُ
زيارة ضريح الفيلسوف السنائي الغزنوي في شهر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٣م
وقد نظمتُ هذه التأمُّلات على نمط قصيدة مشهورة لهذا الفيلسوف^(١) ذكرى
لهذا اليوم السعيد :

« إِنَّا نسير على خُطَى السنائي والعطار »^(٢) .

(١) القصيدة نمط من الشعر العربي اقتبسه الفرس ، ويتّجه إلى مدح شخصية ما ، أو إلى
تجسيد عقيدة عند أهل التصوّف كالسنائي (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .
(٢) الشطر الثاني من بيت لمولانا جلال الدين الرومي .

لَمْ تَقْوِ صَحْرَاءَ الطَّبِيعَةِ هَذِهِ
لَوْلَا الْجَنُونَُ أَسَاءَ فِي تَقْدِيرِهَا
بِالذَّاتِ يُمْكِنُ أَنْ نَكْشُرَ سِخْرَ مَا
لَا أَنْتَ تَمْلِكُ فِي الْحَيَاةِ وَلَا أَنَا
صُورُ الْوُجُودِ تَمُوجُ نُضَبَ عَيُونِنَا
لَوْ يَسْتَطِيعُ الْبَحْرُ يَتْرُكُ مَوْجَهُ
بَيْنَ الْمُحَقِّقِ وَالْفَقِيهِ خَصُومَةً
لَمَّا رُئِيَ الْحَلَّاجُ فَوْقَ صَلِيبِهِ
مَا بَيْنَ مِئْبَرٍ ذَا وَبَيْنَ صَلِيبٍ ذَا

رَجُلُ الْبَصِيرَةِ لَا يَذُوقُ هَوَانَا
يَخْتَالُ وَالذَّرْعُ الْوَحِيدَةُ زَهْدُهُ
جَبْرِيلُ دَعَنِي فِي الْحَيَاةِ وَسَكْرَتِي
أَنَا إِنْ تَبِعْتُ خُطَاكَ خَنْتُ خِلَافَتِي
سَفَكَ الدِّمَاءَ رِسَالَةً مَذْمُومَةً
أَهْلُ السَّمَاءِ صَلَاحُهُمْ فِي أَنَّهُمْ
كَمْ ذَا ذَهَبَتْ مُشْرِقًا وَمُغْرِبًا
فَهِنَا كُؤُوسٌ لَا مَذَاقَ لَخْمَرِهَا
طُورَانُ مِنْ إِيرَانَ تَأْخُذُ ثَارَهَا
ذَهَبَ الدَّرَاوِيشُ الَّذِينَ عَهْدَتَهُمْ
وَبَقِيَتْ فِي حَرَمٍ يَتَاجَرُ شَيْخُهُ
لَمَّا اشْتَكَى لِلَّهِ إِسْرَافِيلُ مِنْ
هَذَا الْفَتَى قَبْلَ الْأَوَانِ يَرِيدُ أَنْ
فَأَجَابَهُ صَوْتُ : أَلَيْسَ أَشَدَّ مِنْ

لَمَّا جَنَنْتُ عَلَى احْتَوَاءِ جَنُونِي
لَمْ آتْهَا بِمَخَافَتِي وَظُنُونِي
بَعَثَتْهُ مِنْ عَطْرِ وَمِنْ تَلْوِينِ
أَسْرَارَ وَحْدَانِيَةِ التَّكْوِينِ !
فَامْلَأْ عَيُونَكَ مَا مَلَأَتْ عَيُونِي
الْقَى بِمَوْجِ الظَّنِّ بَحْرُ يَقِينِي
عَصَفَتْ بِمِئْبَرٍ ذَلِكَ الْمُسْكِينِ
كَسَرَ الصَّلِيبَ تَعْصِبًا لِلدِّينِ
لَمْ أَلْقَ غَيْرَ خَصُومَةٍ مِنْ طِينِ

سَيِّانَ عَبْدًا كَانَ أَوْ سُلْطَانَا
لَا يَشْتَكِي زَمَنًا وَلَا شَيْطَانَا
لَا أَنْتَ أَسْتَازِي وَلَا أَنَا عَبْدُكَ
شَتَّانَ وَجَدِي فِي السَّمَاءِ وَوَجْدُكَ
لَكِنَّهَا فِي الْأَرْضِ أَقْدَسُ فَرْضِ
يَسْتَغْفِرُونَ بِهَا لِمَنْ فِي الْأَرْضِ
أَتَفَحَّصُ الْحَانَاتِ فِي الْآفَاقِ
وَهَنَّاكَ خَمْرٌ مَا لَهَا مِنْ سَاقِ
وَبِلَاطُ قَيْصَرٍ مِنْ دِمَائِهِمَا نَدِي
لَا يَأْبَهُونَ لَصَارِمٍ وَمَهْنَدِ
بُوشَاحِ فَاطِمَةٍ وَمَصْحَفِ أَحْمَدِ
شَكُوَايَ قَالَ - بِحَرْقَةٍ وَتَنْهَدِ - :
يَنْهِي الْوُجُودَ بِشِغْرِهِ الْمَتَمَرِّدِ
هَذَا النِّهَايَةِ مَا تَرَى يَا سَيِّدِي

إِحْرَامُ أَهْلِ الصَّيْنِ دَاخِلَ سِدِّهَا وَرَقُودُ مَكَّةَ فِي جَوَارِ مُحَمَّدٍ

مِنْ (لَا إِلَهَ) لَنَا
وَكُـسُـوُوس (إِلَّا اللَّهُ)
الْكُـأَسُ طَافِحَةٌ
وَالْكُـأَسُ فِي الْإِثْبَاتِ
الْعَازِفُ الْمَوْهَوْبُ
نَبْكِي بِـلَا صَوْتِ
عَجَبًا لِأُورْبَّةِ
وَبِذَاتِ لَجَّتْهُ
تُخْفِي بِهَدَاتِهَا
عَصَفَتْ فَمَا تَسْرُكَتْ
رَأْيُ الْعَبِيدِ بِهَا
وَتَقَرُّرُ الْأَحْرَارِ
لَا شَيْءَ يُقْنَعُنَا
يَأْتِي بِلَوْلَةٍ
ذَاكَ الرَّجْجُاجُ إِذَا
فَأَنَّا أَسْوِيَّه
لِي فِي الْجَهَادِ يَدُ
بِضَاءٍ مَا مُدَّتْ
أَتَظُنُّ أَوْرَبَّةَ
أَوْ تَنْطَفِئِي نَارِي
نَارِي وَقَدْ أَذْكَتْ
لَا شَيْءَ يَمْنَعُهَا

كُـأَسُ يَمْنِينَا
كُـسْرَتْ بِأَيْدِينَا
بِالنَّفْيِ فِي الْأَرْوَاحِ
تَبْكِي ذَهَابَ الرِّاحِ
بِالْعَزْفِ أَخْرَسْنَا
وَنَخْوَنُ أَنْفُسَنَا
بِالنَّهْرِ تُغْرِينَا
ضَاعَتْ مَعَانِينَا
تَيَّارَهَا الْمَاحِي
وَكُـرَّراً لَتَمْسُحَ
لَا نَطْمِئِنُّ لَه
الرَّأْيِ مَجْمَلَه
إِلَّا اجْتَهَادُ وَفِي
مِنْ ذَلِكَ الصَّدْفِ
عَجَّتْهُ فِي الْكِيرِ
صَخْرًا بِإِكْسِيرِي
فِرْعَوْنُ يَخْشَاهَا
إِلَّا لِمَوْلَاهَا
أَنْ يَنْتَهِي نَفْسِي
فِي قَشَّهَا الْيَبِيسِ
مَا اخْضَرَّ مِنْ قَصْبِي
مِنْ ذَلِكَ الْخَطْبِ

متفاهم قلبى
الحب علمه
من عسر عالمه
لا قضر قصره
متعلق أبداً
لا غزو لأقمار
هو سيد الأشياء
هو شغل الساري
هو مركب من نور
أعطى جنون الطور
هو أول الميـدان
فى أعين السكران
هو رحمة القرآن
هو سـيـدي ياسين
أقلعت عن غوصي
لولا (سنائي) ما
لولا عن بحري
فلألي فيه

لا يعرف اليأس
أن يُزغم النفس
يستخرج الشرا
يرجو ولا كسرى
بركاب سيده
يسقطن في يده
هو خاتم الرسل
فى هذه السبل
يمشي أمام الركب
لغار هذا الدرب
هو آخر الدرب
من نشوة الحب
للناس أعطاهما
هو مالكي طه
وتركت أحمالا
أقلعت إجلا
لولا ما جلت
أضعاف ما قلت

(٢)

الشاعر الفرخ الحزين معاً أنا
أوتيت ملكهما بوجه معذبي
والزهد من شيم الملوك فإن تجد

حذر الحكيم أشوبه بجنونه
ورميت بالاثنين حول عيونه
ذا الفقر فيه فمن عظيم فتونه

زهدُ الملوك كأبرويز محبةً
وكهدأة الأسد المقيم كما يُرى
لا قعدة الصوفي مُنهدِم القُوى
ما قول سادتنا الدراويش التي
هو من رجال الله إلا أنه
رجلٌ تنيرُ طريقه شطحائه
ملكٌ أماراتُ الجنون بوجهه
تيمورُ أو جنكيزُ كان كلاهما
شعري بفارس والعراق محيّرُ
الكافرُ الهندي^(٢) يذبحُ دونما

ألقى ممالكه إلى شيرينه^(١)
ما بين مَخْلِبِه وبين عرينه
من فقد دُنياه وضيعه دينه
سمعت لآهات ابنها وأنيته
سيثِرُ عاصفة النُشور بطينه
حيّ كمثل البرق بين شؤونه
والعبدُ يفضحه غباءً سكونه
ملكاً وخدش الله فوق جبينه
طربوا له وتحيروا لشجونه
سيفٍ ولا رمحٍ فَمَنْ لجنونه

(٣)

روعة السرّ التي أعطيتها
إنّ أنفاسي التي أحدو بها
لستُ آتي النجم كي أسأله
هو لا يعرف من أين أتى
ما حياة الناس إلا سكرة
لا تُضغُ عمرُك في تفسيرها

والتي مكّنتني منها الجنونُ
أخذتُ من صدر جبريل الأمين
عن مصيري هاهنا كيف يكونُ
في رحاب الكون منبوءٌ مهينُ
وهي في اليقظة أو في الحلمِ
كثرة الحيرة موتُ الهِمَمِ

فرحي تفجّر من قدامي إلى رأسي

(١) يمكن أن يكون في هذا إشارة إلى قصر « دربند عجم » الذي بناه أبرويز لمعشوقته شيرين رمزاً لحبه كالملك المغولي شاهجهان الذي بنى « تاج محل » في القرن الخامس عشر الميلادي رمزاً لحبه لزوجته « ممتاز محل » .
(٢) انظر من تلقب من الشعراء بالكفري (مكتوبات الإمام الربّاني الجزء الأول ، ص ٣٢) .

والقـــومُ تطلـــب أن
ما سرُّ قلبي ؟ آه
وسمـــو نظـــرتـــه
لا أرتضـــي بـــدلاً
بكنـــوز قـــارون
معـــراجُ ســـيدنا
بـــدت الســـماء بـــه
لابـــدَّ يُذهـــبنا
فـــوجدنا هـــذا
فـــي كـــلِّ آونـــة
يلغـــي خـــرافات
ألـــهتـــك أوربـــة
إئـــاك أن تـــرضـــي
لا تـــرك الرُّومـــي^(١)
فـــدواؤك الشـــافـــي

أنســـل من نفســـي
لضمـــيره العـــذب
فـــي سكرة الحـــب
عـــن قلبي المـــجنون
وعـــوم أفلاطـــون
علمٌ عـــظيمُ الشـــان
فـــي عـــالم الإنـــسان
ما كان يُختمـــل
ما زال يُكتمـــل
نُصغـــي إلـــى إعـــلان
مـــن سالف الأزمان
بالســـحر عـــن ذاتـــك
عـــن كـــسر مرآتـــك
ولـــهب حـــرقـــه
فـــي نارِ نظـــرتـــه

(١) يرى إقبال أنَّ المراحل المختلفة للخبرات الداخلية ترتبط بأحوال مختلفة من الوعي الذاتي ، وبالتالي فالخبرات الداخلية التي نجدها في الأدب الديني العالمي مهما كانت مغلفة في مفاهيم سيكولوجية متقدمة فإنها لا تركز على وهم ، وإنما تحمل قيمة معرفية كاملة .

والظاهر : أنَّ العلم الحديث ما زال لا يملك الأدوات التي يستطيع بمقتضاها أن يحلِّل بدرجة مناسبة مضمون هذه الخبرات الصوفية .

ويريد إقبال بتمجيده للرومي أن يعرب عن سخطه على الفلسفة المجردة داعياً إلى الفلسفة التجريدية التي تجلت عند الرُّومي في مبدأ العشق العيني المشار إليه في قول الرومي : ليس الحرام تنظر إلى وجه الحبيب ، وإنما الحرام أن لا يكون لك حبيب تنظر إليه « انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ فصل إقبال والرومي » .

أَوْ مَا اسْتَعَذَّتْ بِهِ
إِيَّاكَ كُنْتَ تَرَى

مَا ضَاعَ مِنْ نَفْسِكَ
جِيحُونَ فِي كَأْسِكَ

(٤)

أَلَا يَا عَالِمًا فِي الْمَاءِ
ظَاهِرَ ذَلِكَ السَّرِّ
وَهَذَا اللَّيْلُ فِي حَزْنٍ
وَلَحْنٍ مُؤَذِّنُ الْفَجْرِ
نَشَاطِ الدَّهْرِ يَطْلُبُ مَنْ
وَيَحْمِلُ عِبْئَهُ يَجْرِي
غِبَارُ نَحْنِ يَا أَعْمَى
فَحَقْلُ الْكَوْنِ لَا أَدْرِي

بَيْنَ الثُّرْبِ وَالْأَهْوَاءِ
أَنَا أَبْدِيهِ أَمْ أَنْتِ
وَحَرَقْتُهُ وَحِيرْتُهُ
أَنَا أَعْطِيهِ أَمْ أَنْتِ
أَنَا أَمْ أَنْتِ يَثْقُلُهُ
أَنَا أَغْرِيهِ أَمْ أَنْتِ
وَلَكِنِّي أَعْيِي ذَاتِي
أَنَا أَسْقِيهِ أَمْ أَنْتِ

(٥)

كَمَا أَنْتَ لَا تَكْتَرُثُ لِلْسِّنِينَ
كَمَا أَنْتَ لَا تُضْغِ لِلْقَائِلِينَ
تَعَالَى جِهَادُ النَّزِيهِ الْغَيُورِ
وَجَائِزَةُ الْحَرِّ غَيْرُ الْخَمُورِ
عَلَى الطَّغَمِ يَسْقُطُ مَنْ لَا يَطِيرُ
إِذَا سَلَبَ الْغَرْبُ قَلْبَ الْغَرِيرِ
عَصَاكَ تُصَدِّعُ صُفْمَ الْجِبَالِ
فَدَغُ تَرْفِ الْغَمْدِ مَا لِلْهَلَالِ
إِمَامُكَ يَفْقَدُ مَعْنَى الْخَشُوعِ
أَمْثَلُكَ يَرْضَى بِهَذَا الْخُنُوعِ

وَسِرُّ فِي طَرِيقِكَ نَحْوَ الْأُمَامِ
فَلَسْتَ لِنَجْدٍ وَمَصْرِ وَشَامِ
تَعَالَى يَكُونُ لَنَيْلِ الْخُطَامِ
وَغَيْرُ الْغَوَانِي وَغَيْرُ الْخِيَامِ
وَمَنْ لَا يَحْلُقُ فَوْقَ الْغَمَامِ
فَسِرُّكَ يَغْزُو مَصِيرَ الْأَنَامِ
وَتَعْرِفُ سَيْنَاءَ صِدْقِ الْكَلَامِ
عَلَى فَخْرِهِ غَيْرُ شَكْلِ الْحَسَامِ
وَيَنْقُضُ نَجْوَاكَ عَرُّ الْقِيَامِ
وَتِلْكَ الصَّلَاةُ وَذَاكَ الْإِمَامِ

نسيبُ جبريلَ معصومٍ من الرّيبِ وحكمةُ الذّوقِ تعلو حكمةَ الكُتبِ
 كم كانَ مِنْ سفنٍ للقومِ أغرقها سلّمُ التّصوفِ واللاهوتِ والأدبِ
 كنْ ثاقِبَ العينِ في قلبِ الأسودِ لها جرحٌ فما لثغَاءُ الشّاةِ مِنْ عَتَبِ
 جسَّ الطّيبُ بقلبي ما أكابِدُهُ فقال : ويحك ما تخفيه مِنْ طلبِ
 تطلعاتك لا طاقاتُ تحملها لكن (لك الحقُّ) لا تيأس من السّببِ
 وما يُسمّى صفاء الرّوحِ أعرفه وليس هذ الذي في قلبك اللّجبِ
 هذا الدّمُ القِرْمِزِيُّ اللونِ (نَضْرَتُهُ) تدلُّ أنّك لم تشربْ شرابَ غبي

(٧)

لشقائق النعمان قنديلٌ على الآكام يشرقُ من جديد^(١)
 ويحشّني العصفورُ في البستان ، يرغب أن أجدّد في النّشيد
 الحورُ صفّاً بعد صفّاً والزّهورُ مبعثرة
 ضجّ الجميعُ ولا أظنُّ جميعاً هذا ثرثرة

(١) يبدو أنّ القصيدة ستكون غامضةً إذا تُركت بغير تعليق للرّموز التي طفحت بها والتي تعطيك فكرةً بشرحها عن طبيعة شعر إقبال وما فيه من رمزية مغرقة ، وتستطيع أن تأخذ فكرةً واضحةً عن ذلك إذا تأملت ما هُمّش به جناح جبريل - الأصل - من اختلاف النقاد في فهم كثير من شعر إقبال .

يشير إقبال في هذه القصيدة إلى أنّ الحضارة قد دخلت في طورٍ جديد ، وهي بحاجة إلى ديانة تناسبها ، وهذه الناس الذاهبة هنا وهناك تبحث عن شيء ، وهاهي الذوات بدأت تستقل ، كلّ واحد معتصمٌ بذاته وهذا سيجعل تلك الديانة أكثر جمالاً ؛ لأنّ الديانة الحقّة إذا نزلت على الفطرة الحرة كانت كمثّل لؤلؤة النّدى على الزهرة الحمراء . سيتألق البستان ، وغاية الفطرة هذه هي الجمال كله ، ولا يمكن لهؤلاء الذين أصبحت نفوسهم كالمدن في تعقيدها إزاء صفاء الفطرة لا يمكن لهم أن يفهموا كلّ هذا ؛ لأن هذه الزحمة في نفوسهم ستحول بينهم وبين تجلّي القصة في ثوبها الجديد ، ويختم إقبال رموزه بإشارات لا تحتاج إلى تعليق .

الثُّوبُ أَضْفَرُ أَضْفَرُ والثُّوبُ أَزْرَقُ أَزْرَقُ
 والقِرْمِزِيَّةُ قِرْمِزِيَّةُ والتَفْرِدُ مُطْلَقُ
 الْقِي نَسِيمُ الصُّبْحِ لَوْلَوْهُ عَلَى تَاجِ الرُّهُورِ
 وَالشَّمْسُ نَوَّرَتِ النَّدَى لتَزِيدَ مِنَ الْقِي الْعُطُورِ
 مِنْ هَذِهِ الْغَابَاتِ قَامَ الْحَسَنُ يَبْدَأُ رَقْصَتَهُ
 فِي هَذِهِ الْغَابَاتِ لَا فِي الْمُذْنِ نَفْهَمُ قَصَّتَهُ
 اغْرَقَ بَذَاتِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَشَطُّ بِحْرِكَ فِي حَيَاتِكَ
 إِنْ كَانَ يَزْعُجُكَ انْتِسَابِي فَاَنْتَسِبْ لِحِمَالِ ذَاتِكَ
 مَا عَالَمُ الْقَلْبِ ؟ الْمَحَبَّةُ وَالْمَرْوَةُ وَالْحِمَاسَةُ
 مَا عَالَمُ الْجَسَدِ ؟ التَّجَارَةُ وَالتَّمَلُّقُ وَالسِّيَاسَةُ
 يَا أَنْتَ أَنْتَ إِذَا وَجَدْتَ غِنَى الْفَوَادِ فَلَنْ تُرَاعَ
 أَمَا غِنَى الْأَجْسَادِ فَهُوَ وَكُلُّ مَا فِيهِ ضِيَاعُ
 وَإِذَا وَجَدْتَ الْقَلْبَ ثُمَّ أَضَعْتَهُ فَالْحَقُّ أَنَّكَ مَا وَجَدْتَهُ
 وَالْحَقُّ : أَنَّكَ ضَائِعُ الْخُطَوَاتِ مِنْ وَهْمِ تُصَدِّقُ مَا ظَنَنْتَهُ
 لِإِنْكِلِيلِ سَيَادَةٍ فِي غَيْرِ قَلْبِ الْمُسْلِمِ
 مَا فِيهِ تَأْوِيلَاتُ شَيْخٍ أَوْ مَسَائِلُ بِرْهَمِي
 لَوْ كُنْتَ تَسْمَعُ لِلْقَلْبِ حِينَ قَالَ وَحِينَ جَلَّلَنِي حَيَاءُ
 لِمَا انْحَنَيْتَ أَمَامَ غَيْرِكَ صَرْتَ مِنْ جَسَدٍ وَمِنْ قَلْبٍ هَبَاءُ

(٨)

دَمُ الْمُسْلِمِ النُّورُ فِي دَرْبِهِ وَمَوْهَبَةُ السُّحْرِ فِي قَلْبِهِ
 وَيَعْتَرِفُ الْعَصْرُ أَنَّ الْجَمَالَ صَبَا وَتَرَعْرَعَ فِي شَعْبِهِ
 وَلَوْ لَا مَدَارِسُ هَذَا الشُّيُوخِ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرَهْبَانُهَا
 لَرَوَى الْمَدِينَةَ مِمَّا ارْتَوَاهُ وَأُورِقَ بِالْحَبِّ بَسْتَانُهَا
 صَغَارُ الشَّوَاهِينِ مَا ذَنْبُهَا هُمْ عَلَمُوهَا عِنَاقُ الْغَبَارِ

هُم قتلوا القلبَ في صدرها هُم أبدلوها بهذا الشَّنار
 ترى النشأ يملأ وجه الطريق بروحاتِ نسرٍ وغدواتِ باز
 ومفتي المدينةِ وادٍ سحيق يضجُ بمصطلحاتِ الحجاز
 أنا لستُ أفهمُ هذي الكؤوس ويؤسفني مثلُ هذا اللجاج
 ومن كان يحسنُ نختَ الصُّخور ترفعُ عن أن يَصوغَ الرُّجاج
 يقولون إقبالُ ماذا يريدُ ومن أين جاء بهذا السُّلوك
 سألتُ الدِّراويشَ عن سرِّها وألقيته في وجوه الملوك

(٩)

هو الحبُّ يمضي حِيالَ الحياة يغني نسيدهُ الحانِه
 ويرسلُها في وجوه التُّراب ويمنحُها بعضُ ألوانِه
 يُغلِّغِل في الأرض أوتارَه ويملاً هيكلَ إنسانِه
 كما يَتَغَلَّغِلُ لِين النِّسيم بسيقانِ زهر وقطبانِه
 إذا المرءُ لم يَذرِ ما رُبُّه تحوّل عبداً لسلطانِه
 ومن طلبَ اللهَ لا مِن سواه وأدركَ قيمةَ عِزِّفانِه
 تحوّل (داراً) له طالباً و (جمشيدُ) من بعضِ نُدْمانِه
 يجاهدُ للقلبِ حرَّ الجهاد وللبطنِ صعلوكُ أوطانِه
 وذاك يحصِّلُ سرَّ الخلود وهذا يموتُ بميدانِه
 تمعَّن بقلبِكَ واستشفيهِ ولا تسألِ الشَّيخَ عن شأنِه
 خلا حَرَمُ الله من أهله فكن أنتَ جَذوةَ أركانِه

(١٠)

القلبُ يَنْقُصُ الهوى والعَيْنُ يَنْقُصُها الصِّفاء
 من لم يُغَامِرْ مثملاً غامرُتْ تدهشه السَّماء
 ما سرُّ طينتك التي ذوقُ التَّجَلُّي نقشُها

أَتَضَيِّعُ فِي وَهْمِ الْحَيَاةِ وَأَنْتَ قَلْبَكَ عَرْشَهَا
 حَاشَا لِأُورُوبَةِ النَّبِيِّ جَفَّتْ دُمُوعُ عَيُونِهَا
 حَاشَا تَنْيِرُ بَقْطَرَةٍ مُلْثَتْ بِلَيْلِ ظَنُونِهَا
 هَلْ يَعْرِفُ الصُّوفِيُّ وَالْمَلَأَ حَقِيقَةَ جَذْبَتِي
 ضُنُّوا بِكُلِّ ثِيَابِهِمْ وَأَنَا أَمْرُقُ جَبَّتِي
 مَا مَرَّقَا يَوْمًا وَلَا حَشَوَا وَلَا طَرَفَ الرِّدَاءِ
 فَاعْجَبْ لَصُوفِيٍّ وَمَلَأَ يَلْجئونَكَ لِلرِّيَاءِ
 حَتَّى مَتَى يَا طَيْتِي تَتَوَسَّلِينَ إِلَى النُّجُومِ^(١)
 كَانَتْ نَجُومًا ثُمَّ ضَاعَتْ خَلْفَ أَوْهَامِ الْعِلُومِ
 إِمَّا أَكْفُ أَنَا وَإِمَّا أَنْ تَكْفُ عَنْ الْوُجُودِ
 هَذَا الصُّرَاعُ الْبَارِدُ الْوَاهِي طَرِيقٌ لِلْجُحُودِ
 مَا دُمْتُ صَاعِقَةً فِي الصَّحَرَاءِ أَعْمَلُ وَالْجِبَالِ
 عُشْبٌ وَقَشٌّ يَا بَسُّ لَا يَسْتَحَقُّانِ انْفِعَالِي
 الْكَوْنُ مِيزَانٌ يَكُونُ لِنَظَرِ الشَّجَاعَةِ وَالْجِلَادِ
 لِلْمُؤْمِنِ الْحَقُّ الْمَخَاطَرُ بِالْحَيَاةِ لِمَا يَنَادِي
 حَاشَا لِمَنْ (لَوْلَاكَ)^(٢) فِي يَدِهِ يَرَى شَيْئًا مَنِيْعًا
 مَا مُؤْمِنًا مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْكَوْنِ عَلَيْهِ جَمِيعًا

(١١)

أَلْفُ خَوْفٍ وَلَا قِيَامٌ لِسَانِي بِحَدِيثٍ مِمَّا يُكَذِّبُ قَلْبِي
 عِنْدَمَا قُلْتُ لِلْقَلَنْدَرِ^(٣) هَذَا قَالَ : أَحْسَنْتَ إِنَّ ذَلِكَ دَأْبِي

(١) ربما كان المقصود هنا : « بأيهم اقتديتم . . . » (الحديث) .

(٢) لولاك لما خلقت الأفلاك .

(٣) القلندرية : طريقة صوفية يمكن أن تكون امتداداً للملامتية ، ويشير السهروردي في :

= عوارفه (٢٣٢) إلى عدة فروق بينهما ، وعنه ينقل المقريري ذلك بتصرف في الخطط (٤٣٢/٢) .

وترتبط نشأتها في التراث الإسلامي بمجيء جمال الدين الساوي إلى دمشق بعد سقوط ساوة في أيدي التتار حوالي عام ٦١٧هـ .

انظر الوافي للصفدي (٢٩٢/٤) . النعيمي (٢٠٩/٢) معجم البلدان (ساوة) ، تلبس إبليس (٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) . (الكواكب السائرة ١٩١/٣ ترجمة علي بن صدقة) . (وفيه ٤٨/١ ترجمة محمد الجارحي) . (وخلاصة الأثر ٣٨٩/٣ محمد بن أحمد العبادي) وانظر التذكرة التيمورية وعلى هامش لطف السمر (٣٥٣/١) . والعبر (١٤١/٥) والبداية والنهاية حوادث سنة ٧٦١هـ ورحلة ابن بطوطة (٣٣) ونلفت النظر إلى وجود جملة من المعتقدات الزرادشتية ترتبط ببحيرة ساوة ، وفي الحديث (خمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة) وهذا ما يفسر وجود بقايا زرادشتية في الأدب القلندري .

وينبغي أن يمحّص رأي دائرة المعارف الإسلامية «النسخة الفرنسية» من أن قلندر يوسف الإسباني هو مؤسس القلندرية وعنها نقل فروخ في (التصوف في الإسلام) ص ٢٦ وكذا حسين مجيب المصري في ترجمته غير المشهورة لأرمغان حجاز (١٥٦) ومحقق لطف السمر (٣٥٣) أو عن قاموس المنجد .

وربما كانت أخبار قلندر يوسف هذا شفوية غير مكتوبة ، أو أنها بمعنى آخر تقليدية . كما أننا غير مطمئنين إلى صحة كون (قلندر نامه) من تأليف شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الهروي كما تقطع بذلك دائرة المعارف الإسلامية . «النسخة الإنكليزية» والمرجح أن يكون من تأليف هاتفي (عبد الله بن محمد الهروي) صاحب تيمورنامه و«شاه نامه» الذي ألفه للملوك الصفوية ، وهو ابن أخت جامي صاحب النفحات وقد توفي سنة ٩٢٧هـ .

والمشهور أنه عن طريق رباعيات بابا طاهر الهمداني / التي يرى فيها النقاد مباينةً قوية لرباعيات الخيام / انتشرت نظرات القلندرية للحياة .

والتداخلات التي تحيط بحياة بابا طاهر لها أهميتها في تفسير كثير مما نسب للقلندرية . فثمن ذلك اتهامهم بالإيمان بالتناسخ وكون بابا طاهر أحد أولياء (أهل الحق) التناسخية كما في دائرة المعارف مادة أهل الحق ، ومن ذلك أن الدركزيني الهمداني شيخ الساوي كان من بلدة بابا طاهر كما في الوافي للصفدي .

الذي يَخْشُدُ الجموعَ بحانٍ
خَوْرُ القلبِ لا يداويه رازي
المريدُ البسيطُ وهو نقيٌّ
اسأل الله نعمةً مثل هذي
ربّ ما زال نجلُ آدم هذا
صنمُ النَّفسِ تحت إبطيه يُضفي
لستُ في صرختي أبرئ نفسي
وأنا ، كلُّ تهنّأتِي (لملأ)
مؤمنٌ لا يكون للحبِّ أهلاً
وإذا الكُفْرُ صادفَ الحبَّ يوماً

ظُرِفَ ساقٍ مُنشأً في الخلاعة
رغمَ ما في كلامه من براعة
يُرفِقُ التَّوبَةَ النَّصوحَ بكاء
للشُّيوخِ التي تموت رياء
إسرَ وهمٍ وشعوذاتٍ قديمة
حُلَّةُ النَّصرِ فوق شرِّ هزيمة
فاحتراف الإيمان روحُ الشَّجاعه
يدَّعي حملَ مثلِ هذه القناعة
مؤمنٌ في الجحود جدُّ عريقٍ
قاده الحبُّ مرغماً لطريقي

(١٢)

أو لا تزال مسافراً تسري
والعصرِ إنَّ القومَ في خُسْرِ
وتفُركُ الدُّنيا بما فيها
وسلَّ الطبيعة عن فيافها

= ومن ذلك أن الخاكسارية وهم من مقدسي بابا طاهر يطلقون اسم القلندر على من هو في المرتبة الخامسة من مراتبهم السبعة كما في كتاب (الشبك ص ٥٣) ويلاحظ أن ما فيه من وصف للقلندر (ص ٥٤) ترجمة حرفية لما في البرهان القاطع (ج ٢ ص ٣٠٤) . ولا يكاد يختلف حديث إقبال عن القلندر وحديث بابا طاهر عن نفسه ، قارن قصيدة الشاهين (ص ٣٥٧) بهذه القصيدة التي يصف بها بابا طاهر نفسه كما في دائرة المعارف ، يقول : إنه قلندر ينتقل من مكان إلى آخر ، لا يغطي رأسه سقف . ويتوسّد في نومه وسادة من الحجر ، ويزعجه القلق الروحاني باستمرار ، تمزق قلبه الكآبة والهم ولا يزهر في قلبه إلا زهرة الأسى وحدها ، حتى الربيع بما فيه من حسن وسحر يخلفه شقياً بائساً .

يقول : عيناى وقلبي لا ينصرفان بسهولة عن التعلّق بأسباب هذه الحياة الدنيا وقلبي الثائر يشتعل بين ضلوعي ولا يريحني لحظة واحدة ، أنت أسد أيها القلب أم نمر من نمور ، أنت الذي لا تكف عن حربي وكفاحي ، سأسفك دمك أيها القلب إذا وقعت في يدي ، لأرى من أي لون أنت .

يمشي المنافق في نقائصه
وترى الموفق رغم محتته
كف المنافق لا تساعده
والمؤمن الصديق محتته
ما للمنافق من إرادته
يستقبل الأقدار مرتبكاً
المسلم المغوار حجتنا
في نفسه أقدار أمته
حتى تحسن بما أكابده
وجدور غفلتك التي سكرت

(١٣)

لا زاهداً حقاً ولا ملكاً
ملكاً يُبجل أينما سلكا
في حمل سيف يبعث الفرقا
قدر يشوب سيوفه ألقا
حرز ولا من صولة القدر
متعللاً بالعلم والنظر
نرمي بها الجهلاء بالدين
متستر في زي مسكين
مرقت أسراري إلى الأبد
لا أستطيع بلوغها بيدي

الحوار في الغرب سكر القلب والبصر
بحر الوجود تعالى أن نحيط به
حاشا لقيثارة مهما بذلت لها
صوفيتنا خلف لاهوتي أديرة
والمنبر اليوم والمحراب قد فرغا
أين الأذان الذي كانت تميد له
طوّفت في أمّة الصحراء أسألها
رأيهم في سجود لا اتجاه له
مهلاً فقرطبة الحمراء ما برحت
حماسة الشعر هذا من شببتها

(١٤)

يَقْظُ كما الفاروق يقظة قلبه يقْظُ كمثل المرتضى في حربه

حجرُ الفلاسفة المجرب مثله
أيقظ فؤادك إنَّ عُمرَكَ ضائعٌ
أنا ، لا عصاي ولا عصاك تُفیده
ستكون في الصَّحراء أحرقَ باحثٍ
وغزالنا التَّريُّ لست تصيده
ربَّاهُ أينَ يلوذُ مركَّبُك الَّذي
أبروحُ في طلبِ الشَّواطىءِ مخطئاً
لولا الرِّياء بذلتُ خالصَ زفرتي
كُتِمَتْ مخافةً برهميٍّ لم يزل
فإلى متى صمتي وحولي أمةٌ
هذا بِسُبْحَتِهِ وذاك بِسَيْفِهِ
سمحتُ حضارتنا الحديثة هذه
مَكَرَتْ بعالمهم فظاهروا أمرها
مولاي خذ بيدي ليثرب إنَّه
ضَيَّعْتُ معرفتي وإيماني على

يستخرجُ الذَّهَبَ الدَّفين بتربيهِ
ما دام قلبُك غارقاً في حجبه
إن لم يذوق ذوقَ الكلیم بضربه
إن كان لم يَضْحَك مُزْهَفٌ شَمَكاً^(١)
مهما نصبتَ له حِبَالَةَ وهمكا^(١)
عصفت بطيبة نفسه الرُّهبانُ
والبحرُ بحرُك أنت يا رحمنُ
للمُسْلِم المطروحِ حول مناره
يخفي شرارته بمعبد ناره
يلهو بها السُّلطان والدَّرويش
وكلاهما مما تكذَّ يعيش
للناس يتجهون كيف أرادوا
حريةً والواقعُ استعبادُ
بترابِ يثربك المطهرِ مرهمي
شكُّ الفرنج ووسوساتِ البرهمي

(١٥)

عيونُ الـذَّاتِ دافقةٌ خلال الدرِّ والصَّدفِ
بغيرِ تصنُّعٍ منها ولا دَجَلٍ ولا صَلَفِ
إذا كانت لها أسلـوبها في الهَجَر والشَّقِ
فذلك من تواضعها وذلك منتهى الذَّوقِ

(١) إشارة إلى قول مولانا جلال الدين الرومي : سير مرحلة على هدي رائحة المسك خير
من سير مرحلة في اقتفاء الأثر والدوران حوله .

أَتَطْلُبُ جِيفَةَ الْغَرِيبَانِ هَاتِيكَ الشَّوَاهِيْنَ
إِذَا أَخْفَتُ مَخَالِبَهَا فَأَعِينُهَا سَكَكِينُ
مَتَى الْأَوْتَارُ تَلْهُبُهَا بِلُوعَةٍ ذَلِكَ الْحَبُّ
فَنَغْمَةٌ صَوْرٍ إِسْرَافِيلَ لَا تَفْتِنُ فِي الْقَلْبِ
أَتَيْتُ الْغَرْبَ لَمْ أَغْبَأْ بِسَكْرَةٍ دَلَّ سَاقِيَهَا
كَرَامُ النَّاسِ لَا تَشْجُو عَلَى مَرَأَى أَعَادِيَهَا
غَزَاةُ الْعَصْرِ لَيْسَ لَهَا عَلَى عَشَّاقِنَا عَوْنُ
وَمَا مِنْ عَاشِقٍ إِلَّا لَهُ مِنْ حُبِّهِ كَوْنُ
غِيَابُ كَالْحُضُورِ بِهِ مِنْ الْهَيْجَانِ أَدْوْمَةٌ
لَعَلَّ الْهَجْرَ لِلْجُرْحِ الَّذِي فِي الْوَضَلِ مَرْمُوهُ
وَلَوْ لَا ذَاكَ عَانَيْتُ مَا عَانَيْتُ مِنْ غُصَصِي
وَلَوْ أَنِّي ظَفِرْتُ بِهِ رَجَعْتُ وَلَمْ تَطُلْ قِصَصِي !
إِذَا أَحْبَبْتُ تَلُمُسُهُ فَذَلِكَ فِضُّ أَشْجَانِي
أَقِمْ فِي عَزْلَةٍ وَاقْرَأْ (مَزَامِيرِي بِإِيرَانِ) ^(١)
وَلَا يَحْزَنُكَ مَا تَقْرَأُ مِنْ شَطْحِي وَمِنْ مَيْلِي
يَقَالُ : يَرُنُّ صَوْتُ السَّرِّ فِي مُتَصَفِّ اللَّيْلِ !

(١٦)

شَبَابٌ قَعُودٌ رَقُودٌ نِيَامُ لَعَجَزَ الْأَمِيرُ وَفُوضَى الْجُنُودُ
فَوَاسِفًا كَيْفَ هَذَا السَّهَامُ تَطِيشُ بِلَا هَدَفٍ فِي الْوُجُودِ
يَقُولُونَ بَحْرٌ عَمِيقٌ عَمِيقُ وَمَا أَضْيَعُ الْبَحْرَ مَا أَضْيَعُهُ
بَحِثْتُ بِهِ مَوْجَةً مَوْجَةً وَقَلَّبْتُ قَوْعَةً قَوْعَةً
أَمَّا أَنْ تَهْجُرُ أَصْنَافَهُمْ أَمَّا أَنْ تَخْرُجُ مِنْ قُمْقُمِكَ

(١) أحد دواوين الشاعر يحتوي على غزليات فارسية تُثير الدهشة بشطحاتها .

وغايةُ أصنامهم أنَّها
أنا كيفَ أجهزُ هذا المساءَ
وشغلُ الحكيم بهذا العراء
هو الحبُّ ينسبك وقعَ الجراح
وما الحبُّ إن لم تمت عزةُ
أنا لم أرَ السرَّ لو لم أنل
ومن بَدْء تلمذتي قال لي
رأيتُ فلاسفةً بالألوف
وذو الوحي يَرْفَع من رأسه
إذا خُضت معركةً فلتكن
فَمِنْ ﴿ لا تخف ﴾ شعلةٌ لم تزل
بريقُ الحضارة أوجُ التَّرف
أنا ابنُ المدينة وابنُ النّجف
غبارُهما قطرةٌ للعيون
مقيمٌ برغم رياحِ القُرون

(١٧)

تزخرفُ هيكلها من دمك
بسرِّ كهذا الذي أهتِكهُ
كشغلِ المحبِّ بما يُهلكه
وتفضُّحُ سرِّك آثاره
وما العيش جَلَلُهُ عازه
طريقةٌ روميٌّ وأحواله
وما زلتُ أحفظ ما قاله
رؤوسُهُم تحتَ أطمارها
ويكشفُ أوهام أفكارها
كموسى بخطوته الضَّاربة
تصاعدُ في الأجمة اللاهبة
لدى الغربِ لم يستطع فتتي
غبارُهما كان في مُقلتي
وأنفعُ طبِّ لذي علّة
وما كان من مستبدِّ عتي

وكان طَرفُ الهوى في مِيعَةِ الولعِ
بما تضمُّ من الحانات والبيعِ
على الصَّقيعِ بمرأى الفاجرِ الهلعِ
يثير في حتمه آلام مجتمعي
وتدَّعي أنَّ همَّ الشرقِ جاء معي
ما تدَّعيه يدُ العُمّال من شرع^(١)

كانَ الشُّتاءَ كمثلي السَّيفِ حدُّتهُ
أيامَ لندنَ ماخوِزٌ لطالبها
أيامَ كنتُ صلاةَ الفجرِ أبعثها
ما لي هنا ولهبي حيثُ رحْتُ ذكي
وكيفَ كانتُ هناكُ النَّاسُ تُنكرُني
أيامَ آلتُ مقاليدُ الأمورِ إلى

(١) لعلها إشارة الشاعر إلى تولي حزب العمال الحكومة في إنكلترا أول مرة عام ١٩٢٤ م ، =

فكان في دربِ قُطَّاعِ الحجارة ما
يا لعبةً من دمقراطيةٍ طَلَبَتْ
كانت حكايةً فصلِ الدينِ آخرها
ذكرتُ دلهي بروما حين طفتُ بها^(٢)
كلا الدروس لها سحرٌ وأبهةٌ
لأبرويز من التَّدليس والطَّمع^(١)
عرشَ الملوك بما أبدته من وَرَعِ
إنَّ السياسةَ جنكيزية الجَشَعِ
فكنت بينهما في ملتقى وجعي
ربَّاه عفوك قد أبعدت مُتجعي

(١٨)

استفتِ قلبك كيفَ المسجدُ افترقا
وأين ذو جَلَدٍ منهم يمرُّ به
الحبُّ ، يَعْرِفُ من زَلَّتْ له قدمُ
وأَنَّهُ جرحُ سَهمٍ إن صبرت له
ضاعت عقيدة قومٍ في مصادمةٍ
هيهات يُذَرِّكُها من لَيْسَ في دمه
درسُ الشريعةِ غيرُ الوجد وهو كما
وكيف نخرج من محرابه فِرَقا
تقوى طويته إن تكتُم الحُرَقا
بأنَّه أقصرُ الأشياءِ أزمانا
أوتيت من جُعبَةِ الصَّيادِ سُلوانا
بائني وسبعين وادٍ من معانيها
وجدٌ يؤلِّف قاصيها ودانيها^(٣)
رأيت مُنثَرِّ في جُمْلَةِ الفِرَقِ

= (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(١) يمثل أبرويز حزب المحافظين وهو عند إقبال حزب استعماري صريح (الأصل) .
قلت : لا يخفى أن المقصود بقوله قطاع الحجارة هنا فرهاد وبذلك : أعطى إقبال أبعاداً
جديدة لقصة فرهاد وشيرين ومرة أخرى يقول في قصيدة (اجتماع لينين بفيلهم
إمبراطور ألمانيا) إذا الشعب لبس تاج السلطان ستستمر أيضاً فوضى المجتمع .
ذلك التاج هو شيرين ؛ إذا لم يُنَيِّم بها أبرويز فسوف يتيم بها فرهاد قاطع الحجارة .
انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص ٧٩ .

(٢) عند عودة إقبال من لندن بعد اشتراكه في مؤتمر المائدة المستديرة ، الذي دعت إليه
الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند زار روما في نهاية عام
١٩٣١م وقابل موسوليني (الأصل) .

(٣) يذكرنا هذا المعنى ببيتٍ ربما كان من شعر بابا طاهر ، أي : كن قلندري الصفة صوفي
المظهر والمشرّب معروفاً لدى اثنين وسبعين فرقة (الشبك ٥٤) .

وَأَنَّهُ وَكَمَا نَمَّتْ تَجَارِينَا
 غَصْنُ الْيَقِينِ الرَّطِيبِ الْوَجْدُ يَنْبَتُهُ
 فَقُلْ لَذِي هِمَّةٍ بِالدَّرْسِ مَجْتَهِدِ
 الْحَبُّ فِي قَحَّةٍ يَحْلُو وَفِي سَفِهِ
 وَلَا تَكُونَنَّ ذَا حُبِّ بِلَا سَفِهِ
 لَنْ تَهْدَأَ الرَّغْدَةُ الْمَلَقَاةُ فِي خَلْدِي
 إِنْ لَمْ تَشُقَّ بِسَيْفِ الشُّكْرِ جَذْبَتَهَا

إِسْلَامُنَا الْغَيْرُ مَكْتُوبٌ عَلَى الْوَرَقِ
 وَلَا يَفُوحُ بِغَيْرِ الْوَجْدِ مَعْنَاهُ
 هِيَهَاتَ تَبْلُغُ بِالْأَوْهَامِ مَعْنَاهُ
 فَكُنْ بِحُبِّكَ فِي هَذَيْنِ سَكِّيرَا
 فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَجْدِيكَ قِطْمِيرَا
 وَلَنْ تَرَاقِبَ يَوْمَ الْحَشْرِ ذَا جَاهِ
 شَقَّتْ أَمَامَ الْبِرَايَا مَعْطَفَ اللَّهِ^(١)

(١٩)

الرُّهْدُ إِخْضَاعُ هَذَا الطِّينِ وَالشَّرُّ
 فَقُلْ لَصُوفِيَّةٍ بِالْفَقْرِ رَاضِيَةٍ
 وَمَا عَلَيْكَ إِذَا أَنْكَرْتَ مَذْهَبَهُمْ
 فَالرُّهْدُ وَالْمَلِكُ لَا يُسْتَحْسَنَانِ لِمَنْ

وَلَيْسَ فِي بُعْدِنَا عَنْ عَالَمِ الْبَشَرِ
 هَذَا الْعَذَابُ عِقَابُ الْجُبْنِ وَالْخُورِ
 وَقُلْتَ : أَطْلُبُ مِنْكُمْ زُهْدًا مُقْتَدِرِ
 أَضَاعَ أَمْجَادَ تَيْمُورَلَنْكٍ فِي سَمَرِ

يَا حَبَّذَا يَغْفُلُ السَّاقِي الْجَمِيلُ فَلَا
 إِنَّ الرِّفَاقَ إِذَا جَاشَتْ قَرَائِحُهُمْ
 خَاضُوا بِكَلِمَةٍ (عَفْوًا) مَا يَرُوقُ لَهُمْ
 أَفِيلَسُوفٌ وَصُوفِيٌّ وَمَجْتَهِدٌ
 مَا فِي الثَّلَاثَةِ مِنْ أَبَدَى فَوَا أَسْفَاً
 كَانَتْ بِزَاوِيَةِ الْأَقْفَاصِ بَغْيَتُهُمْ

يَلِيقُ بِالْقَوْلِ هَذَا جِسْمُهُ الْقَمَرِي
 وَأَيْقِظَ الطَّنِيشُ مِنْهُمْ رَقْدَةَ الْفِكْرِ
 وَمَزَّقُوا سَرَّهُمْ فِي ثُوبٍ مَعْتَذِرِ
 فِي سَكْرَةٍ مِنْ كُؤُوسِ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ
 مِنْ رُوحِ ذِي طَمَحٍ فِي عَيْنِ مُنْبَهَرِ
 لَوْ أَمَعْنُوا قَبْلَ هَذَا التَّيِّهِ بِالنَّظَرِ

(١) فِي تَرْجُمَةِ الْأَسْتَاذِ الْمَلُوحِيِّ النَّثْرِيَّةِ :

لَنْ تَسْكُنِي رَعْدَتِي حَتَّى فِي يَوْمِ الْحِسَابِ ، إِمَّا أَنْ تَشُقَّ ثُوبَهَا أَوْ أَنْ تَشُقَّ مَعْطَفَ اللَّهِ !
 يُرِيدُ الشَّاعِرُ أَنْ يَقُولَ : لَنْ أَضْحِي بِهِذِهِ الرَّعْدَةِ الَّتِي تَمْتَلِكُنِي وَلَا بَدَّ لِي مِنْ أَنْ أَجِدَ مِنْ
 يُصْنَعِي إِلَيْهَا وَلَوْ لَمْ يَبْقَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنِّي سَأَتَمَسِّكُ بِمَعْطَفِ كِبْرِيَاءِهِ وَلَنْ أَبْرَحَ حَتَّى أَشْقَهُ
 بِجَذْبَتِي أَوْ يَمْحُوهَا بِخَمْرِهِ . (انظر ص ١١٩ ، من الترجمة النثرية) .

سَجُنُ التَّفَلُّتِ لَا قَضِيَانُ تُمَسِّكُهُ وَرُبَّ غُلٍّ خَفِيٍّ بِالْغِ الْأَثَرِ
تَغْنِيكَ إِنْ حَرَتْ فِيمَا قَلْتُ تَجْرِبَةً فَمَا التَّجَارِبُ إِلَّا مَرْهَمُ الْحَيْرِ
انْظُرْ خَرَابَ فَوَادِ الْغَرْبِ يَأْكُلُهُ وَعَقْلُهُ فِي كِمَالٍ وَافِرٍ بِطَرِ
يَقُودُهُ الْعَقْلُ فِي نَهْرٍ يَفْجُرُهُ وَخَلْفَهُ قَلْبُهُ يَمْشِي عَلَى كَدَرِ

(٢٠)

رُغْمَ أَنْ الْعَقْلَ لَا يَمْنَعُهُ قَرَبٌ وَبُعْدٌ
إِنَّسُهُ وَالْحَقُّ : مَا أَهْلٌ لِلْحَضْرَةِ بَعْدُ
اسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى وَالتَّمَسَّ عَيْنًا لِقَلْبِكَ
إِنَّهَا أَثْمَنُ مَا تَكْسِبُهُ مِنْ فَضْلِ رَبِّكَ
أَنَا لَا أَنْكَرُ أَنَّ الْعِلْمَ لِلنَّفْسِ حُبُورٌ
هُوَ فَرْدُوسٌ وَلَكِنْ فَارِغٌ مَا فِيهِ حُورٌ
مَا أَحَقَّ النَّاسَ بِالسَّرَافَةِ مِنْ عَصْرِ سَفِيهِ
لَيْسَ فِي الْعَالَمِ قَلْبٌ يَجِدُ الْغَيْبَةَ فِيهِ
إِنَّسُهُ صَحْوٌ بَلَّانٍ وَاحِدٍ هَذَا الْجَنُونَ
ذَلِكَ النَّوْعُ جَنُونٌَ مَا لَهُ صَحْوٌ يَكُونُ
قَلْبُ الْقَلْبِ غِذَاءٌ وَعَطَاءٌ حَيَوِيٌّ
إِنَّ قَلْبًا لَيْسَ فِيهِ قَلْبٌ ، قَلْبٌ شَقِيٌّ
أَنْتَ لِلْحَضْرَةِ سَرٌّ مَا لَهَا سَرٌّ سَوَاكَ
إِنَّهَا إِنْ كُنْتَ حَيًّا حَيْثُمَا كُنْتَ هُنَاكَ
كَسَّرَ اللَّوْلُو كَسْرًا كُلَّ أَصْدَافِ الْبُحُورِ
فَلَمَّاذَا أَنْتَ يَا لَوْ لَوْ تَبَى الظُّهُورِ
مُسْلِمٌ أَنْتَ وَقَدْ أَلْهَبْتُ سَيْنَائِي عَلَيْكَ ؟ !

أولا يزعج قولي : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ (١)

(٢١)

إنَّهَا الذَّاتُ إِن تَمَعَّنْتَ بَحْرٌ وَمَحَالٌ تَكُونُ جَدُولَ أَنْسٍ رُبَّمَا تَكْسِرُ السَّمَاءَ بِفَأْسٍ وَالَّذِي يَجْعَلُ الْبَحَارَ بَحَاراً لَا يَطِيقُ الْجَبَانَ لَجَّةَ ذَاتٍ وَقَوَامِ الشُّجَاعِ لَيْسَ عِلُوماً كَيْفَ يَسْتَوْعِبُ الْمَنْجَمُ هَذَا أَنْتَ مِنْ طِينَةٍ يَحْكُ عَلَيْهَا إِنَّ فَرْدَوْسَنَا عَلَى الْأَرْضِ هَذَا حَبَّذا أَنْ تَكُونَ ثَاقِبَ عَيْنٍ بَجَنُونِي فَهَمْتُ عَصْرِي تَمَاماً الْبَسُ الدُّزْعُ مِنْ نَسِيجِ جَنُونِي إِنَّ شَحَّ الطَّبِيعَةِ الْيَوْمَ هَذَا لِلْيَوَاقِيتِ كَاللَّهَيْبِ أَحْمَرَاً	مَالَهُ سَاحِلٌ لِيَخُوضَ جَبَانٍ وَمَحَالٌ لَجْمَعَ أَهْلِ الْهَوَانِ فَبِنَاءِ السَّمَاءِ سَبْكُ زَجَاجٍ تُتَّقَى أَنَّهَا مُحَلُّ الْهِجَاجِ وَيَغُوصُ الشُّجَاعُ فِيهَا وَيَطْفُو تَرْبَ الْعِلْمُ فَالشُّجَاعَةُ لَطْفُ بَطْرِيقِ مَكْبَلِ بِالنُّجُومِ سِرُّكَ الْحَيُّ زَيْفَ كُلِّ الْعُلُومِ فِيهِ جَبْرِيلُ لَا يَغِيبُ وَحُورُ حَجَرُ الْعَيْنِ فِيهِ مَاءٌ وَنُورُ وَتَحَمَّلْتُ وَقْعَةً بَعْدَ وَقْعِهِ لَيْسَ ثُوباً مَرْقَعاً أَلْفَ رُقْعَةٍ وَهِيَ مِنْ طَبْعِهَا السَّخَاءُ لَعَارُ شَكْلُ نَارٍ وَلَيْسَ فِيهَا شَرَارُ
---	--

(٢٢)

جَاءَ مِنْ نَسْمَةِ الصَّبَاحِ كِتَابٌ فَإِذَا فِيهِ : مَبْصَرَ الذَّاتِ أَقْبَلُ شَرَفُ الرَّأْيِ ذَاكَ جَاءَكَ مِنْهَا وَحَيَاةٌ تَكُونُ مِنْ غَيْرِ ذَاتٍ	وَأَنَا جَالِسٌ عَلَى عَرْشِ ذَاتِي صُرْتُ فِي رَتْبَةِ الْمُلُوكِ الْكُفَاةِ وَالْحَيَاةُ الْكَرِيمَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ أَيُّ مَعْنَى لَهَا وَأَيَّةُ قِيمَةٍ
---	---

(١) إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

أَيْهَا الْفِيلْسُوفُ دَعَكَ وَشَأْنِي
لَسْتُ مِثْلِي مَسَافِرًا كَيْفَ أَشْكُو
لَيْسَ سَهْلًا إِذَا الدَّرَاوِيْشُ حَجَّتْ
الْقَضَايَا دَقِيقَةً فَاسْتَلَمَهَا
لَسْتُ أَخْفِيكَ أَنْنِي لَمْ يَرْقُ لِي
لَا يَصِيدُ^(١) الْعَنْقَاءَ صَيَّادُ سَوْءٍ
طِرْتُ أَمْ غَضْتُ فِي سَمَاءٍ وَبَحْرِ
لَيْسَ يَدْعُو إِلَى الرِّثَاءِ وَجُودُ
وَسَوَاءٍ ، فَلَا تَقُلْ عَرَبِيٌّ
سَتَرِي الذِّكْرَ أَجْنَبِيًّا إِذَا لَمْ

فَأَنَا مَدْرَكَ إِلَى أَيْنَ أَمْضِي
لَكَ دَرْبِي وَأَنْتَ فِي غَيْرِ أَرْضِي
مَنْ بَعِيدٍ إِلَى مَدَارِسِ شَعْرِي
وَاقْضِ فِي أَمْرَهَا إِذَا كُنْتَ تَدْرِي
ذَلِكَ الْعَيْشُ فِي طُقُوسِ الصَّوَامِعِ
مُلِئْتُ نَفْسُهُ بِذَلِكَ الْمَطَامِعِ
أَمْ تَرَا جَعَلْتَ عَنْهُمَا وَجَبُنْتَ
كَالْوَجُودِ الَّذِي تَعَانِيهِ أَنْتَ
كُنْتَ أَوْ لَمْ تَكُنْ فَلَيْسَ يُفِيدُ
يَكُ لِلذِّكْرِ فِي الْفُؤَادِ شَهِيدُ

(٢٣)

النَّخْلَةَ الشَّمَاءُ أَخْتُكَ كُؤْنْتُ
أَتَطُوفُ فِي الْحَانَاتِ تَسْقِي كَأْسَهَا
مَا فِي مَدَارِسِكَ الَّتِي تَرْتَادُهَا
سِرُّ الدِّرَاسَةِ فِي فُؤَادِكَ كَامِنٌ

مِمَّا تَبَقَّى مِنْ بَقَايَا طِينَتِكَ^(٢)
وَتَطُوفُ مَخْنُوقًا بِعِلْمَانِيَّتِكَ
إِلَّا بِحَوْثٍ مَغْفَلٍ وَبَلِيدٍ
لَوْ كُنْتَ تُتَقِنُ صَرْخَةَ التَّوْحِيدِ

(١) يرى الدكتور كفاي أن اصطلياد العنقاء رمز للظفر بأعمق حقائق العرفان التي تستعصي على الآخرين (المثنوي ، ص ١٠٥) .

(٢) في حاشية ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : يرى التراث الإسلامي أن النخلة خلقت من بقايا الطين الذي خلق منه آدم (عليه الصلاة والسلام) وتسمى (خيمة الإنسان) ويرمز بها إلى آدم أحياناً .

يقول الأستاذ زهير ظاظا (مترجم هذا الديوان شعراً من نثر الأستاذ الملوحي) يريد الشاعر أن يقول : أيها الإنسان إذا كانت النخلة شقيقتك فمن الذي سرق نبذك أيها المسكين . . . إنها العلمانية .

لم تبق يا مسكينٌ إلا فرصةٌ لك في استعادة سِرِّكَ المفقودِ
اطلب علومَ القلب من أستاذها واجهد لنيل مقامِكَ المحمودِ

إن كان زَيْتُكَ زَيَّْ سلطانٍ أو كان زَيْتُكَ زَيَّْ مسكينٍ
فِغْطَاؤُنَا لا رأسَ يَحْمِلُهُ فيليق إلا رأسُ شاهينٍ
ليس النُّجومُ برغم لعبتها مسؤولَةٌ عن هدم أمجادك
بل موتُ ذاتِكَ بعدما شَقِيَتْ ما بين قُمْقُمِهَا وأصفادك
أنا آسفٌ جداً ويَحْزِنُنِي غضبي على ديري ومدرستي
ضاعتُ هناك بصيرتي وذوى حَبِّي وأظلمَ دربُ معرفتي

(٢٤)

دواءُ البصيرة - هذا الدواء -
وما العقلُ إلا جدالُ العلوم
مصيرُكَ أرفعُ من وقفةٍ
وسرُّ الالاءِ خُلْدُ البريق
وما هي جدوى دم في العروق
فقل للشَّقَائِقِ في خِذْرِهَا
وما عدَّه الغرب سقطَ المتاع
يقولون إقبال في فقره
وعالمُهُ لهَبٌ كُلُّهُ
رجاؤك في كشفِ داءِ البصرِ
وحربُ الظُّنونِ ورجمُ النظرِ
وأولُ معناه ذوقُ السَّفرِ
وإلا فمعدنُها من حَجَرِ
إذا كان يطفئُ نارَ الفِكرِ
تجلِّي فيَّ نسيَمُ السَّحرِ^(١)
بمذهبنَا رأسُ مالِ الظَّفَرِ
غنيٌّ على أيِّ كنزٍ عثرِ
ولا يمنحُ النَّاسُ إلَّا الشرزَ^(٢)

(١) المقصود قل لهذه المتعلمة : لا تخافي يا أنتِ تعالي إليّ فلن أعصف بك أنا لست إلا جمالاً وعطاءً أنا نسيم السحر ولست ريح الظهيرة .

(٢) البيت من روائع إقبال ومعناه : لا جدوى لك من لهب إقبال إذا كنت غير قابل =

أعينُ الدَّرويش لم تعباً بما
هذه التَّيجان ما قيمتها
كيف لا تيأسُ ترجو صنماً
أنتَ هل تعرف كفراً آخرأ
أنا لا أفهم ما قصدُ السَّماء
تهبُ السُّلطة من لا يملكون
وحدها النظرة ما أطلبه
نظرة خالية من جذبة
وأنا من أجل هذا كله
أنا لا أجهل ما تقصده
مع هذا لا أرى من زاهد
أنا لا أقتل ذاتي هكذا
وحياتي عندما شرَّدتها
قيمة الأشعار هذي أنها

أظهرت أبهة الإسكندر
وهي تستجدي نساء البيدر
ومن الله تعالى تيأسُ
غير هذا أيها المتكسُ
وهي بالسُّلطة لو شاءت تطيح
أي مفهوم عن الشَّغب الجريح
وشؤون القلب عنها تضدُّ
نظرة فارغة لا تسحرُ
باعتزال القصر محكوم علي
ومصيرُ الكل معلوم لدي
ماله من طمع في السُّلطة
أنا حرُّ سُلطتي في خلطتي
أرضتِ النَّاسَ جميعاً كلِّمي
خطرات في قلوب الأمم

= للاشتعال .

إقبال لا يرضى أن يكون شعلة في يد الآخرين .

« إقبال يشعل ولا يضيء »

وسياتي قوله :

وأنا رغبتني بحرق الدقاق
عملي الفرد والوحيد احتراقي

حطب الموقد الغليظ ممل
أنا لا أمنح الحصاد لحقل

لست لهذي الأرضِ والسَّماءِ
ولستُ موضوعَهُما وإنَّما
تطلُّعُ العقلِ ووجدُ القلبِ
والعُشبُ موجودٌ لِحرقاهُ
والرُّوضُ هذا بقعةٌ تصطفقُ
أعشابهُ ليستُ لصنعِ عشٍ
حتى متى مركبٌ هذي الذَّاتِ
قُدِّرَ أن يركبَ بحرأً ماله
فكيفَ عند هؤلاءِ رغبةٌ
رغائبهم بالرُّغمِ من نشاطها
الحاظُ موهوبٍ وعينِ ثاقبه
كلُّ الَّذي يملكه من عُدَّةٍ
فيا لحسنِ فارسٍ ووحيه
بحثتُ طولَ العُمُرِ في بستانه
تَرَقَّد في حنجرتي أغنيةٌ
أحرصُ أن تبقى هنا مطويةً

وإنَّما السَّماءُ والأرضُ لك
هذان جانبانِ من موضوعك
شرارتانِ من لهيبِ الحبِّ
في ذلك السَّهلِ الخصيبِ الرَّخبِ
بصرخةٍ وزفرةٍ تنطلقُ
كلُّ الجمالِ عندما تحترقُ
يمخُرُ في النيلِ وفي الفُراتِ
من ساحلٍ في هذه الحياةِ
بأن يدلَّها المدارُ الحائرُ
ينقصها اليومَ دليلٌ ماهرُ
وسحرُ ألفاظٍ وروحٍ لاهبه
قائدُ هذي القافلاتِ الذَّاهبه
ويالكأسِسه وياالغصَّتي
فما وجَدْتُ زينةً لِقصَّتي
لو قلتُها لحَيَّرت جبريلاً
هناك سوفَ أنقَعُ الغليلاً

لستَ يا أنتَ في الفضاءِ سجيناً
يشهدُ الحرُّ أن سرَّ التَّجَلِّي
لا يخاف البستانُ شَهَرَ خريفٍ
يرقصُ العشُّ في السَّماءِ لهيباً
الحياةُ الحياةُ لفظةٌ سرُّ

لستَ دمعاً على منازلِ رسمه
بين صلصاله وهيكلِ جسمه
فلماذا ملأتُ بالخوفِ عشَّك
عندما تحرقُ الصواعقُ قشَّك
ملأتُ عالمَ القلندرِ طيباً

إِنَّهَا السَّهْمُ مِنْذُ كَانَتْ رَمَتْهُ وَمِنْ الْقُوسِ لَا يَزَالُ قَرِيبَا
 لَا تَعِيقُ النُّجُومُ سِرَّكَ هَذَا فَسَمَاءُ النُّجُومِ غَيْرُ سَمَائِكَ
 أَخْطُ فِي الْمَوْقِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ لَتَرَى زُرْقَةَ السَّمَاءِ بِمَائِكَ
 لَا تَقِلُّ لِلدَّلِيلِ دَعْنِي لَوْحَدِي إِنَّ أَمْرًا كَمَثَلِ هَذَا بَدِيهِ
 لَا يَطِيقُ الْكَرِيمُ ذَلَّ سَوْالٍ فَاجْتَهِدْ وَخُذْكَ اجْتَهِادَ فَقِيهِ

(٢٨)

تَأْمُلُ فِيلَسُوفٍ كُلُّ مَا أَعْطَانِي الْفِكْرُ وَلَوْلَا الْحَبُّ مَا أَدْرَكْتُ مَا يَضْمَنُ السَّكْرُ
 وَنَظَرْتُهُ هِيَ الشَّرُّ الْمُشِيعُ بِمَحْفَلِ الْقَلْبِ بِبَلَا دَنْ وَلَا خَمَرٍ تَدُورُ كَوُوسُهَا جَنْبِي
 تَظُنُّ تَنَافُرَ الْكَلِمَاتِ مِنْ شَعْرِي وَمِنْ أَدْبِي فَحَانَتْهَا عَلَى عِلْمٍ بِمَا مَزَّقْتَ مِنْ حُجْبِي
 تَأْمُلُهُ تَجِدُ فِيهِ إِلَيْكَ الْبَرَعَمَ الظَّامِي لِمَقْلَدَمِ نَسْمَةِ الصُّبْحِ
 غِيَابٌ أَمْ حُضُورٌ لَسْتُ أَدْرِي مَا أَكْبَاهُهُ حَكَايَةَ ذَلِكَ الْجُرْحِ يَشَاهِدُ مَا أَشَاهِدُهُ
 هُنَا يَا أَنْتَ كُلُّ النَّاسِ يَعْرِفُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فَهَلْ مِنْ بَيْنَهُمْ أَحَدٌ غَرِيبٌ يُنْكِرُ الْأَرْضَا
 وَكُنْتُ بِقَصْرِ أَوْرِيَّةٍ هُنَا إِلَّا أَنَا فِيهِمْ مِنَ الْمُتَمَكِّنِ أَنْ أَبْقَى
 شَرِيطَةً تَحْمُلُ الصَّحْرَاءَ حِينَ أُجِنُّ مَا تَلْقَى مَضَى إِقْبَالُ هَوْنًا فِي دُرُوبِ الْفِكْرِ وَاجْتَاذَا
 وَلَمَّا جَاءَ رَبَّ الْحَبِّ مَسَالَ الْقَلْبِ وَانْحَاذَا

وأخيراً انتبهتُ ولَبَّثْتُ صَرَخَتِي هَذَا السَّمَاءُ
وسمعتُ ما قالوا : أخيراً سوف يَنْكشِفُ الْغُطَاءُ
لِلْعَاشِقِينَ حِكَايَةً وَتَكَادُ تَتَفَقُّ الْحِكَايَةُ
نَارٌ وَحَزَنٌ وَانْفِجَارٌ فِي الْبَدَايَةِ وَالنَّهَائَةِ
فَانْظُرْ إِلَى قَدَرِ الشُّعُوبِ وَكَيْفَ يَبْدَأُ بِالشُّيُوفِ
فَإِذَا انْتَهَى فإِلَى الْمِزَامِيرِ الشَّجِيَّةِ وَالِدَفُوفِ
حَانَاتٍ أَوْرَبَّةٍ كَذَلِكَ وَالْغَرِيبُ طَقُوسُهَا
السُّكُورُ يَبْدَأُ أَوَّلًا وَتَدُورُ بَعْدُ كَوُوسُهَا
سَيَّانٍ تِمْمُورْلَنُكَ فِي سُلْطَانِهِ سُلْطَانٍ نَادِرُ
الْكُلِّ تَسْقُطُهُ أَخِيرًا سَكْرَةُ الزَّمَنِ الْمُبَادِرُ
وَلَيْ زَمَانُ الْوَحْدَةِ الْمَطْرُوحِ فِي دَرْبِ الْفَنَاءِ
خَرَجْتَ أَخِيرًا مِنْ صَدُورِ الْغَيْمِ عَاصِفَةُ الْبَقَاءِ
لَمْ يَتَحَمَّلْ مَوْجَةَ الشَّطْحَاتِ هَذَا أَيُّ سَاحِلِ
هَتَكْتَ يَا مَجْنُونُ أَسْرَارَ الْكِتَابِ بِغَيْرِ طَائِلِ

يَرْحَلُ كُلُّ كَائِنٍ وَيَذْهَبُ	حَوْتُ وَطَيْرٌ ، لَجَّةٌ وَكُوكَبُ
وَأَنْتَ أَنْتَ فَارَسُ الْمِيدَانِ	وَقَائِدُ الْجِيُوشِ فِي الزَّمَانِ
يَا سَيِّدَ الْجِبَالِ وَالصَّحَرَاءِ	جَنْدُكَ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ
أَهْكَذَا قِيَمْتُكَ الذَّاتِيَّةِ	هَدَرْتُهَا وَرَوْحُكَ الْفَتِيَّةِ
فِيهَا لَهَا بَصِيرَةٌ فِي كَدَرِ	وَيَالَهُ مِنْ قِصَرٍ فِي الْبَصَرِ
لَا تَعْبُدِ الْأَرْضَ فَإِنَّهَا لَكَا	كُنْ رَاهِبًا إِنْ شِئْتَ أَوْ كُنْ مَلَكَا
لَا شَنْكَ فِيمَا قُلْتَهُ وَلَا جَرَمَ	فَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ سَيِّدَ الْحَرَمِ
قَوْلٌ بِلَا فِكْرٍ وَلَا إِشَارَةٍ	وَعَمَلٌ تَنْقُضُهُ الْحَرَارَةُ

كُلُّ شَيْءٍ إِلَى التَّجَسُّدِ يَسْعَى
وَحَيَاةٌ بَغِيرِ ذَوْقِ ظَهْوَرِ
قُوَّةُ الذَّاتِ قُوَّةُ الذَّاتِ سِرٌّ
خَوَرُ الذَّاتِ يَجْعَلُ السَّيْفَ عِبْثاً
شَرَّدَتْ نَفْسَهَا النُّجُومُ وَلَكِنْ
لِفِرَاقِ يَوْوَلُ كُلُّ وَجُودِ
يُظْهِرُ الْبَذْرُ آخِرَ اللَّيْلِ فَرْدَا
كُلُّ نَوْرٍ أَخَذَتْهُ مِنْ غَرِيبِ
قَلْبِكَ الشَّمْسُ فَاقْبِسِ النُّورَ مِنْهُ
كُلُّ شَيْءٍ سِوَاكَ - أَنْتَ - سَرَابٌ
شَوْكُ صَحْرَائِنَا يَحُلُّ بِلَطْفِ
فَامْضِ فِي الشَّوْكِ حَافِياً وَتَقَرَّحِ
لَغْزُ هَذِي التَّدَاخِلَاتِ وَإِنْ لَمْ
شَوْكُ صَحْرَائِنَا يَغُورُ بِرَفْقِ

رَغْبَةً فِي النُّمُوِّ يَهْلِكُ نَفْسَهُ
يَحْتَوِيهَا ، يَسُومُهَا الْمَوْتُ بِؤْسَهُ
يَهَبُ النَّصْرَ فِي الْحَيَاةِ لِأَعْزَلِ
وَيَرَى فِي الْجِبَالِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ
لَيْسَ يَعْنِي ضَلَالَةً وَاخْتِلَاطَا
لَيْسَ عَنْ صُدْفَةٍ وَلَيْسَ اعْتِبَاطَا
أَصْفَرَ الْوَجْهَ فِي السَّمَاءِ وَحِيدَا
سَوْفَ تَخْبُو بِهِ رَوِيدَا رَوِيدَا
كُلُّ مَا تَرْتَجِيهِ نَفْسُكَ عِنْدَكَ
شَهِدَ اللَّهُ أَنَّكَ الْحَقُّ وَخَدَكَ
عَقَدَ السَّالِكِينَ مِنْ حَيْثُ يُدْمِي
لَسْتَ تَنْجُو بِلَا جُنُونٍ وَحَزْمِ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْكَهُ الْعِلْمُ كُلُّهُ
وَبِأَسْلُوبِهِ اللَّطِيفِ يَحُلُّهُ

(٣٢)

مَا لِمُلْكِ الْغَرْبِ خُلْدٌ
كَلَّمَا شَيْءٌ صَرَحَا
عِنْدَمَا أَنْهَيْتُ عَشِيَّ
صَرَخَاتُ الْعُشِّ بِرَقِ
أَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ فَالْزِمِ
مَا عَدَا عَزَّ الْعَبْدِيَّةَ لِلَّهِ تَسْوُلُ
سَيِّدُ الْأَحْرَارِ عَبْدُ
فَاحْفَظِ الذَّاتَ وَصُنْهَا
كَيْفَ (إِلَّا اللَّهُ) لَمْ تَذْمَعْ أَسَاطِيرَ مَسْطُورِ

بَلَغَ الْعَضْرُ أَشُدَّهُ
ضَحِكَ الشَّرْقِ وَهَدَّهُ
قِيلَ هَبِ لِلْعُشِّ ذَاتَا
تَمَلَّأَ الْعُشُّ حَيَاةً
لَيْسَ لِلْحَرِّ تَحْوُلُ
مِثْلُ الْعَبْدِيَّةِ لِلَّهِ تَسْوُلُ
حَرَمَ اللَّهِ بِذَاتِيَّةِ
إِنَّهَا مِنْ عَتَبَاتِيَّةِ
كَيْفَ (إِلَّا اللَّهُ) لَمْ تَذْمَعْ أَسَاطِيرَ مَسْطُورِ

أَيِّنَ ذَاكَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالطَّبْعِ الْمُسَيِّطِ
 كَمَ قُلُوبٍ فِي صُدُورِ
 دُرْسِ الْعِلْمِ اللَّسْدُنِّي
 وَذَوِي فِي فِطْرَتِكَ
 رُبَّمَا أَشْرَفَ إِقْبَالِ
 عَلَى السِّرِّ الْقَدِيمِ
 حَدَّثَ السِّرِّ حَدِيثاً
 كَحِمِيمِ لَحْمِيهِمْ

(٣٣)

لِمَ تَسْأَلُونَ الْقَوْمَ مَا هُوَ مَصْدَرِي ؟
 مَا زِلْتُ مِنْذُ وَجِدْتُ أَشْرُقُ سَائِلاً
 الْحَرُّ يَسْمُو فِي الْحَيَاةِ بِذَاتِهِ
 يَا أَنْتَ حَتَّى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ
 أَسْرَارُ رَوْحِكَ جَدُّ سِيمَائِيَةِ
 بِلَهِيْبِ أَنْفَاسِي الَّتِي أَطْلَقْتُهَا
 سِرِّي تَتَرَجَّمُهُ سِلَاطَةُ أَعْيُنِي
 لَوْ أَنَّ (نَيْتَشَهُ) جَاءَنِي بِحِمَاسِهِ
 صَرَخَاتُ وَجْدِي فِي الصَّبَاحِ تَلَطَّخْتُ
 رَبَّاهُ ! أَيُّ جَرِيْمَةٍ قَارَفْتُهَا

(٣٤)

تَدْخُلُ الْحَبَّ بِأَطْوَارِ السُّلُوكِ
 مَا كَانَ لِلرَّازِي وَلِلْغَزَالِي
 لَوْ لَمْ يَعَانُوا رَغْبَةَ الصَّبَاحِ
 فَيَا رَيْسَ الرِّثْلِ كُنْ حَلِيمَا
 تَنْقُصُنَا شَجَاعَةَ الرَّسُولِ
 إِيَّاكَ يَا قُبْرَتِي مِنَ التَّلَفِ
 يُعْزِقُ الْقُلُوبَ الْجَنَاحَ أَنْ يَطِيرَ
 يَكْشِفُ لِلْعَبِيدِ أَسْرَارَ الْمُلُوكِ
 وَالرُّومِي وَالْعَطَّارِ مِنْ نَوَالِ
 وَصَرَخَةِ الْحَيْرَةِ فِي الصَّبَاحِ
 لَا يَقْتُلُ الْيَأْسُ فَتَى حَكِيمَا
 لَا تَنْقُصُ الرَّغْبَةُ فِي الْوَصُولِ
 فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ هَذَا الْعَلَفِ
 وَرَبَّمَا يَتْرُكُهُ كَسِيرَا

أَعَزُّ مَنْ أَبْهَةَ الإسْكَندَرُ
دَروْشَةً تَنِمُّ عَنْ قَلْبِ مَلِي
شَرِيعَةُ الشَّجَعَانِ هَوْلَاءُ
وَمَا لَهُوْلَاءُ قَطُّ غَالِبُ

وَمَلِكُ (دَارَا) نَظْرَةُ الْقَلْنَدَرِ
فِيهِ عَيْبَرُ أَسَدٍ عَلِيٍّ
الْجَهْرُ بِالْحَقِّ بِلَا رِيَاءِ
هَذَا أَسْوَدُ اللَّهِ لَا تُعَالِبُ

(٣٥)

جَاءَ مَنْ عِنْدَهُمْ كِتَابٌ جَدِيدٌ
فَإِذَا فِيهِ : يَا مَسَافِرُ أَمْسِكُ
رَبَّمَا كُنْتَ ذَاهِباً مِنْ جَدِيدِ
غُصْنٌ طَوِيلاً فَأَنْتَ أَيْضاً عَمِيقٌ
أَنَا (سِيفاً خَرَجْتَ) مِنْ غَيْرِ غِمْدِ
يَجْرَحُ النَّاسَ مِنْظَرِي مِنْ بَعِيدِ
أَيُّ مُسْتَهْتَرٍ بِكُلِّ مَلَامِ
(هَذِهِ الْأَغْيَاءُ تَسْجُدُ لَمَّا
أَمَضَ يَا شَاهِدَ الشَّقَاءِ بِصَمْتِ
بَعْدَمَا الْحَفْلَةُ انْتَهَتْ وَتَوَلَّوْا
وَهَبَ الْمُسْلِمِينَ إِقْبَالَ نَاراً
مَا عَلَى الْكَأْسِ فِي الْحَقِيقَةِ لَوْمٌ
ذَاكَ إِقْبَالَ كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ
وَأَخِيراً وَبَعْدَ لَاي طَوِيلِ

صَرَخَةُ اللَّيْلِ أَوْصَلَتْهُ إِلَيَّا
وَتَفَكَّرَ بِمَا قَطَعْتَ مَلِيّاً
فِي طَرِيقِ كَمْثَلِ تِلْكَ عَسِيرِهِ
وَأَفْهَمَ الْقَضْدَ فَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ
ضَاعَ فِي غَمْرَةِ الْمَعَارِكِ غِمْدِي
وَيَخَوْضُونَ فِي مَرَامِي وَقَضْدِي
خَطٌّ فَوْقَ الْمِخْرَابِ تِلْكَ الْحُرُوفُ
يَقْتَضِي الْأَمْرُ أَنْ يَكُونُوا وَقُوفاً
إِنْ تَكُنْ مَوْضُوعِي لَمْزَقَتْ نَفْسُكَ
جَاءَ دَوْرِي وَقِيلَ : كَأْسُكَ كَأْسُكَ
فَإِذَا النَّارُ ذَاتُهَا فِي ذُبُولٍ !!
خَامِلٌ طَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْخُمُولِ
وَهُوَ مُسْتَغْصِمٌ بِحَصْنِ وَرْخٍ
وَقَعَ الْبَازُ فِي حَبَائِلِ فَخِّي

(٣٦)

أَنَا لَوْلَا مَوْجَةُ الرَّغْبَةِ لَمْ تَوْجِذْ حَيَاتِي
فَحَيَاتِي مَوْجَةُ الرَّغْبَةِ فِي أَعْمَاقِ ذَاتِي

كُلُّ حِينَ عَالَمِي يَضْطَرُّنِي أَطْلُقُ وَجُدِي
 عَلَّ إِنْسَاناً جَدِيداً يَحْمِلُ اللَّوْعَةَ بَعْدِي
 مَكْنُنٌ لِلنَّارِ أَنْ تَحْرِقَهُ عَشُّكَ هَذَا
 تَسْأَلُ السَّاقِي إِذَا لَمْ تَكُ ظِمْآنَا لِمَاذَا
 لَا تَقُلْ فِي الْغَرْبِ رَأياً بِبَرِيْقٍ يَتَعَلَّقُ
 مَاسُوه مِنْ كَهْرِبَاءٍ جَعَلْتَهُ يَتَأَلَّقُ
 لَا تَتَوَقَّ النَّفْسُ أَنْ تَخْكُمَ آفَاقَ الْفَضَاءِ
 حِينَ لَا تَنْصَفُ الْأَبْصَارُ حَقّاً بِالْمَضَاءِ
 أَنَا لَوْ لَمْ تَسْقِطِ الْأَوْرَاقُ عَنْ عَشِّي اللَّطِيفِ
 عَجَزَ الصَّيَادُ عَنْ صَيْدِي وَلَوْ وَقَتَ الْخَرِيفِ
 عَنْ قَرِيبِ تَقْلِبِ النِّيَّاتِ أَقْدَارَ الْخِلَائِقِ
 لَيْسَ أَوْهَامُ غَيْبِي إِنَّهَا جَدُّ حَقَائِقِ

(٣٧)

الْعَقْلُ هَذَا لَيْسَ يَقْهَرُ وَسْعُهُ وَسْعَ الطَّبِيعَةِ
 وَجْهًا لَوَجْهِ ضَعْفُهَا وَانْظُرْ لِقَوَّاتِهَا الْمَطِيعَةَ
 الْحَقُّ : أَنَّكَ قَدْ أَضَعْتَ الذَّاتَ فَاطْلُبْ مَا أَضَعْتَ
 وَعَلَى الْعَطُورِ وَعَالِمِ الْأَسْوَانِ سَيَطُرُ مَا اسْتَطَعْتَ
 وَانْظُرْ مَقَامَ الْقَبَّةِ الزَّرْقَاءِ لَيْسَ لَهُ حُدُودُ
 وَاخْتَرِ مَقَاماً مِثْلَهُ يَسْمُو بِذَاتِكَ فِي الْوُجُودِ
 أَشْجَارُ حَوْرِكَ عَارِيَاتٌ حَوْلَ قَارِعَةِ الطَّرِيقِ
 أَوْقِفْ تَمَرُّقَ وَرْدِكَ الظَّامِي وَتَحْطِمْ الشَّقِيقِ
 لَمْ يَسْتَطِعْ ذَوْقُ الطَّبِيعَةِ أَنْ يَوُكِّدَ وَسْعَهُ
 اضْنَعْ بِذَوْقِكَ أَنْتَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ هِيَ صُنْعُهُ

شيوخُ القومِ أجدرُ بالرِّثاءِ
 حصائدُ جهودِهِم ظلماتُ شكٍّ
 بنفسكِ ثِقْ تجذِّ (نغفور) عبداً
 أنا حزني على هجري تبدَّى
 بسكرةٍ قربه ، بصُراخٍ وجِدٍ
 ومنْ يكُ شأنُه حبّاً وسكراً
 جرى قدرُ الجمالِ بكلِّ قلبٍ
 وذنبُ الرَّاجعينِ بلا نصيبٍ
 أما كانت بنو تيمور تركا
 أولئك في ترابِ السند ضاعوا
 بمِ النُّشاكِ في الحَرَمِ استبدَّت
 ولم تَقوَ الملوكُ عليه يوماً
 فما هو سرُّه ؟ الشَّاهين هذا
 يطيرُ على القُصور فيزدريها
 وأربابُ الكنيسةِ في سواءِ
 جَرَتْ في قلبهم مجرى الدِّماءِ
 ويسألُ عن رضاك (ابنُ السماء)^(١)
 بآلافٍ من الطُّرُقِ الدَّقِيقَةِ
 رَجَعْتُ به ، بدهشته السَّحِيقَةِ
 تجاوزَ حدَّ إدراكِ الحقيقةِ
 إذا كان الهوى كان الجنونُ
 من الحسناء تفضُّحه العيونُ
 بنو عثمان أتراكُ كذاكا
 وصخرُ أولاءِ مرتفعٌ هناكِ
 بإقبالِ الذي هَجَرَ القُصورا
 وقد ملأتِ عوالمها نُسورا
 ملوكيَّ لجينائي خفيفُ
 ويدمي قلبه الحَرَمُ الشريفُ

العلمُ أطلَقَ الحياةَ الراقدةَ
 من كلِّ سحرٍ عصرنا مُحاشُ
 ذو العقلِ مثلُ نصلِ سيفٍ عقلُهُ
 والحبُّ مسكينٌ شريدٌ زاهدٌ
 حُجَّاجُهُ تَظَلُّ في تلْهُفٍ
 في شعوذاتٍ من عصورٍ بائدةِ
 بلا عصا الكَلِيمِ لا يُعاشُ
 بألفِ أسلوبٍ يتمُّ صقلُهُ
 ومالُهُ إلا طريقٌ واحدٌ
 لا يعرفونَ تَرَفَ التوقُّفِ

(١) ابن السماء : إمبراطور من أباطرة الصين ، وكذا نغفور ، وللأخير تتسبُّ الكؤوس
 النغفورية التي يُضرب بها المثل بالجودة والندرة .

مسافرون دائماً وإن هُم
ليس يسيراً هاهنا انتقالك
وأنت لو ألقيت ذلك الثقل
يا أنت ! ثروة الحكيم طرّاً
والآخرون جهدهم مُتَّهَبُ
أرواحهم ترزخ في المصائب

(٤٠)

بدوا مقيمين لم يراهم
بالزاد والمطية انشغالك
لكنت كالنسيم تعبُرُ الجبل
في أن يعيش ويموت حُرّاً
نفوسهم كما يريد الذهب
ورأسمالهم من الضرائب

حياة تُمزق صَدْرَ الفضاء
مغامرة خلف أخرى تخوض
كذلك حُبُّك لا ينتهي
هناك تجارب أخرى له
إذا ضاع عُشٌّ فلا تكتب
ولولا بساتين أخرى هناك
فطر ليس للباز أن يستريح
ففي دُربنا ألف قلب جريح
سمواتنا تلك لا تنتهي
فإياك أغلالهم إنها
أنا قد تخلّيت عن حُمقهم
وأصبحتُ لي أصدقاء هناك

(٤١)

(نظمت في فرنسا)

يرى الغرب أن بقاء الرِّفاه أن يستمرّ بهذا النهج

فكم يفعل الطَّيِّشُ في عقله ويُنْقِصُ رغبته من نُضجِ
لقد بلغت صرختي أوجها كذلك أعلَنَ شيخُ الحَرَمِ
وحذَّرني اليومَ من كَتَمِها لِتَسْمَعَ ذلكَ كلُّ الأُمَمِ
أنا لم أقل ﴿ أرني ﴾ مرةً كموسى لأعرف أسرارَه
فموسى جديرٌ بالحاجِهِ ومثلي جديرٌ بما اختارَه
وبالرُّغمِ من أنَّ أهلَ القلوبِ تُهتِكُ أسرارَها في البلادِ
فإنَّ الطرائقَ هذي الجريئةَ يَضْعُبُ إطلاقُها للعبادِ
تضرُّعُ حاشية السالكين عيونٌ ضعافٌ وقلوبٌ هُلُوعُ
فأين الحماسةُ أين النَّضارةُ أين السَّكينةُ أين الدُّمُوعُ
أنا لم أزل عطشاً ما ارتويتُ كمثلكَ عطشانٌ لم ترتوِ
هو الحبُّ أسمى صعودٍ لنا ولكنَّنا فيه لم ننْضَوِ
نهضنا بأسلوبِ دروِشنا فكأنَّتَ لنا أرضرومٌ وشامُ
ولما زهَدنا بأسلوبه ذهبنا دواليك خلف الأنامِ

(٤٢)

ذاتك فالذَّاتُ التي تَدْعُمُها معرفةٌ يغبطُها جبريلُ
وإنَّ أضافَ الحبِّ عوناً أَطَلَقْتَ في النَّاسِ ما يُطْلِقُ إسرافيلُ
أنا خليلُ هذه الأصنامِ وعُدَّتِي معرفةُ الأيامِ
في النَّارِ الْقَوْنِي كإبراهيمَ فكنتُ في النُّيرانِ في نعيمِ

قافلةُ القَومِ بوضعِ يؤسفُ حائرةٌ يَسْحَرُها التوقُّفُ
ورُغمَ هذا غِبْطَةُ السَّيَّاحِ تجاوزتْ غِبْطَةَ تِلْكَ الرَّاحِ
أنا على شِعْري شديداً الغيرةُ فقمِ إذا كنتَ بلا بصيره
أنا مجالي الذَّاتُ في مشاعري نبيلةٌ كحدِّ سيفِ باترِ

تذكرت رحي دروس الغرب أيام حوره سكرن جنبي
فآه يا لفرحة الحضور وآه من منطقه المغرور

هذا الزمان ليله شديد وأنت عن قافلتني بعيد
لهيب زفرتي هو المصباح لك يبدد الليل ويقشع الحلك

حكاية ليس لها نظير بسيطة لكنها ثير
ثبات إسماعيل مبتداهها ومقتل الحسين منهاها

(٤٣)

غصن العقيدة في المدارس عار ومذاق أديرة بلا أسرار
بالرغم من طول الطريق وعشره عيناك ظاعنة وقلبك سار
أسفاً لدين ليس يكسب دولة ولدولة وقفت كخيبر وجهه
من أين للاثنين كره حيدر يلقي سخافتها ويصلح فقهاء
لا تبلغ العلماء باطن مؤمن ومذاق رغبته ولطف تأمله
أسراره فيما وراء حدودهم وجماله فيما وراء تجمله
وعجوز حانتنا يقول مؤكداً عن صرح أوربة المضي المعتم
هذي المرايا من جليد مالها وسع لتعكس نور قلب المسلم

(٤٤)

الحادث المحجوب قبل ظهوره للناس تغلنه نقاوة مهجتي
لا حظ للأفلاك من دورانها فالسر مظهره جسارة صرختي
أترى بلا روح شرارة أنتي أم أن عشبك ما يزال ندياً

صرخاتُ هذا القلب في صلّـالـه
لن يـخـمـد اللّـهـبُ الـذي في طـيـنتـي
بالزّغـم من قـدـرٍ قد ازتـبـكـت به

(٤٥)

ما وجَدنا وقد بَحَثنا كثيرا
يـدّـعـي أنّـه يـخـوضُ حـروباً
كـيـفَ زالـت حـرارَةُ الحـبِّ عـنـه
حـرْبـه لـم تـكـن لـيـغـنـم شـيئاً
كُتِبَ القَومُ عـنـده فـوقَ بـعضِ
ما تـبَقَّى لـديـه إـلا حـكـايـا
ما تـعـجَّبـتُ أن يـشـيـعَ خـرابُ
عـجـبـي مـن نـهـايـةٍ مـثـلَ هـذـي
امـضِ يا شـاهـدَ الشّـقـاء بـصـمـتِ
مـثـلَ سـجّـادَةِ الصّـلاة نـفاقاً
الـكـتابُ الـذي يـمـوجُ بـياضاً
يـمـلأُ الحـشـرَ حـيـرةً وارتـبـاكاً
وسـواءٌ كان ابنُ آدم هـذا
وعـنِ العـالـمِ الـذي هـو فـيـه
ذـهـبـت سـكـرةُ المـسـاء ولـكـنْ
ولـها فـيـه طـعـنةٌ بـعدَ أُخـرى
لا يـذمُّ البـسـتانُ مُرَّ غـنـائـي
رُبَّ سُمٍّ يـكـونُ تـريـاقَ داءِ

تُذـكـي لـهـيـبـك بـكـرةً وعـشـيـاً
حـتّى يُحـرّرَ كـلَّ شـيءٍ فـيـها
فُضِّحـت شـيـوخُ الشُّـكـر في نادـيـها

في حـواشـي الصّـوفـيِّ إـلا غُـباراً
كَبَدَتْـه هـزـيـمـةٌ وشـنـاراً
وارتـضـى هـذه الحـيـاةَ السّـقيـمةَ
وقُصّـاراه أن يـكـونَ غـنـيـمـه
يـصـلُ الـلـيـلَ حـولـها بـالنّـهارِ
أولـيـاءٌ يـقـولـها للـصّـغـارِ
في الزّوايا وفي تـكـايـا السّـلـوكِ
كـيـفَ دَبَّتْ إلـى قُصُورِ المـلـوكِ
أيُّ يـومٍ مـضـى عـلـيـك كـيـومـي
يَظْفَحُ التّـاجُ في مـنازِلِ قـومـي
والـذي عـنـدَ كـلِّ مُلّا وصـوفـي
ووقـوفاً يـكـونُ مـثـلَ وقـوفـي
عـرـيـباً أم لا ، معـانـيـه يـيـضُ
وعـنِ العـالـمِ الأخـيرِ يـفـيـضُ
نـظـرةُ السّـاقـي في الفؤاد كـنـضـلِ
فَسَلُّوه فـديـثـه لـمَ قَتـلـي ؟
يَضْبُغُ الرُّوحُ مِنْـه لـوناً فـلـوناً
ودواءٌ يـكـونُ للـدّاءِ عـَوْناً

أقصى مواهب أوربة الشيطنة أن
 كم وردة قصفت في روضنا يدها
 حرارة الحب من خمر اليقين وما
 هب المدارس يا رباه حُرقتها
 متى سمواتنا تنشق وزدتها
 هذي السماء التي أغرت كواكبنا
 سماء شيطان ما فيها ملائكة
 العقل حجتنا طراً فما أحد
 هذا الجنون - ومن يدري حقيقته -
 العقل عند جميع الناس منهجه
 والمؤمن الحق هذا الكون أجمعه

تقلب العَصْرَ في ليل من الشبه
 ما مزقت طوق زرّ واحد فيه
 لمنكر الحب إلا الوهم يُفنيه
 فحسنها بارد لا رُوح تُذكيه
 متى ابن آدمنا هذا ترقّيه
 اللازوزديّة المجنونة الفرحة
 رأس منير واكن نظرة وقحة
 إلا وللعقل مصباح بمذهبه
 لعله هو أيضاً أن يُصاب به
 ولم يكن من خصوصيات إنسان
 ميراثه ، وأنا - لولاك - برهاني

ليس سهلاً فقبل بدئك فارجع
 موضع الدرة الفريدة صعب
 ما لسنجان أول (طغرل) حظ
 حيرة الفكر أم حماسة رومي ؟
 هي أسلوب ثعلب في ظلام
 حيلة الإنكليز تظهرها أم
 أهي في هذه الشريعة قامت
 أم هي الوجد في فؤاد ملب

يرفض البحر أن يقول لماذا
 وخلال الطريق تعرف هذا
 من عيون القلندر^(١) الملكية
 وجد موسى أم فكرة فلسفيه ؟
 أم (يد الله) في طريقة حبه ؟
 هجمات التركي داخل حربه
 تحرس المغبد الذي شيدته ؟
 يمسك الكعبة التي ألهته

(١) من شيوخ المتصوفة في الهند ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

كُنْ غَنِيًّا وَكُنْ إِذَا شِئْتَ عَبْدًا
كُلُّ هَذِي الْأَلْقَابِ الْقَابُ وَهَم

أَوْ أَمِيرًا مَا بَيْنَ (سَمْعًا وَطَاعَةً)
لَا يَكُونُ الْوَصُولُ دُونَ شَجَاعَةٍ

(٤٨)

لَيْسَ لِلْجُنْدِ غَيْرُ شَكْلِ سَيُوفٍ
فِي عُرُوشٍ وَفِي جِيُوشٍ بَحْثًا
لَمْ تَحْصُلْ مِنْ (لَا إِلَهَ) ضِيَاءُ
أَصْبَحْتَ مَعْبَدًا لِأَصْنَامٍ وَهَمٍ
يَصْنَعُ الْحَرْ كَوْنَهُ بِجَهَادٍ
لَسْتَ أَجْرَةً لِقَصْرِ غَرِيبٍ
كُلُّ مَا فِي سَمَائِنَا مِنْ مَدَارٍ
وَمَصِيرُ الْقُلُوبِ أَبْعَدُ شَأْوًا
قَالَ أَهْلُ الْبَحَارِ أَهْلُ الْبَرَارِي :
وَاقِفٌ فِي طَرِيقِ سَيْلٍ عَنِيدٍ
قِفْ قَلِيلًا فَأَنْتَ أَيْضًا قَدِيرٌ
كُلُّ فَجْرِ يَطْلُ تَبْدُعُ كَوْنًا
أَنَا فِي حَانَتِي قَنَعْتُ بَدَنِّي
أَبَدًا لَا تَقْدُمُ الْخَمْرُ هَذِي

لَيْسَ لِلتَّاجِ غَيْرُ لَمْعَةٍ جَوْهَرُ
مَا عَثَرْنَا عَلَى فَوَادِ الْقَلَنْدَرِ
هَذِهِ الذَّاتُ لِلطَّرِيقِ الطَّوِيلِ
عِنْدَمَا ضِيعَتْ حَوَارِ الْخَلِيلِ
وَيَرَى فِي تَدَخُّلِ النَّاسِ عَارًا
لَسْتَ فِي وَقْعَةِ الْحَيَاةِ غُبَارًا
لَا يَسَاوِي مَدَارَ هَذِي الْقُلُوبِ
مِنْ غِبَارٍ مَشَرَّدٍ فِي الدُّرُوبِ
لَيْسَ لِلْغَرْبِ غَيْرُ رَاحَةٍ يَأْسِهِ
لَيْسَ يَقْوَى عَلَى حِمَايَةِ نَفْسِهِ
وَلَكِ الْحَقُّ فِي اخْتِيَارِ الْحَيَاةِ
صَرْخَةُ الْوَجْدِ فِي عَوَالِمِ ذَاتِي
لَسْتُ مَمَّنْ يَطُوفُ حَوْلَ الْكُنَائِشِ
نَفْسَهَا فِي رَحَابِ تِلْكَ الْمَدَارِسِ

(٤٩)

لَمْ تَهَبْ لِي الطَّبِيعَةَ الْيَوْمَ فِكْرًا
عُدَّتِي طِينَتِي الَّتِي وَهَبْتَنِي
طِينَةً بِالْجَنُودِ تَضُقُّلُ حَسِّي
رَبَّمَا مَزَّقْتُ لِجَبْرِيلَ سِرًّا
طِينَتِي لَا يَهْمُهَا صُنْعُ عَشٍّ

ثَاقِبًا ، غَيْرَ أَنَّي لَا أَبَالِي
طِيرَانِي الْمُخِفُّ عَبْرَ اللَّيَالِي
طِينَةٌ تَجْعَلُ الْغَبِيَّ نَبِيَهَا
وَرَأَى قَوْلَهُ : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾
مِنْ دَقَاقِ الْأَغْصَانِ فِي الْبُسْتَانِ

وجبينُ النُّجوم يَرْشَحُ عاراً لبريقِ الدُّموعِ في أجفاني

(٥٠)

يَقْصِدُ المُبْدِعُ الغُيُورُ بلاداً لمعانيه غيرَ كلِّ البلاد
لا إلى الكوفة التي ما استطاعت كَسَرَ سيفٍ ولا إلى بغداد^(١)
نظراتي التي تموجُ فتوناً والتي تملأُ الفؤاد حُبوراً
مَنْحَتني في حانةِ الغرب صحواً ونشاطاً وغبطةً وسُروراً
لست أحتاج فيلسوفاً ومُلاً موتُ قلبٍ هما وفسقُ بصيره
كيف لإلهوتي أبدي ازدرائي حين ألقاه وهو رأسُ العشيره !!
الدَّراويشُ يطربون لهذا والدَّراويشُ دأبهم غيرُ دأبي
لستُ أغنى بمثلِ هذا فدعني أبحثُ اليوم عن تفتُّح قلبي
ممكنٌ يُشترى غنى (أبرويز) ومحالٌ جراح (فرهاد) تُشْرِى^(٢)

(١) بغداد : عاصمة العباسيين إذاً فهي السلطة المادية ، والكوفة عاصمة علي رضي الله عنه إذاً فهي السلطة الروحية .

(٢) فرهاد : شخصية إيرانية أسطورية وقصة حبه لشيرين مشهورة في الأدب الفارسي ، كان فرهاد قاطع أحجار فشغف بالملكة شيرين شغفاً جنونياً وهي زوجة أبرويز وقبل من أجلها معاناة كل المصاعب أمره وزير أبرويز بحفر قناة في الجبل لجرّ بحر اللين لعلاج الملكة التي زعم أنها مريضة فحفر فرهاد القناة ، وقيل له عندئذ : إن الملكة ماتت فانتحر عند سماع النبأ .

وعندما علمت الملكة بانتحاره وكانت صحيحة سليمة مضت إلى قبر العاشق وعندئذ انفتح القبر ومضت شيرين للحاق بالحبيب فرهاد . وتناول الشعراء هذه الأسطورة بطرائق مختلفة ، فرأى فيها بعضهم أنَّ الحبَّ لا بدَّ أن يفتك بالمحبِّ والمحجوب معاً . وكان آخر تأويل إنكار استغلال الفقير ورأى في ذلك صراعاً بين رأس المال وبين العمل . الأصل .

قلت : وقد نقل الملحمة إلى العربية المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وانظر كذلك (مختارات من الشعر الفارسي) د . محمد غنيمي هلال ، الدار القومية للطباعة والنشر =

والذي يجعل القلبَ حراً
لستُ عن متعةٍ أمزق ثوبي
طمعي الفرد والمطامع كثرُ
رأي غاندي إن كنتَ غير قوي
ليس إلا عصا الكليم لسحرٍ

(٥١)

إقبالُ تُحزِنُه الملائكةُ التي
وقحُّ يَهْتِكُ للطبيعة سرَّه
لا ينتمي للأرض وهو سليلها
متعدِّدُ الأوصاف في قدراته
قلْبُ رياح الخدِّ تملأ صدره
في ظلِّ مذهبه الملائكةُ اهتدت

(٥٢)

لُعبةُ النَّردِ لم تكن دونَ نردٍ
خمرةُ القوم لا تُنال بِبَحْثٍ
كأسُ جمشيدٍ لمعها في دوامٍ
ليس قلبي وليس قلبك فابحث
ليس للعاجز الضَّعيفُ حياةٌ
لا تقل في الصَّلَاة : وجهت وجهي
نحن سَجَّادةٌ له حركاتُ
إنَّ حرباً أبطالها نحنُ حربُ

أنَّه لا يخاف للسرِّ نشرًا
تلك أسرارنا وليس وساوسُ
هبةُ الفكر من رُقَاد المدارسُ
غيرُ مجدٍ في ملَّتِي واعتقادي
برهمي مشعوذ في البلادِ

عابت أمام الله جرأة صرختيه
ويجمل الدنيا بلؤلؤ نظرتيه
لا الشام موطنه ولا قاشانُ
ملكٌ وفي رغباته إنسانُ
ويعيقه بستانه المتناهي
لطريق آدم في رحاب الله

أرني مظهرًا لتلك المغازي
فاز روميُّ بها وأخفق رازي
أي ملكية بلا شعوذاتٍ
إن تمكَّنت في صدور الفئاتِ
ودواء الضَّعيف ذوقُ العبادِ
فصلاتي كما صلاتك عادةٌ
فوق سَجَّادةٍ بغير حراكٍ
تعلنُ النصر قبل بدء العراك !!

لغة التُّرك والعَرَب
 لكن الحبَّ لم يكن
 حُسْبُهُ البعدُ عنهما
 حُسْبُهُ الحُبُّ إنَّه
 نحنُ أصنامُ آزرِ
 والذي يطلبُ العُلا
 لست نفعاً مجرّداً
 من جنونٍ مثابِرِ

(٥٣)

عذبةٌ ملؤها الطُّرب
 ملكُ تركٍ ولا عَرَب
 حُسْبُهُ كنزُه الدَّفِينُ
 لهجةُ النَّاسِ أجمعينُ
 صنعةُ العاجزِ الذَّلِيلِ
 حُسْبُهُ صنعةُ الخليلِ
 إنَّك النُّجْمُ والمدارُ
 ذلك النُّقْعُ والغُبَارُ

دوى النداءُ على القوافلِ معلناً
 أواهُ ماذا يفعلُ السَّاري الَّذي
 انهض فخمرك لا تناسب هاهنا
 سيَّان كان القلبُ عبداً طائعاً
 فالدُّربُ يا هذا المسافرُ صعبةٌ

بدءَ المسيرِ فقم مع الرُّكبانِ
 يتوقَّع التَّرحالُ كلَّ أوانِ
 ديراً وعصرك غيرُ طبعك فانِ
 أو لم يدغ للعقلِ من سلطانِ
 وطويلةٌ وكثيرةُ الأشجانِ

(٥٤)

نَفْسِي يُوجِّجُ نارَ وَرَدَتِكَ الَّتِي
 لم يهدأ البستانُ منذ أتتهُ
 أيقظتُ قلبَ العارفينِ بِصَدْرِهِم
 ووهبتُ للجيلينِ ذوقَ لهيبِهِم
 أنا أعجميُّ الحبِّ إلا أنني
 كم ثوبٍ إحرامٍ على متضرِّعِ

خَمَدَتْ لواعجُها على الأغصانِ
 فانظر لآثاري مدى البُستانِ
 وهتكتُ للبُسطاءِ سرَّ الحانِ
 وملأتُ أنفُسَهُم برشحِ دِنَانِي
 أطلقتُ في الحَرَمِ الشريفِ لِسَانِي
 مزقتهُ باللَّحْنِ من ألحاني

متلطخُ قلبي بنظرة عادِلٍ بسهامِ سيدنا الحُسينِ رماني
 في الشَّامِ أم في الكوفةِ النَّزْدُ الَّذِي كانا على شقَّيه يختصمان
 أخشى يكونُ كلاهما متعثراً فالنَّرد هذا ماله شقَّان
 لِمَ تعجبون لمسلمٍ متحرِّقٍ ورداؤه قطعٌ من الأحزانِ
 فقرُ الجُنَيْدِ وملكُ سنجارٍ به وجنونُ طيفور الطَّلِيْقِ العاني
 بالرُّغمِ ممَّا قلتُ قبحي ظاهراً تأذَى به عيناك حين تراني

(٥٥)

هذا الهلالُ بصدقهِ يتسامى أبداً يريدُ الكرَّ والإقداما
 لولا تجاوزه لكلِّ وجوهه ما كان في فلَكِ السَّماءِ إماما
 لا تفتحُ الأنسامُ بُزعمَ وردةٍ بلهاءٍ عن شمسِ الصُّباحِ تحيدُ
 طهرُ العيونِ هو الحقيقةُ كُلُّها والقلبُ في حِضْنِ العيونِ مريدُ
 هذي الشَّقائِقُ تَحْرِقُ القلبَ ارتمتْ في الحَقْلِ ما احتملتْ سيوفَ سنايلةٍ
 كوقائعِ (الغوري) و(أبيك) ^(١) عَطَلَا ونشيدِ (خسرو) في قلوبِ بلايلةٍ

(٥٦)

يا أيُّها الإنسانُ كُنْ يَقْظاً فَدَرْبُكَ فِي السَّماءِ لا ترمِ نَفْسَكَ خَلْفَ هذا الصُّبْحِ أو ذاكِ المساءِ
 الدَّزْبُ ذلِكَ ماله زمنٌ ليأسفَ ركْبُهُ ومَن الَّذِي يدري ويَعْرِفُ أينَ تَنْشُبُ حَرْبُهُ
 لا سرَّ ينبِضُ في التسكُّعِ والتمخُّلِ واليقينِ فوق المـواخيرِ والمـساجـدِ والكنائسِ أجمعينِ

(١) هو قطب الدين أبيك المتوفى سنة (١٢١٠م) مؤسس سلالة المماليك الأتراك ، أولى سلالات سلطنة دهلي بنى مناراً عالياً يُسمَّى اليوم بـ « قطب المنار » (وهي من أهم الآثار الإسلامية في الهند) وخلفه التمش .

اللؤلؤ الفرد الذي قد نَدَّ عن صدرِ المَحَارِ
مجلاله في دَمْعِ الصَّبَاحِ وليس في خِدَعِ الحَضَارِ
القرمزي الخدُّ لا يحتاج مسحوقاً يباغ
والعازف الموهوب لا يرضى بالألحان الرُّعاع
ألحانُ هذا العصر يلزمها الكثير من الذكاء
إذ طالما الصَّوتُ الذي في السرِّ يخطىء في الغناء

(٥٧)

يَمُمْتُ مدرسة الأسود رأيُّها
جارت عليها الحادثات فأصبحت
ما للقوافل من يقود ركبها
من أين للعصفور ذوقُ نشيده
لآه لأنفاسٍ مَضَتْ وكأنَّها
وهي التي أذكت لهيبَ جماله
في ليل دهشته هناك وَوَجْدِهِ
هل دهشة أخرى وَوَجْدٌ آخرُ
جُرَحي تَأَلَّق كالبروق بليلهم
وليعلم الغُرباءُ ليست فجةً

تبكي أباطرة الزَّمانِ الذَّاهِبِ
مرعى لخرفانٍ ووكرٍ ثعالِبِ
بحوارِ موسى في رحابِ الله
والجمع ساءَ والمردُّ لاهِ
طيفٌ ومرٌّ بذلك البُستانِ
وهي التي رَوَّته بالألحانِ
ظلماتُ تاريخٍ يُكرِّرُ نفسَهُ
يروى حقيقته ويملاً كَأَسَهُ
ليروا حقيقة هذه الحسناءِ
ثمراثُ هذا السَّيرِ في الصَّحراءِ

(٥٨)

أَتَذْكُرُ البيتَ الذي قد قاله
(سيظلُّ عالماً برُغمِ صعبه
البحثُ يلزمه مواهبُ باشقِ
سلمان^(١) ذاك الشاعرُ الحرُّ الأمين
(سيظلُّ) مفتوحاً أمامِ العاملين)
وفؤادُ ليثٍ لا يخاف جروحاً

(١) هو مسعود سعد سلمان : شاعر فارسي مشهور ، ربما وُلد في لاهور في العهد الغزنوي
(إقبال) .

من غير معرفة وغير قراءة
دغ عنك طاووساً يتيه وبلبلاً
السُرُّ ليس بنغمة وبصورة
يجدُ الشُّجاعُ طريقه مفتوحاً
يَشْدُو فليسَ السُرُّ في الاثنينِ
السُرُّ في سَمْعٍ ورقية عينِ

(٥٩)

المعرفة أم التجرد

ليس يقوى على القَلَنْدَرِ دهرٌ
سرُّه ليس في العلوم ولكن
هي ترمي لصَقْلٍ عَقْلٍ وفكرٍ
هو دربٌ بذاته مُسْتَقْلٌ
هو عند الصُّعاب عيسى وموسى
هو لِلسرِّ والبصيرة روحٌ
هو سكرانٌ بالفضيلة سارٍ
مُطْلَقُ السُّكر في الحقيقة حالٌ
الذي يقتضي التجرُّد شيءٌ
نظرةُ النَّفْسِ لِلْقَلَنْدَرِ سيفٌ
واحدٌ من جنودها الحقُّ يُغني
وإذا المرءُ كان صاحبَ قلبٍ

قلبه تحت عَرْشِهِ مُسْتَقَرُّهُ
علمه بالتجرُّد الحقُّ سرُّهُ ؟
وهو يرمي لصَوُغِ عَيْنٍ وقلبٍ
وهي بحثٌ على مجرَّد دَرْبٍ
وهي للنَّاسِ فيلسوفٌ وقاضٍ
وهي ليست سوى أقاويل ماضٍ
وهي سكرانةٌ بِخَمْرِ الرَّذِيلَةِ
ليس فيه رذيلةٌ وفضيلةٌ
ليس سِيَّانٍ والذي يقتضيها
طَبَعُهُ الذَّاتُ الَّتِي يقتضيها
عن جيوشٍ تخاف وَهَمَ الفناء
كَسَرَتْ عَيْنُهُ مَرَايَا السَّمَاءِ

(٦٠)

وقف الجميعُ يعارضون ندائي
ذهبوا مع الصَّحراء خَلْفَ جنونهم
حمداً لِمَنْ رَحِمَ العباد فأَسَدِلَتْ
وبقيتُ وحدي مرةً أخرى وَقَدْ
فقهاؤنا وقفوا بصوتٍ واحدٍ

لم يُجْمِعُوا إِلَّا على إقصائي
وبقيتُ مجنوناً بلا صحراء
أستارُ كعبتنا بوجهٍ صياحي
طافتُ على الحَرَمِ الشريفِ جِراحِي
دونِي وما حاروا بأيِّ جوابِ

لا مثل أفلاطون بين حضوره
كانت رجال الفكر تنبض جراءة
نفس إذا القرآن ما انتفعت به
إن كنت من وهم بشيء مفرح
في خمر أوربة شعاع ذائب

(٦١)

عجباً من مغامرات ذكي
لم تزل حوله المواجه حتى
كيف ناحث حمامة الأيك قربي
إنني مدرك إلى أين يمضي
قل إن الأتراك بالشعر أدرى
(لا يكون القوي جار ضعيف
ما طقوس المساجد اليوم ؟ ظلم
ما سلوك الكنائس اليوم ؟ سوق
في ردائي الذي تمزق سر
لا يليق الجنون بالعصر هذا
أضع النفس في البحار وغامر
وأقيم بين ضجّة وتلو
هل لمثلي من الفضاء نصيب
جئت للأرض ؟ أم تخلقت منها ؟
كم تعثرت في متاهات ذاتي
بين نفسي من الخصام وبينني
قصة الحب ألف نقش ولون
تارة أملاً الحياة وصالاً

وغيابه والسلب والإيجاب
وحمية أوحث بها الأعراف
لا الكشف ينفعها ولا الكشف
تأسى فإنك في السفينة تغرق
بالرغم من أكارها يتألق

جعل الوجد والتعقل دربا
تركته في ساحة الحب نهبا
ثم كانت عذولة ورقية
مخفل يربك الضمير خطية
فأقرئوهم من شغل إقبال بيتا
كل ما في يديه لولا وليت
وانتهاك لحرمة الساجدين
لوجوه الرهبان والسالكين
من بقايا الأسرار يكشف بعدي
ليس عصراً لذي جنون ووجد
ثم غصن في البحار واعثر عليها
ليس من شاطئ يقود إليها
من ثرائني أنا وما جنسي ؟
قفصي الكون ؟ أم نهاية نفسي ؟
وكأنني في أرض ذاتي دخيل
سهر دائم وليل طويل
وغنائني أشد نقشا ولونا
تارة أطلب الفراق لأفنى

اليقينُ اليقينُ جلسةُ حُبِّ
سِرُّهُ أنْ تقومَ لله شُكْرًا
كعبةُ العُزْبِ أطلقتْ كلَّ لحنٍ
كيف تسمو حضارةٌ ليس فيها
صوت قيثارتِي التي سَمِعَوها
شَهِدَ الغربُ أنني غزنويٌّ
أيهِمُّ الفؤادُ في كلِّ حسنٍ
رُغم أنَّ الزَّمانَ للقلبِ غُلٌّ
أيها المسلمُ الذي يشتكيني
لا تخفْ من صراحتي في حديثي
طيرانُ الأنبياءِ ليس كهذا
ليس يعني إنْ كان جِدُّكَ بازًا
أهٍ للمُسلم الذي بات رسمًا
سألوني فقلت : يوجد ، قالوا :
لا يبالي الدَّرويشُ عُسْرَ طريقٍ
اسألِ الله أنْ تكونَ بصيرًا
إنَّها الذَّاتُ عندما تتجلَّى
إنَّها نَفْسُها حجابُ إلهٍ
تَصِلُ الذَّاتُ قَابَ قَوْسَيْنِ لكنْ
كلُّ شيءٍ هناك تُغْرِبُ عنه
صَنَمُ العَيْنِ كلُّ لونٍ تراه

من خليلٍ بنارِ نمرودَ يُمَسِّكُ
وقصَّاراه أنْ تلوذَ بِنَفْسِكَ
طافت الفرسُ والمغولُ عليه
حرمٌ يجمعُ القلوبَ إليه
أعجميٌّ لكنَّ لحنِي حجازي
حين جرَّعْتُهُ مصيرَ إياز^(١)
أم يُغْنِي لوحده في الزَّحامِ
لا يذلُّ الزَّمانُ قلبَ هُمامٍ
لا تُلْمِني فأنتَ تفضحُ عينَكَ
إنَّ هذا الحديثَ بيني وبينكَ
مالكَ اليوم في السَّماءِ اجتيازُ
أنَّك اليوم بالوراثَةِ بازُ
شَغَلْتَهُ عن الحياة جُدُودُهُ
أينَ سلطانُهُ وأينَ وجودُهُ
ويرى العُسرَ عونَهُ ونصيرَهُ
فسلاحُ الدَّرويشِ نورُ البصيرةِ
تَنعُمُ النَّاسُ في ظلالِ النُّبُوَّةِ
عندما تأخذ الكتابَ بقوةِ
لا ترى نَفْسُها بعرشٍ وكرسي
صرخةُ الفَجْرِ في قرارةِ نفسي
يجعلُ الكونَ هيكلًا للعُقُولِ

(١) كما قصَّ الغزنوي صفائر إياز التي تنبض إغراءً هكذا فعل إقبال بصفائر أوروبة فعاد منها
وقلبه في صدره وفي يده قصاصة شعرها منادياً .

إن الحسن الذي يمكن للمقص أن يزلزله لا يستحق أن يكون كعبة للقلوب .

مُمْكِنٌ أَنْتَ أَنْ تَكُونَ خَلِيلاً
فِيمَ هَذَا الْمُحِبِّ يَغْبِثُ سُكْرًا
لَمْ تَزِدْهُ الشُّبَاكَ إِلَّا حُبُورًا
عِلْمُ رَازِي تَهَوُّرٌ وَانْحِدَارٌ
قِمَّةُ الشُّكْرِ وَالْمَحَبَّةِ تَبْدُو
أَيْنَ مَنْ أَطْلَقَ الْحَيَاةَ بِعَقْلِي ؟
هُوَ فِي عَزْلَةِ الْفُؤَادِ مَقِيمٌ
أَنَا لَا أَرْكَبُ الْهَوَادِجَ هَذِي
أَرْشِدُ الرِّكَبَ لِلطَّرِيقِ وَأَمْضِي
حَطَبُ الْمَوْقِدِ الْغَلِيظِ مُمْلٌ
أَنَا لَا أَمْنَحُ الْحَصَادَ لِحَقْلِ
قَدْ تَنَفَّسْتُ لَيْسَ مِنْ نَارِ قَلْبِ
شَعْلَةُ الْفِكْرِ لِلطَّرِيقِ ضِيَاءُ
أَرْضُنَا هَذِهِ لَطْهَرِكَ تَهْفُو
قَلْبُكَ الْمَطْمَئِنُّ قَبْضَةُ نَوْرِ
عَنْ يَدِ اللَّهِ طَرَزَتْ لَا عَنْ غِبَاءِ
وَلَكَ الْخُورُ وَالْمَلَائِكُ صَيِّدُ
أَثَرِي مَا لِلْمُسْلِمِينَ نَصِيبُ
دُمُهُمْ كَانَ لِلشُّعُوبِ مَنَارًا
ذَاكَ أَنَّ الضُّلُوعَ خَارَتْ قُوَاهَا
سَجَدَاتٌ رَتِيبَةٌ فِي خَمُولِ
أَيْهَا الْمُسْلِمُ الْمُثَابِرُ يَرْجُو
كَنْ وَحِيدًا وَوَحَّدِ اللَّهَ وَاكْشِفْ
كُنْ كَمَا الْمَوْجُ كُلُّ حِينٍ تَرَاهُ
انْتَزِعْ مِنْ يَدَيْهِ ثَوْبَكَ وَارْجِعْ

فِي صُرَاخِ الصُّبْحِ بَعْدَ الْأَفُولِ
بِحِبَالِ الصَّيْدِ الَّتِي أَوْقَعْتَهُ
وَكَأَنَّ الشُّبَاكَ قَدْ أَطْلَقْتَهُ
وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ عِلْمُ الْقَلَنْدَرِ
فِي السُّلُوكِ الَّذِي يَمُتُّ لِحَيْدَرِ
أَيْنَ ذَاكَ الَّذِي أَبَادَ حَصَادِي
وَسْوَالي الْوَحِيدُ أَيْنَ فُؤَادِي ؟
أَنَا لَا أَمْتَطِي الرُّكَّابَ دَلِيلًا
لَسْتُ عَمَّا يُفْتَشُونَ بِدِيلًا
وَأَنَا رَغْبَتِي بِحَرَقِ الدَّقَاقِ
عَمَلِي الْفَرْدُ وَالْوَحِيدُ احْتِرَاقِي
نَفْسًا بَارِدًا أَهَاجَ رَمَادًا
وَدَلِيلٌ لَهُ وَلَيْسَ مُرَادًا
أَنْتَ بَرَهَانُهَا وَأَنْتَ هُدَاها
مَنْحَتُ أَغْنِيَنَّ السَّمَاءَ مَدَاها
أَنْتَ شَاهِينُهُ وَأَنْتَ رَسُولُهُ
ذَاكَ دِينَ وَلَيْسَ شَعْرًا أَقُولُهُ
مَنْ جَنُونَ الْحَبِّ الَّذِي أَطْلَقُوهُ
ثُمَّ هُمْ فِي ظِلَامِهِمْ أَهْرَقُوهُ
لَمْ يَعِدْ بَيْنَهَا لَهَيْبٌ يَصُولُ
وَصَفُوفٌ مُعُوجَةٌ وَذُهُولُ
ثَوْبَ تَقْوَاهُ كَنْ نَسِيَجِ حَيَاتِكَ
سِحْرَ الْوَانِنَا بِقُوَّةِ ذَاتِكَ
يَدْرُسُ الشَّاطِئُ الَّذِي يَبْتَغِيهِ
لَا تَغْرُنْكَ الْإِقَامَةُ فِيهِ

النَّدى شَفَّ عَنْ صُدُورِ وَرُودِ
فَوَّرَ الْخَضِرَةَ النِّسِيمُ صَبَاحاً
أَحْمَرَاؤُ الشَّقِيقِ صُورَةُ نَارِ
شَعْلَةُ الْعَقْلِ لِلْمَسَافِرِ عَوْنٌ
مَا هُوَ الْعَقْلُ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ إِلَّا
وَضَجِيجُ الطَّرِيقِ مَنْ فَعَلَ قَلْبِ
لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْخِلَاعَةِ كُفَاءُ
فَوْرَةً مَا لَهَا هُنَالِكَ دِفْءُ
ضَاعَ فِي غَمْرَةِ الْحَيَاةِ فَوَادُهُ
وَالَّذِي يُلْهَبُ الطَّرِيقَ مُرَادُهُ
نَارَ مَصْبَاحِنَا بِهَذَا الطَّرِيقِ
لَيْسَ لِلْعَقْلِ مِنْهُ غَيْرَ بَرِيقِ

القسم الثالث

في مسجد قرطبة

وقف محمد إقبال - في عام ١٩٣٢ م ، الذي زار فيه إسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود - في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ، وقفة خاشع أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشع أمام العاطفة القوية ، والحبّ الطاهر ؛ الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفنّ الإسلاميّ العربيّ الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كلّ ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أنّ هذا المسجد العظيم صورةً للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلّت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علوّ في الهمة ، واتساع في القلب ، وبساطة في المظهر ، وبراءة في النية ، وثبات على الحقّ ، وإعلان للعقيدة والمبدأ ، وجمع بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكّر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكر - والشيء بالشيء يذكر - بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوّي في الجوّ ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعون ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظير في الأصوات ، والتهافتات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكار الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفّس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ،

وانطلقت موجة من نور ، عاشت بها الدنيا وما بين العالم اليوم وبين الصبح الصادق إلا هذا الأذان الصادق الذي ينادي به المؤمن الصادق .

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامتلأ إيماناً و يقيناً بأن الأمة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة - التي كتب لها الخلود - لا تموت ولا تفنى .

حرّك هذا المنظر الرائع ، وهذا الأثر التاريخي ، وهذا المسجد الغريب الفريد الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرّك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال أن هذا العالم خاضع للفناء ، وأن الآثار التي تخلفها الأجيال ، وأن البدائع الفنية التي تنتجها العبقريّة الإنسانية بين حين وآخر ، كتب لها الاضمحلال والاندثار ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر الذي أكمله عبدٌ مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأن عمله يستمد الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبه القوي الخالص^(١) - والحب هو أصل الحياة الذي حرم الله عليه الموت - إن الدهر سريع ، ورفيق في سيره ، وهو تيارٌ عنيفٌ لا يقف في طريقه شيء ، والحب هو القوة الوحيدة التي لا تقاوم لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إن الحب غير خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصورٌ ليس لها اسم في لغتنا ، الحب هو الذي تجلّى في الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النور

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

والشُّرور ونشوة الخمر ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحبُّ قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب ، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالة لا يزال في سير وانتقال ، وحلٌّ وترحال ، له منازل ومقامات يمرُّ بها ويخلفها وراءه ، هو الذي أطلق قيثار الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعرُ العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كتب لها الخلود فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنّ البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب - الحب - أصبحت مصنوعات سطحية من لون ، أو قرميد ، أو حجر ، أو لفظة ، أو كتابة ، أو صوت ، لا حياة فيها ولا روح ، إنّ المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحبِّ ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحبُّ هو الذي يفرق بين قطعة من حجر ، وقلب خفّاقٍ حنونٍ للبشر ، فإذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصمّاء خفقت وعاشت ، وإذا تجرّدت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت » .

ويقول في عقيدة مؤمنٍ ، ودلال شاعرٍ محب : « إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحران ، إنّ الإنسان في تكوينه وخلفه قبضةٌ من طينٍ لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدرًا لا يقل عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه ، وحمل أمانة الله ، إنّ الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللّوعة واللّذة التي امتاز بها سجد الإنسان ؟ ! » .

وهنا يتذكر محمد إقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكّر أنّه هنديّ النجار ، وأنّه من إحدى بيوتات « البراهمة »^(١) ، ويتذكّر أنّه أمام أثر إسلاميّ عربيّ صميمٍ

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة .

قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهندي - الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام - كيف غمر قلبه الحب والحنان ، وكيف فاض قلبه ولسانه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيد والإيمان . »

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمة الإسلامية العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنه صورة صادقة للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكم البنيان ، كثير الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقة بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلاً للملائكة ، ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « إن المسلم حيٌّ خالد ، لا يزول ، ولا ينقرض ؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة ! »

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربة ، والنيل في مصر ، إلا موجة صغيرة في بحره الواسع ومحيطه الأعظم ، إنَّ له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها العجب ، وله حكايات ومواقف في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق - العصر الجاهلي - بالرحيل ، وافتتح العصر الجديد ، إنَّه إمام رجال الحب والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانه لبنٌ وعسل ، وسيفه علقمٌ وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب

وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتوحيد ، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب
التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله .

ويقبل على المسجد يتحدث إليه ، ويناجيه ، ويقول : « لقد كشفت أيها
المسجد العظيم ! عن سرّ المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصورت ذلك الاضطراب
الذي يقضي فيه نهاره ، والرقّة التي يمضي فيها ليله ، صوّرت للعالم مقامه
الرفيع ، وتفكيره السّامي ، ومسرّاته وأشواقه ، وتواضعه ودلاله » .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموّه ، وأخلاقه ، وسيرته في
العالم ، فيقول : « إنّ يد المؤمن هي جارحة القدرة الإلهية ، فهي غلابةٌ ،
فتّاحةٌ ، قاهرةٌ ، ناصرةٌ ، أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبدٌ تخلق بأخلاق
الله ، واستغنى عن العالمين ، آماله ومطامعه قليلةٌ ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ
جليلةٌ ، ألقي عليه الحب ، وكسي المهابة والجمال ، دقيقٌ رقيقٌ في الحديث ،
قويٌّ نشيطٌ في الكفاح ، نزيهٌ بريءٌ في السلم والحرب ، إنّ إيمانه هو النقطة
الدائرة التي يدور حولها العالم ، وكل ما عداه وهمٌ وطمسٌ ومجازٌ ، إنّ الغاية
التي يصل إليها العقل ، ولبّ لباب الإيمان والحبّ ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها
وقوتها » .

ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد ، فيخاطبه في إجلال وإكبار ، ويقول :
« يا مثابة هواة الفنّ ! ويا مقصدَ رواد الجمال ! ويا مجد الدين الإسلامي ! لقد
سمت بك أرض الأندلس ، وتقديست في أعين المسلمين ، إنّك فريدٌ في الفنّ
والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن ، أين لنا أولئك
الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب الخلق العظيم ، وأصحاب الصدق
واليقين ، الذين برهنت حكومتهم على أنّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادةٌ ،
وليست حكماً ولا ملكاً ، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربى الشرق
والغرب ، وكانوا أصحاب عقولٍ حصيفةٍ وبصيرةٍ نافذة ، يوم كانت أوربة تتسكع
في الجهل المطبق ، والظلام الحالِك ، والذين لا تزال في الشعب الإسباني

بفضل دمهم العربي ، خفة روح ، وحفاوة ، وبساطة ، وجمالاً شرقيّ ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ، ورنات الحجاز .

ثم يخاطب إسبانيا - الأندلس الإسلامي المغصوب - فيتغنّى بأرضها التي تطاولت السماء سموّاً ورفعة ، ويتوجع على أنّ أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوّق إلى ثورة جديدة ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول : « لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربة ، فجحدت أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرّر الفكر الأوربي ، وتحركت سفينته في يسر وسهولة ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني - الرومي - شاباً فتياً بلذة التجديد^(١) ، هكذا الروح الإسلامية مضطربة قلقاً ، تطلب انتفاضة جديدة ، ولكن متى ذلك ؟ إنّه سرٌّ من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخّض بحوادث جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهّن بالمستقبل » ، ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ويقول : « إن على شاطئك أيها النهر العزيز ! رجلاً يرى حلماً لذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيّات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين الناس ، لو كشفت الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحث ما في صدري من أفكار وأسرار ؛ لشقّ ذلك على أوربة ، وفقدت رشدتها ، وجنّ جنونها » .

ثم يعود مرّة ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « كلّ حياة لا تجديد

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس والقومية الرومية .

فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إنَّ أمةً تحاسب عملها في كل زمان سيفٌ بئارٌ في يدِ القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا يقف في وجهه شيء .

ويختتم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمة حكيمة ماثورة ، مبنية على تجارب واسعة ، ودراسات عميقة ، واستعراضٍ واسعٍ للأدب ، والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

« إنَّ كلَّ ماثرة وكلَّ إنتاج ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكلَّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يذمَّ له القلب ، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار . »

وهذا هو سرُّ الخلود والبقاء للآداب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُّ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُّ التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا^(١) ؟

(نُظِمَتْ فِي مَسْجِدِ قَرْطَبَةِ)

إنَّ هـٰذِي الصَّرْخَةَ الْيَوْمَ الَّتِي تَفْضُحُ أَمْرِي
صَّرْخَةُ الْقَلْبِ الَّتِي خَبَّأْتُهَا طِيلَةَ عُمْرِي
صَحْبَةُ الْأَطْهَارِ نَوْرٌ وَرُضَا اللَّهِ حُبُّور
وَشَقِيقُ الرُّوضِ كَاسَاتٌ عَلَى النَّهْرِ تَدُور
هَاهُنَا يُمْكِنُ أَنْ أَذْكَرَ وَغَثَاءَ الْمَسِيرِ
وَوُضُوئِي لِصَلَاتِي مَنْ دَمِ الْقَلْبِ الْكَسِيرِ

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

مع من يمشي الذي يمشي على هذا الطريق
 وأنا إلا رجائي ليس لي فيه رفيق
 يكون القصر عشي وأنا أكره لونه
 أنت ذاك العشب والغصن الذي يشتد كونه
 أنت من أطلقت من صدي صراخ الفجر بعثا
 لي من التوحيد نار تلهب العالم بحثا
 بك أنفاسي تغني لك تغدو وتروح
 ذات شجر وحماس ونسود وجروح
 أمني أنت وشغلي طربي أنت الوحي
 وأنا هذا نصيبي غير هذا لا أريد
 عندما تخطر قربي تصبح الصحراء بحرا
 وإذا لم تك في البستان فالبستان صحرا
 أمني مرة أخرى ولو جرعة كأس
 عل أن أخرج يوماً من طوافي حول نفسي
 أنا منها في خمار كيف لي أشرب منها
 كل حانات الوري حطمتها في البخش عنها
 أيها الساقى متى تنظر لي عين حنانك
 ومتى الجمهور بالأقداح تروي من دنانك
 خلقتك اللهم هذا لم يذوق فتوني
 وأنا ، إن لم تبدله يبدله جنوني
 ما هو العار الذي يلحق هذا الفيلسوف
 وهو بالسر الذي خبأته أنت يطوف ؟!

نملة الأسرار الذي نفحة الله الخبير

ففي نسيج الرُّوح يجريها كُنُشُغ في الضمير
يصبح الرّاعي كموسى بتعاليم شُعيب
﴿ لا تخف ﴾ سيفُ فخذها وهي وحيٌّ دون ريب

مسجد قرطبة

(نظمت في أرض الأندلس وبخاصة في قرطبة)

(١)

ضياءُ الصُّبح بعد الليلِ آتٍ (ومن هذين كلُّ الحادثاتِ)
هما في الدَّهر خيطٌ من حريرٍ تلوّن بالحياة وبالمماتِ
هما إيقاعُ أغنية الحِجَابِ ولحنُ الحقِّ في هذي الرُّحَابِ
على وتر الخلود لهم نشاطٌ مُلِمٌّ بالقَرار وبالجواب
وعندهما بكلِّ النَّاسِ علمٌ هما حجرُ المحَكِّ لكلِّ شَغَبِ
فلا تفخر بقلبك دون زيفٍ وجرب مثلما جرَّنتُ قلبي
فإن هو كان زيفُك مثلَ زيفي ولم يك لي ولا لك أيُّ قيمة
فعيدُك مثلُ عيدي عيدُ موتٍ وحظُّك مثلُ حظي في الوليمه
وما المعنى ليومك أو ليومي بلا ليلٍ يكون ولا نهار
إذا عبر الثُّبوغُ بأرضِ قومٍ تولَّى مثلَ زوبعة الغُبار
حكايةٌ كوننا وهمٌ وظنٌّ وهذي كلُّ أطوار الحكاية
من العَدَمِ البدايةُ أخرجتنا وترميننا إلى العَدَمِ النُّهايةُ

(٢)

الموتُ لا يَمَحُو رجالَ الله من هذا الوجود
الحسبُ في دمهم تلوّنٌ بالثباتِ وبالخلود

مهمما يكن جريان هذا العصر جباراً عنيفاً
 فالحبُّ يَجْرُفُه ولكنَّ سيْلُه يَنْدُو لطيفاً
 الأَمْسُ والغدُ ليس وُجْهَتُنَا التّي نسعى إليها
 الحبُّ أزمَنَةٌ بلا أسْمَاءٍ نُطَلِّقُـه عليها
 ما الحبُّ ؟ ما هو ؟ إنَّه وثباتُ أوقاتِ الصِّفا
 في نفحةِ الوحي الأمينِ على فؤادِ المصطفى
 ما الحبُّ ؟ سكرةٌ وردةٌ خَلَعَ الجمالَ عذارها
 لَعِبَ النَّسِيمُ بها عليه فقطعتُ أزارها
 الحبُّ في ساحِ الجيوشِ هو المقْدَمُ والنَّبِيه
 والحبُّ في الحَرَمِ الشَّريفِ هو المشرِّعُ والفقيه
 أسألُ به متسكِّعاً خَلَفَ الهِوَادِجِ والقِوافلُ
 بين الألوفِ مِنَ المنازلِ والألوفِ مِنَ المراحِلِ
 الحبُّ ليسَ مغنِياً الحبُّ إبداعُ الأغاني
 أوتارُه نورُ الحياةِ وقوسُه نارُ المعاني

مسجد قرطبة

(٣) و (٤) و (٥) و (٦)

قصرُ التَّاريخِ ومسجدُه ما أروعَ ما صَنَعَتْ يَدُه
 لِلْقَوْمِ بِصَنْدَرِ حكايتِه صوتٌ ما زال يُرَدِّدُه
 ظمأً لا رِيَّ لَهْ وبِهْ طَلِبُ الظَّمآنِ وَمَقْصِدُه
 يزدادُ برؤيتِه ولهاً ويريدُ يقومُ فيقْعِدُه
 وكأنَّ علائقَ زيتته خَفَقَاتُ القَلْبِ وَمَعْقِدُه
 في الصَّخْرِ فنونُ سرائرنا بلطائفنا نتعَهَّدُه

لِيَهَيِّجَ رَيْنُ جَوَانِبِهِ بِأُنَيْنِ الرُّوحِ نَزْوُدُهُ
يَا ظِلَّ الْغَرْبِ وَدَوْحَتَهُ مَنْ ذَا تَارِيخُكَ يَجْحَدُهُ
بِكَ أَضْحَتْ تَرْبَةً أُنْدَلَسَ حَرَمًا فِي الْغَرْبِ نُمَجَّدُهُ
لَا نَدَّ لَهُ فِي سُوْدَدِهِ إِلَّا الْإِيْمَانُ وَسُوْدَدُهُ
عَرَبِيُّ اللَّحْنِ حِجَازِيُّ رُوحِ الْإِسْلَامِ تُخَلِّدُهُ
يَمْنِيُّ الْعِطْرِ تَهَبُّ بِهِ أُنْسَامُ الشَّامِ وَتَحْشُدُهُ
نَظَرَاتُ ظَبَائِكَ لَا عِبَةَ بِسَهَامِ الْحَبِّ تَكْبِّدُهُ
أَنَا مَنْ كَفَّارِ الْهِنْدِ وَفِي نَظَرَاتِي مَا لَا تَجْحَدُهُ
وَحِمَاسَةٌ أَغْنِيَنِي هَذَا مِنْ لَحْنِ قَلْبِكَ يُنْشِدُهُ
وَصَلَاةُ الْحَبِّ عَلَى شَفْتِي (وَعَلَى خَدَيْكَ تَوْرُدُهُ)
الْفِتْنَةُ وَجْهُكَ يَوْقِدُهَا وَأَنَا أَشْرَحُ مَا تُوقِدُهُ
تَوْحِيدُ اللَّهِ لَنَا نَوْرٌ وَحَيَاةُ الْقَلْبِ تَوْحِيدُهُ
لَوْ كُلُّ رِيَّاحٍ فِي الدُّنْيَا اجْتَمَعَتْ لَا تَقْدِرُ تُخْمِدُهُ
يَحْكِيكَ جَمَالًا وَجَلَالًا رَجُلٌ لِلَّهِ تَعْبُدُهُ
وَحِمَاسُ ضَحَاهِ وَوَجْدُ مَسَاهِ وَمَا يَخْفِيهِ لَهُ غَدُهُ
وَمَسْرُوتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَتَوَاضُعُهُ وَتَوَدُّدُهُ
عَذْبُ الْكَلِمَاتِ خَفِيفُ الرُّوحِ رَقِيقُ الْقَلْبِ مُسَهَّدُهُ
أَبْدِيُّ الْحَبِّ نَقِيُّ الْحَرْبِ مَصُونُ الْعِرْضِ مَهْنَدُهُ
وَعَلَى يَدِهِ اللَّهُ يَسَدُّ بِلَطِيفِ الْقُدْرَةِ تَعْضُدُهُ
الْعَالَمُ قَصْرُ خِلَافَتِهِ وَسَمَاءُ الْعَالَمِ مَعْبُدُهُ
سِرُّ الْكَوْنَيْنِ بِنَظَرَتِهِ وَعَنِ الْكَوْنَيْنِ تَجَرُّدُهُ
وَسِرَابُ الْعُضْرِ بِنُورِ الدِّينِ وَنَارِ الْحَبِّ يُبَدِّدُهُ
هُوَ أَوَّلُ سِرٍّ فِي الدُّنْيَا وَرَجَاءُ الْكَوْنِ وَمَقْصِدُهُ
هُوَ مِثْلُكَ شَاغِلُ عَالَمِهِ بِقَدِيمِ الْحُسْنِ يُجَسِّدُهُ

كنخيل الشام وأغمدها شمخت في المسجد أعمده
تألق زرقه قبتيه وتقيم الليل وتقعده
وتنهدها في وخذتها كالطور كواه تنهده
بعثت جبريل منائرهما بجمال أنت محمده
نادى إبراهيم وموسى لشهود هذا مشهده

(٧)

إن أرضاً أنت فيها لسماء للغيون
كيف لم يسمع أذاناً أهلها منذ قرون
ليت شعري كيف أسرى موكب الحب الغضوب
ليت شعري ما يرى الآن وفي أي الدروب
هيج الألمان حول الدين إصلاحاً عريقاً !
بدد الأسرار لم يترك لها بيتاً عتيقاً
أصبحت منه هباء عصمة الباب العجوز
وأفاق الفكر لا يعرف شيئاً لا يجوز
منذ أن ثارت فرنسا بدأ الغرب العراكا
لم تعد تبصر فيه بعدهما إلا ارتباكاً
هي ذي روما التي شاخت على العهد القديم
تحتسي خمراً جديداً معها البابا نديم
في فؤاد المسلم اليوم كهذا الغليان
هو سر الله عن تبيانها كل اللسان
فارقبوا من ذلك الوائب في بحر القضاء
وارقبوا الكيوب الذي يختاره ماء السماء

تَمِيلُ سَحَابَةُ الْوَادِي فَتَحْكِي فِيهِ غَطَاسَا
 رَمَتْهَا الشَّمْسُ بِالْيَاقُوتِ أَكْدَاسَا فَأَكْدَاسَا
 وَأَغْنِيَةُ ابْنَةِ الْفَلَاحِ تُطْرِبُ رُغْمَ رَغْتِهَا
 بِرَقَّتْهَا إِذَا غَنَّتْ وَأَهْتَهَا وَأَنْتَهَا
 كَأَنَّ غَنَاءَهَا فِيضٌ يُقْلُ سَفِينَةَ الْقَلْبِ
 تَغَازِلُ نَهْرَ قَرْطُبَةَ الَّذِي يَدْخُرُ بِالْحَبِّ
 هُنَاكَ يَرْتَعُ السَّارِي هُنَاكَ تَضِدُّ الْوَرَقُ
 كَأَنَّ النَّهْرَ تَارِيخٌ يَغْنِّي فَوْقَهُ الشَّرْقُ
 نَعَمْ ، مَا زَالَ عَالَمُهُ الْجَدِيدُ يَحْوَطُهُ الْقَدَرُ
 وَمِثْلِي لَيْسَ يُعْجِزُهُ عَلَى إِدْرَاكِهِ نَظَرُ
 وَلَوْ هَتَكْتُ أَسْتَارِي وَأَسْفَرْتُ وَجْهَهُ أَفْكَارِي
 لَكَلَّ الْغَرَبُ أَنْ يَحْمِلَ مَا غَنَّتْهُ أَوْتَارِي
 حَيَاةٌ لَيْسَ فِيهَا ثَوْرَةٌ مَوْتُ لَطَالِبُهَا
 وَهَلْ لِحَيَاتِنَا فَكْرٌ يَكُونُ لغير غَالِبِهَا
 وَبَدَأُ الْفِكْرَ بَدَأُ تَأْهُبِ الْأَحْرَارَ لِلْخَطَرِ
 وَشَعْبٌ وَاثِقُ الْخَطَوَاتِ سَيْفٌ فِي يَدِ الْقَدَرِ
 إِذَا الْآثَارُ جَوْهَرْنَا أَبْنَاهُ عَابَهَا النَّقْصُ
 وَإِنْ لَمْ تَأْخُذِ الْأَنْغَامَ عَنَّا أَضْحَكَ الرِّقْصُ

صرخة « المعتمد »^(١) في السجن

تَكَادُ صرخةُ قلبي عند حَنَجرتي تشقُّ من كَتَمها قلبي وتنطلقُ
كأنَّها جمرةٌ فيه بلا شَرِّ قلبي بها دون كلِّ الناسِ يحترقُ
كذاك تفعلُ بالحرِّ الحياةُ إذا أرادَ شيئاً وحالتْ دونَه الطُّرقُ
أليسَ عاراً على الأحرارِ يسجنُهُم مع العبيدِ دعِي جيشُهُ الحَمَقُ
لعلَّ فولاذَ سيفي صينغَ ثانيةً غلاً لكفي التي لم يثنها فرقُ
لا أشتِ اللهُ بالأقدارِ حاسدنا فليسَ شيءٌ من الأقدارِ يُستَبَقُ

(١) المعتمد بن عبّاد : ملك إشبيلية حالف الفونس السادس فأسره يوسف بن تاشفين وألقاه في السجن فمات فيه .

وقد نشرت قصائده مترجمة إلى اللغة الإنكليزية في سلسلة (WISDOM OF the east) (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

النخلة الأولى^(١)

(١)

(يلاحظ أن المقطع الأول من القصيدة ترجمة لقصيدة
عبد الرحمن الأول التي وردت في نفع الطيب ٥٤ / ٣ وقد غُرست
النخلة في مدينة الزَّهراء ، والقصيدة كما ذكرها المقرئ) .

تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ	تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ
وَطَوَّلَ اكْتِنَابِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي	فَقُلْتُ شَبِيهِي فِي التَّغْرُبِ وَالنَّوَى
فَمِثْلِكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي	نَشَأَتْ بِأَرْضٍ أَنْتِ فِيهَا غَرِيبَةٌ
يَسُحُّ وَيَسْتَمِرِّي السَّمَائِينَ بِالْوَبْلِ	سَقَتِكَ غَوَادِي الْمُزْنِ فِي الْمُنْتَأَى الَّذِي

(١) وقد ترجمها الشاعر كما في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

أنت نورُ عيني
أنت فرحُ قلبي
أنا بعيدٌ عن وطني
وأنت عندي شجرةٌ من سيناء
ترغرَعَتْ في أرض الغرب
ومع ذلك فأنت حوريةٌ من الصحراء العربية
أنا نَفَذَ صبري في غربتي
وأنت نَفَذَ صبرك في غربتك
أيمكن أن تؤتي ثمارك في الأرض الغربية
عسى أن يكونَ ندى الصُّباحِ هو الذي يَسْقِيكَ .

(وقد استوحى إقبال المقطع الثاني من القصيدة ذاتها لذلك أثرنا
نظم المقطع الثاني على نهج أبيات عبد الرحمن) .

<p>وأعجبُ ما في الكونِ غربُهُ مثلنا وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُرى وما من حياةٍ للذي أنفَ الرّدى إذا شامَ طرفي البرقَ زادَ تألُّقاً وما ضرّنا مُلكٌ تركناه خلفنا سنبني كما كُنّا بنينا لغيرنا إذا نَضَبَتْ أجسادُنا من دمائنا ستذكّرنا الدُّنيا وتندُبنا الورى يقال هنا صلّت وضجّت قلوبُهم</p>	<p>وفي الشّام من أمثالنا عددُ الرّملِ زماناً غريب الوجه مختلف الشّكل مضيتُ به عريانَ مُمتَشِقاً نصلي وهل يقدح الزّند الشرار من الوحل وحنّ بذكرِ الشّامِ للأعين النّجلِ فكلُّ بلادِ الله ملكٌ ذوي العَدلِ وحاشا لأهلِ الجودِ توصمُ بالبخلِ فمنزلُنا رِيّانٌ من غَدَقِ البَذلِ وتطلّب من آثارنا كعبةَ الفضلِ هنا انتبذت أرواحها رسلُ النّخلِ</p>
---	--

إسبانيا

(كُتبت في إسبانيا ساعة مغادرتها)

صوتُ المنائر في نسيمِك يَرْقُدُ وصداه في أرواحنا يتردّدُ
يا توءَمَ الحرم الشريف تطوّفت بكِ رُغَعٌ من عاكفينَ وسُجَّدُ
سيمالكِ من أثرِ الشُّجود على الثَّرى طربُّ يفوحُ ونضرةٌ تتجدّدُ

تحكي النجومُ أسنةً لرماحهم بإزائها ليلٌ يقومُ ويقعدُ
ملؤوا وهادك بالخيام ولم تزل أوتأدها بنسيمهم تتأوّدُ
إن تسألِ الحسناء عن حُنائهم فتخبُّ يُنصفُها دمي المتورّدُ
يا طالما سُفكت هناك دماؤنا ظلماً ونحنُ المشفقون العودُ

ما كان صقرُ قريشٍ غيرَ موحدٍ عجباً أما في المسلمين موحدُ
خمدت حقيقتنا وزالَ لهيبنا وبريقُ قرطبة الشَّريدُ مخلدُ
ووقفستُ لا نومي حمذتُ ولا السُّرى أتكبّد الجرح الذي أتكبّدُ
عانيتُ مشهدهم وقلتُ وقيل لي سيّان قولٌ في العزاء ومشهدُ

ستَهتك الأستار عن سينائنا وتُبأخ أسرارُ لنا وتُبَدّدُ
ويكونُ أول من يقومُ بهتكها للناس أول مصلحٍ يتحمّدُ

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد - القائد الشاب - بجيشه العربي المسلم على أرض إسبانيا ، مدخل أوربة ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتقطع بالمسلمين أسباب الرجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر »^(١) ، فيشير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صفَّ طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافئ الجيش الإسباني في العُدَّة والعَدَد ، ووصول الميرة والمدد ، فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريبٌ منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرة ولا مددٍ ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلب عليه ، ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعمة السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوة لا تُهزم ، وإرادة لا تغلب ، إنها القوة الإلهية ، وإنها الإرادة الربَّانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله : ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

(١) قطعة من خطبة طارق بن زياد .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلداً للرسول الأعظم ﷺ - قائد الكتيبة المؤمنة الأولى - إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد » ، فتأسى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، رجالاً غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً وعلو همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بهيباتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمه الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إنَّ العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردى في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة ، إن العالم بحاجة إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليه إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دمائنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جذب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظارٍ شاقٍّ طال أمده .

لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر - العرب - بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ،

هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلة من الناس ، أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودويّ أذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرون طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يا رب ! إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلّت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] . حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد ، وأخلق فيها المطامح البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبتها ، وهبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف^(١) .

وقد استجاب الله دعاء طارق - القائد المؤمن المخلص - وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العدد والعدد ، وأصبحت إسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢] ^(٢) .

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) ديوانه .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

دعاء « طارق »

« نُظِمَتْ فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ فِي الْأَنْدَلُسِ »

حملوا عَنَاءَ الْعَالَمِينَ وَسَارُوا
وَالنُّورَ فِي نَظَرَاتِهِمْ وَالنَّارَ
وَتَرَجَعْتَ لَخَطَاهُمْ الْأَنْهَارَ
وَالْعِشْقَ فِي أَرْوَاحِهِمْ إِعْصَارَ
عِلْمٍ عَلَى الدَّارِينَ لَا يَنْهَارُ
وَإِذَا تَقَحَّخَ فَالْجِرَاحُ غِبَارُ
وَمُطَامِخُ الْهَمِّ الْكِبَارِ كِبَارُ
تَرْجُو رَجَاءَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ
وَتَضِجُ لَيْلَ نَهَارٍ فِي الْبُسْتَانِ
سَكَّانَهَا وَجَعَلْتَهُمْ أَفْئَادًا
وَجَعَلْتَ أَعْرَابِيَهُمْ أَسْتَاذًا
عَزَّتْ وَطَلَبْتُهَا مَذَاقُ النَّارِ
كَلَّتْ مِنَ التُّرْحَالِ وَالتُّسْيَارِ
هُوَ لِلْبَصِيرَةِ بَابُهَا الْمَفْتُوحُ
يَتَوَسَّلُونَ كَمَا تَوَسَّلَ نُوحُ
وَهُمْ وَأَنْتَ الْفَرْدُ لَا تَتَغَيَّرُ
وَالنَّاسُ مِنْهَا مُوسِرٌ أَوْ مُعْسِرُ
إِلَّا ظَنُّونَ الْوَاهِمَ الْمُتَقَوِّلُ
سَكْرَانٌ مِنْ مَاضٍ وَمِنْ مُسْتَقْبَلِ

هَذَا الْكُمَاةَ عِبَادُكَ الْأَخْيَارُ
أَصْحَابُ سِرِّكَ وَالسِّيَادَةُ طَبْعُهُمْ
فَعَلْتَ كَمُوسَى فِي الْبَحَارِ عَصِيَّتُهُمْ
الْبَحْرُ حَبَّةُ خَرْدَلٍ فِي كَفِّهِمْ
عَزَفُوا عَنِ الدَّارِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ
نِيلُ الشَّهَادَةِ لِلْمَوْحِدِ مُطْمَخُ
لَا سَبِيَّ غَانِيَةٍ وَسَلْبُ خَزَانَةٍ
كُلُّ الْعِبَادِ عَلَى اخْتِلَافِ عُرُوقِهِمْ
تَرْجُو مِنَ الْعَرَبِيِّ لَوْنَ دِمَائِهِ
رَبَّاهُ أَنْتَ بَعَثْتَ مِنْ صَحْرَائِهِمْ
وَمَلَأْتَ صَدْرَ الصُّبْحِ مِنْ آهَاتِهِمْ
طَوَتْ الْحَيَاةُ الدَّهْرَ تَنْشُدُ طُلُبَةً
وَبُرُوحَهُمْ عَثَرَتْ عَلَيْهَا بَعْدَمَا
الْمَوْتُ لَيْسَ نَهَايَةً فِي عَيْنِهِمْ
رَبَّاهُ! فَابْعَثْ مُسْلِمِينَ أَعَزَّةَ
لِتَغْيُرَاتِ الْعَصْرِ مِنْ ثَوَرَاتِهِ
رَبَّاهُ! أَنْتَ هُوَ الْحَقِيقَةُ كُلُّهَا
الدَّهْرُ مَلِكٌ يَدِيكَ لَيْسَ لِأَهْلِهِ
يَتَنَازَعُونَ عَلَى تَفْهَمِ عَالَمِ

« لينين » أمام الله^(١)

يا من نرى في النفس والآفاق من آياته
الحق : أنك خالداً حيّ يقوم بذاته
ما كان يمكن في وجودك أن يكون على يقين
والعقل يخرج مرغماً عن رأيه في كل حين
ما كان يدرك عقلنا في طيش نظرتة السريعة
ما كنت تُرسله من الأنغام في خلد الطبيعة
سيان رضاء النجوم ومن توغل في النبات
وقفوا على مرصاهم والكل ينقصه الثبات
اليوم أعلن بعدما شاهدت عالمك الأخير
وأنا الذي كابدت أفهمه وعانيت الكثير
أنّي - وتعلم - لم أكن وحدي هنالك في غرور
كانت أساطير الكنيسة حول عمتنا تدور

(١) علّق الأستاذ الملوحي على القصيدة بقوله : يهّم القارئ أن أذكر تعليقاً على هذه القصيدة ورد في كتاب « مدخل إلى فكر إقبال » للكاتب الفرنسي (لوك كلومبتر) (طبع بيرسيجرس باريس عام ١٩٥٥ م) وفيه ص ٧٣ :

هذه القصيدة العجيبة كتبها إقبال آخر سني حياته ، ويخطيء من يرى فيها تغيراً في وجهة أفكاره والصحيح أنها تعميق لهذا التفكير .. فليست هي المرة الأولى التي يفضح فيها إقبال مساوىء الرأسمالية .

ويجب أن نقول إنّ هذه القصيدة تدل على يقظة وجدان أكثر وضوحاً وأشدّ وعياً للواقع الاجتماعي ونجد بها هذا الغضب الرّاعد الذي كلّه حب وصفاء .

انظر مجلة فكرو فن عدد ٣٢ ص ٧٩ وما بعدها .

كُنَّا هُنَاكَ مَكْبَلِينَ بِكُلِّ أَغْلَالِ اللَّيَالِي
أَيَّامَ أَنْتَ تَصَوِّرُ الْأَزْمَانَ فِيهِ عَلَى التَّوَالِي
قَلْبِي يَمْرُقُهُ سَوَالٌ فِيهِ فَائِذَنَ بِالسَّوَالِ
تَرْكُتُهُ خَوْفًا مِنْ عَوَاقِبِهِ أَبَاطِرُ الْجِدَالِ
هَذَا السَّوَالُ وَكَانَ طَوْلُ الْعُمُرِ يَرْمِينِي شَرِيدًا
وَيُثِيرُنِي تَحْتَ السَّمَاءِ أَسَى وَيَتْرَكُنِي وَحِيدًا
هَذَا الَّذِي أَلْقَى بِأَيَّامِي حُطَامًا فِي الْوَهَادِ
هَذَا السَّوَالُ وَكَانَ مَغْرُوسًا كَشُوكٍ فِي فَوَادِي
هَذَا السَّوَالُ عَنِ الْأَنَامِ وَلَنْ أَجُورَ عَلَى الْأَنَامِ
وَأَنَا تَضَايِقُنِي مِرَاقِبَةُ الطَّرِيقَةِ فِي الْكَلَامِ
فَالْمَرَّةُ لَمَّا تَعَصَّفُ الْأَفْكَارُ فِي أَرْجَاءِ رُوحِهِ
لَا يَسْتَطِيعُ تَخْيِيرَ الْكَلِمَاتِ تَخْرُجُ مِنْ جُروحِهِ
[مَنْ كَانَ آدَمُ حِينَ كَانَ الطِّينَ صَلَاحًا عَلَيْهِ
مَنْ كَانَ سَيِّدَهُ سَوَالٌ لَا أَوْجَهَهُ إِلَيْهِ]
إِيَّاكَ يَعْبُدُ - لَا أَظُنُّ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ -
عَاصِرُتُهُ أَيَّامَ كَانَ الدِّيْنُ أَفْيُونَ الشُّعُوبِ
عَاصِرُتُهُ مَتَرْنُحًا بِهِيََاكِلِ الصَّنَمِ الْقَبِيحِ
فِي دَرْبِ أَوْرَبَّةِ التِّي ائْتَمَرَتْ عَلَى الشَّرْقِ الْجَرِيحِ
فِي دَرْبِ أَوْرَبَّةِ التِّي تَبْدُو مِنْ أَرَاةٍ لِلْحَيَاةِ
وَالْحَقُّ أَنَّ النَّبْعَ فِي ظِلْمَاتِهَا نَبْعُ الْمَمَاتِ
تَاهَتْ بِأَبْنِيَةِ الْمَصَارِفِ فَوْقَ أَبْنِيَةِ الْكُنَائِسِ
وَأَتَتْ لِهَيْكِلِهَا الْجَدِيدِ بِكُلِّ أَنْوَاعِ النَّفَائِسِ
قَالُوا تَجَارَاتُ تَدَارُ وَكُلُّ مَا فِيهَا قَمَارِ
وَمَصَادِفَاتُ تَجْمَعُ الْبُلْدَانَ فِي جَيْبِ الْكِبَارِ
أَيُّ السِّيَاسَةِ وَالْحُكُومَةِ وَالْكُنَيْسَةِ وَالسَّمَاءِ

رفعوا مساواةً تقال وأشربوا حُبَّ الدماء
 العُزِّي والفقر المبادل والبطالة والفساد
 آيات أوربة التي انتشرت بأنحاء البلاد
 أسفًا لشعبٍ كاملاً ردَّ المحبة للسماء
 حصرت روائعه بما أوحى إليه الكهـرباء
 لم يبق بعد حكمومة الآلات معنى للقلوب
 كان الحنان ملاذنا فمحتته من بين الشعوب
 وبرغم هذا كله تبدو الدلائل أنهم
 سيبددون ويفرعون على الهزيمة سنهم
 حاناتهم وقعت بما نصبوه من تلك الشباك
 فإذا شيوخ الشكر مما يشربون بلا حراك
 الحمرة الملقاة فوق وجوههم عند المساء
 آثار خمير زائف وخضاب زور لا دماء
 رباه ! أنت القادر الحق الرحيم العادل
 من ذاق من مرّ المعيشة ما يذوق العامل
 الرأسماليون مركبهم يُعزبد في بحارك
 فمتى تُغرِّقه وتأخذ من مظالمهم بشارك

الملائكة تغني

« مقطوعة تابعة لقصيدة لبنين »

الفِكْرُ حرٌّ لا يُرَدُّ جِماحُه والحبُّ لا مأوى له يُؤويه
رباه ! لوحثك التي لم تكتمل جارت على السرِّ الذي تطويه
كُهان خلقك في صفوف طُغاتهم يَقْفُونَ للبسطاء بالمرصادِ
محنُّ صباح مساء لا معنى لها إلا لجوءُ النَّاسِ للإلحادِ
فقراؤهم من بؤسهم في سكرة والأغنياء من الرِّفاه سُكارى
عبدٌ يلمُّ من الشَّوارع خبزه عوزاً ، وعبدٌ يُطعمُ الأقمارا
هل تَسْلَمُ الحكماءُ والفقهاءُ من طمعٍ تأجج في النفوس وقِيْدُه
أم تَسْلَمُ الآراءُ من لعناته هذي عطاياه ، وتلك عبيدُه
يرعونَ كلَّ ضغينةٍ لبقائهم والحبُّ من ألم الشَّقَاءِ يصيحُ
سبحانَكَ اللهمَّ فالحبُّ الذي يأسو جراحَ البائسين جريحُ
ذاتُ الحياةِ الحبُّ جوهرُ سرِّها والحبُّ جوهرُه حياةُ الذاتِ
أسفاً لهذا السيفِ يخبطُ سرَّه في الغمْدِ بين الذُّلِّ والآهاتِ

« أوامر الله للملائكة »

قوموا إلى كوني الفريقِ وأطلقوا فقراءه فيه على الأمراء
أيبدلون مساجدي بقصورهم جوراً على خلقي وهم أجراءني

قوموا إليهم وانفخوا من روحنا
قولوا لحائريهم تبدّل أمركم
قوموا إلى ضعفائهم وهبؤهم
وامحوا من الماضي جميع ذبوله
وخذوا من العذل الأخير لأرضهم
وتقلّبوا بالنّار في الحقل الذي
لم هذه الحُجُبُ التي تلهو بهم
لا تتركوا في الأرض سترًا مسبلًا
ومن الكنائس أخرجوا أربابها الغارقين بلُجّة الأوهام
لله قد شُرع الشُّجود وما عدا
جوسوا الكنائس والمساجد لا
أنا غير راضٍ عن رخام أبيضٍ تلقى به سودُ القلوبِ مراحا
وابنوا من الطّين المعابدَ علّ أن يَجِدَ السكينة عابدي المسكينُ
يتناسفون بنقشها

فيهم ولا تأسوا على أسرارهِ
فاستبدلوا بَرْدَ اليقين بنارهِ
ما يجعلُ العُصفورَ يضرَعُ بازا
لا تتركوا للجامدين مفازا
سيفاً يقيمُ بحدّه الإصلاحا
تجدونه لا يشبعُ الفلاحا
وتحولُ بينَ الخلقِ والخلّاقِ
أرخاه كاهنُهم على أرزاقِ
هذا ، مؤامرةٌ مع الأصنامِ
أرى لكنيسةً ولمسجدٍ مصباحا
أنا غير راضٍ عن رخام أبيضٍ تلقى به سودُ القلوبِ مراحا
وابنوا من الطّين المعابدَ علّ أن يَجِدَ السكينة عابدي المسكينُ
وبرقشها والطّينُ لا يهديه إلا الطّينُ

لم ألقَ فيها غيرَ نافخِ كير
وليغلُ شاعرُهُ بصوتِ نكيرٍ
تهديمُ صرّحِ الذاتِ في الإسلامِ
وحوارِ موسى ليس محضَ كلامِ
سراً ودروشة القلندر تاجُهُ
والمرءُ محكومٌ بما يحتاجُهُ

فتشتُ في هذي الحضارة كلّها
فتداركوا الشّرقَ الذي يرنو لها
في الغربِ فلسفةٌ وفي تصديقها
وصميمٌ ذاتك في حوارِ إلهها
أثارُ دروشة القلندر لم تُعدْ
في كبرياء الفقر صونُ ذواتنا

في أرض فلسطين

تحرّكت السيارات التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) ، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس ، ولم يزل الشروق مصدر سرور وإلهام للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان ، فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذي جاء من أوربة يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي ، وبدأ يتمتّع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخو بنظراته - التي يحتفظ بها الشعراء - في سبيل القلب ، فكلُّ نظرة تضع في جمال الطبيعة ترجعُ إلى القلب بالريح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريته » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم وإثارة قريحته ، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين بطيلسانٍ جميلٍ زاهي اللون ، وهبَّ النسيم عليلًا بليلاً ، وهفت أوراق النّخيل مصقولةً مغسولةً بأمطار الليل ، وأصبحت الرّمال في نعومتها وصفائها حريراً .

ورأى الشاعر العظيم آثار نيرانٍ انطفأت قريباً ، وأثافي^(١) منشورةً هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخبية ، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب ، وتخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنت .

وطاب المكان والزّمان للشاعر ، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن

(١) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدور .

يلقي عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته^(١) .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر وهاجت قريحته ، وتحرك الحبُّ الدفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الإنسان أحب شيء إليه ، فيحن إليه ، ويتمثله ، ويتغنى به ، وقد حلَّ « الإسلام » ، وحلت الأمة الإسلامية في قلبه محلَّ الحبيب الأثير ، وسيطر حبه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه وتغنى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلاً طلَّه الندى أنيقاً ، وبستاناً من النور حالياً
أجدُّ لنا طيبُ المكان وحسنه منىً ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أنَّ ركب الحياة بطيء لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره « الإسلامي » جديد فتىً ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنامٌ وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورة إبراهيمية جديدة ، إلى كاسر أصنام يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟

وسرح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنَّ النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ،

(١) الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى العربية في لفظنا .

ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته .

ورجا العالم الإسلامي أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجئ العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلع العالم إلى الحجاز - معقل الإسلام وعرين الأسود - فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد .

وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول :

« لا بدَّ أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفة قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرَّد الدين عن العاطفة والحب أصبح مجموعة من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلَّى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : « إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغية المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون » .

ثم يستعرض العالم الإسلامي - وقد عرف شرقه وغربه وعربيه وعجميه - فيحزنه قصر النظر ، وقلة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمة ، وقلة البضاعة^(١) في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدينية - بمعناها

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما همَّ بصدوره .

الواسع - محرومةً من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلامي ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : « إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي ، إن شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ، ويربي الآمال في الصدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعته في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد » .

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنه ذرةٌ حقيرة أو قطرةٌ صغيرة في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرةٍ فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلّى بالجلال فكان في الأرض ملوكٌ كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلّى بالجمال فكان زهاد وعباد ، زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ويقول : « إن الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضيفني على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانية ، فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين لم أر أنها تقربني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل - بعد توفيقك - يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب » ، ويناجي ربه ويقول : « إن الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلُّ من درس

علم النخيل تمتع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركة قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكل حلفاء ، ولكل معسكر^(١) .

فليُنظر العالم العربي إلى أيّ معسكر ينضم ؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أيّ راية ينضوي ؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمّدية التي التفّ حولها أبو بكر وعمر^(٢) .

في أرض « فلسطين »

كُتبت أكثر هذه الأبيات في فلسطين حين زيارة إقبال لها عام ١٩٣١ للاشتراك في المؤتمر العالمي الإسلامي .

من الفقر أن تأتي وفاضك فارغٌ وقد طُفّت في تلك الرياض جميعها^(٣)
« سعي »

نزلت بريّة الوادي بذي سلم والشّمس ترتعُ بين البّان والعَلَمِ

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) قصيدة « ذوق وشوق » .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

(٣) البيت في الأصل :

« ما أفقر من يطوف في كل هذه البساتين ذاهباً لزيارة الأصدقاء ويداه فارغتان » .

وقد ترجمه الفراتي :

واحسرتا قد عدت فارغ اليد من تحف الدنيا لهذه البلد

انظر البستان (١ : ١٦) .

وفاح ریح صباح من مواجدها
بنظرة لجمال الوادي واحدة
وللمساء سحاب من غلائلها
ألقّت براقع مجلاها على إضم
نقيّة الخدّ سعف النخل مشرقة
والرمل كالخزفي في أرجاء كاظمة
هنا بقيّة أطلال ، هنا لهب
كم خلف ليلى ركاب من هنا عبرت
هم أقاموا سكارى هاهنا زمناً
يرى هنا من نأث عنه أحبّته

(٢)

يشفي العليل من الأوصاب والسقم
تقحم القلب منها ألف مقتحم
حمراء زرقاء من ورد ومن عنم
وأومض البرق في الظلماء من إضم
مرفوعة الراي تحكي رفعة القمم
يموج فيها بما في الخز من عمم
يدوي ، هنا بضغ أشلاء من الخيم
وعض من لغب نضو على لجم
فإن رضيت بسكر هاهنا أقم
سلوّه ، ويهيج الوجد بالشبم

خمر الحياة كمثل الشم عاقبة
صياح وجه جديد لا يقيم له
أما لمعترك الأيام من طمع
عباد (سومنات) تخشى أن يحرّمها
لا في لهيب تراث العرب من رصدي
هل في الحجاز حسين من بني مضر
ألا يهيم على وجه الفرات لهم
أحسن دجلة لم يفتن سرائرهم
أما لهم من بقايا الحب باقية
أستغفر الله هل للدين من قيم
بالحب قدّم إبراهيم واحده
فسل حنيناً وبدراً عن حروبهما

عندي ، ومن ذا الذي يضيء إلى كلمي
وزناً زمان تعاطى سكرة القدم
بغزنويّ جديد غير منهزم
أمام (سومنات) مبعوث من الحرم
يرجى ، ولا في غناء الفرس من نغم
وهل هنالك محمود من العجم
قلب ، ولم يلقه خال ولم يهم
وحسن دجلة في محرابهم صنمي
وهم سلاله أهل الحب والتيم
بغير حب وهل للشعب من قيم
وابن الحسين على كفّ الحسين رومي
كم ضرّج الحب فيهما من فؤاد كمي

في آية^(١) الخلق أنت السرُّ لا أحدٌ ولو تجلّيت ما أبقيت من عَصَم
لأجل معنأك ما تلقى وما لَقِيتُ قوافل القوم في الوديان والأكم

رهباننا انقطعت عنا بأديرةٍ وكلُّ منقطع في الدَّير عنك عَمِي
لا يرتضي القومُ عن حاناتهم بدلاً بالرَّغم من أنَّ ساقِي الناشئين ظمي

أنا - وفي غزلياتي التي اشتهرت بصيصُ نارٍ ذَكَتْ مِنْ صالِفِ القِدَمِ -
حكايتي البحث عن قوم هنا عُدِمَتْ أخبارُهم وهنا سادوا على الأمم

لِلشَّوكِ كالوَرْدِ حَظٌّ من نسائكم ونسمةُ الصبح للريحان والسَّلم
أنا أعِيبُ على وردٍ بلا جذلٍ كما أعِيبُ على شوكٍ بلا ألم

هذا الغناء الذي ماج الرجاء به تسيل أنفاسُه من مُهَجَّتِي ودمي
كما تسيلُ دماءُ العازفين على أوتارِهم وتروى من أكفِّهم

فلا تدع لهياج القلب فرصته فإنَّ ذلك يعني فرصةَ العَدَمِ
أرجو جدائل هذا الشعر تنصفتني بموجةٍ من معاني هذه اللَّمَمِ

(٤)

اللَّوح أنت وما في اللُّوحِ من قَدَرٍ وكلُّ ما فيه من سطرٍ ومن كَلِمِ

(١) يبدو أن إقبالاً في المقاطع الثلاثة اللاحقة يخاطب الله عزَّ وجلَّ ومع ذلك فإن هذا التأويل غير مؤكد .

ويرى تشيشتي أنَّ الحبيب هنا وفيما بعد هو النبي ﷺ .

لو تنطقُ القَبَّةُ الزرقاء ما كَذَبَتْ بأنَّها ذَرَّةٌ في بحركَ العَرِمِ

لكَ الجلالُ الذي لم تبقَ روعتهُ مِنُ ملكِ سِنْجارٍ إلا عِبرةُ النَّدَمِ
لولا جمالكَ ما ذاقَ الجُنَيْدُ نوَى ولا أهيلَ على طيفورَ بالتُّهَمِ
نِداكَ لا تَعْرِفُ الأنسابَ نَفْحَتُهُ يا منْ غَمَزَتْ جميعَ النَّاسِ بالكَرَمِ
إنْ لم تكنْ نُضِبَ عيني في الصَّلَاةِ فلا قامتَ على الرُّورِ في محرابها قَدَمي

مِذاهَبُ الفِكرِ منْ بحثِ الغيابِ وَهَتْ ومشهدُ الحبِّ منْ وثبِ الحضورِ دَمي
بالرُّغمِ منْ ثورَةٍ للشَّمسِ ساطعةٍ ما زالتِ الأرضُ في بحرٍ من الظُّلَمِ

(٥)

أنا - وتعرفُ أيامي التي سلفت وما تحمَلْتُ منْ كَدِّي ومنْ سَأَمي -
ما كنتُ أعرفُ أنَّ العلمَ مضيعةٌ وأنَّه سببُ الأطماعِ والنَّهَمِ

هزرتُ كلَّ نخيلِ الفِكرِ ما سَقَطَتْ عليَّ غيرُ عراجينِ من الهَرَمِ
لقد تيقَّظَ وجداني الَّذي عَصَفَتْ بهِ مقالاتُ موتورٍ ومُنْتَقِمِ

الفِكرُ منْ حيثَ تأتيه أبو لهبٍ وكلُّه كُلُّه مَكْرٌ مِنَ الأَمَمِ
والحبُّ حيثَ يكونُ المصطفى يَدُهُ وكلُّه كُلُّه منْ مقلتيه نُمِي

أخذتُ عنه فنونَ الحبِّ فاغتنموا مِذاهَبَ الحبِّ في شعري وفي حِكَمي

نهايةُ الحبِّ أحلى من بدايته وربما صَحَّتِ الأجسامُ بالسَّقمِ

وليس أغربُ منه عندُ مُبتَدَأٍ وليس أعجبُ منه عندُ مُخْتَمٍ
إذا رماكُ فما للقلبِ من حِيلٍ وإنْ جُرِحَتْ فجرْحٌ غيرُ ملتَمِ

يا سائلي عن فراقِي بعد ليلتنا وعن حظوظي من البلوى وعن قِسْمِي
فراقه رغبةٌ في القلبِ محرقةٌ وصرخةٌ من صُراخِ الفَجْرِ ملءٌ فمي
أهلُ الوصالِ لهم قلبٌ بلا طَلَبٍ وأيُّ معنَى لقلبٍ غيرِ مُضْطَرَمِ
وهل لقطرةِ ماءٍ مجدُّ تسميةٍ إلا إذا نُبَذَتْ من عجمةِ الدِّيمِ

حاولتُ لما تجلَّى أنْ أشاهده وسوَّلتُ لي نفسي هتَكَةَ الحُرَمِ
بالرُّغمِ من أنْ طرفي في الهوى وقحٌ أغضيتُ لَمَّا تجلَّى خشيةَ الدَّهَمِ

الفراشةُ واليراعةُ

قال الفراشُ لنفسه لَمَّا رأى رَقَصَ اليراعُ على المِدَادِ الأسودِ
كم في حياتِكَ من غبيٍّ أحمقٍ ما ذاقَ تصليَةً بنارِ المَوْقِدِ
سمعَ اليراعُ كلامَه فأجابَه حاشا لأمثالي بمثلِكَ تقتدي
حمداً لرَبِّي ما خُلِقْتُ فراشةً بجناحها وسمُ العبيدِ الرُّقْدِ
أنا لست أستجدي سواي تسوُّلاً أنا في فؤادي جُذوتي وتوقُّدي

وصية « إقبال » لولده « جاويد »

أبني ! لحنُ الذَّاتِ في أعماقنا
أبني ! ليلُ الشَّعبِ ليس يضيئُه
أبني ! قولك : كان آدمُ جدُّنا
فيه مِنَ الإيمانِ ألفُ حقيقة
أبني ! لن يصلِ الغرابُ لعشِّنا
هذي الشَّواهينُ التي يلهو بها
أبني ! صان الله وجهك عالياً
إياك أن يأتي لقبري زائرُ
إقبالُ ما رضي الترهُّبَ سيرةً
أبني ! ليس بُنيَّ إلا مَنْ روى

باقٍ يندلُّ على خلود حياته
إلا تصليُّه بشعلة ذاتِه
ملكاً لهذي الأرض قولُ نبيه
وَمِنَ التَّأَلُّقِ ألفُ نوعٍ فيه
مهما استطالت في السَّماءِ قواه
أبناءُ سيِّده الذي ربَّاه
ما في زمانِكَ من يَصُونُ حياةً
ويقولُ لي جاويدُ يبدلُ ماءً
لنقاءِ فكرته وخضبِ فؤاده
بوصيتي هذي جميعَ بلاديه

تسول

صاح في الحانة سَكِيرٌ ظريف
أَيْكُم يخرِجُ عن بَرزَتِه
أَيْكُم يُضْبِحُ غُرِيانَ لِكَي
كأسُه حمراءُ في لونِ الشَّقِيقِ
كلُّ ما في قَضِرِه جَمَعَه
ليس مَنْ يَسْرِقُ في جِنحِ الدُّجى
كَمْ بذاك الحَقْلُ من فِلاحةٍ
بَلَّغُوهم أَنِّي قلتُ لكم

إنَّما السُّلطانُ شَحَّاذٌ جَلِيفُ
طمعاً في ذلك التَّاجِ الصِّلِيفُ
يرتدي في القَصْرِ ثوباً من ذَهَبِ
وعليها من دَمِ النَّاسِ حَبَبُ
بقرارٍ مُجَحِّفٍ إثرَ قَرارِ
مثلَ مَنْ يَسْرِقُ في وَضَحِ النَّهَارِ
شَحَذُوا منها طعاماً للدَّجَّاجِ
إنَّما الشَّحَّاذُ من سَنِّ الخِراجِ

المُلاّ والفردوس

أنا أيضاً كنتُ لكن ما تحمّلتُ الشُّكوت
كنتُ مِنْ شِدَّةِ غيظي أتمنّى أن أموت
كنتُ إذْ بَشَّرْتَ الحَجَّابُ بالفردوسِ (مُلاّ)
فتقدّمتُ أنادي : عفوك اللهم كلاً
ليس للمُلاّ اهتمامٌ بمغفانيك وحمورك
هو سكرانٌ ، نعم سكران ، من غير خمورك
ما درى من لُجَّةِ الذّوقِ سوى قيل وقال
يُخَسِّبُ الدّينَ الذي أنزلتَ تاريخَ جدال
أنا لا أرضى لنفسي أن أرى عبيدي جناناً
كيفَ ترضاهُ زعيماً وهو لا يُخسِنُ شأننا
لم يُعْذِ يأبؤه إنسانٌ بملاك المنقّر
فإذا ما جاء يوماً قيل قد جاء المكفّر
لا يرى في خَلْقِكَ المسكينَ إلّاهُ مُطيعاً
كيف ترضى عن غبيّ كفّر الناسَ جميعاً
ليس في الفردوس ذكرٌ لكهوفٍ وصوامع
إنّما الفردوسُ فيضُ الحبِّ من صَدْرِ الجوامع

الدّينُ والسّياسة

عندي لرهبنة الكنائس طُرْفَةٌ فهلُمّ نضحك للحياة قليلاً
بُنيت لأعداء الملوك وأصبحت للطامعين من الملوك سيلاً

رَأْسُ الْكَنِيسَةِ فِي الْوَدَاعَةِ غَارِقٌ
 تَنُوي الْمَضِيَّ فَيَسْتَبْدُ أَمَامَهَا
 هَذَا التَّنَاقُضُ كَيْفَ أَمَكْنَ دُمُجُهُ
 مَا لِلْقُصُورِ وَلِلْكَنَائِسِ حِيلَةٌ
 فَصَلُّوا عَنِ الدِّينِ السِّيَاسَةِ بَعْدَمَا
 وَتَطَاوَلَ الْبَابَا فَقِيلَ لَهُ : اسْتَرِخْ
 وَتَلَفَّتِ الشَّعْبُ الْجَرِيحُ فَلَمْ يَجِدْ
 كَانَتْ مَصَالِحَ رَاهِبٍ وَمَتَوَجَّجَ
 ثَنُويَةً لَمْ تُبَقِ دَرْباً صَاحِبِهَا
 هِيَ فِي الْيَسَارِ وَفِي الْيَمِينِ مَقِيمَةٌ
 هِيَ لَعْنَةُ الدُّنْيَا كَمَا أَفْضَى لَنَا
 لَنْ تَعْرِفَ النَّاسُ السَّلَامَةَ سَاعَةً
 أَبَدًا مَرْقَعَةُ الْجُنَيْدِ لِوَحْدِهَا
 إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ أَرْدَشِيرُ صِرَاحَةً

الأرض لله (١)

الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ يُنْبِتُهُ
 وَالْغَيْمُ مِنْ لُجَجِ الْأَمْوَاجِ يَرْفَعُهُ
 يَسُوقُ لِلزَّهْرِ أَنْسَاماً تَهَيَّجُهَا
 لِلشَّمْسِ مِنْ نُورِهِ طَوْقٌ يَزِينُهَا
 مِنْ ظِلْمَةِ الطِّينِ رَبُّ الْحَبِّ وَالطِّينِ
 إِلَى السَّمَوَاتِ سُلْطَانُ السَّلَاطِينِ
 فَيَطْلُقُ الزَّهْرَ أَنْغَامَ الْبَسَاتِينِ
 وَلِلنَّدى نَسَبٌ مِنْ حُورِهِ الْعَيْنِ

(١) العنوان مقتبس من قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

فقل لصاحبِ تاجٍ يدَّعيه له أفقُ فإنَّك مسكينُ المساكينِ
مالي ومالكُ من هذا التُّرابِ سوى ضجيجِ حينِ نُؤلِّي عنه في حينِ
الأرضُ لله يعطيها أحبَّته والحبُّ عاقبةُ الغرِّ الميامينِ

رسالة إلى شاب

سجَّادُكَ العَجَمِيُّ هَذَا والأثباتُ الإنكليزي
ماذا يفيدك يا عزيزي !
ماذا تفيدك ثروةٌ حصَّلتها في مثل أبهة الملوك بذلتها
أبكي لأجلك يا عزيزي !
هل دُقت يوماً غبطةُ الإيمانِ أو بأس حيدرٍ أو رضا سلمانِ
ارحم شبابك يا عزيزي !
سلعُ الحضارة لا تقاسُ بذاتكَا أظنُّها ثمناً لكلِّ حياتكَا
أخطأتِ جداً يا عزيزي !
المؤمنُ الصديقُ سيّدُ ساعته ورقِيُّ عالمه رقيُّ قناعته
فاعرف مكانك يا عزيزي !
لو دبَّ روح النُّسر في قلب الشَّبابِ لم يبحثوا عن سرِّهم بين التُّرابِ
إيَّاك تيأسُ يا عزيزي !
باليأسِ معرفةُ الفتى تغتاله وبصيرته والمؤمنُ الصديقُ برهانُ الإله سريرته
فاربأ بنفسك يا عزيزي !
يا أيُّها الشَّاهين عُشُّك ليس في قصر الملوك لو كنت شاهين الجبال حقيقةً ما أمسكوك
فازجِعْ لعُشِّك يا عزيزي !

نصيحة

قال للبازِ الفتى نسرٌ عجزَ
لي رموزٌ كنتُ قد حصَّلتُها
لا تقلْ أصلي وفصلي أبداً
إنَّما الشَّاهين من يخرُّقه
قسوةُ التَّدريبِ روحُ الشُّودِ
سترى قيمته يا ولدي !
ما أرينا فرحةً أمتعُ من
فرحٍ والله لا يعدله

أنت في الجوّ كما شئتَ تجوزُ
من شبابي فاغتنم هذي الرُّموز
قيمةُ الشَّاهين في أخلاقه
دمُّه الشَّخصيُّ في أعماقه
لا تضيِّعه سدى هذا الكلام
حين تنقضُّ على فرخ الحمام
فرحة المنقضِّ من أفق السماء
فرحٌ ، حتى ولا سفكُ الدِّماء !

شقائق النعمان في الغاب^(١)

لَمَسَنِ السَّمَاءُ تَزَيَّنَتْ بِلَالِي
أشقيقة النُّعمان هل تجدين في

والدَّيرُ من أهل الصَّبابة خالٍ
تلك البراري من يرقُّ لحالي

(١) شقائق النعمان رمز العلمانية والمادية والعقلانية التي تنكر ما يقابلها كما يرى إقبال .
وعلى العموم هي رمزٌ لكل ما ليس لظاهره معنىً يجانسه ، فشقائق النعمان حمراء
كالنار ، إلا أنها لا تحرق هي كالدم إلا أنها تفتقر لحيويته فلذلك ينبذها البستان على
ضفاه .

قال إقبال في ديوان الأسرار والرموز (٦٩) في حديثه عن نار الشقائق : إنَّ هذه النار
الباردة تمحوها نار دموعي إلا أن إقبالاً يعود فيقول : إن هذه الشقائق تحترق لأنها
ضيعت معها .

ولهيب دائم دين الشقيق دمه من ذاك يسري في العروق
إلا أنه ليس من السهل السيطرة على رموز إقبال التي تظهر أحياناً وكأنها زئبق لمعانيه ،
وهي تتبادل الأدوار من أجل تحقيق هدفٍ واحد .

هي رُغم ما تبدي رحابة صدرها	قفصٌ يضيق بمثله أمثالي
سافرت تائهة وتهتُ مسافراً	فتعالي نقتسم الهموم تعالي
وعلام أيتها الشقيقة سيرنا	والام هذا الكد في الترحال
موسى غريبٌ عن نوى وديانيا	وشتاتٌ بالك في الجبال وبالي
سيناء أنتِ ونار واديهما أنا	وأنا تجليها وأنتِ جبالِي
من ذلك الغواصُ أخرج درنا	من بين أوصالٍ ومن أوحالٍ !
هل كان مخفياً فرام ظهوره	أم فرحةً بتفوقٍ وتعالي !
البحرُ تكشف ما يكابد قطرة	منه وتفضح سره في الحال !
شاهدتُ زوبعةً تئنُّ لموجة	فسألتها فاستغربت لسؤالي
قالت : ألا تبكي لشورة موجة	لم تلطم الشطَّ الغبي السَّالي
أتعيقُها تلك الرُّمالُ أمامها	وأنا أجرُّ إلى السَّماء رمالي

آلام آدم شمسٌ كلَّ حقيقة	والشمسُ تشهدُ لي بصدقٍ مقالي
هذا الوجودُ بصمته وحماسه	لك يا بن آدم يا كبير الآل

قطعة

إقبال غنى أمام الرّوض أغنية	رشيقة هيّجت في الرّوض شكواه
ما كنتُ كالزهر رهنُ الرّيح عالمه	إن شاء مرّقه أو شاء أبقاه
أمشي ويمشي جنوني في الطريقِ معي	ولا يمزّق ثوبي غير حُمّاه

كتاب السّاقِي

(١)

نَثَرَ الرَّبَّيعُ عَلَى الْفَلَا يَدُهُ وَأَطْلَقَ عَسْكَرَهُ
وَتَحَوَّلَ الْوَادِي إِلَى حَانَ فَقَامَ وَأَسْكَرَهُ
السُّورْدُ وَالنُّسْرَيْنِ يُمَسِّكُ بِالْأَكْفِ وَبِالْقَدُودِ
فِي صَبْغَةِ الْوَانِهَا مِنْ كُلِّ مَا خَلَعَ الْوُجُودِ
وَشَقَائِقُ النُّعْمَانِ تَرْقُصُ فِي الْوِشَاحِ الْأَحْمَرِ
مَا بَيْنَ بَسْمَةِ أَبِيضٍ يَرْنُو وَغَمَزَةِ أَسْمَرِ
وَتَرَى السَّمَاءَ مِنَ السُّرُورِ تَكَادُ تَسْقُطُ فِي الْفَجَاجِ
وَنَدَى النِّسِيمِ خِلَالِ زُرْقَتِهَا تَكْسِرُ كَالرُّجَاجِ
وَتَدْفُقُ الدَّمَ فِي الْحَجَرِ وَمُضَى يَكَابِدُ مَا هَجَرَ
وَالْقُبَرَاتُ تَرْكُنُ فِي الْأَعْشَاشِ أَغْلَالَ الشَّجَرِ

أَهْ لِهَذَا الْجَدُولِ الْمُحْزُونِ يَقْفِزُ فِي الْوِهَادِ
لَا يَشْتَكِي ضَيْقَ الْحَيَاةِ وَلَا يَمَلُّ مِنَ الْجَهَادِ
يَنْسَابُ ، يَرْقُدُ ، يَسْتَقِرُّ ، يَهْجُ ، يَضْحَكُ ، يَلْتَوِي
يُرْوِي الْجُلُوسَ عَلَى الضُّفَافِ وَبِالْتَمَرُوقِ يَرْتَوِي
وَإِذَا تَجَمَّعَتِ الصُّخُورُ عَلَيْهِ شَتَّتْ حَزْبَهَا
وَاخْتَارَ مِنْ ثَغَرَاتِهَا دَرِيَاءً وَمَرَّقَ قَلْبَهَا
يَا أَيُّهَا السَّاقِي فَهَاتِ مِنَ الْكُؤُوسِ مِنَ الدُّنَانِ
لَا تُخْنِ الْقَلْبَ الْجَسْرِيحَ وَأَنْتَ أَجْدَرُ بِالْحَنَانِ

هذي الشَّقَائِقُ جَوْقَةٌ بالسِّرِّ تَرْقُصُ فِي الطَّرِيقِ
دعني أَبَدُّ خمرتي أسفاً على الكأسِ العتيقِ
ما كلُّ ما دار الشَّقْبَاءُ به تدورُ به القلوبُ
أنا أطلب الخَمَرَ التي كانت تُشَقُّ لها الجيوبُ
كانت تَفِيضُ كآبَةً كالوَرْدٍ يَذُبُلُ فِي الخُدودِ
فُسْرُ إِشْكالاتنا وتذيعُ أسرارَ الخلودِ
أيُّها السَّاقِي هتُّك الأستار
عُمُرُنَا الباقِي جلوةُ الأسرارِ
لذَّةُ التَّلْحِيحِ ليس في الأوتارِ
يَضْرَعُ الشَّاهِيحُنُ أصغرَ الأطيارِ

(٢)

بَدَلْتُ أَنْغَامَ الزَّمانِ ونوطةَ العَرْفِ البليدِ
وتداخلتِ آثُـه وتمرَّد النِّغمُ الجديدِ
فَرِحَ لِلْفَزِ الإنكليزِ وللذي عرَّى غروره
ولأن ذات السِّرِّ يَغْكِسُ من زُجاجِ الصَّيْنِ نوره
هُوذا على مرأى وسمعِ الكونِ يَرْقُصُ في المرايا
ويجيش في (آلِ بوند) يلمعُ في رؤوس الهيملايا
فَرِحَ لَأَنَّ الأرضَ تَلْفِظُ كُلَّ سُلْطَانٍ مهينِ
وتُعَلِّمُ الشَّغْبَ المكبَّلَ كيف يأخذ باليمينِ
فَرِحَ لَأَنَّ الرُّؤُوسَ ينالُ منه جنونُ طوره
ولأنَّه كالسَّاحِرِ المفضوحِ بعد أداء دوره

لم يبق إلا الروحُ تلكَ وذلكَ الشعبُ العراءُ
 نزلت على سيناء صعدتُها فلملمها حراءُ
 ما مسلماً مَنْ يسأل التَّوْحِيدَ يَضُقُّ فأسسه
 ليحطَّهم الأصنامَ أجمعهما ويتركَ نفسه
 نفسٌ أقام لأجلها ما شاء من أصنامِه
 ويريدُها صنماً يرافقه إلى إسلامِه
 هذا هو الصَّنَمُ الذي شيطانُه عقلُ العليمِ
 خدامُه أهلُ الطريقِ كتابه العلمُ الأليمِ
 أسفاً لحقَّ يتركُ الطَّاغوتَ يودعُه صروحه
 ويرى الفقير يكاد يلفِظُ في خضمِّ الجهلِ روحه
 كلماتُه هذا المبشِّرُ تجذبُ القلبَ الغريرِ
 لكنَّ ذوقَ الحبِّ ينقُصُها وينقُصُه الكثيرُ
 وله مواعظُ ينظمها بدقَّةٍ منطقِه
 لكنَّها سرعان ما تخفى بعقْدَةِ رونقِه
 حتى المريدُ فؤاده بقيودِ سُبحته أسيرِ
 حَبَّاتُ فسخٍ أوقعتُه وكوانِ شاهيناً يطيرُ
 هذا المنافرُ كيف يرجعُ من ظُنونِ الارتقاء
 هو نفسُه ما عادَ يعرفُ ما الفناءُ وما البقاءُ
 خمدتْ حقيقته ونارُ الحبِّ تاهتْ في فؤاده
 فإذا هو المتحرِّقُ المجنونُ يشحطُ في رماده

(٣)

قلوبُ القومِ ما عرفتْ كلِّدَةً خمرُك الباقي

(أَدُرْ كَأَسَاً وَنَاوِلْهَا أَلَا يَا أَيُّهَا السَّاقِي (١)
رَمَادِي ذُرُّ أَجْنَحَةً بِسَابِ السَّرِّ تَكْتَظُّ
وَمِمَّا مِنْ ذَرَّةٍ إِلَّا لَهَا مِنْ حَبْنَا حَظُّ
بِوَدِّي أَنْ أَرَى شَيْخَاً يَغَيِّرُ وَضْعَنَا هَذَا
يَقُومُ وَيَجْعَلُ التَّلْمِيذَ لِلْأُسْتَاذِ أَسْتَاذَا
يَخَافُ الْبَازُ عَصْفُورَاً يُقَلِّمُ ظُفْرَ مَخْلَبِهِ
فَآتِ شَبَابَنَا نَوْرَاً تَفِيضُ عَلَى الشُّيُوخِ بِهِ
وَحَلِّصْهُمْ بِمَا تَخْتَارُ مِنْ قِيَدِ الْعَبُودِيَّةِ
وَلَوْ أَلْقَيْتَهُمْ حَطْبَاً بَنِيرَانِ الْوَجُودِيَّةِ
تَصَرَّفَ بِالْجَنُودِ لَهُمْ وَفَجَّرَهُ بِهِمْ شُعْبَا
فَلِيسُوا شَعْبَةً مِنْهُ إِذَا لَمْ يَسْقُطُوا تَعْبَا
شَبَابٌ لَا يَلِيقُ بِهِمْ مِثَالُ الْجَمْرِ فِي ضَرْمِهِ
كَقَلْبِ الْمَرْتَضَى بِأَسَاً وَكَالصَّدِيقِ فِي كَرْمِهِ
بِظُلِّ جَمَالِكَ الرِّيَّانِ أَوْرَقَ شِغْبُنَا الْيَبْسُ تَوَقَّفْ ذَلِكَ النَّفْسُ
وَلَمَّا أَنْ بَخَلَّتْ بِهِ عَلَى تَجْرِيحِ امْثَالِي
أَسْهَمَكَ لَمْ يَعِدْ يَقْوَى أَمِ الرِّكَبُ الَّذِي تَرْمِيهِ أَصْبَحَ فَارِغَ الْبَالِ
سَأَلْتُكَ هَذِهِ الْحَسَنَاءُ تُطْلِقُهَا مِنْ الْخِذْرِ لَهَيْبِ الْعِشْقِ فِي صَدْرِي
لِيعْرِفَ عَذْلِي مَعْنَى وَهَاتِ الْحَبَّ مِنْ سَلْبِي
بِشَعْرِي ضَعُ لَهُمْ شَرَكَاً

(١) ذكر العلامة السوداني في شرحه التركي على ديوان حافظ أن هذا البيت الذي افتتح به حافظ ديوانه هو من قصيدة ليزيد بن معاوية وقد عاب بعض الشعراء على حافظ الشيرازي فعلته هذه .

انظر العقد الجوهري شرح ديوان الجزري ، ص ٣ .

وخلَّ حُسامَكَ الهنديَّ يجرحُ كلَّ ذي قلبٍ
مرادي رشفُ أسرارٍ
ولا قلبٌ للطلابِ
ركبنا البحر في فلكٍ
فأجرى الرِّيحُ عاصفةً
ذوت عيناَيَ من أرقٍ
وهذا الدَّمْعُ في عينيَّ
تؤؤل راحة اليأسِ
ما أخفيه في نفسي
بأعينه صنعناه
وعكسَ الرِّيحَ أجراهُ
على قلقٍ طوى جنبِي
طلَّ من ندى قلبي

خشوعي في عذاباتي
ونوعُ طرقتي هذي
وفكري وهو بُستانُ
وحضنُ يقينها المضنى
وقلبي وهو ميدانُ
ودروشتي التي تبدو
سألتُك أن تعقها
وتسقيها لقافتي
ووثبي في طموحاتي
التي أمحو بها ذاتي
ونفسي وهي مرآتي
وجيشُ ظنونها العاتي
تضجُ به عراكاتي
نصيبي من معاناتي
وتمزجها بأهاتي
بموكبِ جيلنا الآتي

(٤)

إنَّه البحرُ دائمُ الحركات
ذاك بحرٌ من الحياة تجلَّى
اللهيبُ الذي تأجَّجَ فينا
يرفضُ المُكثَ بين ماءٍ وطينٍ
ما الذي يطلبُ اللهيبُ بهذا
في فرارٍ إلى السَّماءِ تراهُ
وثبةٌ بعد وثبةٍ في الحياةِ
واحداً في تموجاتِ الدَّواتِ
والذي يحتوي جنونَ الدُّخانِ
وهو راضٍ عن كلِّ ما يصنعانِ
إنَّه قاطنٌ وسارٍ بأنِ
حذرَ الموتِ في شبَّاك المعاني

إِنَّهَا الْوَحْدَةُ الَّتِي كَبَّلَتْهَا
 رُغْمَ كُلِّ التَّعَدُّدِ تَبْقَى
 إِنَّ أَعَادَ مَعْبَدِ الْعَصْرِ هَذَا
 وَلِسُومَنَاتِ كُلِّ عَصْرِ وَجُودُ
 نَحْنُ فِي ظِلِّهِ مَعاً وَاخْتِلَافِي
 وَاللهِيبُ الَّذِي تَأَجَّجَ فِينَا
 حَلَقَاتُ اللهِيبِ نَحْنُ وَلَكِنْ
 فِي بَرُوقِ وَفِي نَجُومِ مُشْعٍ
 فِي غِيَاظِ وَفِي رِيَاظِ مَقِيمٍ
 لَا يَعْيبُ زَهْرَكَ الْمُفْتَحِ شُوكِي
 لَيْتَ شِعْرِي يَفِيدُ كَيْدُكَ هَذَا؟
 هُوَ ذَا يَنْسِفُ الْجِبَالَ بِحَزْمٍ
 هُوَ حِيناً تَرَاهُ بَازاً وَحِيناً
 وَهُوَ حِيناً حَمَامَةٌ دُونَ عُشٍّ

حَلَقَاتُ التَّعَدُّدِ هَذِي
 وَحْدَةٌ مَا لَهَا نَظِيرٌ مُحَاذِي
 ذَاتُ أَعَادِهِ الْقَدِيمَةِ سَنَةٌ^(١)
 إِنَّ سُومَنَاتٍ لَا يُكَرِّرُ نَخْتَهُ
 عَنْكَ يَا أَنْتَ كَاخْتِلَافِكَ عَنِّي
 خَلَقَ الْحَادِثَاتِ مِنْكَ وَمَنِّي
 هُوَ فِي قَلْبِهَا يَظَلُّ وَحِيداً
 تَسْبُكُ التَّبَرَّ نَارُهُ وَالْحَدِيدُ
 كُلُّ مَا فَاضَ فِيهِمَا فَاضَ عَنْهُ
 كُلُّ شُوكِي وَكُلُّ زَهْرِكَ مِنْهُ
 لَيْتَ شِعْرِي عَرَفْتُ مَا هُوَ كَيْدُهُ
 هُوَذَا الْخُورُ وَالْمَلَائِكُ صَيْدُهُ
 حَجَلًا فِي دِمَائِهِ يَتَشَخَّطُ
 فِي شِبَاكِ حَيَالِهِ تَتَخَبَّطُ

(٥)

الرِّاحَةُ الْكُبْرَى بِقَلْبِكَ وَالسَّكِينَةُ خُذَعَتَانُ
 فَالْكُونُ ذَرَّاتٌ يَهَيِّجُهَا بِرَقِصَتِهِ الزَّمَانُ
 وَقَوَافِلُ الْأَشْيَاءِ فِي الْآفَاقِ تَضْرِبُ بِالْإِدْفَافِ
 وَتَرْوِحُ تُمَعِّنُ فِي التَّجَدُّدِ لَا تَفْكَرُ بِالْوُقُوفِ
 السَّيْرُ مَعْنَاهَا الْعَمِيقُ بِهِ تَجُولُ بِهِ تَصُولُ
 فَدَعِ الْوُصُولَ لِمَنْ يَرِيدُ فَلَيْسَ مَطْلَبُنَا الْوُصُولُ

(١) اهتم إقبال بنظريات « أنيشتين » التي وضعت حداً للهندسة التقليدية (الأستاذ الملوحي
 في ترجمته الشريفة) .

تَوُوقُ إِلَى الطَّيْرَانِ يَتَرُكُ سَرَّهَا يَتَفَطَّرُ
وَتَحْسُ رَاحَةَ صَدْرِهَا فِي وَثْبَةٍ لَا تَقْتَرُ
وَتَحِلُّ ، تَعْقِدُ مَا تَحِلُّ ، تُقِيمُ تَهْدِمُ مَا تُقِيمُ
فِرْدَوْسُهَا أَنْ تَسْتَمِرَّ وَرَوْحُهَا السَّيْرُ الْمُقِيمُ
وَإِذَا ابْتَدَاهَا الْمَوْتُ وَهُوَ النَّدْفُ فِي وَجْهِ الْحَيَاةِ
وَمِنَ الْعَسِيرِ كَفَاحُهُ تَمْضِي إِلَيْهِ فِي ثَبَاتٍ
وَبِذْوَقِهَا الثَّنَوِيَّ تَنْقَسِمُ اثْنَتَيْنِ إِلَى النَّزَالِ
وَتَرْوَحُ تُخْشَدُ فِي الشُّهُولِ تَعُودُ تُخْشَدُ فِي الْجِبَالِ
كَالْغُصْنِ إِنْ جَرَّدَتْهُ مِنْ سَكْرَةِ الدُّنْيَا صَحَا
وَازْدَادَ فِي وَقْتِ الرِّبَاعِ تَنْوُورًا وَتَفْتُوحًا
لَا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنْ تَذَارِكِهَا لَمَّا أَفْسَدَتْ مِنْهَا
الْوَقْتُ سِلْسِلَةً وَكُلُّ جِهَاتِهِ يَضْدُرُنْ عَنْهَا
شَفْتَانِ فِي فَمِهَا أَزَلَّ إِلَى أَبِي أَبَدٍ
الْوَقْتُ بَيْنَهُمَا كَالنَّفْسِ فِي الْجَسَدِ !

(٦)

مَوْجَةُ الْأَنْفَاسِ سَيْفٌ جَعَلَتْهُ الذَّاتُ حَادًّا
طَلَبَتْ ذَاتُكَ شَيْئًا نِيلُهُ يَضْعُوبٌ جَدًّا
هَذِهِ ذَاتُ شَرِيرٍ هَذِهِ ذَاتُ مُقِيمٍ
إِنَّهَا الْيَقْظَةُ وَالْعِزْلَةُ وَالسَّرُّ الْحَمِيمُ
إِنَّهَا الذَّاتُ سُؤَالٌ فِي طَرِيقِ الْمُسْتَدَلِّ
مِثْلَمَا الشُّوْقُ إِلَى الْعُزْلَةِ فِي وَقْتِ التَّجَلِّيِ
إِنَّهُ الْبَحْرُ الَّذِي تَحْمِلُهُ قَطْرَةُ مَاءٍ
وَهِيَ فِي الظُّلْمَةِ وَالنُّورِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ
وُلِدَتْ مِنْكَ وَمُنِّي فَأَضَعْنَاهَا كِلَانَا

وَأَنَا أَزْهَقُ ظَنِّي هُوَ مِنْ أَيْنَ اجْتَلَانَا
أَزَلِّيَّاتِي وَرَائِي أَبَدِيَّاتِي أَمَامَ
وَأَنَا رُغْمَ غِبَائِي طَامَحُ نَحْوِ التَّمَامِ
إِنَّهَا الذَّاتُ الَّتِي تَمُخَّرُ فِي بَحْرِ الْحَيَاةِ
فَتُغَاغِي لَطْمَاتِ وَتُقَسَّاسِي لَطْمَاتِ
عَنْدَمَا تَطْمَنِّحُ أَنْ تَقْلِبَ آمَالَ الشَّبَابِ
تَتَخَفَّى وَتَدِيرُ اللَّحْظَ مَنْ تَحْتَ النُّقَابِ
فَتَرَى الصَّخْرَ تَرَاباً صَعِقاً مَّثَّماً تُدِيرُ
وَتَرَى الْعَالَمَ وَجْداً يَتَمَنَّى لَوْ يَطِيرُ
إِنَّهَا الْبَدْءُ جَمِيعاً إِنَّهَا ذَاكَ الْغُبَارِ
إِنَّهَا فِي الْبَدْرِ أَضْوَاءُ وَفِي الصَّخْرِ شَرَارُ
إِنَّهَا فِي ظِلْمَةِ النُّجُورِ إِذَا شَعَّ النَّهَارُ
مَا لَهَا أَعْلَى وَأَدْنَى مَا لَهَا جَارٌ وَدَارُ
مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَيَمِينٍ وَيَسَارِ
لَمْ تَزَلْ حِلْفَ كَفَاحٍ وَانْقِلَابِ وَانْتِصَارِ
أَحْرَقْتَ آدَمَ لَمَّا جَسَّدْتَهُ لِلْقَضَاءِ
فَإِذَا آدَمُ لَحْنٌ وَإِذَا الذَّاتُ حِذَاءِ
وَإِذَا فِي بَوْبِ الْعَيْنِ انْطَبَاعَاتُ السَّمَاءِ
قَبْحُ السَّلَامَةِ أَنَّهَا فِي عَيْنِ صَاحِبِهَا قَذَى
وَالْعُمُرُ حَرْبُ الذَّاتِ فَالشَّرَفُ الرَّفِيعُ أَوْ الْأَذَى
الذَّاتُ عِنْدَ تَجَاهِلِ الْأَهْوَاءِ مَرْمُهَا الْأَكِيدُ
وَتَجَاهُلُ الْأَهْوَاءِ دَرْبُ الذَّاتِ وَالْخَبْرُ السَّوْحِيدُ
(محمود) تَرْفَعُ رَأْسَهُ ذَاتُ تَسْوُفٍ جَنَدُهُ
و (إيساز) عِنْدَ النَّاسِ مَلَأُ الْأَرْضَ مَمَّا عِنْدَهُ

لما أراد الغَزَنُويُّ يحطِّم الصنم الكبير^(١)
 جاؤوا إليه بكلِّ أصناف الجواهر والحريز
 فرمى بما جمعوه في بحرٍ وبدَّدهُ جميعه
 وأجابَ جئتُ لِكَيِّ أحطِّمه وَلَيْسَ لِكَيِّ أبيعه
 فلأنَّ أسمَى هادمِ الأصنام خيرٌ في السُّلوكِ
 من أن أسمَى بائعِ الأصنام من بين الملوك
 ليس الشُّجود تهْدُلُ الكتفين من فَرْطِ القُعود
 ما كان يغني عن سجودٍ آخرٍ فهو الشُّجود
 من هذه الأصواتِ والألوانِ عَالَمُنَا خليط
 وجَلُّ يطاردهُ الفناء من المُحيطِ إلى المُحيطِ
 أصنامُ ألوانٍ وأصواتٍ تَلُمُ الكونَ لَمَّا
 أسفأ على سمعٍ وعينٍ ألفاً عُميّاً وضُمّاً
 الأمرُ مرحلةٌ ودربُ الذاتِ تَذَخُرُ بالمراحِلِ
 ما أبعدَ الجُزُرِ التي تغريك عن تلك السَّواحِلِ
 يا أنت ناركُ لم تكن من موقِدِ هذا لهيئه
 ضاعتُ شرارتُك التي كانت بنظرتها تهيه

عبدك العالِمُ فاؤمر	فهو لا يَهْرُبُ مِنْكَ
غَيْرِ الموقِفِ وانظر	إنَّه يَضْدُرُّ عَنْكَ
امضِ لا تتركِ لشيءٍ	وانضُ عن كونِكَ هَوْلَه
لهثة الرَّاكِنِ مِنْ	سُرْعَةِ ما يبصرُ حَوْلَه
ظاهرُ العالِمِ سحرٌ	وعصا موسى ثباتُكَ

(١) الأبيات ليست في الأصل وإنما هي توضيح لمراد إقبال بقوله : همّة محمود .

أَسَدُ اللَّهِ الَّذِي يَقْتَنِصُ الْعَالَمَ ذَاتُكَ
جَوْهَرُ الْكَوْنِ قَدِيمٌ فَكُرُّ الْكَشْفِ الْجَدِيدِ
أَيْنَ كَفِّ تَنْظِيمِ الْجَوْهَرِ فِي سِلْكِ فَرِيدِ
أَيْهَا الْمَسْلُومِ فَارْقُبْ نَظْرَةَ الدُّنْيَا إِلَيْكَ
فِي مَلَأَ مِنْ رَجَاءٍ يُعَقِّدُ الْعَزْمَ عَلَيْكَ
إِنَّ لَلْأَمَادِ شَغْلًا حَوْلَ أَقْطَارِ النُّجُودِ
عِنْدَمَا تَكْشِفُ عَنْ ذَاتِكَ تُدْعَى لِلشُّجُودِ
لَسْتُ فِيمَا قَلَّتْهُ أَشْرَحَ لِلْعَالَمِ قَدْرَكَ
فَأَنَا حَاوِلْتُ حَتَّى الْآنَ أَنْ تَفْتَحَ صَدْرَكَ
مَزَّقَ الْكَلِمَةَ ضَيْقٌ عَنْ مَعَانٍ نَقْتَفِيهَا
نَحْنُ مَرَاةَ مَعَانٍ كَدَرُ الْكَلِمَةِ فِيهَا
زَفَرْتِي تُضْرِمُ صَدْرِي وَأَنَا بَيْنَ الشُّيُوفِ
غَيْرَ أَنَّ الْقَوْلَ مِنْ خَشْيَتِهِ يَرْجُو الْوُقُوفِ
أَنَا مِنْ كَثْرَةِ مَا حَلَّقْتُ أَلْهَيْتُ النَّوَاحِي
فَلَوْ اجْتَزَتْ قَلِيلًا أَحْرَقَ النُّورُ جَنَاحِي

الزَّمن

شُعْلَةُ الْعُمْرِ مِنْ لَهَبِ الثَّوَانِي
غَدُكَ الطُّغْمُ فِي حِبَالَةِ أَمْسٍ
يَرْقُبُ النَّاسُ طَالِعًا ذَا خِيَالٍ
وَأَنَا ذَلِكَ الْخِيَالُ وَلَكِنْ
يَسْقُطُ الْعَالَمُ الْجَدِيدُ بِكَأْسِي
سُبْحُ الْقَوْمِ لَعَبَةٌ فِي يَدِيهِمْ
أَشْعَلَتْهَا تَغْيِيرَاتُ الزَّمَانِ
فَتَرَفَّقَ بِيَوْمِكَ الْمُتَفَانِي
وَيَخُوضُونَ فِي جَمِيعِ الْأَمَانِي
يَضَعُبُ الْيَوْمَ شَرْحُ تِلْكَ الْمَعَانِي
قَطْرَةٌ قَطْرَةٌ كَرَشَحِ الدُّنَانِ
أَنَا سُبْحَتِي لِيَالِي زَمَانِي

كُلُّ حَبَّاتِهَا عَرَفْتُ وَلَكِنْ
وَلِكُلِّ طَرِيقَةٍ وَسَلُّوكُ
مَرَّةً أَجْعَلُ الْأَعْنَةَ سَوَاطِ
لَكَ مِنْ حَفْلَةِ اللَّقَاءِ نَصِيبٌ
لَيْسَ مِنْ عَادَتِي أَخْبِيءُ كَأْساً
بَدءُ هَذِي التَّعَرُّجَاتِ عَسِيرٌ
وَهِيَ لَيْسَتْ لِرَاصِدٍ فِي غُرُورٍ
إِنَّ عَيْناً خَبِيرَةً بِقَوَاهَا
شَفَقُ الْأَفَقِ ذَاكَ نَهْرُ دِمَاءٍ
وَانْتَظِرْ مَطْلِعَ الصَّبَاحِ وَقَهْقَه

لَا أَسُوِّي بَيْنَ الْجَمِيعِ بِشَانِي
بَعْضُهَا فَارَسِي وَأُخْرَى حِصَانِي
مَرَّةً أَجْعَلُ السَّيَاطِ عِنَانِي
فَإِذَا لَمْ تَكُنْ فَلَسْتُ بِجَانٍ
لِنَدِيمٍ عَلَى كِرَامَةِ حَانِي
وَهِيَ لَيْسَتْ تَعَرُّجَاتِ جَبَانٍ
وَهِيَ لَيْسَتْ لِمُقْتَفٍ فِي هَوَانٍ
غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ لِحَمَلِ سِنَانٍ
فَتَحْمَلُ نَهْرَ الدِّمَاءِ وَعَانٍ
حَاكَتِ اللَّغْزَ ذَاكَ أُسْطُورَتَانِ

هَذِهِ الْفِكْرَةُ الْجَرِيئَةُ عَرَّتْ
إِنَّ عُشَّاءَ هِيَ الصَّوَاعِقُ فِيهِ
إِنَّهَا الرِّيحُ وَالْفَضَاءُ جَمِيعاً
كَانَ جُنْدُ الْقَضَاءِ لِلْمَوْتِ ذِعْراً
وَإِذَا أَنْتَ جِئْتَ بِالسَّيْفِ طِفْلاً
ذَهَبَ الْعَالَمُ الْقَدِيمُ قَتِيلاً
قَامِرَ الْإِنْكَلِيزِ حَتَّى تَوَلَّوْا
إِنَّ هَذَا الصُّوْفِيَّ يَحْمِلُ نَاراً
مَلَأَ اللَّهُ دَرْبَهُ بِمَعَانٍ

سُلْطَاتِ الطَّبِيعَةِ الْمُسْتَبَدَّةِ
لَيْسَ صَعْباً لِمِثْلِهَا أَنْ تَهْدَهُ
إِنَّهَا الْبَحْرُ وَالسَّفِينَةُ عِنْدَهُ
فَإِذَا بِالْقَضَاءِ يَقْتُلُ جُنْدَهُ
أَمْسَكَ الطِّفْلُ لِلْجَمَالِ فِرْنَدَهُ
أَتَرَى يَسْلُمُ الْمُقَاتِلُ بَعْدَهُ
وَكَذَا الدَّهْرُ لَا يَقَامِرُ وَحْدَهُ
لَا تَبَالِي بِرِيحِ تِلْكَ الشُّكُوكِ
عَلِمْتُ قَلْبَهُ سَلُوكَ الْمُلُوكِ

آدمُ يُغادرُ جَنَّةَ عَدْنَ والملائكة تودِّعه

أَنْتَ مَوْهوبٌ وَإِلَّا	لَمْ نَجِدْ لِلْغُرِّ حَلًّا
كُنْتَ مِنْ طِينٍ وَيَبْدُو	أَنَّ ذَاكَ الطَّيْنُ وَلَّى
كَانَتْ النَّفْخَةُ مِنْهُ	زُبْقًا فِي السَّرِّ حَلًّا
وَيَقُولُونَ تَرَابٌ	قُلْ عَسَى هَذَا وَعَلَّ
وَمَعَ النُّكْتَةُ هَذَا	أَحْمَلُ الْعَالَمِ كُلًّا
كَلِفٌ بِالْحُسْنِ حَتَّى	أَنْتَ فِي الْحُلَمِ تَصَلَّى
لَكَ فِي الْحُلَمِ نَعِيمٌ	يَغْمُرُ الْيَقْظَةَ ظِلًّا
دَمْعُكَ الصُّبْحَ لَسَدِينَا	يَمْلَأُ الْجَنَّةَ طَلًّا
يَطْلُبُ الرِّوْضَ لِيَسْقِي	زَهْرَهُ مَمَّا تَمَلَّى
فَاكْشِفِ الْأَسْرَارَ وَارْقُصْ	تَرْقُصِ الْجَوْقَةَ دَلًّا
إِنَّمَا الدُّنْيَا بَكَاءٌ	وِغْنَاءٌ لِيَسَّ إِلَّا

روح الأرض تستقبل آدمَ

فَأَتَى الْأَرْضَ فَقَالَتْ	إِنِّي أَنَا آدَمُ جَاءَ
أَنْتَ يَا آدَمُ فَاعْلَمْ	كُنْتَ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ
حَوْلَكَ الْعَالَمُ فَاَنْظُرْ	وَتَمَعَّنْ فِي السَّمَاءِ
وَوَرَاءَ الْحُجُبِ حُسْنٌ	فَتَأْمَلْ مَا وَرَاءَ
لَا تَكُنْ نَافِذَ صَبْرٍ	وَاحْتَمِلْ وَهْمَ الشَّقَاءِ
ضَجَّةُ الْعَالَمِ هَذَا	حَرْبُ خَوْفٍ وَرَجَاءِ
لَكَ مَا فِي الْكَوْنِ مُلْكُ	مِنْ بَحَارٍ وَفَضَاءِ

هذه الشُّخْبُ جميعاً هذه اليُّدُ العَراءُ

(٢)

كنتَ من وجهه مَلاكٍ في اندهـاشٍ وفناءٍ
فَخُذِ المِـرَآةَ وانظُرْ فيك أسرارَ القضاءِ
نظراتٌ ذاتٌ مغزى أطلقَتْ سرَّ البقاءِ
وشـراراً صـراخٍ يتعالى في السَّماءِ

(٣)

إنَّ ضوءَ الشَّمْسِ هذا من شـرارِـاتِكَ ضياءِ
عالمٌ أنتَ جـديـدٌ أنت والكـونُ سـواءِ
أنتَ فـردوسُكَ ذاتٌ مالهـا قـطُّ انـتهـاءِ
جسـدٌ ؟ لا ليس هذا جسـداً هـذا جـزاءِ
أَيُّها الزَّهْرَةُ فانظُرْ كيفَ تمضي في العطاءِ

(٤)

كلُّ أوتـارِكَ تبكي أَيُّها العـودُ الشَّـريدِ
كلُّ مـيراثِكَ حـبٌّ فتخـيِّر ما تـريدِ
سَيِّدُ الأسـرارِ في المـعبـودِ من وقـتٍ بـعيدِ
تنفـق الـذَّاتُ وتبـلى ثم تُبـدِي وتُـعـيـدِ
ثمَّ في غـير كـثيرٍ تمـطـي كلَّ جـسـدِ

قطعة

خطاي كمِثل نسيم الصَّبـاحِ تُبـطـي حـيناً وتُسـرع حـيناً
أنا شوكتي إبـرةٌ للـورودِ تـرقـعُ ما انقـدَّ عـبر السـنينا

بدأبي كَسَوْتُ ثِيَابَ الحريرِ هذي الشَّقَائِقُ والياسمينَا

المُرشدُ والمُرِيدُ

إقبال وهو التلميذ الهندي يوجه إلى مرشده
أسئلة نجد أجوبتها كاملةً مدرجةً في كتابه
(المثنوي) وهو يوردها بنصّها بالفارسية .

قال إقبال لروميِّ يا إمامَ العاشقين
لم يزل يملأ سمعي ذلك القولُ المبين
وترُ العودِ وقشُرُ العودِ والعودُ سجُونُ
عندما تَبَسُّ فيه يبسُ اللّحنُ الدّفينُ
عصرُنا النشوان هذا تتشبي منه الطُّنون
رقصةُ الأجسادِ لا تمحو أسى القلبِ الحزين
مبدأ العالم يا أستاذُ ما شاؤوا يكون
ليس في قلبِ حضورٍ أو بوجدانٍ يقين
كيف يستوعبُ سرّاً ذلك الصّذرُ المهيّن
ردّ للصّدّيق ما يروي عن الوحي الأمين
كيف جرّته إلى الأوهام قيثارةُ طين
رغم ما أنفقَه للمجد من كدّ القُرون
قال رومي أيُّ فرقٍ بين لحنٍ وطنين
إنَّ فنَّ الاستماعِ الحقِّ سلطَانُ الفنّسُون
كالعصافير وليست كلّها تَأْكُلُ تين
قال : طوّفتُ لأجل العلمِ في شرقٍ وغربِ

وَأَنَا الْآنَ وَحِيدٌ وَالْأَسَى يَمْسِلُ قَلْبِي
 قَالَ : هَذَا طَبُّ كَفٍّ لَيْسَ أَهْلًا لِعِلَاجِكَ
 جَعَلْتُ مِنْكَ مَرِيضًا فِي فِرَاشٍ مِنْ لَجَاجِكَ
 اسْأَلِ الْأُمَّ عِلَاجًا مِنْ عَقَاقِيرِ الْأُمَانِ
 إِنَّ نَصْفَ الطَّبِّ مِنْ عِلْمٍ وَنَصْفًا مِنْ حَنَانٍ
 قَالَ يَا مَنْ شَرَحْتَ نَظْرَتَهُ ضَيْقَ فُؤَادِي !
 أَمَلِي أَفْهَمُ مَا تَفْهَمُ مِنْ أَمْرِ الْجَهَادِ
 قَالَ : مَنْ سَوَّى لَكَ الْأَصْنَامَ سَوَّى لَكَ فِئْسَهُ
 وَبِأَحْجَارِ الْحَبِيبِ يَضْرِبُ الْحَازِقُ كَأْسَهُ ^(١)
 لَا تَقُلْ لَيْتَ وَلَوْلَا مَا عَلَى هَمِّكَ بَاسٌ
 أَنْتَ يَا هَذَا الَّذِي يَجْرُحُ فِي الدَّهْرِ وَيَأْسُو
 قَالَ : حَوْرُ الْغَرْبِ أَلْقَتْ فِتْنَةَ الشُّرْقِ شَبَاكَهَا
 صَرَعَتْ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا تَرَى فِيهِ حِرَاكَهَا
 قَالَ : يَا إِقْبَالَ ! اخْذَرْ ظَاهِرًا يَطْغَى عَلَيْكَ
 عِنْدَمَا تَفْرِكُهَا الْفُضَّةَ انْظُرْ لِيَدَيْكَ
 قَالَ : يَا رُومِي ! وَسِخْرُ الْإِنْكِلِيزِيِّ إِيَّامًا
 يَأْخُذُ الطَّالِبَ لِحْمًا ثُمَّ يَرْمِيهِ عِظَامًا
 قَالَ : كَالْعَصْفُورِ إِنْ لَمْ يُكْمِلِ الرِّيشَ وَطَارَ
 هَجَمَ الْقُطُّ عَلَيْهِ وَرَمَاهُ لِلصُّغَارِ
 قَالَ : إِنَّ السَّيِّئِينَ وَالْقَوْمِيَّةَ الْيَوْمَ صَرَاعُ

(١) فِي الْمَثْنَوِي (كَسْرُ زَجَاجَةِ الْحَبِيبِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِحَجَرِ الْحَبِيبِ) وَمَعْنَاهُ كَمَا شَرَحَهُ
 د . كِفَافِي : إِنَّهُ لَا حَقَّ لِلْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَمِيتَ إِنْسَانًا آخَرَ فَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَمِيتُ سِوَاهُ
 كَانَ ذَلِكَ بِفَعْلٍ مُبَاشِرٍ أَوْ بِأَمْرٍ وَاجِبِ الْإِتْبَاعِ مِمَّا نَصَّتْ عَلَيْهِ الشَّرِيعَةُ .
 انْظُرْ تَرْجُمَةً د . كِفَافِي لِلْمَثْنَوِي ص ٦١٣ .

أَنْتَ هَلْ تَدْرِي بِمَاذَا يَنْتَهِي هَذَا النِّزَاعُ
 قَالَ : مَا فِي اللَّيْلِ لِلزَّائِفِ وَالْمَحْضَرِ عِزَازُ
 وَدَلِيلُ الذَّهَبِ الْخَالِصِ إِشْرَاقُ النَّهَارِ
 قَالَ يَا شَيْخُ! بِمَاذَا أَمَلَا الدَّرْبَ الْقَصِيرَ
 وَبِأَيِّ الْأَمْرِ أَغْنَى بَعِيَانِ أَمْ بِصِيرِهِ
 قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ مَا هَذَا الَّذِي لَيْسَ يَبِينُ
 إِنْ تَكُنْ تُبْصِرُ يَعْنِي أَنْتَ إِنْسَانٌ مَبِينُ
 يَمَلَأُ الْمُهْجَةَ حَقُّ وَحْيِي سَبُّ دَامِغُ
 مَا عَدَا ذَلِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ جَوْرُ فَارِغُ
 قَالَ : يَا مَنْ مَلَأَ الشَّرْقَ بِمَا يَحْيِي الْقُلُوبَ
 مَا الَّذِي يَغْصِفُ بِالشَّرْقِ وَمَسَادَاءَ الشُّعُوبِ
 قَالَ : مَا أَعْرِفُ شَعْباً مَاتَ إِلَّا مَاتَ لَمَّا
 حَسِبَ الْأَحْجَارُ بَخُوراً وَظَنَّ الشُّهَدَاءُ سَمّاً
 قَالَ : يَا شَيْخُ! وَهَذَا الْمُسْلِمُ الضَّائِعُ كَوْنُهُ
 دُمُهُ أَصْبَحَ ثَلْجاً عَطَرُهُ غَابَ وَلَوْنُهُ
 قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَعْباً
 وَرَجَا الْقَلْبَ لَا تَجَرُّوْا أَنْ تَجْرَحَ قَلْباً
 قَالَ : يَا أَسْتَاذُ! إِنَّ الشُّوْقَ وَالْحَقَّ أَقْوَلُ
 كَسَدَتْ فَالْبَيْعُ أَيُّ الْبَيْعِ يَحْظِي بِالْقَبُولِ
 قَالَ : أَذْهَبَ وَاشْتَرَى الْحَيْرَةَ بِالْعَقْلِ الظَّنِّينِ^(١)
 إِنَّهُ وَهْمٌ وَظَنٌّ وَهِيَ حَقٌّ وَيَقِينُ
 قَالَ : جِيرَانِي جَمِيعاً نَدَمَاءُ لِلْأَمِيرِ

(١) انظر « المثنوي » ترجمة كفاي « حيرة المحب أمام الحبيب لا حيرة من يوليه ظهره »

وأنا فوق حصيري حاسرُ الرأسِ فقير
 قال : كن خادماً حرّاً قلبُـه دون حدود
 لا تكن في مجلس السُّلطان من بعضِ القُرود
 إنْ تُكُنْ عبداً لإنسانٍ لـه قلبٌ كبير
 هو خيرٌ من طوافِ بينِ نُدمانِ الأمير
 قال : يا هذا الذي يُسهِمُ في وَجْدِ الكبار !
 ضَعْتُ مِنْ قِلَّةِ علمي بينِ جبرٍ واختيار
 قال : يا إقبالُ ! ما الشَّاهين ؟ يبدو كالغراب
 ريشُه يُضْبِخُ تاجاً ريشُ هذا للثُّراب
 يطلب الموتى غرابٌ ظُفْرُهُ عِيبٌ عليه
 وترى الشَّاهين يمضي أَكُلُّهُ صَنعُ يديهِ
 قال : ماذا يأمل الإسلام من هذا السُّلوكِ
 ألكي نرضى بفقيرٍ أم إلى طيشِ الملوكِ
 قال رومي : جَنَّةُ الإسلام في ظلِ الشُّيوف
 ليس ما تطلبه الرُّهبان من أمنِ الكهوف
 قال : يا أستاذ ! كيف الخوضُ في ماءٍ وطين
 أين ما يوقظُ قلبي وهو في صَدْرِي سَجين
 قال : لا تشمخْ كنعشٍ فـوراءِ النَّعشِ كسفٌ
 وتواضعْ كحصانٍ أينما شاء يخفُ
 قال : يا أستاذ ! أين البعثُ من ضعفِ يقيني
 وأنا أَجْهَلُ ما أَجْهَلُ من أسرارِ ديني
 قال : ما أنت وهذا ابْعَثِ النَّفْسَ بذاتك
 ثم سل نفسك ماذا إنَّها درُبُ حياتك
 قال : يا أستاذ ! إنَّ الذات تمضي في السَّماء
 تحمِلُ الظُّلْمَةَ والنُّسور على حَدِّ سواء

مع هذا غابَ عنها
 هي مِنْ فَقْدِ التَّجَلُّي
 في ازدهارٍ وانهيـارٍ
 هي مما افتـرستـه
 قال رومي : ليس إلا الحـبُّ أهلاً للعـراكِ
 لكن المـوضـوع (من يـوقـعه بين الشُّبـاكِ)
 قال : يا أستاذ ! قل لي
 أنت للإسلام شمسٌ
 قال رومي : كلُّ حـبٍّ
 لا تـكن بُزعمَ وردٍ
 كن على حـبِّك فـخاً
 واسترِ البزعمَ واضرب
 قال : يا أستاذ ! ما الحـربُ الـتي تـملأُ جـنبـك
 أنا ما جئتـك إلا
 هو ذا قلبي بِصـاذري
 بين كـدٍّ وخـمـولٍ
 قال : يا إقبالُ لـسـنا
 أنا لي مثـلك قلبٌ
 إنـما القـلبُ سـماءٌ
 وله ربٌّ حـواه
 ما لملك القلبِ يا إقبالُ دربُّ تـسلُّكـه
 مُتـهـي الحـكمـة أن تـحـثَّ عـن يـمـلـكـه
 قال : يا أستاذ ! فكـري
 وأنا في الأرض هـذي
 لـم نـستـرشد بـالمـضـلـح لا يـضـلـحُ أهـلـه ؟

وَلَمَّا عَارَفُ بِاللَّذِينَ بَغِيرِ الدِّينِ أَلْسَنُ
قَالَ رومي بعدما استرسل في الكون الكبير :
فِي سَمَاءِ اللَّهِ يَسْرِي مَنْ عَلَى الْأَرْضِ يَسِيرُ
قَالَ : يَا أَسْتَاذُ ! لَا أَبْصِرُ فِي الدَّزْبِ مَنْارَا
أَيْنَ مَنْ يَقْدَحُ لِلْحَكْمَةِ فِي صَدْرِي نَارَا
قَالَ : يورِي العلمَ نَاراً يَابِسُ الْخَبِرُ الْحَالُ
وَالَّذِي يَأْكُلُ كَدَّ النَّاسِ يُفْنِيهِ الضَّلَالُ
قَالَ : يَا أَسْتَاذُ ! إِنَّ الْعَصْرَ يَسْتَدْعِي النَّزَالَ
وَلَهَيْبَ الشَّعْرِ يَخْبُو وَقَدُّهُ دُونَ اعْتِزَالُ
قَالَ : يَا إِقْبَالَ ! لَسْنَا نَقْصِدُ الْعِزْلَةَ قَصْدَا
عِنْدَمَا الْأَحْبَابُ تَأْتِي تُضِيحُ الْخِلْطَةَ شَهْدَا
بَدَّدِ الْعُزْلَةَ وَادْهَبْ مِنْ قَطِيعِ لِقَاطِعِ
تَشْتَرِي النَّاسُ فِرَاءَ لَيْسَ مِنْ أَجْلِ الرِّبَاعِ
قَالَ : أَيْنَ الْهِنْدُ ضَاعَتْ لَا لَهَيْبَ لَا ضِيَاءَ
وَرَجَالَ الْقُلُوبِ فِيهَا تُعْسَاءُ أَشْقِيَاءَ
قَالَ : يَا إِقْبَالَ ! هَذِي النَّاسُ لَا تَعْرِفُ رُوحَا
أَجَلِ الدَّمْعَةِ هَذِي وَكَفَى الْيَوْمَ جُرُوحَا
يَلْفِظُ الْحَقُّ بَعِيداً جَسَداً مَا فِيهِ قَلْبُ
إِنَّ رَبَّ النَّاسِ حَيٌّ وَهُوَ لِلْأَحْيَاءِ رَبُّ
كُلُّ مَا فِي الشَّعْرِ هَذَا مِنْ صُورَاخٍ وَصِيَاخٍ
لَيْسَ مَا يُذْهَشُ أَنْ يَذْهَبَ أَدْرَاخُ الرِّيَاخِ

جبريلُ والشَّيْطان

التقى سيّدُنَا جبريلُ إبليسَ الرَّجِيمِ
قال : ما شاهدتَ قل لي أيها الخُلُ القديم ؟!
ما جرى في عالم الألوَانِ والعِطْرِ الجديّد
قال : شوقٌ وطموحٌ وبكاءٌ ونشيدٌ
قال : ما زالَ حديثُ القوم في الحضرة خلُقك
أولا يُمكن أن يُزقّع في الجلبابِ خزقك
قال : هيهاتَ ولكِن لَسْتُ تدري ما أسرُّ
هو في الظاهر يُشقي وهو في الحق يُسرُّ
قدحُ السرِّ الذي أسكّرني منه تكسّر
ورجوعي للأعالي بعد سُكري يتعسّر
أنا حتّى لا أطيّق العيشَ في تلك الأعالي
أنتَ للرّحمة حالٌ وأنا اللّعنةُ حالي
ذلك العالم ما معناه من غير أوابد؟
إنّهُ الموتُ الذي تُعرِف لولا ما أكابِد
فإذا كنتَ حياةً بقنوطي للوجود
أتري الواجبَ أبقي في قنوطي أم أعود
قال : لكنّ عندما استنكفتَ كبراً أن تطيعه
نالك العارُ ونال المالُ الأعلى جميعه
صارَ شُغلَ المالِ الأعلى أمام الله خوفاً
يهدرُ الدُّغُرُ عليه تملأ الرّعدةُ جوفه
قال : يا جبريل لكنّ جرأتي سرُّ البقاء
وهبتُ للحمماً المسنون شوقاً للنماء

أنت في الشاطئ ترنو لصراعات المواقف
 أنا أم أنت الذي تَصْفَعُهُ تلك العواصف
 عندما تَغْصَفُ ريحي لُجَجَ البحر الجليَّة
 لا يرى إلياس والخضرُ من المواقف حيله
 فإذا أمكن يوماً تسأل الله تعالى
 فأننا أرجو أن تسأله هذا السؤال
 دم من ذاك الذي خَضَّبَ تاريخ ابن آدم^(١)
 دم من هذا (دمي أم دمه أم دم آدم)
 صاغني الله تعالى شوكة تجرح قلبه
 أنت لا تُثَقِّن إلا النَّفْيَ والإثبات قرينة

قطعة

بالأمس أوصى مُرشدُ أصحابه
 أغلى وأثمن من بحور لآلىء
 بوصية سبحان ربك من وهب
 يا ليتها كُتِبَتْ بماء من ذهب
 سُمُّ يُسَمِّمُ ذاته وإرادته
 في خمير أوروبة لشعب كامل
 تمحو مواهبه تُبِيدُ كرامته
 تفني بنيه بالتسكع خلفها

(١) يبدو أن إقبالاً يريد أن يقول : إن ما نفخه الله تعالى في آدم من روحه هو ما في دماء ابن آدم من حنين إلى الخير والشیطان بشوكة الشريرة يسيل تلك الدماء لتسقي نبتة الأرض ، ومن باب آخر يحاول إقبال أن يدافع عن المعتقدات الغيبية في التصور الإسلامي ؛ خاصة وجود الشيطان الذي يجري في الناس مجرى الدم كما في الحديث .

الأذان

قال نجمُ الصُّبحِ للأفلاكِ يوماً لاجِياً
أحدٌ منكم رأى آدمَ يوماً صاحياً
سَخَّرَ المَريخَ ممّا قاله نجمُ الصُّباحِ
قال : هل ينفع شيئاً صاحياً أو غير صاحٍ
تَدركُ الأقدار ما تفعلُ في هذا الظُّلامِ
وأرى الخيـرَ لـداومتـه في أن تنام
قالت الزُّهرة : أفْ غَيِّروا الموضوع هذا
تُنْفِقُ اللَّيلةَ في البطالِ واللغو لماذا
فيم نهتمُّ لهذي الذِّرة العمياءِ قولوا
فأجاب البدر هذا النجم في الأرض يصولُ
نحنُ في الظُّلمة نبدو وهو يبدو في النُّهار
روحُه سرُّ الليالي قلبُه قَطْبُ المِدارِ
وهو لو أدرك معنى سهرِ الليل وذاقَه
جاز أطباق الثُّريا وأرى الله طباقَه
إنَّه في صَدْرِهِ يستر نوراً باهراً
وهو أطلقَه ليم يبقِ نجماً ساهراً
فعلا صوتُ أذانٍ بينهما هُم في جدالٍ
يا لها صرخةٌ وعظٌ صدَّغتُ قلبَ الجبالِ

قطعة

رُغِمَ ما يوجد في رِگة شعري من عُيوب

ربما تبلغ يوماً كلماتي للقلوب
 ما على الشارع لوم كيفما قال وعبر
 أنا تغنني عن الشعر نداءً (الله أكبر)
 أنا تغنني إذا أخفقت في كشف النوايا^(١)
 صلات وتراويل بهاتيك الزوايا
 مفسر الجانب هذا دينهم لا يستطيع
 عرفوا النفس ولما نظروا في الله ضاعوا
 وعباد الجانب الآخر عمال مناجم
 هم عن اللاهوت أغراب وفي البحث أعاجم

الحب

من شهيد الحب الذي زعموه
 سمة العشق لا تتأخ لشعب
 في هياج الفؤاد للحب سر
 إنما الغزنوي صنو إياز
 روج الحب سوق كل حكيم
 هي لولا تدخل الحب فيها
 رجل الحب لا يذل لشيء
 ليس يحتاج أو يخاف ملكاً
 تاج إسكندر الشهير متاع
 أنا أبني الرجال بالفقر هذا
 ابحثوا عنه في جميع الفجاج
 دون شعب ولا تبأخ لراجي
 كهياج الفراش حول السراج
 إن يكن قلبه بغير هياج
 حاك آراءه به للزواج
 لعبة من لآلى من زجاج
 مستقل الفؤاد حر المزاج
 إنما الخوف مظهر الاحتياج
 وأنا الفقير والتدروش تاجي
 وهو ينسي مدينة من زجاج

(١) يقارن إقبال بين الإسلام والمسيحية .

رسالة نجم

بَعَثَ النَّجْمُ لِي يَقُولَ : مُحَالٌ أَنْ يَعِيقَ الظُّلَامُ شُغْلَةَ ذَاتِي
أَنْتَ مِثْلِي مُسَافِرٌ ذُو لَهَيْبٍ فَأَنْزِرْ بِاللَّهَيْبِ لَيْلَ الْحَيَاةِ

إلى جاويد^(١)

لَتَكُنْ لِقَلْبِكَ يَا بَنِي مَكَانَةً فِي مَوْطِنِ الْحَبِّ الْبَعِيدِ النَّائِي
كُنْ فِي أَمَاسِيهِ وَفِي أَسْمَارِهِ نَغْمًا يُجَدِّدُ حَرْقَةَ النُّدْمَاءِ
وَعِي الْفُؤَادِ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا فَإِنْ وَهَبْتُكَ إِيَّاهُ يَدُ الرَّحْمَنِ
أَخْرَجْتَ مِنْ صَدْرِ الْوَرُودِ حَدِيثَهَا وَنَزَعْتَ صَمْتَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ
إِيَّاكَ يَوْمًا أَنْ تَدِينَ لَصَانِعِ فِي لَيْلِ أَوْرُبَةِ يَصُوعُ زُجَاجَا
صُغْ مِنْ تَرَابِ الْهِنْدِ كَاسَكَ وَافْتَحْزُ وَارْفَعْ بِلَادَكَ فَوْقَ رَأْسِكَ تَاجَا
أَبْنِيَّ عَرَجُونَ بِدَالِيَةٍ (أَنَا) أَيْيَاتُ شَعْرِي هَذِهِ أَعْنَابِي
مِنْ هَذِهِ الْأَعْنَابِ أَعْصِرْ خَمْرَةً حَمْرَاءُ تُلْهَبُ بِالْحَيَاةِ شَبَابِي
أَنَا عَيْشَةُ الْأَمْرَاءِ لَمْ أَبْهَ لَهَا أَنَا عِشْتُ دُرُوشًا مَعَ الْفُقَرَاءِ
فَادْخُلْ سَجَلُ الْفَقْرِ بِاسْمِكَ إِنَّهُ فَخْرُ النَّبِيِّ وَسَيِّدُ الْأَسْمَاءِ

الدين والفلسفة

مَحَلُّ الدِّينِ مِنْ يَدِ فِيلَسُوفٍ مَحَلُّ الشَّمْسِ مِنْ كَيْدِ السَّمَاءِ

(١) قدم إقبال هذه القصيدة بقوله : « جواب أول رسالة تلقيتها منه وكتبها بخط يده وأرسلها إلى لندن » .

له في كل يوم وهمٌ بحثٌ
 أنا في ظلّ بيتي أم غريبٌ
 قد استوحشتُ من جبلٍ ووادٍ
 أضعتُ على رسومِ القومِ عُمرِي
 تعجّب جئت من أين (ابن سينا)
 أرافقُ في طريقي كلّ سارٍ
 ولم أر في طريقي مستعدّاً
 يكونُ من الصّباح إلى المساء
 وهل سفري بعيدٌ أم قريبٌ؟
 فأينَ تراه يستتر الحبيبُ
 أفشّ عن بصيرِ الرُّسومِ
 وساءلني ستذهب أين (رومي)
 وأعطيه نصيباً من طريقي^(١)
 يكونُ إلى نهايته رفيقي

رسالة من أوربة

الاعتصامُ بجبلِ الحسّ ضيّعنا
 وللبصيرة بحرٌ عاصفٌ حظيت
 أنا لقافلةِ الرُّوميّ متبّعٌ
 هبّ عصرنا مثوياً آخراً فلقد
 طريقُ حُرّيةِ الأحرارِ مُظلمةٌ
 في الليل من بحثنا عن شاطئِ البصرِ
 من قعره غطسةُ الروميّ بالذّررِ
 وهل لقافلةِ الروميّ من أثر
 جارت رسالةُ أوربة على البشرِ
 تضيئها شعلهُ الروميّ بالشّررِ

(١) شاهدٌ دخله بعض التحوير من شعر غالب الشاعر الأردوني الكبير في القرن التاسع عشر ، وله دواوين رائعة باللغة الأردوية والفارسية ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثالث .

جواب

على ابنِ آدمَ أن يرعى العُلَى أنفأً كظبي (خوتان)^(١) يرعى نبتةَ الجودي
ولا يجوزُ له بل لا يليقُ به أكلُ الشَّعير ورعي العشبِ والعُودِ
هُم يُضْحُونَ بالمُقتاتِ من كلاً وَيَخْضَعُونَ لمن ناوَهُمُ الشَّانَا
ومن تخلَّق بالقرآن مجَّده وأصبَحَت نفسه للنَّاس قرَّانَا

على قبر نابليون

التَّوَقُّ للفِعْل سيفُ الخالدين به تشقُّ في جُبَّة الأسرار أقدار
وقبل مولد نابليون خاضَ به إسكندرُ الأرضَ أمصاراً فأمصار
جبال (آلوند) هدَّتْها حماسُهُ وأطلَقَتْ سيلُ تيمورلنك تيارا
تصير صرخةُ أهل الله صرختَه إذا أصرَّت على الإيمان إصرارا
والتَّوَقُّ لحظته لا تستمرُّ فإن لم تغتنم نيلَه في وقته غارا
وقام يثار ليلُ القبر منك له لا يستقرُّ إلى أن يأخذ الثَّارَا
(مسيرنا نحو وادِ الصَّمْت لذَّته أن تملأ القُبَّة الزرقاء آثارا)^(٢)

(١) خوتان : بلدة كانت تحت حكم التتر المسلمين ، تنسب إليها طباء المسك .

(٢) شاهد من شعر حافظ الشيرازي وقد أورده إقبال بالفارسية .

موسوليني (١)

<p>نشأ طُ جديداً وفكرٌ جديد صَبَا شعبُه أن يردَّ الصُّبَا نشأ طُ جديداً وفكرٌ جديد يصوغان من حجرٍ لؤلؤاً تأمّلت روما وقد جددت فقلتُ : أيّا ربٍّ ماذا أرى حياة تُقرُّ عيونَ الشُّيوخ فيا للتَّجَلِّي الذي هاهنا وهل تستطيعُ رؤوس الرُّهور سماؤك يا نعمةَ الثَّائرينَ وروحك تنتظرُ العازفينَ</p>	<p>يشرُّهما أَمَلُ الثَّائِرِ إلى مجدٍ أَمَّتِه الغابِرِ وهذان معجزةُ القادرِ وتاجاً لحاضره الرُّاهرِ بتجديدها حيرةَ الناظرِ وهذا الهُدَى خطأ أم صواب وتذكي الطُّموحَ بصدرِ الشَّبابِ ويا للحماسةِ ماذا تُذيع أن تتوارى بفصلِ الرِّبيعِ تهرُّ أغانيك أقطارها فَمَنْ سيهيِّجُ أوتارها</p>
--	--

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي الثرية :

نظم إقبال هذه القصيدة حوالي عام ١٩٣١م حين زار موسوليني بعد عودته من لندن وانفضاض مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند ، ويبدو أنه نظمها قبل استيلاء هتلر على السلطة .

وفي قصيدة تالية يقارن إقبال بين عمل موسوليني وبين أعمال السياسيين الإنكليز بهذه العبارات :

بحجة نشر الحضارة سوَّغتم أمس تلك المذابح الجماعية والمجازر كما يسوغها اليوم موسوليني .

وعن غزو الحبشة دان إقبال مرة أخرى رئيس الحكومة الإيطالي وكتب قصيدة عنوانها :
(جثة الحبشة) مايلي :

وأسفا مرآة شرف الكنيسة حطمتها روما إلى ألف كسرة أيها الحبر الأعظم ، ياله من حادث مروع (الأصل) وانظر فيما يتعلق بغضب إقبال على موسوليني مجلة فكر وفن

عدد ٣٢ ص ٧٤ - ٧٥ .

ومن ذا الذي صاغَ هذا الجمال وباركَ بالحبِّ تلكَ النفوس
هو الحرُّ ذو النظراتِ التي بها تَقْتَدِي نظراتُ الشُّموس

سؤال

قال درويشٌ أبيُّ يسألُ الله تعالى
أنا لا أشكو إليك الفقرَ والعيشَ المحالاً
لكن اللهم قل لي أنتَ أرسلتَ الملائك؟
ليقيموا سلطنةَ الأوغاد في ظلِّ سمائك

إلى فلاح البنجاب

أيُّها الفلاحُ ما سرُّ الحياة؟ ما الذي يكتُمه هذا المداز
أنتَ فيها منذُ آلاف السنين خلفَ محراثٍ يُغَطِّيكَ الغُبار
خمدتَ نارك في الطين الذي علقْتَ أكوامُه في نعلِكَ
قلِّ لمن أذن في هذا الصُّباح أرني الله الذي في فعلِكَ
لم يقل للناس حيٍّ للفلاح إنَّما حيٍّ على الفلاح قال
هو يدعوهم إلى مآدبةٍ أنتَ أرسلتَ لها كلَّ السَّلال
كيف ترضى أن يكونوا هكذا وهُمُ مثلكَ من حماة طين
إنَّ تبغَ الخضِر لا يبلغُه وجلُّ من ظلماتِ المعتدين
ليس يُجدي الهَمُّ في شيءٍ إذا لم تَضَعِ ذاتك تحتَ التجرِبَة
حطَّم الأَصنامَ يوماً واحداً لا تخفُ معبدها أن تخرِبَه
حطَّم الأوثانَ أوثانَ العروق واهدمِ الأصنامَ أصنامَ القبائل

وانضُ أغلالَ التقاليد التي تتعنى خلفها من غير طائل
لا تقل أنشدُ في الدين خلاص وامنح الكهان روحانيتَه
إنَّ دينَ الله في الدين الذي يهبُ الإنسانَ وحدانيته
أحفظَ القلبَ الذي تحملُه لا تدغُه تحتَ أقدام العباد
الذي يزرعُه في صدرِه يجدُ المتعة أيامَ الحصاد

نادر شاه ملك الأفغان

في حضور الحقِّ كان الخدثُ الفرْدُ الكبير
غيمَةً تحملُ في أعماقها روحَ الرُّهور
رأتِ الفردوسَ في الدُّرب فقالتُ للسماء^(١)
أه ما أجملَ هذا هاهنا نلقي الدلاء
فأجابتها وقالت نترك الهند لقابل
أدركي عشياً جديداً ظمئاً في أرضِ كابل
وعسى نادرُ يأتي ليرى هذي الحقائق
علَّه يغسلُ بالدمع جراحاتِ الشَّقائِق^(٢)

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « ربما كانت الهند التي مرَّ بها نادر شاه قادماً من باريس إلى إيران لمحاربة (بجه سقا) الذي خلع أمان الله خان عن عرشه ، هي المقصودة بهذا الفردوس ، وهم يرددون (الهند جنة نيشان) يعني إنَّ الهند تشبه الفردوس كما يقولون عن روما : إنها المدينة الخالدة » .

(٢) جراح شقائق النعمان هي آلام الأفغان .

حلمٌ تَتَرِي (١)

كلُّ شيءٍ حولنا يَسْلُبنا مجدنا حتى سَجَاجيدُ الصَّلَاةِ (٢)
 أنا لا أَسْتَاءُ أن تَزْمُقَنَا شِزْراً أَعْيُنُ أولادِ الطِفْأَةِ
 بَلَيْتْ أثوابُنَا أجمعُهَا جَبَّةُ الشَّيْخِ وجلبابُ الأَمِيرِ
 ما الَّذِي أَفْعَلُهُ في وحدتي ما الَّذِي يَفْعَلُ إيمانِي الكَسِيرِ

وصية « خوش حال خان » (٣)

يا أمة الأفغان شَدُّوا بَعْضَكُمْ بعضاً وكونوا سَادَةً الأفغانِ
 ما شَاهَدَتْ عَيْنَايَ أَجْمَلَ مَنْظِراً كَجَمَالِ صَيَّادِيكُمْ الْفَتِيانِ
 يرمون في بحر السَّمَاءِ شِبَاكَهُمْ (صيدُ النُّجُومِ رِياضَةُ الشُّجْعَانِ)
 أطفالُ كوهستان وعدُّ مفعمٍ متوائبٌ في قلبِ كوهستانِ
 ليسوا أَقْلٌ مِنَ المَغُولِ شِجَاعَةً ليسوا بأَدْنَى مِنْهُمْ في شَانِ
 أنا (خوش حال) أَحَبُّ قَبْراً إِنْ أَمْتُ فوقَ الجبالِ مَمَرَّدُ البُنْيَانِ
 لا رِيحَ تَصْفَعُهُ بِنَقْعٍ خَامِلٍ مَرَّتْ عَلَيْهِ خِيُولُ مَغْلِسْتَانِ
 ما تَبَقَّى غَيْرُ جَمْرٍ هَامِدٍ يَتَخَفَّى تَحْتَ أَكْوَامِ الرَّمَادِ

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « إذا كان إقبال يؤيد ثورة « خوش حال خان »

فليس من الغريب أن يؤيد تطلعات التتر في تركستان إلى الاستقلال .

(٢) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « يعني أن الاتقياء ينبهوننا » .

(٣) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

من المهم أن نذكر أن إقبالاً رغم نزعته للجامعة الإسلامية يمدح ثائراً على الإمبراطورية

المغولية في عهد (أورنك زيب) وإقبال لا يريد فرض الوحدة من الخارج ولكنه يريد

وحدة عفوية تنبثق من الداخل .

أَيُّ رِيحٍ فَوْقَهُ لَوْ عَصَفَتْ
 غَطَّتِ الرِّيحُ بُخَارِي كُلِّهَا
 (وَتَطَلَّغْتُ لِنَفْسِي فَإِذَا
 بَيْنَمَا أَنْدَبُ حَظِّي فَجَاءَ
 وَإِذَا مَرَقْدَ تِمْوَرْلَنِكَ قَدْ
 كَانَ نُورًا أَيْضًا فِي صُفْرَةٍ
 قَالَ لِي : يَا أَيُّهَا الْبَاكِي أَنَا
 إِنَّ بَابَ اللَّهِ مَفْتُوحٌ وَإِنْ
 أَنْتَ مِنْ أَبْنَاءِ طُورَانٍ وَإِنْ
 فَهَبِ الذَّاتَ لَهَيْبًا آخِرًا
 أَنَا حَطَمْتُ بِهِذِينَ الْجِيُوشَ

جَعَلْتُ مِنْهُ حَدِيثًا لِلْعِبَادِ
 وَسَمَرَقَنْدَ بَلِيلٍ قَاتِمٍ
 أَنَا فَصٌّ مَالَهُ مِنْ خَاتَمٍ ^(١)
 زَلَزَلْتُ أَرْضَ سَمَرَقَنْدَ السَّمَاءِ
 بِدَدَ اللَّيْلِ بِسَيْفٍ مِنْ ضِيَاءِ
 كَضِيَاءِ الشَّمْسِ مِنْ قَبْلِ الْأُفُولِ
 رُوحُ تِمْوَرْلَنِكَ فَاسْمَعْ مَا أَقُولُ
 سَدَّتِ الْأَيَّامُ أَبْوَابَ التَّنَزُّ
 فَرَّقَتْ أَبْنَاءَ طُورَانِ الْبَشَرِ
 وَبَرِيقًا ثَانِيًا مِنْ مَقْلَتِكَ
 لِمَ لَا تَخْلُفْنِي فِي أَمَّتِكَ

الحالة النفسية والظرف

الرَّأْيُ بَعْدَ شَجَاعَةِ الشَّجْعَانِ
 إِنْ كُنْتَ يَقْظَانًا فَأَنْتَ مَظْفَرُ
 كُلِّ الْحَيَاةِ عَلَى اخْتِلَافِ ظُرُوفِهَا
 فِي كُلِّ وَقْتٍ لِلْمَسَافِرِ جِدَّةٌ
 كَلِمَاتُنَا مَعَ أَنَّهَا لَمْ تَخْتَلِفْ
 فِي سَجْدَةِ الْجَنْدِيِّ نَلْمَحُ غِبْطَةً
 هُوَ مُسْلِمٌ لَكِنْ وَهَذَا مُسْلِمٌ
 لِلنُّسْرِ كَالشَّاهِينَ جَوْ وَاحِدٌ

هِيَ أَوَّلُ وَهُوَ الْمَحَلُّ الثَّانِي
 وَالْحَالُ خَيْرُ ذَخَائِرِ الْإِنْسَانِ
 ظِلٌّ تَوَلَّفَهُ ظُرُوفُ الْحَالِ
 وَمَنَازِلُ الْقَلْبِ الْمَقِيمِ خَوَالِ
 لَا فِي مَعَانِيهَا وَلَا فِي لَفْظِهَا
 لَيْسَتْ كَسَجْدَةِ نَاسِكٍ فِي وَعْظِهَا
 مَا زَادَ عَنْ قَرَائِنِهِ قَرَائِنُهُ
 لَكِنْ لِكُلِّ مِنْهُمَا طَيْرَانُهُ

(١) تعليق إقبال : بيتٌ لشاعر مجهول ربّما أورده الطوسي في شرح الإشارات .

أبو العلاء المعري

يقال : إِنَّ المعرِّي لم يكن أبداً
يقالُ : كان نباتياً بمذهبه
شوى له مرةً مستهزىءٌ حَجَلاً
لكنَّ شيخَ اللُّزوميَّات حين رأى
وقال : يا أيُّها المسكينُ ما اقترفتَ
لو كنتَ بازاً لأعطوك الدَّجاجِ فِدَى
لم تُلقِ بالكِ للأديانِ إذ وَعَظْتَ
اللهُ سَحَرُ لالأقوى خلائقه

ليأكل اللحم لا يلوي على دين
وليس يقتاتُ إلا من يد الطين
يريد يلقاهُ فيما اختار مُرتبكا
شناعة السيخ ألقى فوقه وبكى
يداك حتَّى دَخَلْتَ النَّارَ بالسَّيخِ
وما لجأتَ إلى شَجْبي وتوبيخي
وللطبيعةِ إذ قالت لطالبتها
وقدَّر الموت للمستضعفين بها

سينما

أيعـودُ آزرُ مرةً أخرى
أصنامُها في صَدْرِ صالـتها
ما كان يُنحِتُ قبلُ من صنم
صاغت لنا الدُّنيا لنعبدها
ما كان فنّاً فنّه أبداً
فتفحَّصِ السِّينما الَّتِي ظَهَرَتْ
هو صاغُ أصناماً لعالمه
وتصوغُ صالـتها لعالمنا
ما في زوايا المعبدَيْنِ سوى
إن لم يَلِ التَّوحيـدُ أمرهما

ويذيعُ في السِّينما معانيه
عادت له بِرَواجِ ماضيه
جاءت تُريدُ تبِعُه فينا
وثناً وصاغَ لِغَضْرِهِ الدُّنـيا
ما كان غيرَ طقوسِ أوْثانِ
هي في الحقيقةِ ثوبُه الثَّاني
ما صاغَ من طينٍ وفخَّارِ
أصنامَها من مارجِ النَّارِ
هذا الرَّمادِ وذلكَ الطِّينِ
لم يتركها شرفاً لمسكينِ

إلى جماعة « بيرزاده »^(١) في البنجاب

جزتُ البلاد إلى ضريحٍ مجدِّدٍ^(٢)
وعلى التُّرابِ من الضُّريحِ تَأَلَّقُ
لا غرورَ للأسرارِ تَلْمَعُ هاهنا
من ردِّ جاهنكير عن يده وما
هذا المكانُ من الوجودِ ضريحه
الهندُ تعرف أرضها وسماؤها
هو أحمدُ المختارِ لِلْمَحَنِ التي
لما وقفتُ على ضريحِ مُجَدِّدٍ
فشكوتُ دروشةَ الزَّمانِ له وما
فأجاب : طرفك ليس يبصرُ قلتُ : لا
من أين أَلَمَسَ البصائرُ إنَّني
فأجابني ذَهَبَ الذين عرفتَهم
لا تَكْتَرِثُ منهم بصاحبِ شطحةٍ
أرني قلنسوةً لِدَزْوِيشٍ لهم
ذهبوا مع الفقهاء خلف ملوكهم

ووقفتُ ليلي نادباً ونهاري
غَبَطَتْهُ في قَصْرِ السَّماءِ جواري
فهاهنا توارى صاحبُ الأسرارِ
ذَلَّتْ عمامتُه لوصمةٍ عارٍ
وهنا يقيمُ معلَّمُ الأحرارِ
كيفَ افتداها من جحيمِ النارِ
نالتُ شريعةَ أحمدَ المختارِ
دار الحديثُ عن الزَّمانِ الدائرِ
ألقاه من شوقي وعزمي الخائرِ
هو مبصرٌ لكنْ بِغَيْرِ نفوذٍ
أصبحت في عيني كالمنبوذِ
لم يبقَ سرٌّ في دَمِ البنجابِ
مجنونةٌ ولو ارتدى جلبابي
لم ترضَ قنزعةَ العمامةِ جارا
لم يتركوا لذوي القلوبِ منارا

سياسة

تقضي السياسةُ أن نُحدِّدَ أولاً أدوارنا في لعبة التَّيجانِ

(١) بيرزاده : تعني عضواً في طريقة رئيس جماعة روحية ومؤسسو هذه الطريقة كانوا

دراويش أتقياء ، ولكن أولادهم انقلبوا إلى المادِّيِّين .

(٢) يريد به إقبال مجدِّد الألف الثاني الشيخ السَّرهندي .

لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدقُ هذا اختيارُ اللّاعبِ الشّيطانِ
إنّ البيادق إن أعاقت نفسها دلّث على شاهِ بلا سلطانِ

التّجرّد

ليس التّجرّد أن تقيمَ على الطّوى وقواك خائرةً وبيتك مُغدمُ
فَمِنَ التّجرّدِ ما يطيحُ بأهله ومِنَ التّجرّدِ ما يعرّ ويكرمُ
أنا لم أجد عند الملوك تجرّداً أحلى وأجدى مِنْهُ في شابور
شابورُ في صنع الإمارة مسلمُ فتعلّموا الإسلامَ من شابور

الذّات

لا تَرْضَيْنَ فضةً بالذّاتِ أو ذهباً ولا تبغِ بِشَرارِ ذلكِ اللّهبِ
إليك ما قال (فردوسي) الذي كشفتُ للفرس أقواله الأستارَ والحُجُبِ
(المالُ يوجدُ حتّى حينَ تَفْقِدُهُ فلا تكنِ وَقِحاً إن رمتَه طلباً)^(١)

فراق

النُّورُ حول الشمسِ يزهو إذ يفارقها صباحاً غَزَلْتُه من ذهبِ الحريرِ فصار للدنّيا وشاحاً
والكـونُ مُغْتَبِطٌ بما جَلَبَ الفراقَ من التّسلي

(١) شاهد من ديوان الفردوسي بالفارسية .

مترنحٌ في صمته نشوانٌ من مُتَعِ التَّجَلِّي
هل تعرف الأنهار والأفلاك أسرار التشوُّف
هل يرتوون من الفراق ويكتوون من التلهُّف
أنا قسمتي قلقُ الفراقِ سواه مآلي من مُنى
هو في الصِّميم من الثُّرابِ وما الثُّرابُ سوى أنا

الدَّير

لا العصرُ للقولِ بالألغاز مُختلٌّ ولا أنا أستطيع اليوم إلغازا
مضى الذين إذا قالوا لميتهم قم ، قامَ فيهم بإذنِ الله واجتازا
فما الذي بعدهم في الدَّير تفعله جماعةٌ بمذاقِ الدَّير كَفَّارُ
أخِذْمةَ لقبورِ القوم ما بَرِحوا أم أنَّهم لقبورِ القوم حُفَّارُ

شكوى الشَّيْطَان

قال إبليسُ الرَّجِيمُ يشتكي الله تعالى
ما لِنَجْلِ الطَّيْنِ هذا فوقَ ناري يتعالى
هُوَ ذا آدمَ بعدي هُوَ ذا كَومِ الثُّرابِ
واهِنُ الرُّوحِ كِيرُ الكِرْشِ مَوْفُورُ الثَّيابِ
عقلُه في الأوجِ لَكِنْ قلبُه يَلْفِظُ رُوحَه
ما لقلبي غيركَ اللهمَّ لو تأسو جروحَه
كَلِّمَما يجعلُ منه الشرقَ معيارَ النَّجَاسَةِ
لا تبالي حكماءُ الغرب أن ترفَعَ رأسُه

حورُ فردوسِكَ تخشى عالمَ الفردوسِ يُقْفِرُ
جنتُكَ اللهمَّ بالحُجَّةِ كي تَرْضَى وتغْفِرُ
فسَّرَ الغربُ السَّديمَ قراطيَّ تَزَكِّي لِسُجُودي
لم يعدْ من بعده في الأرض معنى لوجودي

دمٌ في الشرايين

لا تَخْشَ نيلَ الشَّوْءِ من رجلٍ إنْ كانَ فيه دمٌ وناموسُ
وارغبْ عن المحرومِ من دمه فالخيرُ من كَفَيْهِ ميؤوسُ
رجلٌ يحرِّكُ قلبَه دُمُهُ لا الفقرُ يُخزِنُهُ ولا الجودُ
إياكَ من لم يَهْدِهِم دُمُهُم سودُ الدِّماءِ عقولُهُم سودُ

الطَّيران

تَشَكَّتِ التينةُ للعُصفورِ من معبدِ الألوانِ والعُطورِ
قالتْ له : يا أيُّها المغرَّدُ حتَّى متى يكفرُ هذا المعبُدُ
لو أنَّ لي أجنحةً وعَوْنًا أغرقتُ بالجمالِ هذا الكونا
أجابها العصفورُ في وداعةٍ إجابةً في منتهى البراعةِ
قال لها : أيتها المسكينةُ كيف تطيرين وأنت تينةُ
قولُكَ لا يَنِمُّ عن غباءٍ وإنَّما يدعو إلى الرِّثاءِ
أتدَّعين الظُّلمَ في عينِ العدلِ وأنتِ أخرى من أريتُ بالعدلِ
الطَّيرانِ سرُّنا المحجوبُ لا يستطيعُ نيلَه مجذوبُ

معلم المدرسة

أمام روح التلاميذ التي اختنقت بيني المعلم هذا صرخ فخار
الحق ما قال كاغاني^(١) ويسخرني ما قال من بيت شعر بذا شعاري
(إذا الجدار أمام الشمس ترفعه فلن ترى نورها في باحة الدار)

الفيلسوف

يعرف الفيلسوف كيف يطير وهو في العلم غاية في البراعة
جسد فارغ وعلم غزير لو أضافوا إليه روح الشجاعة
يرسم النسر في السماء دوائر كالشواهين والطيور الحرائر^(٢)
لا تغررك المظاهر هذي فهو يخفي نقيضها في السرائر
هي تقتات من إوز وبط وهو يقتات جيفة وفطيسة
أي معنى له إذا حرموه متعة الانقضاض فوق الفريسة

(١) كاغاني : هو شاعر فارسي من القرن السابع عشر الميلادي .

(٢) النسر : رمز لمتوسطي الشجاعة عند إقبال فهو لا يصل إلى رتبة الشاهين لأنه يأكل من فرائس غيره ، إلا أن قيمته تتجلى في أنه مهما كان من الغربان على الجيفة فإنها لن تجد غير الانسحاب إذا لمحت قدوم النسر إلى الساحة ، وستقف ترمقه من بعيد مترقبة ما إذا سيبقي على شيء لها أم لا .

الشَّاهِين (١)

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى
ذلك العالمُ الذي زعموه
أنا نَجَلُ الصَّحراءِ والرُّهْدُ ديني
أَجْهَلُ الزَّهَرِ والنَّسِيمِ وما في
ورجالُ البُستانِ تغري ولكن
أين مجدي إذا شقيتُ لجوعٍ
بافتراسي أصونُ عزَّةَ وجهي
كلُّ طيرٍ له من الأرض عَشٌّ
كيف يَني قلندر الطَّير عَشاً
ثم أَلْقَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ ورائي
ليس يقاتُ غيرَ حَبٍّ وماءٍ
وهما في سَجِيَّتِي ودمائي
لوعةُ العندليبِ عند المساءِ
ليس تُغري منشأً في العَراءِ
وأذَلَّتْ حَمَامَةٌ كبريائي
وأروِّي حِماسَتِي وإِبائِي
وأنا هاهنا حليف مضايِي
وهو الفَرْدُ في رِحابِ السَّماءِ

-
- (١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
الشاهين : الطَّير المختار عند إقبال لأنه :
١ - لا يَني لنفسه عَشاً يعني أنه درويش .
٢ - يطير إلى الأعالي .
٣ - ليس بخيلاً ، ويقنع بالزهد .
٤ - لا يأكل مما يقنصه الآخرون ، يعني أنه يصون كرامته .
وينبغي أن يفهم من البند الرابع أنه رمز للمجتهد الذي يعاف التقليد كما يعاف الشاهين
فريسة غيره .

المريدُ الثائر (١)

أنا فانوسي الذي أمْلِكُه شمعةٌ في قصعةٍ من خَرْفِ
 إن أقمْتُ الليلَ ذابْتُ وإذا هبَّتِ الرِّيحُ عليها تنطفي
 ما الَّذي يفعلُه سيّدنا بالمصاييح التي حول المزار
 ثمَّ ما معنى مزارٍ وضريح وستورٍ وعطُورٍ وجَمَّار
 يا إلهي كم لنا من كعبةٍ كم لنا من صنمٍ في الحرم
 وقفاعاتٍ قبابٍ فوقهم جعلتنا ضحكةً للأمم
 ليس ما يعطى لهذي الأولياء من نذورٍ باسمهم إلَّا رَبَّا
 المرابي دائمًا مختبئٌ ووليُّ القوم في القبر اختبأ
 أتراهم سلكوا كالأولياء إنَّما هم أولياء بالوراثه
 ملأ الغربانُ أوكار النُشور خلَّصَ اللهُ من القوم تراثه



آخر وصايا هارون

قال الرّشيد لابنه يوصيه : ها أنذا اختضرتُ
 ستمرُّ بعدي أنت في هذا الطّريق كما مررتُ
 أبنيَّ إنَّ الموتَ نورٌ في عيون المؤمنين

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن قصيدة إقبال هذه لا تتناقض مع وقفة إقبال على ضريح سنائي ومجدّد وقوله : سيكون ضريحي كعبة الأحرار ، وأمثال ذلك ، فهو لا يريد هنا أن يقرر عقيدة ما ، ونستطيع أن نفهم مراد إقبال من قصيدته السابقة (الدّير) .
 وفي مناسبة أخرى يقول إقبال : إنّ الصوفية حين تفسر تفسيراً خاطئاً وتقدم إلى الجماهير غير المتعلمة من خلال الأشعار المحببة ؛ يمكن أن تكون أكثر خطراً من حشود جنكيزخان .

والنُّور هذا لا تشاهده عيون الكافرين

إلى عالمِ نفس

دع عنك فكرَكَ فالإعصار جرَّارٌ وليس تجدي ببحر الذَّات أفكارُ
وأين أنتَ بهذا البحر من جُزرٍ صغيرة ما أتاها قطُّ بخَّارُ
إن لم تشقَّ كموسى ثوبَ لُجَّتِها فحطُّك الصَّمْتُ إن وافاك إعصارُ

أوربة

مقتبسة عن نيتشة

أشباه (شيلوخ)^(١) في المِرْصاد واقفةً مَكْرُ الثَّعالب يفري قوَّةَ الأسدِ
لا بدَّ تسقطُ أوربة إذا نَضِجَتْ في كيس شيلوخها المجهولِ للأبدِ

الأسدُ والبغلة

قالَ للبغلة يوماً أسدٌ أنتِ حقاً لكِ سرٌّ من أبوكِ
فأجابته ألا تغرِّفني أنا خالي فخرُ إصطبلِ الملوكِ

(١) كذا في الأصل ويبدو أنه تحريف (شيلون) وستكون الفكرة أشدَّ إغراءً إذا كنا مصيبين في رأينا . انظر مادة شيلون في قاموس الكتاب المقدس .

فكرة حرّة (١)

ألا ترثني لعصفورٍ عن الطَّيران قد مُنعا
إذا استخفى وحاول أن يطيرَ لوخده وقعا
يحاولُ أن يكون فؤاده بيتاً لجبريل
وليس له من الطَّيران غير القال والقيـل
هل العصفورُ بين الشُّوك كالعصفور في الجنّة
بربك هذه حرّيةٌ في الفكر أم جنّة
فقل لمفكّر حرٍّ أضلَّ الفكرُ وجدانه
تعالى الله أن يلهم ما يُبطل قرآنه
وهل يهدم مجد الشَّعب غير الفكرة الحرّة
وهذي الفكرة البلهاء سيّدها (أبو مرّه)

النَّسرُ والنَّملة

قالت النَّملة للنَّسر الذي
أنت ترعى في بساتين النُّجوم
قال : لكن أنا لا أبحث عن
لست ألقى نظرة حتّى ولا
مرّ يوماً ما على وادي النمل
وأنا في شقوة العيش المُذل
مؤني مثلك في هذا التُّراب
للسموات التي فوق السَّحاب

●●●

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

نرى أن الشاعر لا يقصد الفكرة الحرة على الإطلاق وإنما يقصد (فكرة حرة معينة) هي
كما ورد في دائرة معارف لاروس مادة LIBRE (الفكرة الحرة هي رأي المفكرين
الأحرار . والمفكر الحرّ : هو الذي يفكر ويتحدث في حرية في موضوع الدين) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
محمد إقبال عند رجال الفكر والدعوة	١٣
محمد إقبال - حياته - شخصيته - فكره - فلسفته	١٧
أسرته وولادته	١٩
نشأته ودراسته	١٩
نبوغه في الشعر	٢٠
رحلاته	٢٣
وفاته	٢٤
آثاره في الشعر والنثر	٢٥
العوامل التي كونت شخصيته	٢٧
الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال	٤٣
فكر محمد إقبال	٦٣
فلسفة إقبال	٧٦
تفسير اصطلاحات في الديوان	٨٣
الديوان الأول : صلصلة الجرس	٨٧
النشيد الإسلامي	٩١
الشكوى وجواب الشكوى (حديث الروح)	٩٣
جواب الشكوى	١٠١
الديوان الثاني : الأسرار والرموز	١١١
محتوى الديوان	١١٥
خلاصة المقدمة التي كتبها محمد إقبال للديوان	١١٧

الموضوع	الصفحة
خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون	١١٩
دوام الذات أو الشخصية	١٢٠
تربية الذات	١٢١
القسم الأول : أسرار إثبات الذات	١٢٥
تمهيد	١٢٧
نظام العالم وتسلسل حياة أعيان الكون	١٣٣
حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها	١٣٦
الذات تتحكم بالمحبة والعشق	١٣٨
الذات تضعف بالسؤال	١٤١
الذات تسخر قوى العالم الظاهرة والباطنة	١٤٣
نفي الذات من مخترعات الأمم المغلوبة	١٤٤
آراء أفلاطون وأثرها في تصوّف المسلمين وآدابهم	١٤٧
في حقيقة الشعر وانسلاخ الآداب الإسلامية	١٤٨
مراحل التربية الذاتية	١٥٣
المرحلة الأولى : الطاعة	١٥٣
المرحلة الثانية : ضبط النفس	١٥٤
المرحلة الثالثة : النيابة الإلهية	١٥٥
فتى مرو وبغي الأعداء	١٦٠
قصة الطائر الذي أجهده العطش	١٦٢
قصة الألماس والفحم	١٦٣
قصة الشيخ والبرهمي	١٦٤
حياة المسلم لإعلاء كلمة الله	١٦٧
نصيحة مير نجاة لمسلمي الهند	١٦٩
الوقت سيف	١٧٤
دعاء	١٧٧
القسم الثاني : رموز نفي الذات	١٨١

الموضوع	الصفحة
محتوى الديوان	١٨٣
تمهيد : مهداة إلى الأمة الإسلامية	١٨٧
في معنى ارتباط الفرد والأمة	١٩٠
الملة تنشأ من إخلاص الأفراد	١٩٢
أركان الأمة الإسلامية	١٩٥
الركن الأول : التوحيد	١٩٥
التوحيد دواء العلل الخبيثة	١٩٧
محاورة السهم والسيف	١٩٩
قصة السلطان عالمكير والأسد	٢٠٠
الركن الثاني : الرسالة	٢٠٢
مقصود الرسالة المحمدية	٢٠٤
قصة أبي عبيد وجابان	٢٠٥
قصة السلطان مراد والعمّار	٢٠٦
الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد	٢٠٧
الوطن ليس أساس الأمة	٢١٠
الأمة المحمدية ليس لها حدود زمانية	٢١١
شريعة الأمة المحمدية القرآن	٢١٤
التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد	٢١٦
كمال سيرة الأمة من اتباع الشرع الإلهي	٢١٨
حسن سيرة الأمة من التأدب بالأداب المحمدية	٢٢٠
مركز الأمة الإسلامية البيت الحرم	٢٢٢
مقصد الأمة الإسلامية حفظ التوحيد ونشره	٢٢٥
توسيع حياة الأمة بتسخير قوى العالم	٢٢٨
كمال حياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد	٢٣٠
بقاء نوع الإنسان بالأمومة	٢٣٣
سيدة النساء فاطمة الزهراء	٢٣٥

الموضوع	الصفحة
خطاب إلى المرأة المسلمة	٢٣٦
خلاصته مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص	٢٣٧
شكوى إلى من أرسل رحمة للعالمين	٢٤٤
الديوان الثالث : رسالة الشرق	٢٤٩
محتوى الديوان	٢٥٢
مقدمة محمد إقبال	٢٥٣
القسم الأول : شقائق الطور	٢٦١
القسم الثاني : أفكار	٢٧٥
القسم الثالث : الخمر الباقية (غزليات)	٣٠٥
القسم الرابع : نقش الإفرنج	٣٢٣
القسم الخامس : رقائق	٣٣٧
اللمعات	٣٤١
الديوان الرابع : زبور العجم	٣٦٩
محتوى الديوان	٣٧١
تمهيد	٣٧٣
الخاتمة	٤٠١
الديوان الخامس : جناح جبريل	٤٠٣
محتوى الديوان	٤٠٦
القسم الأول	٤٠٧
القسم الثاني	٤٢١
القسم الثالث - في مسجد قرطبة	٤٦٩
النخلة الأولى	٤٨٣
إسبانيا	٤٨٥
دعاء طارق	٤٨٦
لينين أمام الله	٤٩٠
الملائكة تغني	٤٩٣

الموضوع	الصفحة
أوامر الله للملائكة	٤٩٣
في أرض فلسطين	٤٩٥
الفراشة واليراعة	٥٠٣
وصية إقبال لولده جاويد	٥٠٤
تسول	٥٠٤
الملا والفردوس	٥٠٥
الدين والسياسة	٥٠٥
الأرض لله	٥٠٦
رسالة إلى شاب	٥٠٧
نصيحة	٥٠٨
شقائق النعمان في الغاب	٥٠٨
كتاب الساقى	٥١٠
الزمن	٥١٩
آدم يغادر جنة عدن	٥٢١
روح الأرض تستقبل آدم	٥٢١
المرشد والمريد	٥٢٣
جبريل والشيطان	٥٢٩
الأذان	٥٣١
الحب	٥٣٢
رسالة نجم	٥٣٣
إلى جاويد	٥٣٣
الدين والفلسفة	٥٣٣
رسالة من أوربة	٥٣٤
على قبر نابليون	٥٣٥
موسوليني	٥٣٦
سؤال	٥٣٧

الموضوع	الصفحة
إلى فلاح البنجاب	٥٣٧
نادر شاه ملك الأفغان	٥٣٨
حلم تترى	٥٣٩
وصية خوش حال خان	٥٣٩
الحالة النفسية والظرف	٥٤٠
أبو العلاء المعري - سينما	٥٤١
إلى جماعة بيرزاده في البنجاب - سياسة	٥٤٢
التجدد - الذات - فراق	٥٤٣
الدير - شكوى الشيطان	٥٤٤
دم في الشرايين - الطيران	٥٤٥
معلم المدرسة - الفيلسوف	٥٤٦
الشاهين	٥٤٧
المريد الثائر - آخر وصايا هارون	٥٤٨
إلى عالم النفس - أوربة - الأسد والبغلة	٥٤٩
فكرة حرة - النسر والنملة	٥٥٠
فهرس الموضوعات	٥٥١
